



الحكمة
والصراع السلطوي
في الاسلام

بحث موضوعي ناقد

حسن اسماعيل

الحكم والصراع السلطوي في الإسلام

التشريع الدولة السلطة السياسية

مقدمة ومدخل

أولا

يصادف الإعداد لبحثنا هذا مرور مائة عام بالكمال والتمام على صدور أكثر كتاب أثار ضجة في القرن العشرين وهو الإسلام وأصول الحكم للقاضي المصري علي عبدالرازق هذا الكتاب أثار جدلا كبيرا حول موضوع الخلافة والدولة والحكومة في الإسلام وكان من نتائجه طرد مؤلفه من الأزهر ومن سلك القضاء وبالتأكيد إننا سنأخذ منه ما صح ونرد بموضوعية على ما جاء به من مغالطات و سنورد منه الكثير من الأدلة والنصوص .

إن أول أمر اختلف فيه المسلمين بعد وفاة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام كان مسألة الحاكم أو الخليفة وهي تسمية تم الاتفاق عليها فيما بعد وتعني استخلاف الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في سلطاته الزمنية ولقد غير الخليفة الثالث عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقب الخليفة واستبدله ب لقب (أمير المؤمنين) وهي تسمية مبتكرة أوجدها لحل مشكلة ألقاب الخلافة المتسلسلة فأبو بكر خليفة رسول الله وعمر بن الخطاب خليفة خليفة رسول الله وهكذا سيتكرر الأمر عند الخليفة الثالث عثمان بن عفان ليصبح خليفة خليفة خليفة الرسول الكريم وهذا أمر لا يمكن تقبله والحقيقة إن صفة (أمير المؤمنين) تعطي انطبعا أوليا لنا بأن الأمر هنا يتعلق بالدولة الناشئة أو بسلطة زمنية أكثر ما يتعلق بالخلافة التي حملت طابعا دينيا وسنرى كيف تم اختيار الخليفة الأول وعلى أي أساس ؟

وفي كل مرة كان يخلف الخليفة خليفة آخر هناك طريقة جديدة في الاختيار وان كانت جميعها تتم وفق مبدأ (الشورى) من الناحية الشكلية وبالرغم من ذلك فأن هذا المبدأ نفسه لم يطول العمل به سوى عقدين من الزمن

ليستط وأبتكر بنو أمية طريقة مختلفة للحكم تقوم على أساس الحكم الوراثي والملك العضوض الذي بقي ساري المفعول في كل الخلافات الإسلامية المتعاقبة وحتى يومنا هذا .

فهناك إذن مشكلة أو إشكالية في الإسلام بل هي من أخطر المشاكل والمسائل لأنها تتعلق بالحكم والحاكم الذي هو من سيسهر على تطبيق أحكام الدين والحكم بالعدل بين المسلمين ويرعى مصالحهم وحياتهم وأمنهم بلادهم .

في كتابنا هذا سنسلط الضوء بدقة وموضوعية على هذه المسألة الخلافية والمصيرية وسنحاول قدر الإمكان فهمها وفهم أسباب الخلاف والنزاع والجدل حولها الذي هو مستمر ليومنا هذا.

ثانيا

هناك ثلاث مباحث أساسية لهذا البحث أولها القرآن الكريم باعتباره المصدر التشريعي الأول والثاني الدولة وما هي أركانها وكيف نشأت في عهد الرسول الكريم والمحور الثالث الخلافة والأمامة و السلطة والسياسة

إذا استطعنا أن نصل إلى توصيف حقيقي لمن له حق التشريع زمن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وشكل الدولة

النبوية وأصول الحكم فيها فان هذا يعني أننا وضعنا يدنا على مفهوم الدولة الإسلامي الحقيقي والحكم في الإسلام

القائم على العدل والمساواة لأنها النموذج الأول الشرعي والديني النظري والعملي للدولة الإسلامية وكل ما جاء بعدها

يشكل محاولات تطبيق هذا النموذج النبوي للدولة .

ثالثا

لقد توصل الفكر الإنساني اليوم لوضع ضوابط وقواعد للحكم تسمى بالقواعد الدستورية وجرى تقسيم السلطات إلى ثلاث تشريعية وقضائية وتنفيذية وأبتكر العقل الغربي نظرية الفصل بين هذه السلطات لمنع تركها وتجمعها بيد سلطة واحدة هي سلطة الحاكم وحينها سيصبح حكمه فرديا مزاجيا أي وفق ما وصفوه بالحاكم الفردي (الديكتاتوري) ولقد أثبت هذا التقسيم صحته في الشكل والمضمون فمن الناحية الشكلية وضع أسس لاختيار هذا الحاكم وجعل الشعب أو الجماهير كلها تملك الحق في ذلك ووضع طريقة عملية للتعبير عن هذا الاختيار ومن ناحية المضمون فإن هذه الضوابط والقواعد خلقت مجتمعا مستقرا ومتناسكا واحدا الجميع متفق على قوانينه ولم تترك المجال أمام أي خلاف أو اعتراض عليها سواء من الأفراد أو الهيئات الاعتبارية كالأحزاب والجمعيات والنقابات وغيرها .

والسؤال الذي طرحناه نحن وغيرنا هو هل يمكن استنباط واستخراج مثل هذه القواعد والإحكام التوافقية من النصوص القرآنية والسنة وتعبير آخر هل يمكننا تقنين الشرع الإسلامي في قواعد وقوانين وأنظمة تشبه التقنيات الوضعية الحديثة والمعاصرة التي تحدد مفهوم الدولة وشكلها وأساس العقد الاجتماعي السياسي ؟

الجواب على هذا السؤال هو نعم بالإمكان وضع واستنباط واستخراج مثل هذا التقنين الإسلامي أو على الأقل تصوره وهذا الجواب يتبعه تساؤلا آخر وهو لماذا لم نرى مثل هذا التقنينات في تراثنا السلفي والفقهي وان وجد فلماذا لم يتطرق إلى القواعد الدستورية أو الأحكام الناظمة للحكم والحاكم ولم يتطرق إلى أصول وعمل القضاء ولم يحل معضلة من له حق التشريع وسن التشريعات والقوانين فما نراه في تاريخنا الفقهي والسلفي هو من قبيل الاجتهادات والآراء فمثلا كتاب الشافعي الذي يعد أول الكتب في أصول الفقه اعتبر مذهباً منظماً إذ ضبط الأحكام تحت قواعد عامة تحكمها، ويعد لدى كثير من الباحثين وسطاً بين المنصرفين عن الرأي والمغالين فيه، وإن كانت طريقته

أقرب للمحدثين لم يتطرق أبداً إلى الأحكام التشريعية مجد ذاتها بل إلى من له الحق في تشريعها وأصول استنباط التشريعات وقواعده .

رابعاً

علينا أن نفكر بدقة ونقول هل قضية الخلافة والحكم في الإسلام وكل ما يمت إليهما بصلة هي قضية منتهية تاريخياً وأصبحت من الماضي ومن تراث هذه الأمة كما لا يمكن إحياءها من جديد لأن الزمن مختلف جذرياً عما كان عليه قبل أربع عشر قرناً وإن البحث فيها أصبح نوعاً من الترف الفكري ؟

موضوع بحثنا هنا لا يمكن الإجابة عليه بمثل هذا الاستنتاج الشكلي والسريع لعدة أسباب منها :

أولاً : إن الإسلام دين وكتاب وشريعة ومنهجاً وهو ليس ديناً مؤقتاً أو خاص بفترة زمنية أو جماعة بشرية بل جعله الله ليستمر حتى يرث الأرض وما عليها وفيه أمر مستمر ودائم لأتباعه ليحكموا بما أنزله الله وهذا أمر ليس خاصاً بالمسلمين بل هو يشمل أهل الكتاب أيضاً فلقد جاء في القرآن الكريم ثلاث نصوص تأمر كل أصحاب الرسالات الحكم بما أنزل الله .

فاليهود أمروا بالحكم بما أنزل إليهم التوراة بعد 15 قرناً من نزولها ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا التَّيْبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْرَوْا بآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : 44]

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة : 45]

والنصارى أيضا أمروا بذلك ﴿وَلِيُحْكُمَ أَهْلَ الْأَنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة : 47]

والمسلمون أيضا ﴿وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة : 49]

ويلاحظ إن هذه الأوامر لأصحاب الكتب السماوية نزلت تباعا في سورة المائدة .

فالحكم بما أنزل الله مسألة لا تسقط بالتقدم ومرور الزمن لذلك فنحن ملزمون اليوم كأمة الحكم بما أنزل الله كما كان المسلمون في بدايات الدعوة ملزمون بها تماما .

والحكم بما أنزل الله ليس عملا تعبديا شخصيا يكون فرضا على كل مسلم انما يتطلب كيانا إسلاميا منظما يقوم به ويفرض حكم الله والعمل به في التقاضي بين المسلمين وبيان شرعهم وشريعتهم وهذا الكيان المنظم وفق تعبير اليوم هو الدولة او مملكة او امارة لذلك فإن الدولة هنا تكون مستوجبة كأداة لا بديل لها لتطبيق وتنفيذ والحكم بما أنزل الله .

ثانيا : إن السلطنة العثمانية كانت تعتبر شكلا من أشكال الحكم الإسلامي وسقطت هذه الخلافة منذ قرن تقريبا وهو زمن ليس بعيد جدا ليتم نسيانه أو جعله من الماضي السحيق ولقد نشأ عن سقوطها تيار فكري إسلامي يدعو إلى عودة الخلافة ويطالب العرب متحدين لفعل ذلك ولقد تشكلت الحركات والأحزاب الإسلامية فيما بعد للدعوة إلى تحقيق شعار الحكم بما أنزل الله كحركة الإخوان المسلمون التي لعبت دورا هاما في الحياة السياسية في مصر وسوريا وحتى تركيا لاحقا .

ونحن هنا لسنا من دعاة الخلافة أو المؤيدين لاعادتها لكننا نقول بوجوب وجود كيان إسلامي منظم ومؤطر يؤسس على المنهج القرآني في الشورى يحكم المسلمين ويحكم بما أمر الله .

ثالثا : في عصرنا الحديث أقامت إيران جمهورية إسلامية وفق منهج الآمامة وهو لا يختلف عن مفهوم الخلافة إلا بمسألة من له الحق والأحقية والأولوية في تولى منصب الخليفة أو الأمام والخمينيون يعتبرون أنفسهم من أهل البيت الذي يرجع لهم وحدهم الخلافة والإمامة والحكم فالخائمني يعتبر نفسه اليوم وكيل الخليفة أو الأمام الغائب وما يهمننا هو إن قضية الحكم باسم الدين أو بما أنزل الله لم تنتهي حتى في زماننا هذا .

رابعا : لقد استطاعت جماعة الإخوان المسلمون التركية التي أسسها نجم الدين أربكان إن تحكم تركيا منذ ما يقارن ربع قرن بواسطة خلفه أردوغان فهو يمثل حكومة إسلامية في ظل دولة علمانية الدستور والنهج والقوانين وغير ذلك وهناك الكثيرين من الذين يطلقوا على أردوغان بأنه خليفة المسلمين بل أن الأحزاب المعارضة له والعلمانية منها تطلق عليه ذات التسمية وتتهمه بأنه يسعى لقلب نظام الحكم العلماني إلى إسلامي والشعب التركي المسلم نفسه منقسم حول هذه المسألة .

فقضية الحكم بما أنزل الله وأمور الخلافة والآمامة لم تنتهي كما توهم جميعا .

خامسا : إن المسلمين اليوم يشكلون 2 مليار نسمة موزعون في 57 دولة إسلامية هكذا أطلقت على نفسها (دول إسلامية) والإسلام كدين وكفكر ديني له بصماته الواضحة في عالم اليوم وهذا أمر لا يمكنه تجاهله وهؤلاء المسلمون يطمح أغلبيتهم في أن يروا دولهم موحدة تحت حكم إسلامي واحد ويسترجعون في ذآكرتهم ما حملته من فخر واعتزاز بالخلفاء الراشدين وعن إمبراطوريتهم البائدة .

خامسا

هناك من يدعي بدون دليل أو برهان من أن الإسلام في هذا الزمن لا يمكن تطبيقه فالعصر علمي وتقدمي ومدني وحضاري وهذا الكلام ما يخفيه أعظم وهو إن الإسلام دين متخلف بل دين قائم على العنف والإرهاب والتعصب فلا يمكن للبشر اليوم الذين يؤمنون بمبادئ الحرية والديمقراطية والمساواة وغير ذلك أن يقبلوا بحكم الإسلام .

ان هذه القناعة التي تشكلت عند بعض المسلمين والكثير من الغربيين المناوئين للإسلام كانت بسبب الممارسات التي أساءت للإسلام من قبل التيارات الجهادية السلفية وما قامت به من أعمال إرهابية وغير ذلك وكذلك بسبب الواقع التعيس الذي تعيش في المجتمعات الإسلامية والدين الحنيف غير برئ من تصرفات التيارات الجهادية السلفية وهو غير مسؤول عن تخلف المسلمين اليوم وأوضاعهم المأسوية وهذا التخلف والمصير له أسبابا عديدة لا مجال لذكرها في هذه العجالة .

لا يمكننا الا أن نقر ونعترف بالوضع الحرج الذي وصلنا اليه دينا وأتباعا وكان من نعم الله وفضله علينا ان جعل هذا الدين وأكملة وأتمه لنا وأختار لنا الإسلام منهجا وطريقا ولقد تغيرت وانقلبت حياة العرب بهذه الرسالة بل وتغيرت خريطة العالم كلها بها فمن الذين أوصلنا الى حالة الحرج والله يقول ما جعله حرجا علينا :

﴿ هُوَ أَحِبَّابُكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى

وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿ [الحج : 78]

ان الإسلام والمسلمين اليوم في حالة ضعف وفي موقع الاتهام والتهم ولقد تكالبت علينا الأمم وتكاثرت التهم وخارت
الهمم فهل من سبيل وطريقة للرد والدفاع عن ديننا واسلامنا والعودة به كما كان دين الأخوة والوحدة والسلام ورسالة
سمحاء للناس كافة ؟

سادسا

أن انتشار روح ومعايير الفلسفة المادية الاستهلاكية في المجتمعات العربية من جهة والبحث والنضال من أجل تأمين لقمة
العيش والمستقبل المجهول من جهة ثانية وإذ أضفنا إلى ذلك تنامي الفروقات الطبقية وازدياد إعداد الفقراء ليصبحوا
بألوف الملايين أدى ذلك كله بشكل مباشر وغير مباشر إلى تعويم الدين ، وخواء النفوس ، وهشاشة البنية المعرفية
والعقدية والأخلاقية عند الغالبية من الناس ، وبالتالي لم يعد الارتباط بالدين في أذهان ونفوس الناس قائما على أسس
متينة وموضوعية ، بل تحول ليصير مجرد تقاليد وطقوس وأعراف لا يجذب الإنسان إليها إلا تحت سلطان العاطفة
والإنس أو بداعي المصلحة .

وهذا بدوره ما جعل دين الناس هشاً قابلاً للتفريغ من مضمونه وسريع التآثر بالنقد والتشكيك تمهيدا لاستبداله بالرؤية
المادية للحياة على المستوى العملي والسلوكي بحيث لا يعود الله والقيم العلمية والأخلاقية حاضرة في طموحات وهموم
الإنسان إلا نزرا وبنحو خجول ومقصور على أفراد محدودين أو جماعات صغيرة قليلة . وهذا مجد ذاته تمهيد فعال
للهجوم النظري على الدين والارتباط بالآلة وتغييبه من النفوس والعقول بعد أن تم تغييبه من الواقع العملي والمعيشي إلا
لأغراض نفعية ضيقه وإن مفاد التهمة الموجهة للدين هنا أنه لم يعد يستطيع وليس بمقدوره ملئ الفراغ الروحي لدى
المسلمين كما كان عليه منذ عقود والسبب يعود إلى الطريقة التقليدية التعليمية في الدعوى للدين والقيم الأخلاقية والتي

تقوم على منهج تاريخي هش لم يعد بإمكانه فعل أي شيء هذا المنهج الذي صيرنا لنكون كائنات تاريخية ونحن في الواقع كائنات عصرية لا يمكن فصلنا عن روح العالم المعاصر وثقافته وأدواته .

سابعاً

منذ وفاة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وقع المسلمون في نزاع سياسي وخصومة وصلت الى حد الصراعات وذلك بسبب تداخل المفاهيم والتصورات والرؤى المتعلقة بالحكم والخلافة وولاية الأمر .

كانوا متفقين تماماً على ان الخلافة الدينية قد انتهت مع وفاة الرسول الكريم فلا يمكن لكائن من كان أن يخلفه كئبي ورسول الا ان هذه النقطة كانت سبباً جوهرياً لنشوء وتكون الطوائف والشيع فلقد أقيم المذهب الشيعي على قاعدة الوراثة الدينية والزمنية معا وعلى أحقية علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن بعده ذريته فاطمة الزهراء الذي هم (آل بيت النبي) .

الأمر الوحيد الذي أنهى فكرة الخلافة الدينية عملياً هو ممارسة الخلفاء الراشدين العملية وتفرغهم للمحافظة على الدولة النبوية وتوسيعها والحكم بين المسلمين بشرع الله لكن إقامة بنو أمية دولتهم على أساس الملك العضوض نفس نظرية الوراثة الدينية للحكم من أساسها ولقد فهموا منذ البداية ان الأمر بعد وفاة الرسول الكريم قد أصبح دينياً والغلبة للأقوى الذي يستطيع أن يتولى ويقود إدارة الدولة الإسلامية وتسييسها ورعايتها وهكذا فعلوا .

وسوف نعالج هذا الفراق بين الديني والزمني بفصل مطول لأنه يعتبر الأساس في تكوين قواعد الحكم في الإسلام .

ثامناً

لقد توصلنا في هذا البحث لفهم دقيق للتفريق بين الإسلام كونه رسالة وشريعة وتشريعاً ومنهجاً وبين كونه العمود الفقري للدولة وللحكم وهو الأساس الذي سبني عليه الدولة الإسلامية قواعدها في التشريع وفي القضاء وفي سياسة الحكومة أو الحاكم فالدين من حيث طبيعته وبنية ودعوته ومصدره الألهي ليس دولة وسياسة وسلطة وحكومة لكن في الوقت ذاته ومن الناحية العملية ولكي يطبق المسلمون شريعتهم ويحكموا أنفسهم (بما أنزل الله عليهم من أحكام وبنات وشرعة ومنهج) فعليهم تأسيس دولتهم على هذه الأحكام والبنات والشريعة والشرع وأن تسيير حكوماتهم وفق نهجها وهذه هي الخطوط والعلامات والأركان والقواعد لبناء الدولة والسلطة في الإسلام .

فالذين قالوا ان الإسلام دين ودولة وجمعوا بين الاثنين وصهرهما في بوتقة واحدة هم قد التبس عليهم الأمر واعتبروا ان الدين الذي قالوا عنه هو دولة أيضاً عنوا بذلك كل الدين بما فيه العقيدة والرسالة والدعوى فلا يمكن وصف الدولة بأنها دولة عقيدة ورسالة ودعوى لكونها هيئة اعتبارية منظمة تقوم على هيكلية تراتبية تنظيمية ليس لها علاقة بالدين أو بالسلطة أو بالأيديولوجيات والصحيح ان المقصود من الدين هنا هو الأحكام الشرعية التي هي فرع منه والتي تخص المسلمين أو الشريعة وهي التي أمرنا الله أن نحكم ونتحاكم بها و(الحكم بما أنزل الله) وهذا وحده يتطلب وضع أسس نظرية وعملية لبناء السلطة والحكومة التي تحكم الدولة وتضع تشريعاتها الإسلامية وتشرف على تطبيق وتنفيذ هذه الأحكام الشرعية .

وكذلك الذين فصلوا بين الدين والدولة والحكم وأدعوا ان الدين لله ولا علاقة له بشؤون الحكم والسياسة والدولة وغير ذلك وهم بذلك يريدوا فصل الدين والإسلام عن المجتمع والواقع ويجولوه الى مجرد عبادات وعقيدة روحية داخلية مثلها مثل أي دين آخر وهؤلاء أيضاً كان مغالين كثيراً في تصوراتهم وأوهامهم ونسوا اذا تم الأمر كما يشتهون فكيف سنطبق شريعة الله ومنهجه في الأرض ونحكم بما أنزله الله لنا فالموضوع ليس قضية تعبدية بين خالق ومخلوق تنتهي عندها بل

هو يتعلق بواحد من أهم مبادئ الدين وشريعته وأحكامه وتطبيق هذا الحكم الإلهي أو الشرع الألهي ليس اختياريا بل هو من أصل عقيدتنا وهذا يحتاج الى سلطة أو حكومة شرعية تؤسس وفق مبدئين اثنين الشورى والعدل والمساواة فأني نظام للحكم ومهما كان تصنيفه أو نوعه أو تسميته يقوم على هذين المبدئين فهو يمثل توجه وإرادة المسلمين ويحكم بموجب الشرع والدين ولا يعني هذا الاستغناء عن القوانين الوضعية الحديثة بل التوافق بينها وبين الشريعة الإسلامية .

لذلك يتوجب في الدولة التي تكون غالبيتها مسلمة وتسمي نفسها دولة إسلامية أن تكون تشريعاتها الرئيسية من الدين وان تنتهج حكومتها المنهج الشرعي لتطبيق وتنفيذ ما أمرنا الله لتنفيذه وهذا الكلام لا يتعارض مع الحداثة والمعاصرة وغير ذلك فيمكن لهذه الدولة الإسلامية العديدة أن تأخذ الكثير من القوانين الوضعية وتدججها في تشريعاتها الإسلامية لكي تحافظ على حداثتها والقضية هنا تتعلق بالعقلية الحاكمة لننظر مثلا لبعض الدول الإسلامية اليوم مثل ماليزيا واندونيسيا كيف استطاعت أن تكون نوعا من التوافق بين الشريعة وبين النظم الحديثة .

تاسعا

علينا أن نفهم جيدا ما تعنيه مقولة ان هذا الدين صالح لكل زمان ومكان فاذا أخذناها هكذا وبأثر رجعي واردنا إعادة حياتنا كما كان يعيشها الصحابة الأولون فهذا أمر خرافي بل خيالي ولا يمكن فعله وارجاع عجالات الزمن الى الوراء شيء في عداد المستحيلات .

فالذين رفعوا شعار (لا حكم الا لله) وشعار (الحكم بما أنزل الله) حولوا الدين ومنهجه الى لعبة من ألعاب السياسة وكانت دعوات حق أريد بها باطل فلا يمكن بأي شكل من الأشكال تطبيق شرع الله وفرضه على المجتمعات المسلمة بالقوة أو العنف وبشكل غوغائي لا أساس وقواعد له .

ان الأمر يحتاج الى بناء دولة حديثة فأركان الدولة بشكل عام الأرض والشعب والدولة (السلطة) ولكي نشيد ونبنى دولة عصرية منظمه ومؤطرة بأركانها الثلاث فهذا ممكن فالأرض موجودة والشعب ذو الأغلبية المسلمة موجود ولا مانع أن نسميها إسلامية كما تسمى نفسها اليوم العديد من الدول الإسلامية من الناحية الشكلية وهذا لا يفيدنا في شيء لأن الدولة هي الكيان الاعتباري المؤسس على دستور وأنظمة وقوانين المهم هنا هو قيام سلطة حاكمة مختارة تحكم وفق هذا الدستور والأنظمة والقوانين ووفق مصالح الشعب العليا .

هنا توقف العقل الديني الإسلامي عن إيجاد هذه المنظومة الفقهية والشرعية والقانونية التي تقوم عليها السلطة الإسلامية وحكومتها المنشودة لذلك فالذين نادوا مطالبين بتطبيق حكم إسلامي ودولة إسلامية لا يعرفون في الواقع والحقيقة شكل وأركان ومتطلبات هذه الدولة الإسلامية وهذا الحكم الإسلامي وصار كلامهم مجرد غناء كغناء السيل .

عاشرا وأخيرا

ان هذا البحث هو محاولة جديدة من محاولاتنا البحثية الفكرية ولقد كان لنا قبلها محاولتين اثنتين (العقل البشري وفلسفة القرآن) و (بنية العقل السوري) والهدف كما قلنا مرارا وتكرارا هو تسليط الضوء على بعض حالات الخلل في تفكير العقل العربي والعلل الفكرية وان كشف العيوب والأمراض في تفكيرنا يفيد في علاج الكثير من الأوضاع التي تعيشها مجتمعاتنا العربية والإسلامية التي يتحكم بها التعصب والعصبية والجهل والخوف .

ان اغناء المكتبة العربية بمثل هذه الدراسات الفكرية ضروري جدا في عملية التحديث والتطوير والإصلاح التي بدأت مع بدايات القرن العشرين ولا زالت تسير بوتيرة عالية بفضل التقدم التكنولوجي والمعرفي وتطور أدوات الحصول على المعلوماتية .

ما يهمننا هنا شخصيا هو المساهمة ووضع لبنة من اللبنة في هذا المجال ومع غيرها من اللبنة سيتكون ويشاد بناء معرفتي حديث يقوم على فهم واقعي وحقيقي للدين ولمنهجه ومن المؤكد ان هذا البناء لن يبنى بسرعة وسهولة وسيحتاج الكثير من الوقت والجهد ولكنه في النهاية سيبنى ويشاد هكذا هي سنة الله في الحياة والكون .

والله ولي التوفيق

حسن إسماعيل

الحكم والصراع السلطوي في الإسلام

الحكم والصراع السلطوي في الإسلام

المبحث الأول

التشريع والشرعة والشريعة والشرع والأحكام الشرعية

ان فهمنا لقوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله) هو ان الله قد بين لنا من جملة ما بين في القرآن الكريم جملة من الشرائع والأحكام التي شرعها الله لنا والتي خص الله بها المسلمون أتباع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وهناك مثلها خصها الله لليهود والنصارى ذكرها الله لهم في التوراة والإنجيل والزمهم باتباعها والتحاكم على أساسها كما ألزمتنا نحن .

التفريق بين التشريع والشرعة والشريعة والشرع والأحكام الشرعية

هناك ثلاث نصوص قرآنية ذكر الله سبحانه وتعالى كلمة (شرع) والتي تعني بين لنا شرعنا وأظهره وأبانه :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : 48]

في هذا النص القرآني يبين الله لرسوله الكريم ولنا ما يلي :

○ ان الله أنزل القرآن الكريم بالحق وهو الشامل والكامل والمهيمن على من سبقه من الكتب التوراة والانجيل فيأمر الله

نبيه أن يحكم به ولا يحكم بموجب الأهواء والتقاليد وغير ذلك .

. ان الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل من المسلمين واليهود والنصارى شرعة ومنهجا أي تشريع وشرعة خاصة بكل دين من هذه الديانات .

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾

[الشورى : I3]

وهذه الآية تبين بوضوح ان الله تعالى وحده هو الذي يشرع فلقد جعل ما أوصى به من شرائع لأنبياءه شرعة متكاملة لنا بينما الشريعة اليهودية والنصرانية لا تتصف بهذه الصفة .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : 2I]

وهذه الآية الكريمة تؤكد من أن ليس بإمكان أي انسان أن يشرع من الدين يمكن أن يشرع ويقنن لكن ليس من الدين بل من مذاهب وضعية أخرى .

وذكر الله سبحانه وتعالى كلمة (شرعية) في النص القرآني :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجمانية : I8]

فالشرعية : ما شرع الله لعباده من الدين ، والجمع الشرائع والشرائع في الدين المذاهب التي شرعها الله - تعالى - لخلقه .

أى : ثم جعلناك - أيها الرسول الكريم - على شريعة ثابتة ، وسنة قديمة ، وطريقة حميدة ، من أمر الدين الذي أوحيناها إليك ، (فاتبعها) اتباعا تاما لا انحراف عنه (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) من أهل الكفر والضلال والجهل .

وهكذا نجد ان كل هذه الكلمات التي ذكرت تدل على أمر واحد وهو (التشريع أو التشريعات) وفق التعبير القانوني والفقهى الحديث أيضا .

مقارنة بين الشرع والشريعة والدستور والقانون

1. الدستور:

- الدستور هو المستند الأساسي الذي يحدد النظام السياسي والحقوق والحريات الأساسية والمبادئ الأساسية التي يستند إليها الدولة .

- يحدد الدستور صلاحيات الحكومة والسلطات المختلفة ويوزع السلطة بينها .

- يمنح الدستور حقوق وحماية للمواطنين ويضع الضوابط والمبادئ التوجيهية لعمل الحكومة والمؤسسات العامة .

- يعتبر الدستور صعيدا عليا من النظر إليه ويمثل الأساس القانوني للدولة .

2. القانون :

- القانون هو مجموعة من القواعد والتعليمات التي يتم تطبيقها في المجتمع لتنظيم السلوك وتحقيق العدالة .

- يشمل القانون مجموعة من الأنظمة والتشريعات التي تنظم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

- يصدر القانون من قبل السلطات التشريعية مثل البرلمان أو الكونغرس أو الجمعية التأسيسية، ويمكن تعديله وتحديثه بمرور الوقت.

- القانون يحدد القوانين والإجراءات التي يجب اتباعها والعقوبات التي يمكن فرضها على المخالفين.

باختصار، الدستور هو المستند الأساسي والأعلى الذي يحدد الأسس والمبادئ التوجيهية للدولة، بينما القانون هو مجموعة من القواعد والتشريعات التي تنظم السلوك في المجتمع وتحدد الحقوق والواجبات والعقوبات.

3. تستخدم كلمة 'التشريع' بمعنى 'عملية صنع القوانين'. وهو يشير إلى 'القوانين جماعيا'. هذا هو الفرق الرئيسي بين كلمتين "الدستور" و "التشريعات".

التشريعات تتناول القوانين. ومن ناحية أخرى، فإن الدستور لا يتناول القوانين فحسب، بل يتناول المبادئ أيضا. ولا يتناول التشريع المبادئ. وهذا فرق هام آخر بين الدستور والتشريع.

لتشريعات هي عملية في حين أن الدستور ليس عملية. من ناحية أخرى الدستور هو تكوين. ويشكل دستور الحكومة تكوين مختلف المبادئ المتعلقة بحقوق وواجبات شعب ذلك البلد بالذات.

ومن ناحية أخرى، فإن التشريع يتعامل مع صنع القانون. ويحدد التشريع الشروط والشروط التي يمكن بموجبها تنفيذ أو تنفيذ إجراء أو واجب معين. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن كل من هذه المصطلحات في كثير من الأحيان المتبادلة على الرغم من أنه ليس من الصحيح أن تبادل هاتين الكلمتين.

كلمة "الدستور" أحيانا ينقل مباشرة معنى "تكوين" كما هو الحال في عبارة "دستور الجسم البشري". كلمة "التشريع" مشتقة من اللاتينية 'التشريعية لاتيوا'. ومن المثير للاهتمام أن نعرف عن استخدام كلمة في أكبر كلمة 'الجمعية

التشريعية". هذه هي الاختلافات الهامة بين المصطلحين، وهما "الدستور" و "التشريع". وينبغي فهم هذا الاختلاف بدقة.

القانون، أو التشريع، هو مصطلح عام يغطي جميع الأفعال واللوائح التي أقرتها السلطة التشريعية .

هل الشريعة أو الشرع الإسلامي دستور أم قانون أم تشريعات

وفق ما بينا من فوارق بين الدستور والقانون والتشريعات وهي مصطلحات كما نعرف حديثة وعصرية يحق لنا أن نعرف أين موضع الشريعة والشرع الإسلامي في هذه المراتب هل هي من قبيل الدستور أم القوانين أو التشريعات ؟ الدستور هو المستند الأساسي والأعلى الذي يحدد الأسس والمبادئ التوجيهية للدولة وهذا التعريف لا ينطبق على الشريعة الإسلامية لأنه لا يوجد فيها مثل هذه الأسس والمبادئ التوجيهية للدولة لكن يمكننا القول ان صفة الدستور تنطبق على القرآن الكريم كتاب الله بشكل عام مع اختلاف ان القرآن الكريم يحدد المبادئ الأساسية والأسس والتوجيهات التي تبين للفرد والمجتمع منهجهم السليم نحو السمو والصلاح والتقوى وهي مبادئ وأسس وتوجيهات دينية وليست سياسية كما نراها في الدساتير الوضعية .

في حين ان الشريعة الإسلامية تتطابق مع مفهوم القانون والتشريعات من حيث كونها تضم جملة و

مجموعة القواعد والتشريعات التي تنظم السلوك في المجتمع وتحدد الحقوق والواجبات والعقوبات .

ما عدا فرق واحد وهو ان القانون والتشريع شيء واحد في الشريعة الإسلامية فكل التشريعات في الإسلام هي بمثابة قوانين لأن المشرع هنا يملك لوحده الحق المطلق في التشريع وفي جعله قانونا ساريا دون الحاجة الى موافقة أو إجراءات

من يملك حق التشريع في الإسلام

هل كان رسول الله يشرع ؟

فأما تسمية النبي صلى الله عليه وسلم شارعا ومشرعاً فإن أريد به المعنى اللغوي وأنه مظهر لما أوحاه الله إليه من الشرع فهذا حق، وهذا الاستعمال واقع كثيرا في كلام أهل العلم، وأما إن أريد المعنى الاصطلاحي فلا ينسب التشريع إلا لله سبحانه كما قال جل اسمه: إن الحكم إلا لله . وقال تعالى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا الآية .

القران الكريم يؤكد بعشرات الآيات ان النبي عليه السلام مشرع له ، فما على الرسول الا البلاغ المبين تتكرر حرفيا في ثلاث آيات ، وجدلية الخطاب القرآني هي جدلية من طرف واحد لا مجال فيها للمناورة فالرسول هو عبدالله ليس له من الامر شيء وليسيدته كل شيء . هناك آيات تقصر وظيفة الرسول على تبليغ الرسالة واخرى تحذره من استباق القران او استعجال الوحي او مجرد التمني فيه واخرى يعلق الرسول الحكم بصدها بانتظار نزول الوحي واخرى تلومه على مواقف اتخذها او هم باتخاذها دون ان يكون له مرجع او سند من الوحي .

التشريع حق الله، لا يشاركه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، فأعظم خصائص توحيد الألوهية هو حصر التشريع في جناب الله - عز وجل - . فلا يملك أحد حق التحليل أو التحريم إلا الله، فليس لأحد أن يضع اللوائح أو الأسس التشريعية إنشاء أو تقييدا، تسير حياة البشر، وفق منهج معين إلا بنص من كتاب الله أو سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وقد يتبادر إلى الذهن أن التشريع حق من حقوق المسلمين، بدءاً بنبيهم وانتهاءً بمجتهداتهم، إذا المعروف بين أهل العلم أن مصادر التشريع في الإسلام أربعة، الكتاب والسنة والإجماع والقياس، فإن كان الكتاب من الله فإن السنة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأما الإجماع والقياس فحق علماء الإسلام . وهل الأمر كذلك؟ لا تعني كتب الأصول في قاعدتها السابقة أن محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - مشرع مستقل، دون وحي من

الله - عز وجل -، بل يعنون من السنة التشريعية أن التشريع يأتي عن طريق كتاب الله كما يأتي عن طريق سنة رسول الله. فالمشرع هو الله، وطريق إبلاغ الشريعة قد يكون بكتاب الله، وقد يكون بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فما محمد بن عبد الله إلا مبلغ لذلك التشريع. فالمشرع واحد، وطريقة إيصال تشريعه إلى البشر بكلامه في كتابه -عز وجل-، أو بكلام رسوله بسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم -، فالله - عز وجل - هو المشرع ومحمد بن عبد الله هو المبلغ، وليس من حقه التشريع. إذا التشريع أخص خصائص توحيد الله بأفعال عباده. ولا يكون الإجماع مشرعاً إلا إذا وافق القواعد العامة للدين، فالإجماع بمثابة استنتاج لقضية يمكن إدخالها في تشريع منصوص عليه، إذن هو مصدر غير مستقل، بل مجاله إدخال المستجدات إلى المنصوصات حسب فهم علماء الدين، ولا تتجاوز القضايا التشريعية المجمع عليها أصابع اليد الواحدة على أكثر تقدير. وأما القياس فهو إلحاق الشبيه بالشبيه والنظير بالنظير، ومن ثم لا استقلال له، بل إلحاق غير المنصوص بالمنصوص لعلته تجمع بينهما، فيأخذ المستجد حكم السابق الذي نص عليه الشرع. إذن نخلص من مصادر التشريع التي نص عليها علماء أصول الفقه أن المصدرين المستقلين الأساسين هما الكتاب والسنة، وآما الإجماع والقياس فمصادر تابعة لا استقلال لها على الرأي الراجح عند علماء الإسلام.

الشريعة والأحكام

يقول الله سبحانه وتعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) [الشورى: 13]، إشارة إلى وحدة شرائع الله ودياناته إلى الأمم في أصولها من معرفة الله وتوحيده وإقامة دينه وما إلى ذلك وهذا التشريع الواحد يتعلق بأصول العقيدة وأركانها ولأن الدين واحد وهو عند الله الإسلام فمن الطبيعي أن تكون رسالة الشرع واحدة لكل أنبياء الله أما في قوله تعالى:

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ [المائدة : 48]

فالشرعة في هذه الآية المقصود بها التشريع الخاص بكل دين من الأديان أحكام شرعية خاصة فيه تبين المباحات والحذورات وتبين قواعد التحليل والتحريم فالله قد حرم على بني إسرائيل ما لم يحرمه في شريعة المسلمين وأما النهج فهو : الطريق الواضح ، والمنهج والمنهاج مثله ، وهو السبيل إلى الوصول إلى الشرع لذلك فقواعد هذا المنهج مختلفة مع اختلاف الشرع لكن المنهج للوصول إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله الآخر هو واحد عند كل الأديان .
فالشرع في الإسلام هو تلك الأحكام والضوابط التي تبين أصول العبادات والمعاملات والعقود والأحوال الشخصية والحدود والحلال والحرام والممنوع وغير ذلك .

أن المفهوم الإسلامي للعبادة قد تجسد في الشريعة الإسلامية العظيمة ، التي أمر الله المؤمنين بتحقيقها في الأرض وجعلها دستوراً لحياتهم الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ (الجاثية : ١٨) ، فالشريعة هي ما شرعه الله لعباده من الدين وأحكامه المختلفة التي شرعها لمنفعة المؤمنين جميعا إلى قيام الساعة .

خصائص الشريعة الإسلامية

وتماز الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع التي قامت بخصائص ، أهمها :

أ . ربانية المصدر والغاية

أول خصيصة للشريعة الإسلامية أنها ربانية المصدر والغاية ، فهي من الله ، وتهدف إلى بلوغ رضاه ، فالمسلم يستمد شرائعه المختلفة من مصدرين أصيلين ، هما القرآن الكريم الذي أوحاه الله مجرّوفه ، ثم السنة النبوية ، وهي أقوال النبي - صلى الله عليه وسلم - وأفعاله وتقريراته التي أمر الله بالتأسي بها بقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (الحشر 7)

ب . العدل والمساواة

العدل اسم من أسماء الله تعالى ، وهو صفة لازمة للرب في أوامره وتشريعاته وجزائه ، ومظاهر عدل الله في شرائعه كثيرة ، من أولها أنه تعالى لا يحاسب الإنسان على ما لا يقدر عليه ، بل لم يكلفه أصلاً بما يعجزه ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ (البقرة : ٢٨٦) ، فشرائع الله مبناها على اليسر والسهولة ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ (البقرة : ١٨٥) ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ (المائدة : ٦)

وإذا كانت الشريعة لا تحاسب من هو دون التكليف على خطئه ؛ فإنه يعلم أنها - من باب أولى - لا تحاسبه على ذنب غيره ، فالمرء مسؤول عن عمله الشخصي ﴿ قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ (الأنعام : ١٦٤)

ولم تميز الشريعة العادلة في أحكامها العامة بين ملك وسوقه ، ولا بين أبيض وأسود ، ولا بين غني وفقير ، فالجميع متساوون أمام شرائع الله العباداة والاستقامة ، لا الحسب والجاه ، ﴿ يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (الحجرات : ١٣) .

ج . الشمول والتوازن

لما كان الإسلام رسالة الله الخاتمة وكلمته الباقية إلى قيام الساعة ، فإن الله تلطف فيه على الإنسانية بكل ما يصلح شؤونها في دار معاشها ثم في دار جزائها ، فكملت أنعم الله بكمال تشريعاته ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ (المائدة : ٣) .

والإسلام بنیان شمولى يغطي مناحي الحياة المختلفة ، فهو دين عبادة ، وهو أيضا منظومة من الشرائع الأخلاقية والاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية التي تحقق سعادة الفرد والمجتمع في الدنيا ثم الآخرة

أن الإسلام ينظم علاقات الإنسان المختلفة من لدن ميلاده إلى وفاته ، وهو يحرس حقوقه حتى فيما قبل الميلاد وما بعد الوفاة ، وأما ما بينهما فإنه يتناول بأحكامه تفاصيل سلوكه الشخصي بما يتضمنه من عادات وآداب ، وهو يرشد أيضا علاقة الإنسان مع أسرته ومجتمعه ، لا بل يتناول حالة مع الكون كله بما فيه من حيوان وجماد ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ (الأنعام : ٣٨) .

أما على الصعيد الجماعي فإن شرائع الإسلام تنظم المجتمع وتضبط حقوق من فيه وواجباتهم ، وتنظم علاقة الدولة والأمة المسلمة مع القريب من الناس والبعيد ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ (النحل : ٨٩) .

وتلبي هذه الشرائع حاجات الإنسان المختلفة ، فهي تعنى بجسده ، ولا تهمل روحه ، تتبغى الآخرة ، ولا تفرط في الدنيا ، تربط المجتمع ولا تغفل مصالحه ، وهي في نفس الوقت تحقق ذاتية الفرد وتحرس مصالحه وحقوقه ، توازن عجب ، لا إفراط فيه ولا تفريط ، وأي عجب ، فذلك تقدير اللطيف الخبير

د . المثالية الواقعية

كثيرا ما تجنح الشرائع التي يشرعها الإنسان نحو المثالية التي لا تتحقق ، فجمهورية أفلاطون الفاضلة لم تتجاوز عقله وقلمه ، وفي مقابلة قد يخضع البعض للواقع الجاثم على المجتمع ، فيعتمد إلى تكيف نفسه وفي مقابلة قد يخضع البعض للواقع الجاثم على المجتمع ، فيعتمد إلى تكيف نفسه ومبادئه مع الحالة الراهنة اعترافا بوطأة هذا الواقع وإذعانا له ، فحين عجزت مجتمعات الغرب عن منع الخمر أو الزنا أو الفواحش لم تجد ما يمنعها من الاعتراف بهذا الواقع وتقنينه ، ليصبح شرعه مباحة عند الناس ؛ تفني الجنس البشري وتهدد وجوده بما تحمله تلك الآثام من أمراض وبلايا اجتماعية ، وأما الإسلام فإنه دين واقعي مثالي ، فواقعيته مبنية على أنه سلوك إنساني يعيشه الناس يوميا ، وأما مثاليته فيحققها أنه يهدف إلى إصلاح المجتمع ، ولا يرضى بالتعايش والمهادنة مع الخطأ والرديلة .

واقعيته يوضحها تلاوم تشريعاته مع فطره الإنسان وتحقيقها لحاجاته ورغباته التي علمها الله فشرع ما يناسبها ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (الملك : ١٤) ، فلم يأمر الإسلام بالتعفف عن النكاح ، ولا منع من استحالت

عليهم الحياة الزوجية من الافتراق بالطلاق ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما ﴾
(النساء : ١٣٠) .

ولم يأمر الإسلام بإعطاء الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن ، بل شرع ما يرد الإساءة ويردع الجاني ويمنعه من التمادي ،
ولكنه رغب أيضا في العفو والمسامحة والصفح ، قال تعالى : ﴿ وجزاء سيئة

سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله أنه لا يجب الظالمين - ولمن اتصرت بعد ظلمة فأولئك ما عليهم من
سبيل ﴾ (الشورى : ٤٠ - ٤١) .

والشريعة جاءت تفصيلاتها لحفظ مقاصد خمسة (الدين والنفس والعقل والنسل والمال) ، وهي في حقيقتها أهم
حقوق الإنسان ومصالحة في هذه الحياة .

المواثيق والعهود

كلمة العهد في القرآن الكريم ومعناها

وردت لفظه (عهد) وما اشتق منها (٤٦) مرة في (٣٦) آية من كتاب الله تعالى في (١٧) سورة من سؤر القرآن الكريم
[٤] وسأذكر المعاني التي وردت فيها مع ذكر الآيات التي وردت في كل معنى من المعاني ، مع الإشارة إلى أن المفسرين
اختلفوا حول بعض معاني الكلمات التي وردت في الآيات .

ورد العهد بمعنى الوصية والأمر في عدة مواضع :

قال تعالى في سورة البقرة : (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) (البقرة : من الآية ٢٧)

وهنا في هذه الآية تأت بمعنى أوحينا وأمرنا وفي سورة آل عمران : (الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) (آل عمران : من الآية ١٨٣) .

وورد العهد بمعنى الوعد والالتزام واليمين :

قال تعالى في سورة البقرة : (وأوفوا بعهدكم) (البقرة : من الآية ٤٠)

ومما جاء بلفظ العهد وهو بمعنى الالتزام واليمين قوله تعالى في سورة التوبة : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين) (التوبة : ٧٥)

قال تعالى في سورة الأنفال : (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) (الأنفال : ٥٦) . فهي هنا بمعنى العقد والميثاق .

وقد تفرع عن هذه النصوص القرآنية تشريعات خاصة بالعقود كعقد الزواج والذي وهو عقد يقوم على الإيجاب والقبول والرضا فهو بنفس الوقت عهد يقطعه كل طرف للآخر وكذلك في العقود المدنية التي تقوم على القبول والرضا ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ [النساء : 29]

والعقود تأتي بمعنى الميثاق وهو عهد يقطعه الفرقان فيما بينهم للعمل والالتزام به وعدم نقضه وقد بين النص القرآني جريمة من ينتقضون العهود والمواثيق

قال تعالى في سورة البقرة : (أوكلما عهدوا عهدا نبذه فريق منهم) (الأحزاب : من الآية ١٠)

وقال تعالى في سورة الأنفال : (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) (الأنفال : ٥٦)

والقاعدة العامة والحاكمة في كل ذلك هي (الموفون بعهدهم إذا عاهدوا) (البقرة : من الآية ١٧٧) . وهي العقود التي

تكون بين الإنسان وغيره فالموفون بعهدهم فهم من المتقين والصادقين

يتبين لنا من كل ذلك ان القرآن الكريم هو المشرع الذي وضع للمسلم بشكل خاص وللإنسان بشكل عام كل ما تتطلبه

حياته بالمحافظة على النفس والمال والعرض والأرض والعيش بحياة أمنة كريمة .

وهكذا أسس وأقام الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام دولته وأقام فيها حكم الله فكان مجتمعاً مثالياً بكل ما تعنيه

هذه الكلمة من معنى .

المنهج أو المنهاج

تعريف المنهج لغة

هناك ما يعرف بـ"المنهج" وهناك "المنهجية". والمنهج والمنهاج في اللغة العربية: الطريق الواضح كالمنهج بدون ميم، وفي

هذا تتفق اللغة العربية مع "لسان القرآن".

جاء في لسان العرب لابن منظور: "نَهَجَ الثوبُ إذا بلي؛ لأنَّ الثوب إذا ظهرت خيوطه، وبان ما تحته وأنهجه البلي إذا

أخلفه. وفي القاموس المحيط: "النهج" الطريق الواضح كالمنهج والمنهاج وبالتحريك النهج، وتابع النفس .

وأنهج وضح وأوضح وأنهج ونهج بمعنى أوضح وأوضح الطريق، واستنهج الطريق صار نهجاً أي: واضحاً، ولسان العرب في هذا وإن اختلف عن لسان القرآن في الاستعمال الحسي في الثوب وفي البهر وتابع النفس، لكنه منسجم مع لسان القرآن في المعنى الأساس، ألا وهو "الوضوح" و"ما يؤدي إلى الوضوح".

مفهوم المنهج في القرآن

وردت كلمة "منهـاج" في الآية (50 من سورة المائدة) وكلمة "منهـاج" أخذت من "نهـج الطريق" إذا استبان واتضح وأمن سالكه من التيه والانحراف، فهو على طريق واضح لا يخشى سالكه الضلال عن الغاية والهدف.

وهذا يعني أن كلمة "منهـاج" تتصل بالطريق والسبيل والصراط، وتتصل كذلك بالإبانة والوضوح وظهور الأثر والأمن من الضلال والتهيه والانحراف والغموض وانفصال النتائج عن المقدمات، وذلك يعني أن سالك الطريق أو ناهجه يستطيع الاطمئنان إلى أنه بالغ الغاية وواصل إلى المراد ومدرك للبعية.

ولذلك قرن الله سبحانه وتعالى "المنهـاج بالشرعة": "فهنالك شرعة يريد بها الناس مجتاً عن الاستقامة، وتنظيم حياة الخلق، وفقاً لشرعة الحق، وتحقيق العدل فيهم وذلك ما لا يتحقق إلا بمنهـاج واضح بين.

وذلك المنهـاج هو الذي رسم القرآن المجيد معالمه وأبانها وأوضحها. فكان القرآن بياناً ومبيناً ونوراً وهدايةً وصرافاً مستقيماً يهدي به الله من أتبع رضوانه سبيل السلام ومنهـاج الاطمئنان والأمن والأمان والاستقرار.

من هنا يتبين أن مفهوم "المنهـاج" وإن لم يرد في القرآن إلا في ذلك الموضع -وحده- لكن كلمة "منهـاج" هذه بالظلال التي تحيط بها وتتصل بها تتحول إلى مفهوم قرآني من المفاهيم الأساسية، خاصة أن هذا المفهوم قد اقترن بـ"الشرعة"

ليوحي بهذا الاقتران أنّ القرآن المجيد قد جعل الله فيه شريعة مقترنة بمنهاج يوضح ويبيّن منهاج تطبيقها واتباعها، وتشكيل الحياة بمقتضاها بمجانبها كلها .

وما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث إلا ليتّبه إلى أنّ المنهج الذي اشتمل القرآن عليه، ويّنه رسول الله باتباعه لكتاب الله، وتحويل ما جاء الكتاب به من عقيدة وشريعة ونظم حياة وممارسات وعلاقات صارت كلّها واضحة بيّنة، وإذا التبس على الناس شيء بعد غيابه صلوات الله عليه وسلامه فإنهم سيجدون في المنهاج القرآني ومحجّته البيضاء ما يستطيعون الرجوع إليه والاهتداء به والعودة إلى وضوح الطريق، واستقامة السبيل، واستنارة الصراط بذلك المنهج الذي جعلنا هذا البحث محاولة جادة في تلمس بعض معالمه . سائلين العليّ القدير الهداية والتوفيق لبلوغ المنهج القرآني وسلوك سبيله، والوقوف على محجّته البيضاء .

فالمفهوم القرآني للمنهج ينبغي أن يصاغ بحيث تتصافر على صياغته سائر الآيات التي تناولت الصراط المستقيم والسبيل السويّ وسبيل الله والهدى والنور والاتباع والافتداء والشفاء والأسوة الحسنة إضافة إلى المواقف والأفعال والأقوال النبويّة ذات العلاقة بالمنهج . فلا تكون الآية من سورة المائدة هي المنبع الوحيد لصياغة "مفهوم المنهج" قرآنيّاً، واقترانه بالشرعة يستلزم أن يكون "المنهج" ضابطاً صارماً للفهم والوعي، وإدراك المقاصد والغايات، وضبط السلوك والاتباع وسلوك سبيل الهداية، والوصول إلى النور .

كما يضبط المنهج سلوكنا في فقه التدين وممارسته واتباع القرآن فيه، والتأسيّ بسيدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في ممارسته لنصل إلى النور والشفاء والهداية بضوابط . وهنا نستطيع أن ننظر فيما أطلق عليه "مناهج العلوم الدينيّة" مثل "مناهج المفسرين ومناهج المحدّثين، ومناهج الأصوليين... إلخ"، فكل هذه المعارف أو القواعد التي أطلق عليها "مناهج" إنّما أطلق عليها ذلك بالمعنى اللغويّ لمصطلح "منهج"، لا المعنى العلميّ الذي لا يطلق إلا على "ضابط

صارم يعصم الذهن من الوقوع من الخطأ في التفكير وبناء المقدمات الصحيحة للوصول بها إلى النتائج السليمة المنضبطة» التي من شأنها أن تخرج هذه العلوم من سمة الليونة التي سَوَّعت القول بكثير من القضايا التي يعرفها المتخصصون. وجعلت للذاتية مجالاً واسعاً في مناهج هذه العلوم.

المنهج في الاصطلاح

أما في الاصطلاح المعرفي فللمنهج تعاريف عديدة، ودلالات متعددة، نود أن نقدم لها بتوضيح عام وإجمالي لعله يساعد، بعد ذلك، على إدراك مدلول تلك التعريفات بشكل دقيق.

إنَّ كلاً من المنهج والمنهجية لدينا نحن المسلمين قد ولد بعد نزول القرآن المجيد، الذي بدأ بتهيئة العقل البشري وتحضيره لاستقبال «القراءة» ثم القراءتين والجمع بينهما» لبيد أن تتابع نجوم القرآن عملات منهجية لتغيير واقع كانت تحكمه وتهيمن عليه قيم الشرك، وتحويله إلى واقع تحكمه قيم «التوحيد والتزكية والعمران» بدلاً من قيم الشرك والجاهلية.

لقد جعل القرآن المجيد «التوحيد» منذ البداية محور «الرؤية الكلية»، وبها أصبح الإنسان قادراً على بلوغ مستوى «العلمية والموضوعية» في فهمه لما حوله وتفسيره له، وفهم خواصه، وتحديد وسائله وأساليبه.

و«التوحيد» مدخل تفسيري ذو قابليات هائلة، وقدرات متنوعة لتفسير آلاف الظواهر النفسية والسلوكية والنظمية والمعرفية في مختلف المستويات. والتفسير الذي يقدمه القرآن المجيد يؤدي إلى الفهم العميق لتلك الظواهر، ويمكن من صياغة الأسئلة المعرفية، وتعليم الإنسان طرق الإجابة عنها.

كما يمكنه من وضع المقدمات بأدق ما يستطيعه العقل البشري، وتجنبيه الخطأ. فتصبح عملية الوصول إلى النتيجة منضبطة تستوعب "التنبؤ المنهجي" وتجاوزه.

وقد أطلق القرآن بـ"منهج النظر" الذي جاء به العقل البشري من عقاله، وحرره تحريراً تاماً من سلطان الكهانة والسحر والشعوذة، وقاده لمعرفة الطبيعة وغيرها مما يهم الإنسان معرفته ومنحه الشجاعة التامة والجرأة، والثقة بنفسه من خلال دعوته للعقل بأن يتفكر ويتدبر، ويتذكر ويفقه ويُبصر، ويتعقل، ويُعلم ويتعلم، ويعرف، ويدرك؛ ودرّبه على أن لا يتهيب اقتحام أقطار السماوات وحبكها، وفجاج الأرض وطبقاتها، ولا ظلمات أعماق البحار والمحيطات وتضاريسها، وأن لا يتردد في بناء وعي عقلي وإدراك منطقي تسدده وتهديه وترشده أنوار الوحي وهدايته، ليؤمن عن برهان ويسلم عن يقين؛ ويؤهل لممارسة "التزكية" في ذاته وأسرته ومجتمعه، و"ال عمران" في الكون الذي استخلف فيه. وبذلك أسس القرآن للـ"عقلانية التوحيدية".

بل لقد علم القرآن بمنهجه ذلك الإنسان كيف يراجع الفكر الديني السابق، وينقده، ويتدبر النماذج والأمثلة في كيفية مراجعة القرآن لهذا الفكر الديني اللاهوتي ونقده، وهدم سائر عناصر التحريف التي دُست عليه، وتغلغت فيه، وإعادةه إلى حالة الصدق التي نزل بها، والتصديق على الصادق منه، المطابق للواقع، ثم الهيمنة عليه. وإدراجه بين آيات الكتاب المنزل في حرم الله ابتداءً، المحفوظ بحفظ الله سبحانه وتعالى المعصوم من تدخلات البشر وتحريفاتهم لكيلا يكون لأولئك الذين احترفوا التحريف سبيل إليه مرة أخرى.

وبه القرآن العقل الإنساني إلى أن يلاحظ ويجرب ويكتشف قوانين الكون وسننه التي لا تتبدل ولا تتغير، تلك القوانين التي أخضع الله سبحانه وتعالى لها الطبيعة والكون والحياة، وجوانب هامة من حياة الإنسان (سُرِّبَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (فصلت: 53).

المنهج وقواعد التفكير

هناك، إذن، "منهج" و"منهجية". فالمنهج: "قواعد للتفكير وضوابط للبحث تعصم الذهن من الوقوع في الخطأ إذا مارس التفكير، أو السقوط في مهاوي الخطأ وتجاوز الاستقامة العلمية إذا مارس البحث العلمي والمعرفي".

وبحسب نوع المعرفة ومصادرها يجري ضبطها: فالمرويات لابد من إخضاعها لضوابط الصحة لهذا النوع من الأمور التي أطلق عليها "السمعية". وفي الدعاوى لابد من ضوابط للبرهنة على صحتها والاستدلال عليها بحسبها كذلك. وهكذا يعمل المنهج مع كل نوع من أنواع المعرفة ليضبط بحسبه، وتبنى قواعده، وتصاغ مسأله وتبنى الدرّة والملكة فيه بمقتضاه.

المنهج والحقيقة

والمنهج وسيلة لا غاية، مهمته الأساس أن يقود العقل الإنساني إلى الحقيقة، أو إلى ما يغلب على الظن أنه الحقيقة، حتى لو لم تكن هي الحقيقة في الواقع ونفس الأمر. فالحقيقة مثل كرز دفين يبحث الإنسان عنه بوسائل كالحفر وقراءة التاريخ والخرائط، والتفكر والنظر العقلي والتذكر والتدبر وما إليها، وقد يصادف الإنسان الحقيقة وقد يخطئها المهم أن يبذل كل جهوده وطاقاته بصدق وإخلاص لمقاربتها.

وإنما قلنا "يقود إلى الحقيقة" ذلك لأن هناك قطعيّات لا تقبل تعددًا في الحقيقة الواحدة الثابتة كأن تقبل ما ثبت أنه حقيقة ويؤخذ بنقيضها أيضاً. فعدم مصادفة الحقيقة الواحدة الثابتة لا يقبل عذراً فيها، وتلك القطعيّات لا تبلغ هذه الصفة إلا بعد المرور بكثير من الحواجز المنهجية، وهذه الحقائق من شأنها أن تكون لها علامات وأدلة تقود إليها

عندما تكشف، واكتشاف تلك العلامات والأدلة تقع في دائرة الممكن لقوى الوعي الإنساني أن توصل إليه. في حين يقبل في الظن غلبة الظن بأنها "الحقيقة" حتى لو لم يصادفها الباحث.

فالمنهج أو المناهج هي الطرق والوسائل والأدوات التي تستخدم في التفكير، وفي السعي للوصول إلى الحقيقة كوثية كانت أم معرفية، ويتوسل الباحثون بها إضافة إلى ذلك لتحليل المعلومات وجمع الحقائق وتفسيرها وفهمها.

و"المنهج" ضابط صارم يُحدّد للعقل مساره بمنتهى الصرامة سواء أمارس العقل التحرك في الكون، أو في نصوص الوحي مجتاً عن الحقيقة. ولذلك فإنه من المتعذر أن يتصالح المنهج مع العقل الفطري أو الطبيعي

ولذلك ذهب البعض إلى أن المنهج: مجموعة من العمليات الذهنية تتيح للباحث في الظواهر المختلفة قدرة على تحليلها وفهمها وتفسيرها. فهو على هذا مجرد منفصل عن الأساليب والأدوات التي هي وسائل يستعين المنهج بها في قيادته للباحث نحو المعرفة التي يسعى للوصول إليها؛ سواء أكانت معرفة ذات وجود واقعي أو وجود ذهني، ولا يخفى أن التعاريف إنما تراد لإفادة تصوّر المعرفات، والتعاريف التي عرّف بها "المنهج" تعاريف متعدّدة، ولا يضرنا ذلك؛ إذا عرف المراد به بالتعريف الذي قدمناه آنفاً، وحصل إدراكه وتصوره وإن لم نلتزم فيه بالرسوم المنطقية.

لأنّ المهم هو أن تصور المنهج ونعرف خصائصه، وكيفية إعماله، وتلك طريقة القرآن المجيد في إفادة تصوّر الأمور والأشياء، وهي أكثر فاعلية من معطيات المنطق الأرسطي التي تقوم على الحدود والرسوم لإفادة التصورات والبرهان اللفظي الشكلي لإفادة التصديقات.

القرآن والمنهج

وقد يقول قائل: كيف يمكن تطبيق “المنهج” على القرآن، والمنهج وجد لدراسة “الظواهر الطبيعية والاجتماعية” فكيف ينزل على خطاب معجز ما هو بظاهرة طبيعية ولا اجتماعية؟ فنقول: السؤال وارد ولا بد من الاجابة عليه! والقرآن المجيد يمثل عندنا “الظاهرة” وكونه خطاباً لا ينفي عنه صفة الظاهرة: فالظاهرة القرآنية ظاهرة فريدة فـأول مرة في تاريخ البشرية ولآخر مرة ينزل للبشرية وحي الله وكلمته بشكل متحدٍ معجز للخلق كافة، وفي مقدمتهم النبيون والمرسلون، وهو خطاب مطلق كذلك؛ يتعالى على الزمان والمكان، ويستوعبهما ويتجاوزهما، وهو، أيضاً، ميسر، في الوقت نفسه، يستوعب تجارب الأنبياء والمرسلين، وتعاليمهم، ويبنى هذا الكتاب أمة قطباً ووسطاً، ويخرجها نموذجاً ومثالاً للناس باعتبارها خير أمة... إلى غير ذلك من خصائصه ومزاياه وكلها ظواهر وجودية ذات وجود واقعي. ولذلك فإنّ اعتباره ظاهرة كبرى لا ينبغي أن يستغرب أو يستكر، وهو بهذه المثابة.

وكون المنهج العلمي يقوم على دعائم ثلاثة بعد ذلك وهي: (الملاحظة، والفروض، والاختبار) فإنّ هذه الثلاثة بعض خطوات ومكونات المنهج القرآني التي يدعو المتعاملين معه إلى الأخذ بها دائماً، وملاحظتها. فهي من الأمور المألوفة لدى أئمتنا وعلماؤنا المتقدمين في التعامل مع الخطاب القرآني ولديهم مزيد، فالقياس الأصولي بني أساساً على هذه القواعد الثلاثة، وتعامل مع الخطاب القرآني والسنة النبوية سواء أكانت أحاديث قولية أو فعلية أو تقريرية على هذا الأساس، وصار دليلاً من الأدلة الشرعية لقيامه على قواعد كانت هي المنطلقات الأساسية لبناء “المنهج العلمي التجريبي” بعد ذلك، والعناية بتخريج العلل-علل الأحكام، وتنقيحها بالسبر والتقسيم، وتحقيقها بالاختبار. وكذلك عمليات “تخريج المناط وتنقيح المناط وتحقيق المناط” كل ذلك تجليات لبعض “معالم المنهج القرآني” وإن كان “المنهج القرآني” مستوعباً ومتجاوزاً للقياس وما أدى إليه من بعد ذلك من تفكير سكوني كما سنثبت إن شاء الله.

والجواب؛ إننا لا نسلط المنهج العلمي التجريبي النسبي على القرآن المجيد، بل نرجع فهمنا وتراثنا واجتهادنا في معاني القرآن واستنباطنا إلى منهج القرآن ذاته، وهو منهج يستوعب المنهج التجريبي ويتجاوزه؛ فالهيمنة للقرآن ومنهجه على كل ما عداه، فالقرآن يستوعب المنهج العلمي، ويطهره، ويعالج أزمته ويخرجه منها، ويرقى به، ثم يهيم عليه، ويبني على معطياته كما فعل مع تراث من قد سبق.

مواقف منتظرة من محاولتنا هذه: لا شك أن العلماء المعاصرين خاصة من أولئك المتخصصين “بفلسفة العلوم الطبيعية والمناهج بل والآهوت” لن يسلموا لنا هذه الدعوى بسهولة، بل ستجد هذه الدعوى في بادئ الأمر معارضة شديدة؛ لما استقر في الأذهان من أن القرآن كتاب ديني شأنه شأن التوراة والإنجيل، وآياته وكلماته نصوص موحاة تتطلب الإيمان بها كما هي، ولا يتوقف قبول ما فيها على المنهج، بل على النبوة والإعجاز، والانبهار العقلي ثم الإيمان بناءً على ذلك.

وحتى أولئك الذين سلموا بإمكان أو ضرورة إخضاع العلوم الاجتماعية والإنسانية لذات المنهج العلمي التجريبي الذي نتعامل به مع الظواهر الطبيعية لن يكونوا قادرين على التسليم بسهولة بإمكان التعامل مع القرآن في ضوء قواعد “المنهج العلمي”، لكننا نستطيع أن نقرر وبكل ثقة: أن القرآن المجيد ميسر ومهيأ للتعامل مع المنهج العلمي التجريبي الواحد، بل لا سبيل للتعامل مع القرآن أفضل من التعامل المنهجي معه، ولا تتضح أهمية “الجمع بين القرائين” —وهي الخطوة المنهجية الأساس في المنهج القرآني— بل لا تتضح ضرورتها دون التعامل المنهجي مع القرآن.

بل إن مشكلات عصر التدوين التي أحقت بالقرآن وحجبت الكثير من أنواره لا يمكن تجاؤها، وإخراج القرآن من إسرها بدون المنهج القرآني المعرفي المعادل للمنهج العلمي والمستوعب له، والمتجاوز له في طاقاته وقدراته.

الحقوق في الإسلام

يرتبط موضوع الحقوق ارتباطاً وثيقاً بالشريعة الإسلامية وهو جزءاً منها وبالتشريعات الوضعية على حد سواء لذلك فلا بد من أن نخصص لها محورا خاصا في هذا الباب المخصص للتشريع الإسلامي .

مفهوم الحق في الإسلام

الحق في اللغة: الأمر الثابت اللازم للفرد والجماعة، أما في الاصطلاح الشرعي: فهو مصلحة مقررة شرعاً، وكل حق في الإسلام يقابله واجب، لكي يضمن المسلم التمتع بحقوقه، فمثلاً التعلم حق للطفل وواجب على الدولة، ومن خصائص الحق في الفكر الإسلامي؛ أنه ثابت، ومحدد، وواجب، كما أنه صحيح، وصادق، ولازم، ومطابق للواقع. والحق اسم

من أسماء الله -تعالى-، التي وصف بها نفسه في قوله -عز وجل-: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)، وقد خلق الله الناس وشرع لهم حقوقاً، وعرفهم بها، كما حدّ حدوداً لحمايتها ورعايتها، وسنّ العقوبات الصارمة في حق كل من اعتدى عليها .

الحق في القرآن الكريم

ذكر الله -تعالى- مصطلح الحق في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وفي كل موضع تحمل دلالة مختلفة، وسنذكر بعضها فيما يأتي: الدين المقرون بالأدلة الصحيحة والحجج الطاهرة، والباطل الممثل بالشك والزيغ المقرون بالحجج المريضة والناقصة، فقد كانت دعوى الأنبياء دعوى حق تبرهن على وجود الله، قال -تعالى-: (ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) . التوحيد ذُكرت كلمة الحق في القرآن الكريم، ودلت على التوحيد، قال -تعالى-: (وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) . الحظ والنصيب مثل الزكاة والتي تعدّ حقاً من حقوق الفقراء، وواجباً على الأغنياء، لقوله -تعالى-: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)، الصدق جاءت كلمة الحق بمعنى الصدق في القرآن الكريم، وذلك في قوله -تعالى-: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) . العدل جاءت كلمة الحق بمعنى إحقاق الحق والعدل، قال -تعالى-: (إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ) .

أنواع الحقوق في الإسلام

يعتبر الإسلام أن كل حق للإنسان هو في نفس الوقت حق للبشرية، وذلك من غير تمييز في اللون والجنس، حيث إن المساس بها هو إخلال بالحق الإلهي، ومن أنواع الحقوق في الإسلام ما يأتي: حقوق الله -تعالى- على العباد: تتجلى في عبادته -جل جلاله-، وعدم الإشراك به، واتباع أوامره واجتناب نواهيه. حقوق النفس: من خلال القيام بالحاجات الأساسية لها من تغذية ونظافة، وعدم تحميلها فوق طاقتها، واجتناب حرمانها من النعم التي أنعمها الله -تعالى- على عباده. حقوق العباد على العباد: حفظ وصون حق الأهل والأبناء والجيران.

تعريف الحق في القانون الوضعي

تعريف الحق في القانون يُعرف الحق (بالإنجليزية: Right) قانونياً بالمستحقات الواجبة مثل العدالة، والإجراءات القانونية، والملكية الشخصية، وتكون الحقوق القانونية إما حقوق الحريات؛ كحرية الحماية من تدخل الآخرين، وحرية التمتع بالحياة الشخصية والممتلكات، بالإضافة إلى الحقوق المدنية التي يتمتع بها المواطنين؛ كحق الانتخاب، والدخول إلى المحاكم، ورفع القضايا، وهناك أيضاً الحقوق الطبيعية الأساسية التي لم تنكرها الدول المتحضرة بل حافظت عليها؛ كحق الإنسان في الحماية من الإرهاب، والتعذيب، والحرمان من الحقوق المدنية. يُعد وجود حقوق قانونية مُعترف بها بموجب العقوبات القانونية التي تفرضها الدولة أمراً هاماً يُمكن الشخص من ممارسة أموره الحياتية بسهولة؛ كما تملكه لممتلكات معينة، أو الخوض في صفقات مع الآخرين، أو الامتناع عن ممارسة بعض السلوكيات، إذ يحتكم الناس فيما بينهم في المحاكم القضائية وفقاً لهذه الحقوق القانونية، ويُشار إلى أن هناك اختلافاً بين الحقوق القانونية والحقوق الأخلاقية أو ما تُعرف بالحقوق الطبيعية، إذ تكون الحقوق القانونية محمية بموجب الدستور، ومعترف بها على خلاف القوانين الطبيعية التي قد لا تعترف بها بعض الدول ولا تحميها بموجب القانون. يُعرف الحق القانوني من منظور آخر على أنه مصلحة معترف بها ومحمية بقواعد وأحكام الحقوق، وهذا يعني أنه من اللازم أن يكون في المصلحة منفعة حتى يتشكل

فيها الحق، بالإضافة إلى ذلك يجب على الحق القانوني أن يكون خاضعاً للتنفيذ من قبل الجهات القضائية، إذ يُشير ساموند (بالإنجليزية: Salmond) إلى أنه لا يكون الحق حقاً قانونياً إلا إذا كان قابلاً للتنفيذ قضائياً، الأمر الذي يجعل من الواجب احترام الحق القانوني، ومن الخطأ تجاهله.

لائحة حقوق الإنسان في الإسلام

وقد نشرت عدة هيئات إسلامية لائحة تتضمن حقوق الإنسان في الإسلام ومنها :

١ إعلان حقوق الإنسان وواجباته في الإسلام الصادر عن رابطة العالم الإسلامي

عام ١٩٧٩م.

٢ البيان الإسلامي العالمي الصادر عن المجلس الإسلامي الأوروبي في لندن عام

١٩٨٠م

٣ البيان العالمي لحقوق الإنسان في الإسلام الصادر عن المجلس نفسه في لندن في

عام ١٩٨١م.

٤ مشروع وثيقة حق وق الإنسان في الإسلام الذي قُدم إلى مؤتمر القمة لمنظمة

المؤتمر الإسلامي في الطائف في يناير ١٩٨٩م.

٥ مشروع إعلان حقوق الإنسان الذي قُدم إلى المؤتمر الخامس لحقوق الإنسان في

طهران في ديسمبر عام ١٩٨٩م.

٦ إعلان القاهرة عن حقوق الإنسان في الإسلام ١٩٩٠م.

٧ إعلان روماح ول حقوق الإنسان في الإسلام الصادر عن ندوة حقوق الإنسان في

الإسلام ٢٥ - ٢٧ فبراير

ونظرا لأهميته وشموليته فاننا ننشر البيان الإسلامي العالمي الصادر عن المجلس الإسلامي الأوروبي في لندن عام

. 1981

البيان العالمي عن حقوق الإنسان في الإسلام

اعتمد من قبل المجلس الإسلامي بتاريخ باريس 21 من ذي القعدة 1401هـ، الموافق 19 أيلول/سبتمبر 1981م

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، وبعد: فهذه

هي الوثيقة الإسلامية الثانية، يعلنها المجلس الإسلامي الدولي للعالم . . متضمنة حقوق الإنسان في الإسلام.

ومن قبل اصدر المجلس الوثيقة الأولى "البيان الإسلامي العالمي" عن النظام الإسلامي متضمنة الأطر العامة لهذا

النظام.

وأنه لمن دواعي التفاؤل أن يبسر الله صدور الوثيقتين في مستهل القرن الخامس عشر الهجري ومع تصاعد الحركة الإسلامية، التي تؤذن بصحوة الأمة، والتقاء شعوبها على كلمة جامعة . . دعوة صادقة للعودة إلى منهاج الله تعالى، وسعيًا حثيثًا لإعادة صياغة المجتمع الإسلامي على أصول هذا المنهاج.

إن حقوق الإنسان في الإسلام ليست منحة من ملك أو حاكم، أو قرار صادرًا عن سلطة أو منظمة دولية، وإنما هي حقوق ملزمة بحكم مصدرها الإلهي، لا تقبل الحذف ولا النسخ ولا التعطيل، ولا يسمح بالاعتداء عليها، ولا يجوز التنازل عنها .

ووثيقة حقوق الإنسان في الإسلام - التي نعلنها اليوم - ثمرة طيبة لجهود مخلص أمين، توافر له وتعاون عليه نخبة صالحة، من كبار مفكري العالم الإسلامي، وقادة الحركات الإسلامية فيه، وقد ارتفعوا بها فوق الواقع الراهن، بما يلبسه من اعتبارات الزمان والمكان والأشخاص الخاصة ببيئة أو شعب، فجاءت بحمد الله وتوفيق منه معبرة عن تمثيل صحيح وشامل لحقوق الإنسان، مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

إن المجلس الإسلامي الدولي - وهو يعلن للعالم كله هذه الوثيقة - ليأمل أن تكون زادا للمسلم المعاصر، في جهاده اليومي، وأن تكون دعوة خير لقيادة المسلمين وحكامهم: أن يتواصوا بالحق فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بينهم وبين غيرهم تواصيا ينتهي بهم إلى مراجعة جادة لمناهج حياتهم، وطرائق حكمهم، وعلاقاتهم بشعوبهم وأمتهم، وإلى احترام "حقوق الإنسان" التي شرعها الإسلام، الذي لا يقبل من مسلم أن يتجاهله، أو يخرج عليه .

كما يأمل المجلس: أن تلقى هذه الوثيقة ما هي جديرة به من عناية المنظمات المحلية والدولية، التي تعنى بحقوق الإنسان، وأن تضمها إلى ما لديها من وثائق، تتصل بهذه الحقوق، وتدعو إلى إقرارها في حياة الإنسان حقيقة واقعة .

والله تعالى أسأل: أن يجزي خيرا كل من شارك في إعداد هذه الوثيقة، وأن يفتح لها القلوب، والضمائر، والعقول، بما يحقق ما نرجوه من التجديد الحق لحياة المسلمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل

شرح الإسلام - منذ أربعة عشر قرنا - " حقوق الإنسان " في شمول وعمق، وأحاطها بضمانات كافية لحمايتها، وصاغ مجتمعه على أصول ومبادئ تمكن هذه الحقوق وتدعمها.

والإسلام هو خاتم رسالات السماء، التي أوحى بها رب العالمين إلى رسله - عليهم السلام - ليبلغوها للناس، هداية وتوجيها، إلى ما يكفل لهم حياة طيبة كريمة، يسودها الحق والخير والعدل والسلام.

ومن هنا كان لزاما على المسلمين أن يبلغوا للناس جميعا دعوة الإسلام امتثالا لأمر ربهم: " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " (آل عمران: 104)، ووفاء بحق الإنسانية عليهم وإسهامها مخلصا في استنقاذ العالم مما تردى فيه من أخطاء وتخليص الشعوب مما تنن تحته من صنوف المعاناة.

ونحن معشر المسلمين - على اختلاف شعوبنا وأقطارنا - انطلاقا من :

عبوديتنا لله الواحد القهار . .

ومن: إيماننا بأنه ولي الأمر كله في الدنيا والآخرة، وأن مردنا جميعا إليه وأنه وحده الذي يملك هداية الإنسان إلى ما فيه خيره، وصلاحه بعد أن استخلفه في الأرض، وسخر له كل ما في الكون.

ومن: تصديقنا بوحدة الدين الحق، الذي جاءت به رسل ربنا، ووضع كل منهم لبنة في صرحه حتى أكمله الله تعالى برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فكان كما قال صلى الله عليه وسلم: "أنا اللبنة - الأخيرة - وأنا خاتم النبيين" (رواه البخاري ومسلم).

ومن: تسليمنا بعجز العقل البشري عن وضع المنهاج الأقوم للحياة، مستقلا عن هداية الله ووحيه . . .

ومن: رؤيتنا الصحيحة - في ضوء كتابنا المجيد - لوضع الإنسان في الكون، وللغاية من إيجادها، وللحكمة من خلقه . . .

ومن: معرفتنا بما أصفاه عليه خالقه، من كرامة وتفضيل على كثير من خلقه . . .

ومن: استبصارنا بما أحاطه به ربه - جل وعلا - من نعم، لا تعد ولا تحصى . . .

ومن: تمثنا الحق لمفهوم الأمة، التي تجسد وحدة المسلمين، على اختلاف أقطارهم وشعوبهم.

ومن: رغبتنا الصادقة، في الوفاء بمسئوليتنا تجاه المجتمع الإنساني كأعضاء فيه . . .

ومن: حرصنا على أداء أمانة البلاغ، التي وضعها الإسلام في أعناقنا . . . سعيا من أجل إقامة حياة أفضل . . .

تقوم على الفضيلة، وتطهر من الرذيلة . . .

يحل فيها التعاون بدل التنافر، والإخاء مكان العداوة . . .

يسودها التعاون والسلام، بدلا من الصراع والحروب . . .

حياة يتنفس فيها الإنسان معاني: الحرية، والمساواة، والإخاء، والعزة والكرامة . . . بدل أن يحتق تحت ضغوط العبودية، والتفرقة العنصرية، والطبقية، والقهر والهوان . . . وبهذا يتهيأ لأداء رسالته الحقيقية في الوجود عبادة لخالقه تعالى وعمارة شاملة للكون.

تتيح له أن يستمتع بنعم خالقه، وأن يكون باراً بالإنسانية التي تمثل - بالنسبة له - أسرة أكبر، يشده إليها إحساس عميق بوحدة الأصل الإنساني، التي تنشئ رحماً موصولة بين جميع بني آدم.

وإنطلاقاً من هذا كله: نعلن نحن معشر المسلمين، حملة لواء الدعوة إلى الله - في مستهل القرن الخامس عشر الهجري - هذا البيان باسم الإسلام، عن حقوق الإنسان، مستمدة من القرآن الكريم و"السنة النبوية" المطهرة.

ومن: تصديقنا بوحدة الدين الحق، الذي جاءت به رسل ربنا، ووضع كل منهم لبنه في صرحه حتى أكمله الله تعالى برسالة محمد صلى الله عليه وسلم. وكان كما قال صلى الله عليه وسلم "أنا اللبنة (الأخيرة) وأنا خاتم النبيين . . ." (رواه البخاري ومسلم).

تسليمنا بعجز العقل البشري على وضع المنهاج الأقوام للحياة مستقلاً عن هداية الله ووحيه . .

ومن: رؤيتنا الصحيحة - في ضوء كتابنا المجيد - لوضع الإنسان في الكون، وللغاية من إيجاده وللحكمة في خلقه . .
ومن: معرفتنا بما أضفاه عليه خالقه، من كرامة وعزة وتفضيل على كثير من خلقه . .

ومن: استبصارنا بما أحاطه به ربه - جل وعلا - من نعم لا تعد ولا تحصى . .

ومن: تمثلنا الحق لمفهوم الأمة، التي تجسد وحدة المسلمين، على اختلاف أقطارهم وشعوبهم.

ومن: إدراكنا العميق، لما يعانيه عالم اليوم من أوضاع فاسدة، ونظم آثمة . . .

ومن: رغبتنا الصادقة، في الوفاء بمسئوليتنا تجاه المجتمع الإنساني، كأعضاء فيه . . .

ومن: حرصنا على أداء أمانة البلاغ التي وضعها الإسلام في أعناقنا . . . سعياً من أجل إقامة حياة أفضل . . .

تقوم على الفضيلة وتطهر من الرذيلة . . . يحل فيها التعاون بدل التناكر والإحاء مكان العداوة . . . يسودها التعاون والسلام بديلاً من الصراع والحروب . . . حياة يتنفس فيها الإنسان معاني:

الحرية، والمساواة، والإحاء، والعزة والكرامة . . . بدلاً أن يحتق تحت ضغوط: العبودية، والتفرقة العنصرية، والطبقية، والقهر والهوان . . . وبهذا يتهيأ لأداء رسالته الحقيقية في الوجود:

عبادة لخالقه تعالى. وعمارة شاملة للكون.

تتيح له أن يستمتع بنعم خالقه، وأن يكون باراً بالإنسانية التي تمثل - بالنسبة له - أسرة أكبر، يشده إليها إحساس عميق بوحدة الأصل الإنساني، التي تنشأ رحماً موصولة بين جميع بني آدم.

انطلاقاً من هذا كله

نعلن نحن معشر المسلمين، حملة لواء الدعوة إلى الله - في مستهل القرن الخامس عشر الهجري - هذا البيان باسم الإسلام، عن حقوق الإنسان مستمدة من القرآن الكريم و"السنة النبوية" المطهرة.

وهي - بهذا الوضع - حقوق أبدية، لا تقبل حذفاً ولا تعديلاً . . . ولا نسخاً ولا تعطيلاً . . .

أنها حقوق شرعها الخالق - سبحانه - فليس من حق بشر - كائن من كان - أن يعطلها، أو يعتدي عليها، ولا تسقط حصاتها الذاتية، لا بإرادة الفرد تنازلاً عنها، ولا بإرادة المجتمع ممثلاً فيما يقيمه من مؤسسات أيا كانت طبيعتها، وكيفما كانت السلطات التي تخولها .

إن إقرار هذه الحقوق هو المدخل الصحيح لإقامة مجتمع إسلامي حقيقي ...

1- مجتمع: الناس جميعاً فيه سواء، لا إمتياز ولا تمييز بين فرد وفرد على أساس من أصل أو عنصر، أو جنس، أو لون، أو لغة، أو دين .

2- مجتمع: المساواة فيه أساس التمتع بالحقوق، والتكليف بالواجبات ... مساواة تتبع من وحدة الأصل الإنساني المشترك: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى" (الحجرات: الآية 13) . ومما أسبغ الخالق - جل جلاله - على الإنسان من تكريم " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً" (الإسراء: الآية 70) .

3- مجتمع: حرية الإنسان فيه مرادفة لمعنى حياته سواء، يولد بها، ويحقق ذاته في ظلها، أمناً من الكبت، والقهر، والإذلال، والاستعباد .

4- مجتمع: يرى في الأسرة نواة المجتمع، ويحوطها بحمايته وتكريمه، ويهيئ لها كل أسباب الاستقرار والتقدم .

5- مجتمع: يتساوى فيه الحاكم والرعية، أمام شريعة من وضع الخالق - سبحانه - دون امتياز أو تمييز .

6- مجتمع: السلطة فيه أمانة، توضع في عنق الحاكم، ليحقق ما رسمته الشريعة من غايات، وبالمنهج الذي وضعتة لتحقيق هذه الغايات .

7- مجتمع: يؤمن كل فرد فيه أن الله - وحده هو مالك الكون كله، وأن كل ما فيه مسخر لخلق الله جميعا، عطاء من فضله، دون استحقاق سابق لأحد، ومن حق كل إنسان أن ينال نصيبا عادلا من هذا العطاء الإلهي: "وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه" (الجالثية: الآية 13).

8- مجتمع: تقرر فيه السياسات التي تنظم شؤون الأمة، وتمارس السلطات التي تطبقها وتنفذها "بالشورى": "وأمرهم شورى بينهم" (الشورى: الآية 38).

9- مجتمع: تتوافر فيه الفرص المتكافئة، ليتحمل كل فرد فيه من المسؤوليات بحسب قدرته وكفاءته وتم محاسبته عليها دينويا أمام أمته وأخرويا أمام خالقه "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" (رواه الخمسة).

10- مجتمع: يقف فيه الحاكم والمحكوم على قدم المساواة أمام القضاء، حتى في إجراءات التقاضي.

11- مجتمع: كل فرد فيه هو ضمير مجتمعه، ومن حقه أن يقيم الدعوى - حسبة - ضد أي إنسان يرتكب جريمة في حق المجتمع، وله أن يطلب المساندة من غيره . . . وعلى الآخرين أن ينصروه ولا يخذلوه في قضيته العادلة.

12- مجتمع: يرفض كل ألوان الطغيان، ويضمن لكل فرد فيه: الأمن، والحرية، والكرامة والعدالة بالتزام ما قررتة شريعة الله للإنسان من حقوق، والعمل على تطبيقها، والسهر على حراستها . . . تلك الحقوق التي يعلنها للعالم: "هذا البيان"

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الإنسان في الإسلام

I- حق الحياة:

(أ) حياة الإنسان مقدسة . . . لا يجوز لأحد أن يعتدي عليها: "من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا" (المائدة: 32) . ولا تسلب هذه القدسية إلا بسلطان الشريعة وبالإجراءات التي تقرها .

(ب) كيان الإنسان المادي والمعنوي حمى، تحميه الشريعة في حياته، وبعد مماته، ومن حقه الترفق والتكريم في التعامل مع جثمانه: "إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كنفه" (رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي) . ويجب ستره سوءاته وغيوبه الشخصية: "لا تسبو الأموات فإنهم أفضوا إلى ما قدموا" (رواه البخاري) .

2- حق الحرية:

(أ) حرية الإنسان مقدسة - كحياته سواء - وهي الصفة الطبيعية الأولى التي بها يولد الإنسان: "ما من مولود إلا ويولد على الفطرة" (رواه الشيخان) . وهي مستصحية ومستمرة ليس لأحد أن يعتدي عليها: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا" من كلمة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه . ويجب توفير الضمانات الكافية لحماية حرية الأفراد، ولا يجوز تقييدها أو الحد منها إلا بسلطان الشريعة، وبالإجراءات التي تقرها .

(ب) لا يجوز لشعب أن يعتدي على حرية شعب آخر، وللشعب المعتدى عليه أن يرد العدوان، ويسترد حريته بكل السبل الممكنة: "ولمن اتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل" (الشورى: 41) . وعلى المجتمع الدولي مساندة كل شعب يجاهد من أجل حريته، ويتحمل المسلمون في هذا واجبا لا ترخص فيه: "الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر" (الحج: 41) .

3- حق المساواة:

(أ) الناس جميعا سواسية أمام الشريعة: "لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى" من خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم. ولا تمايز بين الأفراد في تطبيقها عليهم: "لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" (رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي). ولا في حمايتها إياهم: "ألا إن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق له، وأقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق منه" من خطبة لأبي بكر رضي الله عنه عقب توليته خليفة على المسلمين.

(ب) الناس كلهم في القيمة الإنسانية سواء: "كلكم لآدم وآدم من تراب" من خطبة حجة الوداع. وإنما يتفاضلون بحسب عملهم: "ولكل درجات مما عملوا" (الأحقاف: 19)، ولا يجوز تعريض شخص لخطر أو ضرر بأكثر مما يتعرض له غيره: "المسلمون تكافأ دماؤهم" (رواه أحمد). وكل فكر وكل تشريع، وكل وضع يسوغ التفرقة بين الأفراد على أساس الجنس، أو العرق، أو اللون، أو اللغة، أو الدين، هو مصادرة مباشرة لهذا المبدأ الإسلامي العام.

(ج) لكل فرد حق في الانتفاع بالموارد المادية للمجتمع من خلال فرصة عمل مكافئة لفرصة غيره: "امشوا في مناكبها وكلوا من رزقه" (الملك: 15). ولا يجوز التفرقة بين الأفراد في الأجر، ما دام الجهد المبذول واحدا، والعمل المؤدي واحدا كما وكيفيا: "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" (الزلزلة: 7 و 8).

4- حق العدالة:

(أ) من حق كل فرد أن يتحاكم إلى الشريعة، وأن يحاكم إليها دون سواها: "فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول" (النساء: 59)، "وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم" (المائدة: 49).

(ب) من حق الفرد أن يدفع عن نفسه ما يلحقه من ظلم: "لا يجب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم" (النساء: 148) ومن واجبه أن يدفع الظلم عن غيره بما يملك: "لينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً: إن كان ظالماً فلينبهه وإن كان مظلوماً فلينبصره" (رواه الشيخان والترمذي). ومن حق الفرد أن يلجأ إلى سلطة شرعية تحميه وتصفه، وتدفع عنه ما لحقه من ضرر أو ظلم، وعلى الحاكم المسلم أن يقيم هذه السلطة، ويوفر لها الضمانات الكفيلة بجديتها واستقلالها: "إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه، ويحتمي به" (رواه الشيخان).

(ج) من حق الفرد - ومن واجبه - أن يدافع عن حق أي فرد آخر، وعن حق الجماعة "حسبة": "ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها" (رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي) - تطوع بها حسبة دون طلب من أحد - .

(د) لا تجوز مصادرة حق الفرد في الدفاع عن نفسه تحت أي مسوغ: "إن لصاحب الحق مقالاً" (رواه الخمسة)، "إذا جلس بين يدك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر، كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء" (رواه أبو داود والترمذي بسند حسن).

(هـ) ليس لأحد أن يلزم مسلماً بأن يطيع أمراً يخالف الشريعة، وعلى الفرد المسلم أن يقول: "لا" في وجه من يأمره بمعصية، أيا كان الأمر: "إذا أمر بمعصية لا سمع ولا طاعة" (رواه الخمسة). ومن حقه على الجماعة أن تحمي رفضه تضامناً مع الحق: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه" (رواه البخاري).

5- حق الفرد في محاكمة عادلة:

(أ) البراءة هي الأصل: "كل أمي معافى إلا المجاهرين" (رواه البخاري). وهو مستصحب ومستمر حتى مع إتهام الشخص ما لم تثبت إدانته أمام محكمة عادلة إدانة نهائية.

(ب) لا تجريم إلا بنص شرعي: "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا" (الإسراء: 15)، ولا يعذر مسلم بالجهل بما هو معلوم من الدين بالضرورة، ولكن ينظر إلى جهله - متى ثبت - على أنه شبهة تدرأ بها الحدود فحسب: "وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم" (الأحزاب: 5).

(ج) لا يحكم بتجريم شخص، ولا يعاقب على جرم إلا بعد ثبوت ارتكابه له بأدلة لا تقبل المراجعة، أمام محكمة ذات طبيعة قضائية كاملة: "إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا" (الحجرات: 6). "وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً" (النجم: 28).

(د) لا يجوز - مجال - تجاوز العقوبة، التي قدرتها الشريعة للجريمة: "تلك حدود الله فلا تعدوها" (البقرة: 229)، ومن مبادئ الشريعة مراعاة الظروف والملابسات، التي ارتكبت فيها الجريمة درءاً للحدود: "ادروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله" (رواه البيهقي والحاكم بسند صحيح).

(هـ) لا يؤخذ إنسان بجريمة غيره: "ولا تزر وازرة وزر أخرى" (الإسراء: 15)، وكل إنسان مستقل بمسئوليته عن أفعاله: "كل امرئ بما كسب رهين" (الطور: 21)، ولا يجوز مجال - أن تمت المساءلة إلى ذويه من أهل وأقارب، أو أتباع وأصدقاء: "معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون" (يوسف: 79).

6- حق الحماية من تعسف السلطة:

لكل فرد الحق في حمايته من تعسف السلطات معه، ولا يجوز مطالبته بتقديم تفسير لعمل من أعماله أو وضع من أوضاعه، ولا توجيه اتهام له إلا بناء على قرائن قوية تدل على تورطه فيما يوجه إليه: "والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً" (الأحزاب: 58).

7- حق الحماية من التعذيب:

(أ) لا يجوز تعذيب المجرم فضلاً عن المتهم: "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا" (رواه الخمسة)، كما لا يجوز حمل الشخص على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها، وكل ما ينتزع بوسائل الإكراه باطل: "إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه" (رواه ابن ماجه بسند صحيح).

(ب) مهما كانت جريمة الفرد، وكيفما كانت عقوبتهما المقدرة شرعاً، فإن إنسانيته، وكرامته الأدمية تظل مصونة.

8- حق الفرد في حماية عرضه وسمعته:

عرض الفرد، وسمعته حرمة لا يجوز انتهاكها: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا" من خطبة الوداع. ويحرم تنع عوراته، ومحاولة النيل من شخصيته، وكيانه الأدبي: "ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً" (الحجرات: 12)، "ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقاب" (الحجرات: 11).

9- حق اللجوء:

(أ) من حق كل مسلم مضطهد أو مظلوم أن يلجأ إلى حيث يأمن، في نطاق دار الإسلام. وهو حق يكفله الإسلام لكل مضطهد، أيا كانت جنسيته، أو عقيدته، أو لونه ويحمل المسلمين واجب توفير الأمن له متى لجأ إليهم: "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه" (التوبة: 6).

(ب) بيت الله الحرام - بمكة المشرفة - هو مثابة وأمن للناس جميعا لا يصد عنه مسلم: "ومن دخله كان آمنا" (آل عمران: 97). "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا" (البقرة: 256)، "سواء العاكف فيه والباد" (الحج: 25).

IO- حقوق الأقليات:

(أ) الأوضاع الدينية للأقليات يحكمها المبدأ القرآني العام: "لا إكراه في الدين" (البقرة: 256).

(ب) الأوضاع المدنية، والأحوال الشخصية للأقليات تحكمها شريعة الإسلام إن هم تحاكموا إلينا: "فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط" (المائدة: 42).
فإن لم يتحاكموا إلينا كان عليهم أن يتحاكموا إلى شرائعهم ما دامت تنتمي - عندهم - لأصل إلهي: "وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك" (المائدة: 43)، "وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه" (المائدة: 47).

II- حق المشاركة في الحياة العامة:

(أ) من حق كل فرد في الأمة أن يعلم بما يجري في حياتها، من شؤون تتصل بالمصلحة العامة للجماعة، وعليه أن يسهم فيها بقدر ما تتيح له قدراته ومواهبه، إعمالا لمبدأ الشورى: "وأمرهم شورى بينهم" (الشورى: 38). وكل فرد في الأمة أهل لتولي المناصب والوظائف العامة، متى توافرت فيه شرائطها الشرعية، ولا تسقط هذه الأهلية، أو تنقص تحت أي اعتبار عنصري أو طبقي: "المسلمون متكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم" (رواه أحمد).

(ب) الشورى أساس العلاقة بين الحاكم والأمة، ومن حق الأمة أن تختار حكامها . بإرادتها الحرة، تطبيقاً لهذا المبدأ، ولها الحق في محاسبتهم وفي عزلهم إذا حادوا عن الشريعة: "إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتوني على حق فأعينوني، وإن رأيتوني على باطل فقوموني . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم" من خطبة أبي بكر رضي الله عنه عقب توليته الخلافة .

I2- حق حرية التفكير والاعتقاد والتعبير:

(أ) لكل شخص أن يفكر، ويعتقد، ويعبر عن فكره ومعتقد، دون تدخل أو مصادرة من أحد ما دام يلتزم الحدود العامة التي أقرتها الشريعة، ولا يجوز إذاعة الباطل، ولا نشر ما فيه ترويح للفاحشة أو تحذيل للأمة: "لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً" (الأحزاب: 60 و 61) .

(ب) التفكير الحر - مجتاً عن الحق - ليس مجرد حق فحسب، بل هو واجب كذلك: "قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا" (سبأ: 46) .

(ج) من حق كل فرد ومن واجبه: أن يعلن رفضه للظلم، وإنكاره له، وأن يقاومه، دون تهيب مواجهة سلطة متعسفة، أو حاكم جائر، أو نظام طاغ . . وهذا أفضل أنواع الجهاد: "سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الجهاد أفضل؟ قال: كلمة حق عند سلطان جائر" (رواه الترمذي والنسائي بسند حسن) .

(د) لا حظر على نشر المعلومات والحقائق الصحيحة، إلا ما يكون في نشره خطر على أمن المجتمع والدولة: "وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أُولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم" (النساء: 83).

(هـ) احترام مشاعر المخالفين في الدين من خلق المسلم، فلا يجوز لأحد أن يسخر من معتقدات غيره، ولا أن يستعدي المجتمع عليه: "ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم، كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم" (الأنعام: 108).

I3- حق الحرية الدينية:

لكل شخص: حرية الاعتقاد، وحرية العبادة وفقا لمعتقده: "لكم دينكم ولي دين" (الكافرون: 6).

I4- حق الدعوة والبلاغ:

(أ) لكل فرد الحق أن يشارك - منفردا ومع غيره - في حياة الجماعة: دينيا، واجتماعيا، وثقافيا، وسياسيا، الخ، وأن ينشئ من المؤسسات، ويصطنع من الوسائل ما هو ضروري لممارسة هذا الحق: "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله، على بصيرة أنا ومن اتبعني" (يوسف: 108).

(ب) من حق كل فرد ومن واجبه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يطالب المجتمع بإقامة المؤسسات التي تهيم للأفراد الوفاء بهذه المسؤولية، تعاونوا على البر والتقوى: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" (آل عمران: 104)، "وتعاونوا على البر والتقوى" (المائدة: 12)، "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب" (رواه أصحاب السنن بسند صحيح).

(أ) الطبيعة - بثرواتها جميعا - ملك لله تعالى: "الله ملك السموات والأرض وما فيهن" (المائدة: 120). وهى عطاء منه للبشر، منحهم حق الانتفاع بها: "وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا" (الجمعة: 13). وحرّم عليهم إفسادها وتدميرها: ولا تعثوا في الأرض مفسدين" (الشعراء: 183). ولا يجوز لأحد أن يحرم آخر أو يعتدي على حقه في الانتفاع بما في الطبيعة من مصادر الرزق: "وما كان عطاء ربك محظورا" (الإسراء: 20).

(ب) لكل إنسان أن يعمل وينتج، تحصيلًا للرزق من وجوه المشروع: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها" (هود: 6)، "فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه" (الملك: 15).

(ج) الملكية الخاصة مشروع - على انفراد ومشاركة - ولكل إنسان أن يقتني ما اكتسبه بجهده وعمله: "وأنه هو أغنى وأقنى" (النجم: 48). والملكية العامة مشروع، وتوظف لمصلحة الأمة بأسرها: "ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم" (الحشر: 7).

(د) لفقراء الأمة حق مقرر في مال الأغنياء، نظمته الزكاة، "والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم" (المعارج: 24 و 25). وهو حق لا يجوز تعطيله، ولا منعه، ولا الترخص فيه، من قبل الحاكم، ولو أدى به الموقف إلى قتال مانعي الزكاة: "والله لو منعوني عقالا، كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه" من كلام أبي بكر رضي الله عنه في مشاورته الصحابة في أمر مانعي الزكاة.

(هـ) توظيف مصادر الثروة، ووسائل الإنتاج لمصلحة الأمة واجب، فلا يجوز إهمالها ولا تعطيلها: "ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بالنصيحة إلا لما يجد رائحة الجنة" (رواه الشيخان)، كذلك لا يجوز استثمارها فيما حرّمته الشريعة، ولا فيما يضر بمصلحة الجماعة.

(و) ترشيدا للنشاط الاقتصادي، وضمانا لسلامته، حرم الإسلام:

1- الغش بكل صورته: "ليس منا من غش" (رواه مسلم).

2- الغرر والجهالة، وكل ما يفضي إلى منازعات، لا يمكن إخضاعها لمعايير موضوعية: "نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الحصاة، وعن بيع الغرر" (رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي)، "نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع العنب حتى يسود وعن بيع الحب حتى يشتد" (رواه الخمسة).

3- الاستغلال والتغابن في عمليات التبادل: "ويل للمطففين الذين إذا آكلوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون" (المطففين: 1 و 2).

4- الاحتكار، وكل ما يؤدي إلى منافسة غير متكافئة: "لا يحتكر إلا خاطئ" (رواه مسلم).

5- الربا، وكل كسب طفيلي، يستغل ضوابط الناس: "وأحل الله البيع وحرم الربا" (البقرة: 275).

6- الدعايات الكاذبة والخادعة: البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن غشا وكذبا محقت بركة بيعهما" (رواه الخمسة).

(ز) رعاية مصلحة الأمة، والتزام قيم الإسلام العامة، هما القيد الوحيد على النشاط الاقتصادي، في مجتمع المسلمين.

لا يجوز انتزاع ملكية نشأت عن كسب حلال، إلا للمصلحة العامة: "ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل" (البقرة: I88)، ومع تعويض عادل لصاحبها: "من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين" (رواه البخاري). وحرمة الملكية العامة أعظم، وعقوبة الاعتداء عليها أشد لأنه عدوان على المجتمع كله، وخيانة للأمة بأسرها: "من استعملناه منكم على عمل فكنمنا منه مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة" (رواه مسلم). "قيل يا رسول الله: إن فلانا قد استشهد! قال: كلا! لقد رأيته في النار بعباءة قد غلها. ثم قال: يا عمر: قم فناد: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون - ثلاثاً -" (رواه مسلم والترمذي).

"العمل": شعار رفعه الإسلام لمجتمعه: "وقل اعملوا" (التوبة: IO5)، وإذا كان حق العمل: الإلتقان: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه" (رواه أبو يعلى، مجمع الزوائد، ج 4).
فإن حق العامل:

I- أن يوفى أجره المكافئ لجهده دون حيف عليه أو مماطلة له: "أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه" (رواه ابن ماجة بسند جيد).

2- أن توفر له حياة كريمة تتناسب مع ما يبذله من جهد وعرق: "ولكل درجات مما عملوا" (الأحقاف: IO9).

3- أن يمنح ما هو جدير به من تكريم المجتمع كله له: "اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" (التوبة: IO5).
"إن الله يحب المؤمن المحترف" (رواه الطبراني، مجمع الزائد، ج 4).

4- أن يجد الحماية التي تحول دون غيبته واستغلال ظروفه قال الله تعالى: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه حقه" (رواه البخاري (حديث قدسي)).

18- حق الفرد في كفايته من مقومات الحياة:

من حق الفرد أن ينال كفايته من ضروريات الحياة . . من طعام، وشراب، وملبس، ومسكن . . ومما يلزم لصحة بدنه من رعاية، وما يلزم لصحة روحه، وعقله، من علم، ومعرفة، وثقافة، في نطاق ما تسمح به موارد الأمة - ويمتد واجب الأمة في هذا ليشمل ما لا يستطيع الفرد أن يستقل بتوفيره لنفسه من ذلك: "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم" (الأحزاب: 6).

19- حق بناء الأسرة:

(ب) الزواج - بإطاره الإسلامي - حق لكل إنسان، وهو الطريق الشرعي لبناء الأسرة وإنجاب الذرية، واعفاف النفس: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء" (النساء: I).

لكل من الزوجين قبل الآخر - عليه وله - حقوق وواجبات متكافئة قررتها الشريعة "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة" (البقرة: 228)، وللأب تربية أولاده: بدينا، وخلقيا، ودينيا، وفقا لعقيدته وشريعته، وهو مسئول عن اختياره الوجهة التي يوليهم إياها: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" (رواه الخمسة).

(ح) مسؤولية الأسرة شركة بين أفرادها، كل بحسب طاقته، وطبيعة فطرته، وهي مسؤولية تتجاوز دائرة الآباء والأولاد، لتعم الأقارب وذوي الأرحام: "يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك! ثم أمك! ثم أمك! ثم أبك ثم الأقرب فالأقرب" (رواه أبو داود والترمذي بسند حسن).

(ط) لا يجبر الفتى أو الفتاة على الزواج ممن لا يرغب فيه: "جاءت جارية بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت أن أباهما زوجها وهي كارهة فخيرها النبي صلى الله عليه وسلم" (رواه أحمد وأبو داود).

20- حقوق الزوجة:

(أ) أن تعيش مع زوجها حيث يعيش "أسكنوهن من حيث سكنتم" (رواه أحمد وأبو داود).

(ب) أن ينفق عليها زوجها بالمعروف طوال زواجهما، وخلال فترة عدتها إن هو طلقها: "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم" (الطلاق: 6). "وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يرضعن أرباعهن" (النساء: 34)، وأن تأخذ من مطلقها نفقة من تحضنهم من أولاده منها، بما يتناسب مع كسب أبيه "فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن" (الطلاق: 6).

(ج) تستحق الزوجة هذه النفقات أيا كان وضعها المالي وأيا كانت ثروتها الخاصة.

(د) للزوجة: أن تطلب من زوجها: إنهاء عقد الزواج - وديا - عن طريق الخلع: "فإن خفتم ألا يقيما [الزوجان] حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به" (البقرة: 229). كما أن لها أن تطلب التطلق قضائيا في نطاق أحكام الشريعة.

(هـ) للزوجة حق الميراث من زوجها، كما ترث من أبيها، وأولادها، وذوي قرابتها: "ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم" (النساء: 12).

(و) على كلا الزوجين أن يحفظ غيب صاحبه، وألا يفشي شيئا من أسراره، وألا يكشف عما قد يكون به من نقص خلقي أو خلقي، ويتأكد هذا الحق عند الطلاق وبعده: "ولا تنسوا الفضل بينكم" (البقرة: 237).

21- حق التربية:

(أ) التربية الصالحة حق الأولاد على الآباء، كما أن البر وإحسان المعاملة حق الآباء على الأولاد: "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا" (الإسراء: 23 و 24).

(ب) التعليم حق للجميع، وطلب العلم واجب على الجميع ذكورا وإناثا على السواء: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" (رواه ابن ماجة).

والتعليم حق لغير المتعلم على المتعلم: "وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون" (آل عمران: 187)، "ليبلغ الشاهد الغائب" من خطبة حجة الوداع.

(ج) على المجتمع أن يوفر لكل فرد فرصة متكافئة، ليتعلم ويستنير: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين. وإنما أنا قاسم والله - عز وجل - يعطي" (رواه الشيخان). ولكل فرد أن يختار ما يلائم مواهبه وقدراته: "كل ميسر لما خلق له" (رواه الشيخان وأبو داود والترمذي).

22- حق الفرد في حماية خصوصياته:

سراير البشر إلى خالقهم وحده: "أفلا شققت عن قلبه" رواه مسلم، وخصوصياتهم حمى، لا يحل التسور عليه: "ولا تجسسوا" (الحجرات: 12). يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يفض الإيمان إلى قلبه: "لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله" (رواه أبو داود والترمذي واللفظ هنا له).

23- حق حرية الارتحال والإقامة:

(أ) من حق كل فرد أن تكون له حرية الحركة، التنقل من مكان إقامته وإليه، وله حق الرحلة والهجرة من موطنه، والعودة إليه دون ما تضيق عليه، أو تعويق له: "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه" (الملك: 15)، "قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين" (الأنعام: 11)، "لم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها" (النساء: 97).

(ب) لا يجوز إجبار شخص على ترك موطنه، ولا إبعاده عنه - تعسفاً - دون سبب شرعي: "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله" (البقرة: 217).

(ج) دار الإسلام واحدة . . وهي وطن لكل مسلم، لا يجوز أن تقيد حركته فيها بجواز جغرافية، أو حدود سياسية . . وعلى كل بلد مسلم أن يستقبل من يهاجر إليه أو يدخله من المسلمين استقبال الأخ لأخيه: "والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" (الحشر: 9).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،

أكتفينا باستخدام لفظ "حقوق" ولم نستخدم معه لفظ "واجبات" لأن كل ما هو "حق" لفرد هو "واجب" على آخر (حق الرعية = واجب على الراعي، حق الوالد = واجب على الولد، حق الزوجة = واجب على الزوج، وبالعكس حق الراعي = واجب على الرعية، الخ) . ومادامت حقوق الإنسان في الإسلام شاملة لجميع الأفراد، على اختلاف مواقعهم وعلاقاتهم فقد أصبح ما هو "الحق" من وجه . . هو "الواجب" من وجه آخر! .

انتهى الإعلان

تحكيم الشرعية وتطبيقها

راينا في المحاور التي بحثنا فيها ان شرع الله بين وواضحة معاملة وقواعده وقوانينه وهناك الكثير من الكتب قد خصصت لبيان الأحكام الشرعية مفصلة تفصيلا ولقد طبقت هذه الشريعة وهذه الأحكام في عهد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وكان الرسول الكريم مشرفا وراعيا وشاهدا على تنفيذها .

لا مجال هنا لتتبع حالات تطبيق وتحكيم هذه الشريعة في مختلف العهود الإسلامية وليس هذا من مهام بحثنا هذا الذي أقتصر فقط على تبيانها وتوضيح معالمها .

والسؤال الذي يهمننا في هذا العصر وفي وقتنا هذا وهو هل يمكن تحكيم الشرعية وتطبيقها وكيف ؟

ماذا يعني تحكيم الشريعة؟

في غمار الحراك السياسي والجماهيري الذي تشهده بعض البلاد العربيّة في الآونة الأخيرة ثور دعوى عريضة يحمل رايّتها العلماءُ والليبراليُّون ، يقولون مخاطبين الاسلاميين : (تطالبون بتطبيق الشريعة؟ تهتقون وترفعون الشعارات للمطالبة بها؟ فماذا تعنون بذلك؟ ومن قال: إنّ الشريعة غير موجودة؟ وهل نحن كفّار حتى تنادوا بعودة الإسلام للحكم؟ فالشريعة موجودة ولا خوف عليها من شيء، ولا أحد يهاجم الإسلام، ويمكن لأيّ مسلم أن يقوم بواجباته الشرعية دون أيّ مضايقة! بل إنّ هناك مادةً في أكثر الدساتير العربية تقول: (الإسلام هو دين الدولة، والشريعة الإسلاميّة هي المصدر الرئيسي في التشريع)، حسنٌ إذاً، فالشريعة موجودة ولا خوف عليها؛ فلماذا تطالبون بها؟! أم هو مجرد شعار حماسي لا مضمون له ترفعه الحركات الإسلامية، وتضحك على الشعوب المشتاقة للعدل بعد عهد الظلم والاستبداد كي تصل إلى سدة الحكم؟!).

هذه وغيرها من الدعاوى يطرحها العلماءُ، تلبسًا على الناس، وإيهامًا لهم بأنّ الشريعة مطبّقة، وأنّ زوال الحكم المستبدّين وتطبيق نظام ديمقراطي يضمن الحريّات والعدالة والمساواة هو ذاته تطبيقُ الشريعة، لأنّ الشريعة تدعو لنفس المبادئ التي تضمّنها الديمقراطية، ولا خوف على الشريعة حينئذ!

وفي محورنا هذا سنحاول بعون الله تعالى أن نبين أهمّ الأسس والمعالم لحقيقة "تحكيم الشريعة"، ووضعها موضع التنفيذ، وما يعنيه ذلك في حقيقة الواقع، إذ أسهم طول العهد الذي نُحيت فيه شريعة الله عن الحكم بإيجاد صعوبة في تصوّر معنى تطبيق الشريعة عند الكثير من المسلمين. وقبل أن نعرض الأسس العريضة لمعنى تحكيم الشريعة نجب أن نقول كلمة موجزة عن الحدود، إذ يعتقد الكثير من الناس أنّ تحكيم الشريعة يعني مجرد إقامة الحدود المعطّلة في بلاد المسلمين منذ عقود طويلة، والحدود من ضمن معاني تحكيم الشريعة، فهي أحكام شرعيّة ثابتة لا تلغى بتغيّر الزمان وتبدّل المكان، تقوم الدولة بتنفيذها، ولكنها ليست هي كل معنى "تحكيم الشريعة"! وإنّ أردنا التمثيل: فلو شبّهنا

الشريعة ببستانٍ كبيرٍ، فإنَّ الحدودَ سياجَ هذا البستانِ، ولا يُقالُ لمن نَصَبَ سياجًا حولَ بقعةٍ صحراويةٍ قاحلةٍ: إنَّه أقامَ بستانًا! ولذلك فإنَّ نموذجَ بعضِ الدولِ التي تُقيمُ الحدودَ ولا تُطبِّقُ معنىَ الشريعةِ الحقيقيِّ في سائرِ الشؤونِ هو نموذجٌ يحبُّ العلمانيُّونَ إظهارَه للتدليلِ على أنَّ تطبيقَ الشريعةِ ليس هو ذلك الشيءُ الجذَّابُ، ولا هو يجالِبُ للعدلِ والحريةِ إلى بلادنا! بعدَ هذه المقدمةِ الضروريةِ حولَ الموضوعِ، تتساءلُ مجددًا: ماذا يعني تحكيمُ الشريعةِ؟ هناك أربعةُ أسسٍ لمعنى إقامةِ شرعِ الله في الأرضِ، حتى يتَّضحَ الفارقُ الضخمُ بينَ ما يصوره هؤلاءُ العلمانيُّونَ من تلبسٍ في قضيةِ تطَبِّقِ الشريعةِ، وبينَ حقيقةِ هذا التطبيقِ، بل بينَ ما يدعُونَ إليه من مبادئٍ وأفكارٍ ونُظمٍ للحُكمِ، وبينَ أسسِ النظامِ السياسيِّ في الإسلامِ.

أولًا: ان تحكيم الشريعة معناه: التشريع حقَّ الله الخالص حين يُقام شرعُ الله، فإنَّه يَمُكِّنُ البشَرَ عن التشريع بعضهم لبعض، "وجعل التشريع حقًّا خالصًا لله سبحانه وتعالى، هو الذي يشرع، وهو الذي يضع المعايير، وهو الذي يُحدِّد للبشر ما يجوز لهم وما لا يجوز ولقد بينا ما شرعه الله من حقوق وأحكام وفي ذلك يختلف النظام الإسلامي عن الأنظمة الوضعية في الأرض جميعًا؛ إذ يقوم البشرُ بمهمة التشريع بشكلٍ جماعي (كما في الديمقراطية)، أو بشكلٍ فردي (كما في الدكتاتورية) وحين يكون التشريع حقًّا خالصًا لله فإنه لن يكونَ هناك مصلحةٌ لمجموعةٍ من البشر على حسابِ مجموعةٍ أخرى في هذا التشريع، ولن يشوبه عيوبُ (الجهل) و (الهوى) كما تشوب هذه العيوبُ كلَّ تشريع بشريٍّ؛ لأنَّ الإنسان حين يضع منهجًا لحياته منفردًا دون استرشادٍ بوحى ربَّانيٍّ، فإنَّه بالضرورة (جاهل) لا يدرك كلَّ جوانبِ الجزئية التي يضع لها المنهج وارتباطاتها، وصاحب (هوى) يميل إلى تحقيق رغباته وأهوائه ومصالحه من هذا التشريع، مهما زعم من نزاهة وعدالة!

ثانياً : تحكيم الشريعة معناه: التزام الحاكم والحكوم بما أنزل الله يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجنابة: 18]. فالحاكم والحكوم ملزمان باتِّباع شريعة الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: 58 - 59]. الحاكم مأمورٌ بتطبيق شرع الله في المحكومين، أي: بوضعه موضع التنفيذ وبالعدل المطلوب منه، والمحكوم مأمورٌ بطاعة هذا الحاكم فيما يطبع الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي العلاقة بين الحاكم والمحكوم يتفوق النظام الإسلامي بدرجاتٍ على النظام الديمقراطي، الذي يجعل من محاسبة الحكام (حقاً) يُعطى للأمة، فجعل الإسلام مُحاسبةَ الحكام إنْ خالفوا شرع الله (الدستور أو القانون الأساسي) "واجباً" على الأمة، وليس مجرد حق لها! واجباً تتعبَّد بالقيام به تجاه الحاكم «إذا رأيتُم أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُودع منها» (رواه الإمام أحمد في مسنده). «إنه يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتُكرهون، فمن كرهه فقد برئ، ومن أنكره فقد سلّم، ولكن من رضي وتابع»، أي: من رضي عن منكرهم وتابعهم فيه دون إنكار عليهم فلا برئ ولا سلّم؛ (والحديث رواه مسلم). ﴿ لَمَّا وَقَعَتْ بنو إِسْرَائِيلَ فِي المَعاصِي فَنهَتْهم علماءُهم، فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم على بعض ﴾ ﴿ ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ [المائدة: 78]، قال: فجلس رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكان متكئاً، فقال: لا، والذي نفسي بيده، حتى تَأْطروهم على الحق أطراً ﴿ (سنن الترمذي). وهنا يتجلى دور ما يمكن تسميته "بالسلطة الرقابية" التي يميّز بها النظام الإسلامي بشكل واضح، "

ثالثاً : تحكيم الشريعة معناه: مشاركة الأمة (تتحقق مشاركة الأمة في النظام الإسلامي عن طريق الشورى الملزمة لأهل الحل والعقد، ويكون دورهم تحقيق مصالح الأمة بمختلف الطرق، سواء كان ذلك بممارسات الحسبة أو الشورى أو العزل، أو غيرها أو إيجاد وسيلة عملية لتجسيد هذه المشاركة في الوقت الحالي مما يحقق مصالح الأمة، ويضمن حقوقها في إقامة شرع الله والعدل من قبل الحاكم، وتحقق كذلك عن طريق الشورى الملزمة لأهل النظر والاجتهاد فيما ليس فيه نص ولا إجماع) ضمن القيود التي فرضها الشرع عليهم وفي مجالات محددة . وتقيض "المشاركة" للأمة هو "الاستبداد"، وهو مؤد لا محالة إلى اللامبالاة وفقدان الانتماء وعدم التفاعل مع الأوضاع العامة والاهتمام بها، ولذلك كان التركيز الشديد في النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة، وفي السيرة النبوية على مفهوم "الشورى" ومشاركة الأمة في الأوضاع العامة، ولكن المشاركة وحدها لا تكون على الوجه المطلوب دون وجود عنصر هام جداً في النظام الإسلامي، هذا العنصر هو "الهوية".

رابعاً : تحكيم الشريعة معناه: هوية تجمع الأمة الهوية الإسلامية للأمة والاجتماع عليها أحد أهم أسس النظام الإسلامي، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]. هوية واضحة ناصعة لا تشترك مع غيرها من الهويات في استقطاب الأمة، فتتوحد وجهتها وتعزز انتماءها، وحين يكون النظام الحاكم ذا هوية إسلامية أصيلة تعزز انتماءه للأمة وانتماء الأمة له، لأن الهوية الإسلامية هي الهوية الأصيلة لهذه الأمة منذ وُلدت، ولأنها هي التي حفظت الأمة من الاغتراب الشامل عن الأوضاع العامة لقرون طويلة، وحالة التلاحم والفاعلية التي تنشأ الهوية الإسلامية المشتركة بين الأمة والنظام الذي يحكمها، لا يستطيع إنشاءها أي نظام آخر يحمل هوية دخيلة على الأمة، ولهذا فشلت التجربة "القومية" في تحقيق النهضة لهذه الأمة، وفشلت المدينيات ذات الهوية "الوطنية" في القضاء على حالة "الاغتراب" التي تعاني منها الأمة الإسلامية في هذه البلدان، لأنها تُحدث فراغاً اجتماعياً ينشأ بسبب اعتلاء

هُويّات دخيلة على كيان الأمة، ممّا يعزل الفرد عن الهوموم العامّة ويحصره في همومه الذاتية، لأنّ الهويّة الدخيلة لا تتحقّق ذلك الاستقطاب والجذب الذي تحقّقه الهويّة الإسلاميّة، والتي هي الهويّة الأصيلة لهذه الأمة. وحين يكون النظام السياسي قائماً على: الاجتماع على الإسلام والانتساب إلى الشّرع، تتحقّق - أولاً - شرعيّة هذا النظام: إذ لا شرعيّة دون اجتماع على الإسلام، فلا شرعيّة للأوضاع القوميّة والوطنية القائمة في بلاد المسلمين فإنّه أحرى بالكيانات العلمانيّة ذات الهويّات الوطنيّة والقوميّة أن تخرّج من هذا المفهوم الشرعي للجماعة! وتتحقّق - ثانياً - بالهويّة الإسلاميّة الأصيلة للنظام الحاكم نجاعة "المشاركة" التي تمارسها الأمة في الحكم وفاعليّتها، إذ المشاركة المنتمية انتماء الأصالة أكثر فاعليّة وأقوى من المشاركة التي تفقد إلى عنصر الانتماء، وبذلك يتّضح الفرق الهائل بين اصطبغ النظام بالهويّة الإسلاميّة، تحقّقاً لا إيهاماً، وهي ما سماها القرآن الكريم (الملة) وبين اصطبغها بالهويّات المستوردة الدخيلة على كيان الأمة. تلك أسس أربعة للنظام السياسي الإسلامي، ولمعنى "تحكيم الشريعة" في حقيقة الواقع، لا كما يريد العلمانيون أن يَصوِّروا لنا تطبيق الشريعة وكأنّه شيءٌ مبهم لا حقيقة واضحة له تارة، أو أنّه مجرد تطبيق شكلي للحدود دون وجود منظومة تحكّم علاقة الحاكم بالحكوم، وتضبط سياسات الدولة الداخليّة والخارجيّة تارة أخرى. ويصعب حصر كل معاني تطبيق الشريعة في هذا المقام، ولكنني أقول: إنّ كل جزئية من جزئيات الحياة البشريّة ينبغي أن تنضبط بضوابط الشريعة، وذلك هو مقتضى الإيمان بالله الواحد، وإلا فلا إيمان إن نحن شريعتنا الله عن الحكم واستبدلنا بها شرائع ودساتير جاهليّة من وضع البشر لتحاكم إليها، وإنما الواجب هو التسليم بحكم الله تعالى والقيام بتطبيقه في كل ما يشجر بين الناس، سواء في الحياة العامّة أو في الحياة الخاصّة، وهذا هو المعنى الحقيقي لتطبيق الشريعة ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

المبحث الثاني

الدولة في الإسلام نشأتها وشكلها وأركانها

مراجعة تاريخية

نشأت الدولة في عهد الرسول الكريم وشكلها

ان كل ما ذكر من معلومات تاريخية تتعلق بدولة الرسول الكريم تم أخذه من ثلاث مصادر وهي :

الكتاب الأول: كتاب تخریج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف

والصنائع والعمالات الشرعية، لأبي الحسن الخزاعي المتوفى (سنة ٧٨٩ هـ) .

والذي طبعه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة (سنة ١٩٨٠ م) .

والكتاب الثاني: هو نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتب الإدارية، لكتاب مغربي هو الشيخ عبد الحي الكفاني،

والكتاب مطبوع في دار الكتاب العربي في بيروت ببلبنان بدون تاريخ

والكتاب الثالث : تاريخ الطبري

امتازت الرسالة الإسلامية عن غيرها من الرسائل بأنها علمية- كما وضحنا- امتازت كذلك بأنها دين ودولة، أي:

إنها عقيدة دينية تنبثق منها شريعة يقوم على هذه الشريعة نظام اجتماعي كامل، يحقق- لو طبق تطبيقاً سليماً-

سعادة البشر في الدنيا والآخرة.

ونصوص القرآن واضحة وقطعية الدلالة في ذلك المجال أيضاً . فكما حمل القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم

مسئولية تبليغ الرسالة للناس طبقاً لقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ [المائدة: ٦٧] ؛ فقد حمّله كذلك مسؤولية الحكم بين المسلمين طبقاً لمبادئ وأصول هذه

الرسالة .

يقول الله تعالى: وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ [المائدة: ٤٩] ، ويقول: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

لِتُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا [النساء: ١٠٥] ، ويقول: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [النساء: ٦٥] ، أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ

وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [المائدة: ٥٠] ، هذه النصوص القاطعة الواضحة لا نظن أنها تحتاج إلى كثير من

الشرح والنقاش لنفهم منها أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مأموراً بأن يكون حاكماً للمسلمين وأن المسلمين لا

يكونون مسلمين حقًا إلا إذا ارتضوه حاكمًا لهم، إن الإسلام كما هو عقيدة وعبادة فهو نظام حكم، ما دام الإسلام نظام حكم فلا بد من أن توضح الوسائل اللازمة لتطبيقه في واقع الحياة. ودراسة عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ستوضح لنا أنه صلى الله عليه وسلم قد أرسى قواعد الدولة المنظمة كأحسن ما يكون التنظيم، والحكومة التي ألفها الرسول صلى الله عليه وسلم لإدارة هذه الدولة كانت ملائمة لعصره، ووافية بمجاريات المجتمع الذي كان يحكمه. ولا يصح أن نلتمس في ولايات هذا العصر ومصطلحاته مماثلاً أو مشابهاً لما كان في عهد الرسول.

يقول ابن تيمية في كتابه الحسبة في الإسلام: «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدينته النبوية يتولى جميع ما يتعلق بولاية الأمور، يولي في الأماكن البعيدة . . . ويؤمر على السرايا، ويبعث على الأموال الزكوية السعاة فيأخذونها ممن هي عليه ويدفعونها إلى مستحقيها . . . وكان يستوفي الحساب على العمال يحاسبهم على المستخرج والمصروف» . بل إن الذي يتأمل المصادر القديمة الموثوق بها ويدقق في النصوص يتضح له أن التفكير في أمر الحكم والدولة والنظام السياسي كان موجوداً عند الرسول إلى جانب الدعوة الدينية منذ البداية ووقت أن كان في مكة، فقد ذكر الطبري- أن مشيخة قريش وسرواتهم دخلوا على أبي طالب فقالوا له: أنت كبيرنا وسيدنا فانصفنا من ابن أخيك فمره فليكشف عن شتم أهلكنا وندعه وإلهه. قال: فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم وقد سألوك النصف أن تكف عن شتم أهلكنا ويدعوك وإلهك. قال: «أي عم، أولاً ادعوهم إلى ما هو خير لهم منها؟» قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «ادعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم» . قال: فقال أبو جهل من بين القوم: ما هي وأبيك؟ لنعطينكما وعشرا أمثالها. قال: «تقول: لا إله إلا الله» .

قال: فنفروا وقالوا: سلنا غير هذه، فقال: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها» . قال: فغضبوا وقاموا من عنده غضابا» .

ومما يسترعي الانتباه أن بعض العرب قد فطن إلى ما نفرت منه قريش، وقدر أن هذه الرسالة سوف تتمخض عن دولة. فقد روى ابن إسحاق عن ابن شهاب الزهري أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ما كان يعرض نفسه على القبائل العربية عله يجد نصيرا يؤمن به.

«أتى - النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم يقال له: بجيرة بن فراس: رأيت إن نحن تابعتك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال لهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الأمر لله يضعه حيث يشاء» فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك» . وذكر ابن إسحاق قصة قدوم عدي بن حاتم الطائي على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأكرمه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأجلسه على وسادته وجلس هو على الأرض. ثم قال: «لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم - أي من فقر المسلمين - فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بغيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وإيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم...» .

على أية حال فهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسالته، وأن إنشاء دولة على أساسها أمر أصيل فيها، فما أن هاجر من مكة إلى المدينة حتى شرع على الفور في تأسيس الدولة لتحمي الدعوة وتنظم المجتمع.

وقد يقول قائل: لماذا لم يبدأ منذ البداية في تأسيس الدولة في مكة؟ والرد على ذلك: أن ذلك لم يكن ممكنا في مكة؛ لأن الوضع لم يكن مهيئا، فمكة قد ناصبت الرسالة وصاحبها العدا من البداية بل سدت في وجهه كل الطرق ليلبغها، لغيرهم من الناس، فلم يكن ممكنا ولا منطقيًا الحديث عن قيام الدولة في مكة، أما في المدينة فأصبح الوضع مختلفا تماما والمناخ غير المناخ والناس غير الناس .

فأهل المدينة أبدوا استعدادهم- بمحض إرادتهم- لقبول الرسالة والإيمان بها والدفاع عنها وعن صاحبها مهما كان الثمن . لذلك لم يضيّع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقتا في المدينة، بل بدأ على الفور في وضع لبنات الكيان الجديد، وخطا في ذلك خطوات عملية منها :

أولا: بناء المسجد النبوي في المدينة الذي لم يكن فقط مسجدا للصلاة؛ بل كان مركزا للدعوة ومقرًا للحكم، وليس في هذه العبارة غرابة أو مبالغة، فكما كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلقى الوحي فيه ويبلغه للناس ويشرح ويفسر ويعلم أصول الرسالة، كان كذلك يقضي ويحكم، وفيه يعلم الصحابة- رضوان الله عليهم- أمور الدين وأمور الدنيا ويدربهم على فنون الحكم والقيادة والإدارة، ويعدهم للدور الخطير الذي سيقومون به في الدولة وفي تاريخ العالم . ومن المسجد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعقد

أولية الحروب للقادة، ويبعث منه رسله وسفراءه للملوك وأمراء العالم، ويستقبل الوفود . باختصار فقد كان المسجد مقرًا لنشر الدعوة ومركزا لإدارة الدولة .

ثانيا: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وقد لا يتصور البعض أن هذه كانت خطوة هامة في إقامة كيان الدولة الإسلامية، فالمهاجرون والأنصار هم نواة المجتمع الجديد فتوثيق العلاقات بينهم أمر ضروري، خصوصا وأن الأساس

الذي قامت عليه المؤاخاة أساس جديد لم يألفه العرب أو يعرفوه من قبل بل هو من ثمرات الرسالة الإسلامية، فقد قامت المؤاخاة على أساس العقيدة، والعقيدة وحدها، وهذا مؤشر في غاية الأهمية إلى أن الأمة التي يريد الإسلام إنشاءها لن يعترف فيها بأية رابطة تقوم على العصبية أو العنصرية القومية أو الجنسية، فالرابطة الوحيدة التي يقيم لها الإسلام وزنا هي رابطة العقيدة: *إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ* [الحجرات: ١٠] وقد ضرب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلا عمليا على ذلك، حين آخى بين عمه حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولاه ، وهذا كله جديد في بيئة تقدر الأحساب والأنساب وتؤمن بالعصبية .

ثالثا: معاهدة المدينة، أو الكتاب الذي كتبه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبين اليهود .

فبعد أن آخى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المهاجرين والأنصار، واطمأن إلى موقفهم وسلامة جبهتهم التفت إلى المدينة ككل، فأراد أن يضع لها نظاما أو أساسا ثابتا يحدد العلاقات والحقوق والواجبات بين سكانها جميعا، مسلمين وغير مسلمين، فقد كان يقيم في المدينة اليهود، وقبل الهجرة كانوا يتقاسمون الزعامة في المدينة مع الأوس والخزرج، بل أحيانا كانوا يتغلبون عليهم، والآن فالوضع قد اختلف، بل تغير تغيرا كاملا، فالأوس والخزرج قد آمنوا بالله ورسوله، وأسلموا زمامهم للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أما اليهود فلم يؤمنوا ولم يقبلوا الرسالة، بل فضلوا البقاء على دينهم، فلا بد من تحديد موقفهم في الدولة الجديدة بشكل واضح وبنصوص صريحة يرجع إليها عند الضرورة؛ فكانت معاهدة المدينة التي تعطينا دليلا آخر على عالمية الإسلام كرسالة وعالمية كدولة، وطبيعته التنظيمية .

فقد نظمت تلك المعاهدة كافة الحقوق والواجبات والالتزامات بين سكان المدينة جميعا، المقيمين فيها من قبل والمهاجرين الوافدين إليها، واعتبرت جميعا سواء في الاعتبار الإنساني والحقوق القانونية، فهم جميعا مواطنون وإن اختلفت عقيدتهم .

وهالك أبرز النقاط التي وردت في هذه المعاهدة كما رواها ابن إسحاق «بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس» وهذا إعلان صريح للأساس العقدي للدولة الجديدة، وباب الولوح إليها هو الإيمان بالله ويستوي في الانتماء إليها أهل مكة وأهل يثرب وغيرهم ممن تابع وجاهد . . . على هذا الأساس تمارس الدولة سيادتها وسلطانها العليا في الداخل والخارج.

وجاء فيها، وهو في غاية الأهمية: «وانه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم . . .

وإن لليهود بني الحارث مثل ما لليهود بني عوف» . . . إلخ وعدادت سائر المجموعات اليهودية في المدينة ثم أضافت: «وانه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد» . هذا ليس تقييدا لحريتهم، وإنما هو إجراء وقائي اقتضته ظروف نشأة الدولة؛ خوفا من عمليات التجسس ونقل المعلومات إلى الأعداء وخلافه.

وعلى كل حال؛ فليس من هدفنا في هذا الموضوع الإطالة في شرح نصوص المعاهدة، فهذا موضوع آخر، وإنما يعيننا منها هنا أنها كانت خطوة هامة وأساسية في إعلان ميلاد دولة الإسلام بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم باعتراف جميع أطرافها، ومنهم اليهود، ذلك بنص صريح هو: «وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره» .

والخلاصة فإن هذه الوثيقة السياسية كانت فتحاً جديداً في الحياة السياسية - كما يقول الدكتور هيكل - فقد قررت حرية العقيدة وحرية الرأي وحرية المدينة وحرية الحياة والمال . كما حددت أعداء الدولة بصراحة فمنعت إجارة قريش ومن نصرها .

بهذا الشكل، وبهذه الخطوات العملية، وبناء المسجد، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ومعاهدة المدينة؛ قامت الدولة الإسلامية في المدينة .

مؤسس الدولة الإسلامية

قامت الدولة الإسلامية في المدينة كضرورة أقتضاها الحكم بما أنزل الله بين المسلمين، وتشكيل كيان موحد لمواجهة المشركين الذين يتربصون بالمسلمين وكان أول رئيس لها - بطبيعة الحال - هو رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نصت على ذلك معاهدة المدينة ، وقد باشر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المهمة طوال حياته «فأقام الحدود . ونفذ القضاء، وقضى في الحقوق المدنية والجنائية، وجبى المال من مواضعه الشرعية، ووزعه على مستحقيه وفي مرافقه القانونية، وعقد المعاهدات وأعلن الحرب، وعقد الصلح، وكان في جميع ذلك مؤيداً من الله تعالى، فإذا نزلت الحادثة بالأمة ولم يرد فيها وحي من الله اجتهد فيه صلى الله عليه وسلم وشاور أصحابه من شهد منهم من أهل العلم والرأي وكانوا تارة يجمعون على رأي فيعمل به، وتارة يختلفون فيعمل برأي بعضهم، ويترك رأي البعض الآخر مجتهداً في ترجيح رأي على رأي» .

والوقائع التي اجتهد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وشاور أصحابه كثيرة، كما حدث في غزوة بدر وأحد والأحزاب، وأكثر من ذلك كان يشاور أصحابه فيمن يصلح للإمارة، كما حدث عند ما شاور أبا بكر رضي الله عنه في تولية أمير على الطائف بعد إسلام ثقيف، فأشار عليه أبو بكر بتولية عثمان بن أبي العاصي، وقال له: «يا رسول

الله إني رأيت هذا الغلام فيهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن . فعمل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمشورة أبي بكر وولاه» .

ان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الرئيس الأعلى الذي يحكم الدولة الإسلامية التي تضم المسلمين واليهود، بصفته الزمنية وليست النبوية وفق ما أمره الله وبما أمره الله كان يحكم بين المسلمين فيما بينهم، وقضاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحكامه بين المسلمين في الحدود وغيرها أكثر من أن يأتي عليها الحصر، ولن شاء أن يرجع إلى كتب الحديث والفقه، ففيها تفاصيل كثيرة عن القضايا التي قضى فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد جمع ابن القيم في كتابه «زاد المعاد» أقضية رسول الله في الجزء الثالث والرابع، فليرجع إليه كذلك من شاء .

وكان يقضي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المسلمين واليهود، ومن صور قضاؤه بينهم ما يرويّه مسلم في صحيحه، عن سهل بن أبي حنيفة ورافع بن خديج: أن عبد الله بن سهل بن زيد ومحبيصة بن مسعود بن زيد خرجا حتى إذا كانا بجبيل تفرقا في بعض ما هنالك، ثم إذا محبيصة يجد عبد الله مقتولا، فدفنه، ثم أقبل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو وحويصة ابن مسعود وعبد الرحمن بن سهل . . . فذكروا لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقتل عبد الله بن سهل فقال لهم: «أتخلفون خمسين يمينا وتستحقون صاحبكم، أو قاتلكم؟» ، قالوا: كيف نخلف ولم نشهد؟ قال: «قتبؤكم يهود مجنسين يمينا» ، قالوا: كيف تقبل إيمان قوم كفار؟ فلما رأى ذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقله .

أي : دفع لهم دية .

كذلك كان يقضي صلى الله عليه وسلم بين اليهود أنفسهم، ومن صور قضائه بينهم ما ثبت في الصحيحين أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلا وامرأة زنيا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» قالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأمروا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد أن فيها الرجم، فأمر بهما صلى الله عليه وسلم فرجما .

وكانت في بعض الأحيان ترفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قضايا قضى فيها بعض الولاة أو القضاة ولم يعجب الناس حكمهم، فقد ذكر الإمام أحمد والبزار وغيرهما أن قوما احتفروا بئرا باليمن، فسقط فيها رجل فتعلق باخر والثاني بالثالث والرابع فسقطوا جميعا فماتوا، فارتفع أولياؤهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: اجمعوا من حفر البئر من الناس، ففضى للأول بربع الدية؛ لأنه هلك فوقه ثلاثة، والثاني بثلثها؛ لأنه هلك فوقه اثنان، والثالث بنصفها؛ لأنه هلك فوقه واحد، وللرابع بالدية تامة، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العام القابل، فقصوا عليه القصة، فقال: «هو ما قضى بينكم».

هيئة الحكومة النبوية

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم بمهمة الحكم إلى جانب قيامه بتبليغ وأعباء الرسالة، لذلك كان لا بد أن يكون هناك من يعاونه في أمر الحكم؛ لأن مشاكل الدولة- في دور تأسيسها- كثيرة، وقضايا الناس ومصالحهم لا تقف عند حد، فاقضت الظروف أن يستعين الرسول صلى الله عليه وسلم في إدارة الدولة بأصحابه الذين كانوا كلهم مجتهدين لخدمة الدعوة والدولة، وقد تشكلت منهم هيئة حكومته، قد اختص بعضهم بملازمة الرسول حتى أطلق عليهم اسم الوزراء، فقد صرح ابن العربي في سراج المرئيين والأحكام بتحسين حديث فيه أن أبا بكر وعمر ووزراء النبي صلى

الله عليه وسلم من أهل الأرض . وفي القوانين لابن جزى في حق عمر: وكان هو وأبو بكر وزيرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، ولا شك أن حالها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعطي إلا ذلك، وبما وصلاه من هذه الرتبة، استخلفهما المسلمون بعده . وأخرج الحاكم في المستدرك قال: كان أبو بكر من النبي صلى الله عليه وسلم مكان الوزير، فكان يشاوره في أموره كلها . ويروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله: «وزيري من أهل الأرض أبو بكر وعمر» وكان بعض العرب الذين يعرفون شيئاً عن نظام الحكم عند الفرس والروم يطلقون على أبي بكر وعمر وصف وزيرى محمد .

صاحب السر

وكان حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد صرح الخطيب في تاريخ بغداد أن حذيفة بن اليمان كان صاحبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقع تسميته بذلك في سنن النسائي في قصة ذهاب علقمة إلى الشام ولقائه في دمشق لأبي الدرداء ، فإن أبا الدرداء قال: أليس فيكم صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا يعلمه غيره، وقال ابن الأثير في أسد الغابة: حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المناقطين، لم يعلمهم أحد إلا حذيفة أعلمهم بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صاحب الشرطة

وكان قيس بن سعد بن عبادة صاحب شرطته- أي أمير الشرطة- فقد روى البخاري عن أنس بن مالك قال: «إن قيس بن سعد كان بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير» .

حراس الرسول صلى الله عليه وسلم

وكان للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حراس، منهم «سعد بن زيد الأنصاري، والزيبر بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعد بن معاذ، ومحمد بن مسلمة، وأبو أيوب الأنصاري، وبلال، وزكوان بن عبد قيس، وعباس بن بشير» «١» .

حراس المدينة أو شرطة المدينة

ومنهم من كان يقوم على حراسة المدينة ليلاً، مثل «سعد بن أبي وقاص، وبديل ابن ورقاء، وأوس بن ثابت، وأوس بن عرابة، ورافع بن خديج» .

المنفذون للحدود بين يدي الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ومنهم من كان يقوم بتنفيذ أحكام الحدود بين يديه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قتل ورجم وجلد وقطع يد إلخ مثل «علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة والزيبر بن العوام وعاصم بن ثابت وبلال» وهذه رتبة من أشرف الرتب؛ لأنها تتعلق بأشرف الأشياء وهي الأبدان.

وكان يوجد في المدينة سجن للرجال وآخر للنساء ممن يرتكبون جرائم تستحق السجن وهذا في الأمور التي لا توجب الحد ، وأحياناً كان يوضع فيها من ينتظر تنفيذ الحكم .

حجاب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وكان للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجاب يقفون على بابه ليستأذنوا للناس في الدخول عليه، منهم «أنس بن مالك ورياح الأسود- مولاة- وأبو أنسة- مولاة- وعبد الله بن زغب الإيادي» «٥» وقد جاء في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: «جاء أبو بكر يستأذن على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوجد الناس جلسوا بابه ولم يؤذن لهم، قال:

فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له» وهذا الحديث صريح الدلالة في أنه كان للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجاب يستأذنون للناس في الدخول عليه .

حاملوا خاتم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وكان للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتما اتخذته لحتم الرسائل للملوك والأمراء؛ لأنه لما عزم على إرسال كتبه إليهم بعد عودته من صلح الحديبية وكتب لهرقل قالوا: يا رسول الله إن الأعاجم لا تقبل الرسائل إلا أن تكون مختومة؛ فاتخذ خاتما من فضة نقشه:

«محمد رسول الله» لحتم الرسائل، وكان حنظلة بن الربيع بن صيفي والحارث بن عوف المري حامللي خاتم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا غاب أحدهما ناب عنه الآخر، وظل خلفاء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعملون هذا الخاتم في ختم الرسائل حتى سقط من يد الخليفة عثمان بن عفان في بئر أريس، والقصة مشهورة.

وكان هناك من يقوم باستقبال الوفود والاستئذان لها على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعليمهم كيف يجيونه وكيف يتحدثون إليه- وهو ما يطلق عليه الآن بنظام البروتوكول- وقد عنون صاحب كتاب «نظام الحكومة النبوية» لهذا الموضوع بقوله: فصل «في الرجل يعلم الوفد كيف يجيئون المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» وكان أشهر من يقوم بهذه المهمة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد ذكر ابن إسحاق قصة قدوم وفد ثقيف على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رمضان (سنة ٩ هـ) . فعند وصولهم إلى المدينة التقوا بالمغيرة بن شعبة- وهو ثقيفي مثلهم- فأخبر المغيرة أبا بكر رضي الله عنه بقدومهم، فدخل أبو بكر على الرسول وأعلمه بأمرهم واستأذن لهم، وخرج إليهم وعلمهم كيف يجيئون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

بيت الضيافة

وكان في المدينة بيت للضيافة، كانت تنزل فيه الوفود القادمة على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان هناك من يقوم على خدمتهم وإطعامهم. وكان من هؤلاء بلال وثوبان وموالي رسول الله وكانت الدار التي اتخذت للضيافة منزلاً لامرأة من الأنصار اسمها رملة بنت الحارث ويبدو أنها كانت واسعة؛ لأن ابن إسحاق ذكر أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبس فيها بني قريظة قبل قتلهم وكانوا أكثر من ستمائة رجل بأسرهم .

مراقبة الأسواق

ومن الأمور المهمة التي كان يعنى بها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مراقبة الأسواق . والإشراف على حركة البيع والشراء وكل ما يتعلق بالأمور التجارية، لضمان سلامة المعاملات وليحصل كل إنسان على ما يحتاج دون أن يتعرض لغش أو تدليس، وقد ذكر صاحب السيرة الحلبية أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولى عمر بن الخطاب على سوق المدينة، وتولية عمر على هذا العمل يدل على جسامته وأهميته . ثم وبعد فتح مكة (سنة ٨ هـ) ولى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سعيد بن العاص على سوقها للإشراف على الحركة التجارية . ولما كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ولى عتاب بن أسيد على مكة بعد فتحها، فتولية سعيد بن العاص أمر السوق، يدل على أنه بجانب الولاية العامة كانت هناك ولايات نوعية متخصصة بناحية محددة يتولاها آخرون . فبجانب الوالي كان هناك القاضي وجامع الصدقات، أي: المختص بالشؤون المالية، ولأهمية الأسواق والحركة التجارية في حياة الناس، فقد كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم أحيانا بمراقبة سوق المدينة بنفسه، فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر على صبرة طعام - أي: قمح - فأدخل يده فيها فنالت بللا، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» فقال: أصابته السماء يا رسول الله - أي: أصابه المطر - قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس منا» .

وهذا النوع من الإدارة الإسلامية في عهد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصبح أساسا لما عرف بعد ذلك بنظام الحسبة، أو بولاية الحسبة والذي يتولاها كان يعرف بالحتسب.

جهاز جمع المعلومات «المخابرات»

وكان للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جهاز دقيق لجمع المعلومات عن الأعداء- وهو ما يقابل جهاز المخابرات في الدول الحديثة- ومن كان يقوم بهذه المهمة بسبسة بن عمرو الجهني الذي كلفه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يذهب إلى بدر لجمع المعلومات عن قريش قبيل المعركة، وكذلك طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد اللذان أرسلهما رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى طريق الشام يتحسسان الأخبار عن قافلة أبي سفيان . . ومنهم حذيفة بن اليمان الذي قام بجمع المعلومات عن الأحزاب في غزوة الخندق . وبسر بن سفيان الخزاعي الذي كان مختصا بجمع المعلومات عن قريش .

وعبد الله بن أبي حدرد الأسلمي الذي أمد الرسول بالمعلومات عن عزم هوازن على مهاجمته في حنين ثم قام بنفس الدور العباس بن عبد المطلب، فقد كان عين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أهل مكة يده بكل تحركاتهم هذه، وهو الذي أخبره بمسيرهم في غزوة أحد، وكذلك في غزوة الأحزاب، مما مكن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حفر الخندق قبل وصولهم إلى المدينة، وكان المسلمون يتقون به في مكة، وكان يجب أن يقدم على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وصولهم إلى المدينة، وكان يقولون به في مكة، وكان يجب أن يقدم على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بدر: «من لقي منكم العباس فلا يقتله وإنما أخرج كرها» .

وهكذا كان هذا الجهاز خطيرا وفعالا ويرصد تحركات أعداء الدعوة والدولة على جميع الجبهات، وقد أمد هذا

الجهاز النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمعلومات عن تحركات الروم في الشمال؛ مما كان سببا في غزوة تبوك.

كتاب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كان للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جهاز كبير من الكتاب، وصل عددهم إلى أكثر من أربعين كاتباً، منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، والزبير بن العوام، وخالد وإبان ابنا سعيد بن العاص، وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن الأرقم، وثابت بن قيس بن شماس، وحنظلة ابن أبي عامر الأسدي، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وعبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول، ومعيقب بن أبي فاطمة الدوسي، والمغيرة بن شعبة، وخالد بن الوليد، والعلاء بن الحضرمي، وعمرو بن العاص، وجهم بن أبي الصلت، وعبد الله بن رواحة، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم .

وكان بعض هؤلاء الكتاب يكتبون الوحي لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعضهم يكتب في

الشؤون العامة للدولة، إما إضافة إلى كتابته الوحي، أو اختصاراً على الكتابة في الأمور الأخرى .

فكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه من المختصين بكتابة العهود وعقود الصلح، وهو الذي كتب وثيقة صلح الحديبية .

وكان معيقب بن أبي فاطمة، وكعب بن عمرو بن زيد الأنصاري يكتبان المغانم، وكان يقال للأخير: صاحب المغانم .

وحذيفة بن اليمان كان يكتب خرص تمر الحجاز . والعلاء بن عتبة وعبد الله بن الأرقم يكتبان بين الناس في قبائلهم ومياهم، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء .

وكان عبد الله بن الأرقم يجيب الملوك عن رسول الله . والزبير بن العوام وجهم بن أبي الصلت يكتبان أموال الصدقات والمغيرة بن شعبة يكتب المدائنات والمعاملات .

وكان زيد بن ثابت الأنصاري- إضافة إلى كتابة الوحي- مترجم رسول الله؛ لأنه كان يعرف عددا من اللغات منها الفارسية والعبرية .

جهاز الإعلام

وكذلك كان لرسول الله صَلَّى الله عليه وسلم عدد من الشعراء والخطباء الذين يدافعون عنه وعن دعوته ودولته ضد من كانوا يهاجمونه من شعراء مكة وغيرها كعبد الله بن الزبير الذي كان يهاجم الرسول ودعوته بقصائد قاسية فكان شعراء الرسول صَلَّى الله عليه وسلم يتصدون للرد عليه، ومن شعراء الرسول البارزين: حسان بن ثابت الأنصاري، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، ومن خطبائه: ثابت بن قيس «٢» . ومما هو معروف أن الشعر والخطابة كانا وسيلة الإعلام الرئيسية في ذلك الوقت .

هذا بإيجاز هو الجهاز الحكومي الذي كان يعاون الرسول صَلَّى الله عليه وسلم في إدارة الدولة ونحيل من يريد الاستزادة عن هذا- بالإضافة إلى كتب الحديث والفقه والسير والمغازي والتاريخ والأدب

خلفاء الرسول على المدينة أثناء غيابه عنها في غزوه أو غيره

عند ما كان الرسول صَلَّى الله عليه وسلم يكون موجودا في المدينة فهو المشرف الأعلى على الأمور كلها وهو الذي يوزع الأعمال على الصحابة- رضوان الله عليهم- كل في مجاله .

وعند ما كان يغيب عنها ولو ليوم واحد، فإنه كان ينيب أحد أصحابه عنه ليتولى إدارة الأمور حتى يرجع، ففي غزوة أحد التي دارت معاركها بالقرب من المدينة فإنه عهد بأمر المدينة لابن أم مكتوم .

وباستعراض الأسماء التي كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعهد إليها بأمر المدينة أثناء غيابه نجد أنه قلما كان يولي النيابة عنه لشخص واحد أكثر من مرة، ونستنج من ذلك أنه ربما كان يقصد أن يتيح الفرصة لأكثر من شخص للتدريب والممارسة العملية في مباشرة الحكم والإدارة ليكون هناك العدد الكافي للاضطلاع بحكم الولايات فيما بعد عند اتساع الدولة وهو أمر لم يطل انتظاره.

فمثلاً عند خروج الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة الأبواء - ودان - في ربيع الأول (سنة ٢ هـ) استخلف على المدينة سعد بن عباد .

وفي غزوة بواط في نفس الشهر استخلف سعد بن معاذ .

وفي خروجه لمطاردة كرز بن جابر الفهري في نفس الشهر استخلف زيد بن حارثة .

وفي غزوة ذات العشيرة استخلف أبا سلمة بن عبد الأسد

وفي غزوة بدر الكبرى من رمضان (سنة ٢ هـ) . استخلف أبا لبابة بشير بن عبد المنذر «١» .

وفي غزوة خيبر استخلف سباع بن عرفطة الغفاري «٢» .

وفي فتح مكة استخلف أبا رهم حصين بن خلف الغفاري «٣» .

وفي غزوة تبوك استخلف محمد بن مسلمة الأنصاري.

اتساع نفوذ الدولة الإسلامية

بعد أن أقام الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدولة الإسلامية في المدينة - على النحو الذي بناه - بقي نفوذها مقصوراً - تقريباً - على المدينة وما حولها، وإن تجاوز ذلك فبعقد محالفات وصدقات مع بعض القبائل القاطنة على الطريق بين مكة والمدينة، وذلك لجذب هذه القبائل إلى صفه، أو على الأقل تحييدها في الصراع بينه وبين قريش، التي كانت عدوه الرئيسي، والتي وجه إليها كل نشاطه العسكري في تلك الفترة ليجبرها على التحلي عن عداوتها للإسلام، ويمثل ذلك النوع من المحالفات، تلك المحالفة التي عقدها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع بني ضمرة، الذين كانوا من أهم القبائل القاطنة في تلك الجهة.

وبالنظر إلى الكتاب الذي كتبه لهم رسول الله نجد أنه ينص على تأمينهم على أنفسهم وأموالهم وأن لهم النصرة على من رامهم إلا أن يحاربوا في دين الله، وأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دعاهم لنصرته أجابوه، فهي إذن معاهدة دفاع مشترك بينهم وبين الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويوضح لنا هذا الكتاب أو هذه المعاهدة، أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نجح في أن يجذب إلى صفه القبائل التي كانت في الأصل صديقة لقريش وتمدها بالمعلومات عن تحركات المسلمين.

ويوضح لنا كذلك امتداد نفوذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسلطانه، فكونه يضمن لبني ضمرة تأمين أنفسهم وأموالهم يدل على أنه أصبح الأقوى نفوذاً وأن قوته معترف بها.

وظل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعمل في هذا الاتجاه، يقاوم قريشا ويتصدى لها، وفي نفس الوقت يعمل جاهداً في نشر الدعوة وتوسيع نطاق نفوذ الدولة لحماية الدعوة، ولكن التقدم في هذا الاتجاه ظل بطيئاً إلى عام الحديبية. فقد كانت الحديبية نقطة تحول كبرى في تاريخ الدعوة والدولة معاً، فبعد الحديبية انفتح الطريق أمام انتشار الدعوة وامتداد الدولة وذلك بفضل بعد نظر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومهارته السياسية الفائقة ففي شهر ذي القعدة من العام السادس

الهجري أعلن الرسول عن عزمه للخروج معتمرا مسالما لا محاربا، وخرج بالفعل في ألف وأربعمائة من أصحابه، ولعله أراد أن يختبر نوايا قريش فلعلها راجعت موقفها من الدعوة- خصوصا بعد الهزائم العسكرية التي منيت بها- وتفتح معه صفحة جديدة، فما هو يمد يده إليها فماذا هي صانعة، وصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية بالقرب من مكة وواتته الأخبار بعزم قريش على منعه من دخوله مكة، واتصلت بينه وبينهم المفاوضات- التي لا نريد أن نقف عندها طويلا الآن- وانتهت إلى ما عرف بصلح الحديبية، والذي كان من أهم بنوده وأعظمها أثرا على مستقبل الدعوة والدولة ذلك البند الذي نص على هدنة أو فترة سلام بين الفريقين مدتها عشرة أعوام.

وقبل الرسول هذه المعاهدة- رغم المعارضة الشديدة من بعض أصحابه- واستثمرها بنجاح فائق ظهر أثره، واضحا بعد فترة وجيزة.

ذلك أنه ما إن استقر في المدينة بعد عودته من الحديبية حتى شرع في تنفيذ خطة واسعة النطاق لتبليغ الدعوة إلى جميع مناطق شبه الجزيرة العربية وإلى الدول الأجنبية المجاورة. ففي شهر الحرم من العام السابع الهجري أرسل ستة سفراء دفعة واحدة، إلى كسرى فارس وهرقل- إمبراطور الروم- والمقوقس في مصر، ونجاشي الحبشة، وأمير غسان بالشام، وزعيم بني حنيفة في اليمامة .

قراءة في توصيف الدولة النبوية

من خلال هذه المعطيات التاريخية التي أعطتنا تصورا هو أقرب للواقع والحقيقة عن تلك الدولة التي أنشأها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة سنبحث في ثلاث مباحث تتعلق بهذا الموضوع الأول ويتعلق المبررات والدواعي والدوافع لتشكيل هذه الدولة

المبحث الثاني أسس هذه الدولة الأرض والشعب والسلطة والمحور الثالث الأساس الشرعي والتشريعي للدولة ولنسميها فرضا (الدستور والقوانين) .

المحور الأول

المبررات والدوافع التي أدت لتشكيل هذه الدولة

أولا : عشية هجرة الرسول الكريم وصحبه الى يثرب كان الوضع في مكة قد أوصل المسلمون الى درجة صعبة جدا فحياتهم هناك أصبحت معرضة للخطر ومن قبلها كان قد فرض عليهم الحصار والنفي والطرده ولم يكن أمامهم سوى اللجوء والهجرة لذلك استقر المقام بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام والمسلمين في المدينة المنورة .

لقد نشأ في المدينة مجتمعا إسلاميا جديدا مركب من فئتين أساسيتين هما المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق والأنصار أصحاب الأرض الذي استقبلوا إخوانهم الجدد وشكلوا معهم مجتمعا واحدا متأخيا يقوده الرسول الكريم تحت مظلة لا اله الا الله محمدا رسول الله ومن الطبيعي أن يكون هناك وضعا تنظيميا جديدا يقوم عليه المجتمع الجديد .

ثانيا : ان الهجرة الى المدينة والاستقرار فيها لم تنهي المهمات التي كان الرسول الكريم يقوم بها وأهمها تبليغ الرسالة السماوية التي أنيط مجملها فلا زال يتلقى الوحي منجما فكتاب الله لم يكتمل تنزيله وهناك مهمة ثانية وهي الاستعداد للدفاع عن المجتمع الجديد فحالة الحرب بينه وبين المشركين لا زالت قائمة بل ازدادت عنفا وعدوانا من قبل المشركين وقد برز أمرين اثنين أضيفا الى خيانة أعداء الرسول الكريم وهما يهود المدينة وقبيلة المنافقين .

وأمام هذا الوضع الصعب فلم يكن أمام رسولنا الكريم سوى العمل على تحصين وتنظيم المدينة بعد ان آلف الله بين المسلمين .

ثالثا : لقد أراد الرسول الكريم إقامة مجتمعا مدنيا وحاضرة جديدة على غرار ماهي عليه مكة المكرمة لكنه مجتمعا وحاضرة جديدا حتى في تسميتها فالمدينة صفة من صفات المدينة و تختلف كليا عنها من حيث اعدادها لتكون عاصمة للتوحيد والنبوة والمؤمنين بها ومن حيث اعداد سكانها ليكون مجتمعا إسلاميا تقيا لا حياة فيه للجاهلية بكافة أشكالها وأنواعها .

رابعا : ان الاعتداءات التي تعرضت لها عاصمة الرسول الكريم والمسلمين كانت كثيرة فلا زالت قريش ومن والاها تغزوها وتعدي عليها وترتب على هذه المواجهة أن يعد الرسول الكريم كامل العدة لمواجهة هذا يتطلب وجود مجتمع وكيان منظم وهذا هي صفة الدولة ومعناها وقوى مؤمنة مخصصة له تعينه بالمال والرجال والطاعة المطلقة للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لذلك فلم يكن هناك ما نسميه بالمعارضة السياسية بمفهومنا الراهن وهكذا كانت المدينة محصنة من الخارج ومن الداخل وتحكم وتدار من قبل الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وفق المنهج الإلهي والقرآني .

المحور الثاني

أركان هذه الدولة

الأرض والشعب والحكومة والسلطة (السيادة)

أركان الدولة تتكون أيّ دولة في العالم من 4 أركان رئيسية وأساسية، وهي: الشعب، والإقليم، والحكومة، والسلطة السياسية أو ما يُعرف بالسيادة، وفيما يأتي توضيح كل منها:

يُعرف الشعب بأنه مجموعة من الأفراد المقيمين على أرض الدولة، ويخضعون لسلطة واحدة، ويُمكن تعريفه أيضًا أنه كيان اجتماعي مُتجانس له نفس الدين، واللغة، والعرق، ويمتلك هوية، كما أنه لا يوجد حجم معين للشعب لتقوم الدولة، إذ إنه بتغير مُستمر بفعل العوامل السياسية، والاقتصادية، والتاريخية. يُفضل أن يكون عدد سكان الدولة متناسبًا مع قدرتها في توفير الحاجات الأساسية فيما يُوفر حياة كريمة لهم، إضافةً لتناسبه مع قدرتها في الإنتاج والدفاع عنهم.

وهذه المعايير المتعلقة بالشعب تنطبق تمامًا على المجتمع الإسلامي في عهد الرسول الكريم فهو كيان اجتماعي متجانس له نفس الدين واللغة وفوق ذلك هو مجتمع عقائدي مؤمن .

الإقليم : يُعرف الإقليم بأنه المجال والنطاق الطبيعي المُخصّص لقيام الدولة، وهو الجزء الذي تتمتع الدولة فيه بكامل سلطاتها وتُباشر سيادتها بمفردها دون تدخّل أيّ أطراف خارجية في الاختصاص التنفيذي، أو التشريعي، أو القضائي، ولا يُشترط في الإقليم مساحة مُحددة فيمكن أن يكون صغيرًا أو كبيرًا، ولكن الحجم الكبير يُشكّل فارقًا من حيث قوة الدولة عسكريًا، واقتصاديًا .

يُشترط في الإقليم أن يكون مُحددًا وثابتًا سواء كانت الحدود طبيعية كالجبال والبحار، أو صناعية، وذلك لمعرفة النطاق القانوني لسيادة الدولة، ويتكون الإقليم من عناصر رئيسية، وفيما يأتي ذكرها: العنصر البري، ويُسمى أيضًا

بالعنصر اليابس، وهو المساحة التي تُمارس الدولة عليها سيادتها وتضمّ كل ما يحتويه سطح الأرض من ثروات حيوانية ونباتية. العنصر المائي، ويشمل كل المسطحات المائية التي تقع ضمن حدود الدولة سواء كانت بحر إقليمي أو مياه داخلية. العنصر الجوي، والذي يتمثل في كل ما يعلو الإقليم المائي والبرّي.

الحكومة : تُعرف الحكومة بأنها وكالة أو منظمة سياسية يُمكن للشعب من خلالها التعبير عن إرادته، فتقوم هي بدورها في تمثيلها، ودراستها، وتنفيذها .

لقد كانت شرعية الرسول الكريم باعتباره في قيادته للمجتمع الإسلامي وللمسلمين في المدينة المنورة تقوم على مبدئين اثنين : أولهما إيماني باعتباره نبي الله ورسوله وهذا يتطلب الشهادة بأنه رسول الله وعلى مبدأ البيعة حيث كان يطلب عليه الصلاة والسلام من القبائل العربية أن تباعه .

السيادة تتمثل السيادة بالإدارة العليا للدولة، إذ يتمثل دورها في اتخاذ القرارات، وتنفيذها على المستوى الداخلي والخارجي، إضافة إلى أنها الجهة المخولة لفرض القوانين، وتطبيقها على الشعب بما يحقق لهم حياة كريمة ومستقرة. تنقسم السيادة إلى أنواع عدّة، وفيما يأتي ذكرها: سيادة الله، بمعنى أنّ القوة في الدولة تأتي من الله. سيادة الملك، أي أنّ سلطة الدولة بيد الملك وذريته. رفاهية الشعب، وهذا يعني أنّ أعلى سلطة في أي بلد هي في أيدي الشعب. سيادة الدولة، بمعنى أنّ تكون السلطة النهائية في الدولة بيد الدولة والدولة هي مصدر السيادة، وصانع القانون والقرارات. السيادة القانونية، بمعنى أنّ سلطة الحكومة تأتي من القانون.

فالسيادة في الدولة الإسلامية لله سبحانه وتعالى وهو مصدر التشريع فالأساس الذي قامت عليه الدولة هو اعلاء كلمة الله في الأرض والدفاع عن دينه بل و الجهاد في سبيل ذلك بالنفس والمال .

المحور الثالث

توصيف الدولة النبوية

هل هي دولة أم مملكة أم امارة

الدَّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ أو دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ هو اسم يطلق على الحقبة التاريخية للدول المتعاقبة التي كانت تحكم تحت مظلة الإسلام أو مسمى الخلافة الإسلامية في فترة زمنية طويلة تغطي معظم العصور الوسيطة على مساحة جغرافية واسعة تمتد من حدود الصين في آسيا إلى غرب آسيا وشمال أفريقيا وصولاً إلى الأندلس. وبدأت منذ بداية الدعوة الإسلامية على يد النبي محمد بن عبد الله ثم تأسس الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة مروراً بالدولة الأموية في دمشق التي امتدت من حدود الصين حتى جبال البرانس شمال الأندلس ثم الدولة العباسية، بما تضمنته هذه الدول الإسلامية من إمارات وسلطنات ودول مثل السلاجقة والبيهيمن وفي المغرب الأدارسة والمرابطون ثم الموحدون وفي بلاد الشام الحمدانيون والزنكيون وغيرهم، أخيراً في مصر الفاطميون وفي الشام ومصر مثل - الأيوبيون والمماليك ثم سيطرة الدولة العثمانية التي تعتبر آخر الإمبراطوريات التي كانت تحكم باسم الإسلام على امتداد رقعة جغرافية واسعة.

ولقد اختلفت الآراء بين من يطلق على المجتمع المدني الذي أسسه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام صفة الدولة ويضيف لها صفة الدينية ومن الآراء التاريخية من يرى فيها امارة أو مملكة وأخرون ينفون كل هذه الأشكال ويعتبرونها حديثة ولا يمكن أن نسمي ما حصل في المدينة المنورة على أنه دولة كما يعتقدون .

ولقد شرحنا بشكل واضح من ان أركان ما يسمى (بالدولة) ككيان منظم توافر في المجتمع المنظم الذي أنشأه الرسول الكريم في المدينة المنورة من حيث توافر أركانها فيه وهي الشعب والأرض والحكومة والسيادة وخاصة ان

صفة الدولة لا علاقة لها بالمساحة الجغرافية ولا بعدد السكان وفي وقتها الحالي يعتبر ما يسمى الفاتيكان دولة معترف بها وهي أصغر دولة في العالم وهناك دول عربية مثل البحرين وقطر والكويت لم يكن تتجاوز مساحتها بلاد الحجاز وسكانها بضع مئات الاف نسمة .

الا ان شكل ومظهر الدولة الإسلامية قد ظهر بشكل واضح في العصر الأموي حيث غلب عليها النظام الملكي الوراثي مع بقاء شريعتها وتشريعاتها دينية إسلامية .

يقول علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) : (احتمال أن تكون البساطة الفطرية هي نظام الحكم النبوي هنالك خطة أخرى للجواب عن ذلك السؤال . ذلك أن كثيرا مما نسميه اليوم أركان الحكومة، وأنظمة الدولة، وأساس الحكم، إنما هي اصطلاحات عارضة، وأوضاع مصنوعة، وليست هي في الواقع ضرورية لنظام دولة نريد أن تكون دولة البساطة، وحكومة الفطرة، التي ترفض كل تكلف ، وكل ما لا حاجة بالفطرة البسيطة إليه) .

ومعنى ذلك أنه ليس بالضرورة أن تحقق أركان الدولة العصرية كما نعرفها اليوم ونستطها على الدولة النبوية وهذا كلام فيه الكثير من الصحة لكن يجب إضافة هنا صفة أخرى غير صفة حكومة الفطرة فهي حكومة الضرورة أيضا ضرورة شرعية تقتضي انشاء كيان مللي أي يقوم على ملة واحدة والحكم بينهم بما أمر الله فهذا المجتمع الجديد يختلف عن غيره من المجتمعات القائمة آنذاك في الجزيرة العربية كمكة والطائف وغيرها كونه مجتمعاً عقائدياً مسلماً وهناك ضرورة عملية تحدثنا عنها وهي ضرورة تشكيل كيان موحد لمواجهة خطر المشركين وحروبهم .

الأ أن الشيخ علي عبدالرازق يقوم كعادته في كتابه المذكور بنسف ما توصل اليه في مكان آخر يقول هذه المرة : (بأن " الإسلام دين فقط لا علاقة له بالدولة ، ولا علاقة له في جوهره وموروثه العقائدي والفكري بالدولة والسياسة ، وأن

النبي كان رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها سلطة او رغبة في تأسيس حكومة ، كما وأنه لم يؤسس مملكة ... وكل ما شرعه الإسلام غير كاف لما يلزم الدولة المدنية من أصول سياسية وقوانين ... كل ما شرعه ديني خالص لمصلحة البشر الدينية لا غير ... "

فهو يقرر: (ان الإسلام دين لا علاقة له بالدولة) وان حكمه وعبارته هذه تناقض نفسها بنفسها ولا يمكن قبولها لا شرعيا ولا عمليا ولا حتى نظريا كما أنه لم يعم الدليل الفقهي والعقلي والواقعي على ذلك .

فالإسلام دين ولا يشك أحدا في ذلك ومن حيث هو دين لا يقوم على دولة أي لا يفترض وجوده وبقاءه على وجود الدولة لكن ضرورة وجود الدولة ووجوبها تعني المسلمين وليس الإسلام فالله سبحانه وتعالى ينصر دينه ولو كره المشركين لكن الضرورات الشرعية والعملية تقتضي انشاء مثل هذا الكيان المنظم فالضرورة الشرعية هي (أن يحكم بينهم بما أمره الله به من أحكام) أي تطبيق الشريعة وتطبيق الشرعية غير الدعوة للإسلام ورسالته لا يأتي من فراغ هنا فهناك مجتمع متجانس يقوم على اعتقاد واحد يعيش على بقعة جغرافية واحدة هي أرضه ومن جهة هناك تشريعات منزلة للحكم بينهم

وكذلك هناك ضرورات عملية ذكرناها من قبل وهي حالة العداء المستمرة بين الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والمسلمين من جهة والمشركين ومعهم الموالون لهم من اليهود والمنافقين وهذا يتطلب تنظيم المدينة للدفاع عنه وهذا يتطلب إدارة متكاملة وهذا كله يدخل في مفهوم الدولة كما نعرفها في وقتنا الحالي .

وينفي باقي أركان الدولة أي دولة ومنها الدولة الإسلامية (... وكل ما شرعه الإسلام غير كاف لما يلزم الدولة المدنية من أصول سياسية وقوانين ... كل ما شرعه ديني خالص لمصلحة البشر الدينية لا غير ... "

فهو يربط ما بين الدولة والقوانين وينسى باقي أركان الدولة وهي الشعب والأرض والحكومة والسيادة وقد شرحنا للتو ان هذه الأركان كلها كانت مجتمعة ومتوفرة دولة الرسول الكريم .

أما القوانين وأصول السياسة التي يتحدث عنها فهي مختلفة من دولة لأخرى فلكل دولة قوانينها وتشريعاتها ولها سياستها وهذا ينطبق على الدولة النبوية مع اختلاف واحد ان تشريعات وشرع هذه الدولة ليس وضعيا من وضع انسان بل هي تشريعات وشرع وشريعة الهية منظمة وحكمة ومثالية .

أراء ونظريات حديثة حول مفهوم الدولة النبوية

هناك تيارين فكريين مختلفين تماما في العقل العربي المعاصر حول المفهوم الحقيقي للدولة النبوية فتبار يؤيد بقوة أعتبارها دولة بكل ما تعنيه كلمة الدولة من معنى ونحن مع هذا التيار وتيار مخالف للأول وعلى نقيضه ينفي أصفاء صفة الدولة على المجتمع المدني الذي اسسه رسول الله عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة .

الأراء المؤيدة

كتاب "النظريات السياسية الإسلامية" لمحمد ضياء الدين الرئيس الذي كتبه سنة 1952، وذلك لتوضح مازق فكرة الدولة وتصوراتها .

جاء الكتاب في سياق مركب من جملة أمور: أولها: الرد على أطروحة علي عبد الرازق؛ رغم أنه كان قد مضى عليها نحو 26 سنة، ومع ذلك فهي تحضر في مقدمة كتاب الرئيس ويشير إلى أنه خصص لها كتابا آخر أيضا . وثانيها: أن الرئيس شخّص علة الشرق الأصيلية في "فساد أنظمتها السياسية وتأخر تفكيره السياسي"، وأن كتابه هذا جاء لرفع مستوى التفكير بالدولة وشؤونها . وثالثها: أنه درس في لندن مادة "النظريات السياسية" وأزعجه غياب الفكر

الإسلامي عنها، وأزقه سؤال: "لم ينتج الإسلام تفكيرًا سياسيًا؟" فقرر أن يجيب على السؤال من خلال هذا الكتاب، وذلك عبر دراسة للتراث وتعقب الأفكار المبتوثة في ثناياه ومقارنة هذه الأفكار بالأفكار الغربية التي تُدرس في النظريات السياسية "والتي انجلى عنها تطور الغرب".

وتعير "النظريات الإسلامية" يعني به التفكير الفلسفي المستند إلى "الأصول المتفق عليها التي تستنبط منها المبادئ الإسلامية"، وهذا لا ينطبق إلا على علماء الكلام والفقهاء الذين يرى أطروحاتهم "إسلامية بحق"، أما ما عداها فهي آراء فردية، وحكم ونصائح، وإرشادات عملية للحاكم. وبهذا المعنى كان هدفه أن يرسم "معالم محددة لعلم ينبغي أن يُعتبر جديدًا يسمى (علم النظريات السياسية الإسلامية)"، فكتابه - بعبيره - "أول كتاب يتبع منهجًا علميًا" يتناول هذا الموضوع.

كان الرئيس مدفوعًا بتلك الهواجس، فقد درس المناهج الغربية وتأثر بها من جهة، وكانت لديه حماسة إسلامية من جهة أخرى، وهو ما أسفر عن كتاب يجمع بين التأثير بكتابات المستشرقين ومناهجهم تارةً (كربط الأفكار بأحداث التاريخ)، والاستعلاء عليهم وإثبات أن الإسلام كان له الأسبقية تارةً أخرى، والولع بإثبات ذات الأفكار الغربية في الفكر الإسلامي تارةً ثالثة. فالنتيجة التي انتهى إليها الرئيس هي أن المسلمين قد فكروا فعلاً في السياسة، وكونوا لهم نظريات عنها، وقد تراوحت طرائقه "العلمية" لإثبات تلك الحقيقة بين السعي لإثبات التماثل وإثبات التفوق وإعادة تأويل مسائل تراثية لتتواءم مع الفكر السياسي الغربي دون تدقيق في المصطلحات والتصورات الحاكمة فوقع في ارتباكات عديدة؛ لأنه كان مدفوعًا بتقليد النظريات السياسية الغربية أساسًا والاحتذاء بها فقدم قراءةً أيديولوجيةً أحياناً.

لدى الرئيس قناعة بأن التفكير السياسي الغربي وُجد في التراث الإسلامي، "غير أن بحث المسلمين كان تحت اسم آخر، وتكلموا بلغة أصبحت غير مألوفة في العصر الحاضر". فالنظريات التي وصل إليها المسلمون كانت إما جزءًا من

مباحث علم الفقه أو الكلام أو التاريخ أو الفلسفة أو الأدب. وهذه النظريات "تضاهي ما أنتجته أوروبا في بعض عصورها الزاهية". وقد اعتبر أن الإمامة هي أساس النظريات السياسية وأن مكانها الرئيس علم الكلام.

وحين حدد مزايا التفكير السياسي الإسلامي حدها بناءً على ما درسه في الفكر الغربي، فوجد أن التفكير الإسلامي نشأ نتيجة التطور التاريخي، وأنه تفكيرٌ كان مدفوعاً إلى أن يتحول إلى "صيغة قانونية"، وأنه يتميز عن التفكير الغربي في أنه كان مرتبطاً دائماً بالقيم الأخلاقية التي لا يستطيع أن ينفصل عنها أو يتجاهلها. أي أن الرئيس يسعى لتقديم صورة مماثلة تكون نتاج التطور التاريخي وتسود فيها النزعة القانونية على النمط الذي عرفه التفكير الأوروبي، ولكنه يتمايز عنه باندماج القانوني بالأخلاقي .

وقد حرص الرئيس على إثبات "سياسية" الدولة النبوية من خلال ثلاثة أمور: تكوين مجتمع له ذاتية مستقلة، وأنه استكمل حريته وسيادته، وأنه لم تكن من وظيفة يقال عنها: إنها سياسية إلا وكانت دولة الرسول تؤديها . بل إنه يذهب أبعد من ذلك إلى أن العقد الذي تحدث عنه روسو كان مجرد وهم وخيال أما العقد الذي حصل في بيعتي العقبة وقامت على أساسه الدولة الإسلامية فهو عقد تاريخي تم فيه الاتفاق بين إرادات إنسانية حرة وأفكار واعية، في قراءة حديثة للتاريخ الإسلامي .

ومن مظاهر سعيه لإثبات التفوق على النموذج الغربي أنه يصل إلى نتيجة تقول: إن "من الحقائق التي لا تزال غير معروفة لكثيرين: أن الدولة الحديثة كانت اقتباساً إلى حد قريب أو بعيد من الدول التي كانت موجودة في بلاد الشرق الإسلامي لذلك العهد، كما أن النهضة القانونية التي حدثت في أوروبا وأدت إلى تكون تلك الدولة، كانت صدى لنشاط الدراسات القانونية في الممالك الإسلامية التي كان القانون أو الفقه هو المادة الأولى للدراسة في جميع كلياتها"،

أي أن الدولة الحديثة هي اقتباسٌ عن الدولة التي عرفها الشرق!

يضطرب الرئيس في تحديد مفهوم واضح ومنضبط للدولة والخلافة والحكومة، بل لا يهتم بتدقيق تلك المصطلحات أصلاً رغم أنه انشغل بمصطلحي الإمامة والخلافة؛ لأنه معنيٌّ بإثبات التماثل والتفوق في آن واحد، وأن الفروق مجرد فروق لفظية بين لغة قديمة ولغة معاصرة، فالدولة النبوية تحولت إلى خلافة، والإمامة والخلافة والإمارة بمعنى واحد، ولكن غلب استعمال الإمامة تبعاً للشيعية واضعي هذا الفن والتعريف الحقيقي للإمامة هو أنها "الحكومة الإسلامية الشرعية الدستورية"، أو "الحكومة التي تكون الشريعة الإسلامية قانونها": سواءً القانون الأكبر - وهو ما نسميه اليوم بالدستور - أم قانونها الفرعي وهو مجموعة الأحكام التشريعية، والشرع الإلهي يستمد مرجعيته من القرآن والسنة ومن الإجماع الذي هو "الإرادة العامة للأمة"، والقياس الذي هو "الاجتهاد العقلي للفرد". ويسمى هذا الحكم "الحكم الإسلامي".

من الممكن الآن إطلاق أسماء أو ألقاب أخرى تناسب التطور السياسي في العصر الحديث"، أي أن الرئيس يرى كل هذه التطورات تطورات شكلية ولفظية

والإمامة أو الخلافة فرضٌ أساسي من فروض الدين، بل هو الفرض الأعظم الذي يتوقف عليه سائر الفروض، والأمة مقصرة ويقع عليها الإثم من الوجهة الدينية إذا لم تقم بهذا الواجب! أليس هذا المعنى نفسه الذي قال به البنا ومن بعده من عامة المسلمين كما أوضحنا في مقالات سابقة؟

ولكن ماذا عن الخلافة في العصر الحديث؟ يرى الرئيس أنها "قيادة عامة للأمة الإسلامية تمثل وحدتها وتحفظ كيانها وتحقق مصالحها وتنفيذ مبادئ الإسلام"، وهي: "إقامة الدولة الإسلامية واستمرارها"، وهي التي تقوم على أساس الإسلام وتنفيذ شريعته وتحفظ أوطان الإسلام وتدافع عن أهله وتعمل لنشر رسالته في العالم، وهي التي قرر العلماء أنها فرض أو ركن، وإذا كانوا قد أسموها خلافة أو إمامة فإنما كانوا يستعملون الأسماء التاريخية أو التقليدية، ومن الممكن الآن إطلاق أسماء أو ألقاب أخرى تناسب التطور السياسي في العصر الحديث"، أي أن الرئيس يرى كل هذه التطورات

تطورات شكلية ولفظية، ولا يجد حرجًا في إعادة تأويل الإجماع من إجماع فقهي إلى إجماع شعبي سياسي، والقياس من عمل المجتهدين في إطار النص إلى "اجتهاد عقلي للفرد"، كل هذا ليتوافق مع التصورات الحديثة للدولة وأنها بعينها موجودة في التاريخ الإسلامي!

ولا يقف الأمر به عند هذا الحد من التأويل، بل يصل - تبعًا للسنيوري - إلى أن مفكري الإسلام أدركوا جوهر نظرية روسو وهي التي تقول: إن الحاكم أو رئيس الدولة يتولى سلطانه من الأمة نائبًا عنها؛ نتيجة لتعاقد حر بينهما، كما عرفوا نظرية السيادة كما عبر عنها روسو فيما بعد، ويعلق بأن هذا يثبت تفوق الإسلام على الفكر الأوروبي بقرون، خصوصًا أن العقد هنا حقيقي وليس خياليًا كما تصوره روسو!

ومن اللافت أن الرئيس أفرد عنوانًا جانبيًا للكلام عن أن "الأمة هي الأصل"، وهي الطرف الأول لعقد الإمامة كوحدة متضامنة ذات ذاتية مستقلة، ليصل إلى نتيجة هي أن ما توصل إليه فقهاء الشريعة وقرروه في كتبهم قبل قرون لم يقل أقطاب الديمقراطية الحديثة أكثر منه! ولأجل هذا التلاؤم مع الفكر الغربي يعيد تأويل "فرض الكفاية" فيرى أنه هو - بعينه - ما تسميه العلوم السياسية الحديثة بـ"التمثيل"، فهو الفرض الذي يؤدي بطريق الإنابة أو التمثيل!

ونظرًا لافتراق كلام المتكلمين والفقهاء عن "أهل الحل والعقد"، يصل الرئيس إلى تأويل بدعي وهو أن الفقهاء والمتكلمين يتحدثون عن هيئتين مختلفتين من أهل الحل والعقد: واحدة يشترط فيها الاجتهاد وبلوغ أعلى مستوى من العلم وهي (الهيئة التشريعية)، والثانية لا يشترط فيها ذلك بل يكفي فيها أن يكون أهلها عارفين بأحوال المجتمع واختيار الأصلح وهي (الهيئة السياسية).

والغريب أن الرئيس مع كل هذه الولوج بإثبات التماثل بين النظريات الإسلامية والنظريات الغربية يصل إلى مسألة "عقد الإمامة بواحد"، فلا يرى بها بأسًا، ويؤولها بأن معناها أن ذلك الواحد ممثل عن الأمة، والاختيار في نهاية الأمر إنما هو اختيار الأمة، ومبدأ الانتخاب قائم كما هو، ولا يرى حرجًا في أن منصب الإمام هو المصدر الذي تصدر عنه السلطات التنفيذية وهي الولايات والوظائف، ومر على إمارة الإستيلاء وفسرها بأنها من باب الاعتراف بالواقع بحكم الضرورة وتحصيل المصالح، من دون استشكال لها بمنطق العصر الحديث الذي يسعى على طول الكتاب إلى استعارته في إعادة تأويل التراث!

و"الدولة الإسلامية" أعم من "الدولة السياسية" عنده؛ لأن الإسلامية ذات وظائف روحية ومادية في آن واحد، ولكن هل يوصف "النظام الإسلامي" بأنه ديمقراطي أو ثيوقراطي أو ملكي؟ يجيب الرئيس أنه ليس ثيوقراطيًا، ولكن ذلك لا يمنع من المقاربة بينهما؛ لأن الله هو المشرع الأوحد ووظيفة الدولة تطبيق ذلك التشريع، ولكن الإسلام شيء أشمل من الديمقراطية أو هو فوقها كما يقول، ويحتوي على عناصر لا توجد في طبيعتها حتى يمكن أن يُعد في النهاية مغايرًا لها. فوجه الخلاف بين الديمقراطية والإسلام تغلب عنده، وهي أهم من وجوه التماثل، وهي ثلاثة: أن الإسلام ليس قومية ولا مقيدًا بحدود معينة، فنظرة الإسلام إنسانية وأفق عالمي؛ فالرابطة الأساسية وحدة العقيدة، وأن أغراض النظام الإسلامي أو الديمقراطية الإسلامية تجمع إلى الأغراض المادية أغراضًا روحية التي هي الأولى والأسمى، وأن سلطة الأمة في الإسلام ليست مطلقة بل مقيدة بالشريعة.

أما السيادة في الدولة الإسلامية فهي لأمرين: الأمة والشريعة. فالدولة الإسلامية إذن "نظام فريد خاص بالإسلام لا يصح القول بأنه يتطابق مع أي من النظم المعروفة، ولذلك ينبغي أن يوضع لها اصطلاح خاص وتسمى باسم يمثل

حقيقتها، وما دام هذا الاسم لم يوضع ولم يُهتَدَ إليه بعد فيكتفي الآن بأن يشار إليها بصفة مجملة على أنها النظام الإسلامي".

ومن شدة شغف الرئيس بمحاكاة النظريات السياسية الغربية، انشغل بفكرة الدستور والقانون، وسمى الفقه الإسلامي "القانون الإسلامي" وهي الترجمة العربية للتعبير الإنجليزي الذي هو محل إشكال أيضاً، بل إنه غلب فكرة "الوجوب" على الشريعة وجعلها أكثر أجزاءها، وهي مجموعة من الواجبات أو الفروض: العينية والكفائية، وتحدث عن فروض أخلاقية سياسية كالوفاء بالعهود وإصلاح حال الجماعة، ليشاكل فكرة دولة القانون في النظريات السياسية الغربية.

آراء وكتاب مؤيدون

لم ينته الجدل حول الإسلام والحكم أو «نظام الحكم في الإسلام» باقشاع غبار المعركة التي دارت مطلع الربيع الثاني من القرن العشرين حول كتاب علي عبدالرازق «الإسلام وأصول الحكم» الذي سعى فيه إلى إثبات أن فكرة «الخلافة» ليست أصلاً من أصول الإسلام، وأن هذا الدين لم يفرض نمطاً معيناً لترتيب السلطة. فقضية الإسلام والحكم لا تزال مطروحة، تتسابق عليها الأقلام، وتداعى عليها الألسن والهمم، وتحاك في شأنها التدابير، ما صغر منها وما كبر، بلا هوادة، وفي إصرار لا ينفك.

فقد أنتج أنصار الجماعات والتنظيمات السياسية ذات الإسناد الإسلامي مئات الكتب والكتيبات والبيانات، وعشرات الآلاف من المقالات الصحافية والدراسات، في سبيل الانتصار لفكرة «الدولة في الإسلام»، أو إعلاء الشعار الذي رفعته جماعة «الإخوان المسلمين» والذي يقول: «دين ودولة، ومصحف وسيف، وشعب وقيادة، وعزة وسيادة». ورد عليهم خصومهم بأطنان من الكتابات التي تنتصر لمدينة الدولة في الإسلام، وتدعو إلى إبعاد الدين عن السلطة، وتتمنى توجيه الطاقة الاعتقادية إلى ما يحفظ الامتلاء الروحي، والسمو الأخلاقي.

وفي سياق هذه المعمة الفكرية برزت كتب بعينها، تعارض بعضها، وتلاقى بعضها الآخر. ومن أهمها كتب «الحكومة الإسلامية» لمحمد حسين هيكل، و«دستور أمة الإسلام» لحسين مؤنس، و«الدولة في الإسلام» لخالد محمد خالد، وبعدها جاءت كتابات مدرسة «إسلامية المعرفة» التي تجلّى وجودها في التنظير السياسي بين أروقة قسم العلوم السياسية في كلية الاقتصاد، جامعة القاهرة، فبرز في هذا الاتجاه سيف الدين عبدالفتاح في أطروحته عن التجديد السياسي في الإسلام، ونصر عارف الذي حاول أن يقوم نظريات التنمية السياسية المعاصرة من المنظور الحضاري الإسلامي، ثم سعى إلى رصد مصادر التراث السياسي الإسلامي، والسيد عمر عن نظرية الصفوة في الإسلام، وعبدالعزيز صقر الذي سعى إلى إثبات دور الدين في الدولة القومية الغربية، ونيفين عبدالحالق التي بينت المعارضة

السياسية في الإسلام، وحامد عبدالمجيد القويسي الذي تناول «الوظيفة العقدية للدولة الإسلامية»، وهبة رؤوف التي رصدت موقف الإسلام من دور المرأة في العمل العام، وهشام جعفر الذي درس فكرة الحاكمية، إلى جانب دراسات عدة عن العلاقات الدولية في الإسلام.

ويعتبر حسين مؤنس أن التكوين السياسي لأمة الإسلام هو «تكوين يقوم على بيعة أو ميثاق أو تعاهد»، وأن الشورى بصورتها التي قدرها الرسول ونفذها أساس من أسس بناء أمة الإسلام، ومن دونها لا يكون تسيير أمور الجماعة حواراً وتبادل آراء، بل يكون إملاء، وهنا لا تسيير أمة الإسلام في طريقها الصحيح.

الكاتب المصري عمار علي حسن في قراءة لجملة من الاطروحات التي تتمحور حول أبعاد النقاش حول كتاب علي عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم"، الذي سعى فيه إلى إثبات أن فكرة «الخلافة» ليست أصلاً من أصول الإسلام، وأن هذا الدين لم يفرض نمطاً معيناً لترتيب السلطة.

ويرى أن «رسالة الإسلام لم تكن قط إقامة ملك إسلامي، بل إقامة نظام جديد سياسي اجتماعي، يقوم على الترابط والتآخي والإيثار واستبعاد سيطرة الإنسان على الإنسان، واستبدال سلطة الملك بسلطة الضمير... ولا يكون الخليفة في هذه الحالة إلا رمزاً للعدل، وضماناً للأخلاق»، ثم يقول: «لقد أنشأ رسول الله عليه الصلاة والسلام أمة، أي جماعة ترجع على أم واحدة، فهم أخوة، ولم يبق رسول الله دولة، لأن الدولة تحمل معنى السلطان والقوة والغلبة، وهذه كلها لله وحده، أما الذي لنا فهو أن نتآخى في الله، ويرعى بعضنا بعضاً حباً في الله».

وينتقد مؤنس المفكرين السياسيين المسلمين - وكلهم فقهاء - نظراً لأنهم في نظره افتقدوا إدراك حقيقة مهمة وهي أن «السياسة شيء، والإسلام وعقيدته وشريعته شيء آخر، فالسياسة عند ابن خلدون قوانين سياسية مفروضة

يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها، ثم يفرق بين السياسة العقلية المفروضة من أكابر الدولة وبصرائها، والسياسة الشرعية المفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها . وما سكت عنه ابن خلدون، ذكاء منه وحرصاً، أفصح عنه ابن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» .

ويبدي مؤنس استغرابه من أن الفكر السياسي الإسلامي كله انحصر في موضوع «الخلافة الملكية» هذا، من يستحقها ومن لا يستحقها . . . وكيف يستطيع (الخليفة - الملك) أن يكون رؤوفاً رحيماً برعيته، وما الذي يصلح السلطان، وما الذي يفسده وما إلى ذلك من المباحث الفرعية، البعيدة جداً من طبيعة أمة الإسلام وغاياتها . ونحن لا نريد بهذا أن نقول إن الخلافة ليست من الإسلام، أو أن الملك يتعارض مع الإسلام، فإن الخلافة أو الملك أو السلطنة وما إليها صور شكلية لممارسة تنظيم أمور الأمة، فالإسلام لا ينكر الخلافة، ولا ينكر الملك أو الإمارة، فهذه كلها أشكال تنظيمية إذا ارتضتها الأمة واختارتها لم يكن بها بأس، ولكنها تظل كما قلت تنظيمات شكلية، للأمة أن تصوغها كيف تشاء . أما المهم، فهو الأمة الحرة الكريمة المؤمنة المتحدة في المبادئ الغايات، الملتقة حول القرآن، المؤمنة بالإسلام إيماناً صحيحاً» .

وينتهي مؤنس إلى أن دستور الإسلام هو «قانونه الأخلاقي، الذي هو قاعدة الحياة، وأصل الحياة الإسلامية» . أما حسين هيكل، فيأخذ هذه القضية إلى مستوى أعمق، ليدخل إلى صلبها، من دون موارد ولا تردد، فيفرق بين كون الإسلام يفرض قواعد أساسية لحياة الأسرة، والميراث والتجارة والبيع، وهي مسائل استقاض الفقهاء في شرحها، وعملوا على تقديم اجتهاد فيها يواكب الواقع المتجدد، وبين تحديده نظام حكم بعينه . وهنا يقول: «هذه القواعد الأساسية لشؤون حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والحلقية، لم تتناول أي تفصيل في الأساس الذي تقوم عليه الدولة .

ولم تعرض لنظام الحكم تعرضاً مباشراً، والآيتان الكریمتان «وشاورهم في الأمر» و «أمرهم شورى بينهم» لم تنزلا في مناسبات تتصل بنظام الحكم» .

وتأسيساً على عدم ورود أي شيء في النص المؤسس للإسلام وهو القرآن الكريم يفصل في تبيان نظام الحكم، ينتقل هيكل إلى مستوى الممارسة، فيرى أن فكرة الحكم لم تكن مفصلة القواعد في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد هجرته إلى المدينة، وأن الرسول الكريم لم يغير نظم الحكم البسيطة التي كانت سائدة في مجتمع البادية، وقبل الاختلاف والتباين بينها، ونادى فقط بأن تعتمد في تسيير الحياة على المبادئ العامة للإسلام وفي مطلعها العدالة والمساواة والحرية، وأنه لم يغير الأوضاع التي كانت قائمة في مكة نفسها بعدما فتحها، ولم يضع نظاماً مفصلاً للحكومة الإسلامية .

لكن هيكل يقر بأن «القواعد الجديدة التي جاء بها الإسلام لتنظيم السلوك والمعاملات، كانت مقدمة لتنظيم سياسي لا مفر من استقراره، وقد اطمأنت قواعده بالفعل شيئاً فشيئاً، متأثرة بالبيئة وأحداث التاريخ»، لا سيما بعد اتساع حركة الفتوحات الإسلامية، فانتقلت أساليب الحكم وأنماطه التي كانت متبعة عند الفرس والروم إلى «الحكم الإسلامي»، فانتقل من «الإمبراطورية الروحية» في عهد الخلفاء الراشدين إلى «الإمبراطورية السياسية» في زمن الأمويين والعباسيين . فقد كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أولياء على قومهم باختيار الناس لهم ومبايعتهم إياهم .

أما الأمويون والعباسيون فقد تصرفوا على أساس أنهم ظلال الله على الأرض، وأنه سبحانه وضع في أيديهم مفاتيح خزائنه . فالراشدون ولأهم الشعب فكانوا وكلاءه، أما الملوك فغلبوا الشعب على أمره، وتسلطوا بقوة البأس على رقبته، فاعتبروا أنفسهم سادته، فضلاً عن أنهم حكامه .

وهناك نقطة غاية في الأهمية لفتت انتباه هيكمل، إذ يقول: «إن أحداً من فقهاء المسلمين في العصر الحديث، لم يتجه نظره إلى تصوير الفكرة الإسلامية في الحكم تصويراً كاملاً، وتطبيق هذا التصوير على الأمم الإسلامية في هذا الزمن الذي نعيش فيه. لم يتجه أحدهم ليقيم مذهباً كاملاً بين الحدود والتفاصيل، يضع كل شأن من شؤون الجماعة في المكان الواجب له من نظام الحكم في الإطار الإسلامي الصحيح».

وينتهي هيكمل إلى أن الإسلام لم يحدد شكلاً ثابتاً للحكم، خلافة كانت أم ملكاً أم سلطنة أم إمارة أم رئاسة أم غيرها، لكنه عني بإقرار مجموعة من المبادئ التي يفرض اعتمادها وتطبيقها، من دون الالتفات إلى شكل الحكم السائد، وهي: «الإيمان الحق بالله تعالى، وبثبات سنته في الكون ثابتاً ندرکه بعقولنا الحرة وتفكيرنا المتصل، وأن نتعاون في ما بيننا على أن يجب أحدهم لأخيه ما يجب لنفسه، وأن يؤدي الفرد واجبه لله وللجماعة، وأن تؤدي الجماعة واجبها لله وللأفراد جميعاً».

ويبدأ خالد كتابه هذا معترفاً بخطأ ما اعتقد فيه سابقاً من أن الإسلام عرف، شأنه شأن المسيحية، الدولة الدينية، وأن «الدين حين يتحول إلى حكومة، فإن هذه الحكومة الدينية تتحول إلى عبء لا يطاق... وهي في تسعة وتسعين في المئة منها جحيم وفوضى، وأنها إحدى المؤسسات التاريخية التي استنفدت أغراضها، ولم يعد لها مكان في التاريخ الحديث».

وقد كان خالد يؤمن بأن غرائز الحكومة الدينية تجعلها بعيدة من الدين كل البعد، لأنها حكومة توهم بالغموض المطلق، ولا تثق بالذكاء الإنساني، ولا تأنس إليه، وتعادي رواد الخير والحرية والفكر والإصلاح، وتصنفهم بأنهم أعداء لله ورسوله، بدعوى أنهم يبعدون الدين عن المجتمع، وهي حكومة تتردى في غرور مقدس، لا تقبل النصيحة ولا التوجيه،

وهي تسقط في الوحدانية المطلقة، التي تدفعها إلى محاربة أي رأي مخالف حتى لو كان سديداً . وهي حكومة جامدة تضيق بكل جديد، وهي قاسية ومتوحشة وعاتية .

وهذا لا يعني أن خالد قد رجع عن مقتنه وجود «حكومة دينية» لكنه تراجع عن اعتقاده بأن الإسلام يقر هذا النوع من الحكومات، وإن كان التاريخ الإسلامي أو الممارسة السياسية في زمن الإمبراطوريتين الأموية والعباسية قد عرف هذا، وهو ما ذكره خالد نفسه في كتابه «من هنا نبدأ»، حيث قال: «في الحكومات الدينية المسيحية ابتكرت وسائل التعذيب التي لا تخطر للشيطان نفسه على بال . . . وفي الحكومات الدينية الإسلامية حدثت أهوال مروعة» . لكنه يعود ويقر بأنه قد وقع في خطأين منهجين: الأول: مضاهاة الحكومة الدينية الكنسية بحكم الإسلام . والثاني: تعميم نتائج ما اقترفه الجهاز السري باسم الإسلام .

ويعود خالد ليقول إن الإسلام جاء ليكون قوة تغيير عميمة وشاملة، و «لن يسلب الإسلام حقه، ولا مقدرته على تأسيس دولة، فحتى لو لم تكن للعرب سابقة مع الحكومة، فإن الإسلام بمخصائضه قادر على تمكينهم من ممارسة هذه التجربة بنجاح» . بل يد خالد الطموح على وسعه، ويتساءل: «لماذا لا يطمح الإسلام إلى حكومة عالمية، تلتف حول مبادئه وكتابه؟» .

ويعود خالد إلى التراث الفقهي ليأتي بشهادات على «وجوب قيام الدولة المسلمة» يقتبسها من ابن خلدون وأبي حامد الغزالي والماوردي والنسفي والشهرستاني والأبجي وابن تيمية . وقبل هذا يلجأ إلى تفاسير آيات قرآنية وأحاديث نبوية، يؤولها بما يخدم فكرته الجديدة، لينتهي إلى القول: «علينا أن نعمق إيماننا بأن الإسلام، دين ودولة، حق وقوة، ثقافة وحضارة، وعبادة وسياسة» .

لكن خالد لم يكتف بمجرد إقرار أن الإسلام «دين ودولة» بل عُني بتقديم نموذج لتلك الدولة، وهو فترة حكم عمر بن عبدالعزيز، التي هي في نظر خالد: «ترينا روح الدولة المسلمة وضميرها، كما ترينا شكلها الذي كان مثالياً بالنسبة الى عصرها». ثم يضع مبادئ عامة للحكم، كأن تكون الدولة قدوة، والشورى ضرورة، والمال وديعة، والحفاظ على وحدة الأمة وسلامتها واجب، ومراعاة مصلحة الأمة في تصرفات الحاكم وسلوكياته.

وفي اختلاف مع ما سبق يأتي رأي الفقيه القانوني البارز عبدالرزاق السنهوري في أطروحته للدكتوراه عن «نظرية الخلافة» والتي أشرف عليها أستاذه الفرنسي إدوار لامبير، وتمت ترجمتها لاحقاً ونشرها في كتابين حملتا اسم «نظام الحكم في الإسلام» و «فقه الخلافة»، وكذلك ما طرحه خالد محمد خالد الذي رجح عن رأيه السابق في فصل الدين عن الدولة الذي جاء في ثنايا كتابه «من هنا نبدأ» ليؤلف كتاباً بعنوان «الدولة في الإسلام»، ويقترّب فيه من ردود الشيخ محمد الغزالي على كتابه الأول في كتاب مناظر وسمه ب «من هنا نعلم».

ويبدأ دراسته، بمعاقبة الوجدان للبرهان، والمشاعر للعقل، فيقول في مقدمة الكتاب: «ولا أدعي أنني بريء من كل تحيز عاطفي في معالجاتي لموضوع يثير من الحماس العاطفي، ما يجعل للمحاذير الناتجة عن البيئة والارتباط الغريزي بالتقاليد العريقة بعض التأثير على طريقة معالجته، حتى من جانب أحرص الباحثين على الموضوعية، بل إنني أقر بأنني منذ حداثة سنّي لم أستطع أن أقاوم تعلقي الواضح بكل ما يتصل بالشرق... ومع ذلك فقد بذلت جهدي في هذه الدراسة لكي يكون عملي علمياً قدر استطاعتي. لقد التزمت الموضوعية، وعملت دائماً على ضبط العاطفة، حتى لا تطغى على الحقيقة».

وبالنسبة الى السنهوري، فإن «الخلافة» هي «نظام الحكم في الإسلام» وهي تدخل عنده، ككثيرين غيره، في علم الفروع، بخاصة في شقه المتعلق بالقانون العام والقانون الدستوري، على رغم أن الفقهاء يعتبرونها من مباحث علم

الكلام. ويقول هنا: «إذا كانت نظرية الخلافة تسع لجميع القواعد المتعلقة بنظام الحكومة الإسلامية، سواء دخلت في نطاق القانون الدستوري، أو القانون الإداري، أو المالي، إلا أنها لا تشمل جميع قواعد القانون الدستوري في عرف التشريعات الحديثة، ولا في نظر الفقه الإسلامي».

ويسعى السنهوري إلى عصنة أو تحديث نمط «الخلافة» فيؤكد أن مبدأ الفصل بين السلطات هو أساس نظام الحكم الإسلامي، بخاصة ما يتعلق بالسلطة التشريعية، التي يجب في نظره أن تكون مستقلة استقلالاً تاماً عن الخليفة. ويؤكد أيضاً أن إجماع الأمة هو مصدر التشريع الإسلامي، وأن الأمة هي التي تعبر عن الإرادة الإلهية بإجماعها، وليس الخليفة أو الحاكم بسلطته. كما يقر بأن سيادة الأمة يؤدي بالضرورة إلى سيادة السلطة التشريعية، ويجب ألا يملكها فرد مهما تكن مكانته، خليفة كان أو أميراً أو ملكاً أو حاكماً، فهي لله تعالى وهو سبحانه فوضها للأمة في مجموعها، والتي يجب أن يرتبط بها «الإجماع» في شكله الأمثل.

يضع السنهوري ثلاث خصائص للخلافة، أولاها: أن اختصاصات الحكومة (الخلافة) عامة أي تقوم على التكامل بين الشؤون الدينية والدنيوية. والثانية: أن حكومة الخلافة ملزمة بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية. والثالثة: أن الخلافة تقوم على وحدة العالم الإسلامي. ويرى أن هذه الخصائص إن اجتمعت في الحكومة الإسلامية باتت حكومة شرعية، مهما يكن شكلها، واستحقت ان توصف بأنها «حكومة الخلافة».

ويبني السنهوري على ما سبق فيقول إن هناك إجماعاً عند أهل السنة والجماعة والشيعية والمعتزلة على أن الخلافة واجب شرعي، ولا يرفض هذا سوى الخوارج، الذين لا يقرّون بقيام الخلافة، ولا أي نوع من الحكومة، وفي نظرهم، فإن الخلافة ليست ضرورية دائماً إذ يمكن الناس أن يحققوا مصالحهم وينظموا أمورهم من دونها، وليست نافعة دائماً لأنه لا يمكن أن ينتفع بالخليفة إلا من يصل إليه، وهؤلاء قلة محدودة، وهي أيضاً ليست دائماً ممكنة، لصعوبة انطباق شروطها

في كل زمان ومكان على شخص بعينه، وهي في نظرهم تؤدي في كثير من الأحيان إلى فتن وحروب جراء التنافس عليها .

عند هذه النقطة يصف السنهوري رأي علي عبدالرازق في الخلافة بأنه «شاذ»، فيقول: «لاحظنا أن مؤلفاً معاصراً، هو الشيخ علي عبدالرازق، قد أخذ برأي الخوارج، بعدما أيده مججع مستحدثة براءة، ولكنها في نظرنا مشكوك في مانتها». ويسعى السنهوري إلى تفنيد السندين اللذين اتكأ عليهما عبدالرازق في رفضه الخلافة، فيرى أن قول الأخير بغياب أي سند لوجوب الخلافة في العقل ولا في الشرع وأنها في الأغلب قامت بالقوة، هو خلط واضح بين وجود نظام الخلافة وبين طريقة اختيار الخليفة. كما لم يقبل السنهوري ما انتهى إليه عبدالرازق من أن الإسلام نظام ديني روحاني بحت، وراح يجلب أدلة شرعية ووقائع تاريخية يثبت من خلالها أن الإسلام عرف الدولة منذ عهده الأول، وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) مارس مهام الحاكم.

ولم يكف السنهوري بهذا بل راح يستخدم ملكاته القانونية الراسخة في إنشاء نظام متكامل لـ «الخلافة الإسلامية» من دون أن يتوقف عند المسميات، حيث يستبدل «الخليفة» بكلمة «الرئيس»، ليؤكد ضرورة انتخابه من الأمة، ثم يضع شروط الناخبين والمرشحين، وإجراءات الانتخابات، ثم يذهب إلى ما هو أوسع من ذلك بوضع مشروع لإعادة الخلافة في صيغة «جامعة شعوب شرقية». وما انتهى إليه السنهوري من حيث الشكل لا يختلف كثيراً عما تقره الديمقراطية الغربية في الوقت الحالي، وما ينفرد به الإسلام هنا لا يزيد عن وضع مبادئ أرسخ وأعرق لضمان العدل والحرية. وإذا كانت الممارسة التاريخية في أغلبها قد ضربت هذه المبادئ في مقتل، فإنها لم تمت، ولن تموت، لأن النص المؤسس الذي ينطوي عليها، وهو القرآن الكريم، باقٍ إلى قيام الساعة.

مبادئ الحكم والسلطة في الإسلام

بقلم الشيخ راشد الغنوشي

إذا كان الإنسان اجتماعياً بطبعه كما هي عبارة الأقدمين بسبب عجزه فرداً عن توفير حاجاته الضرورية من الغذاء والحماية، فضلاً عن ضرورات ترقية هذا الوجود مادياً ومعنوياً لإتاجاً للحضارة مما ليس يتصور خارج الحياة الاجتماعية.

وإذا كان يجاور ويزاحم ويضاد هذا الميل للاجتماع ميول للإشباع الغريزي النهم ولو من طريق العدوان على الآخر، لا سيما عدوان القوي على الضعيف مما يجعل قانون الغاب هو قاعدة التعامل بين بني الإنسان، وهو مؤذن بخراب العمران.

تحم على الناس أن يعيشوا جماعات، واقتضى عيشهم المجتمعي من أجل أن يستمر ويزدهر وجود أعراف وقوانين وقيم توضح وتحدد ما هو عدل وما هو ظلم

إذا كان ذلك كذلك تحم على الناس أن يعيشوا جماعات، واقتضى عيشهم المجتمعي من أجل أن يستمر ويزدهر وجود أعراف وقوانين وقيم توضح وتحدد ما هو عدل وما هو ظلم، ما هو حق وما هو باطل، ما هو خير وما هو شر. وهذا على أهميته لا يكفي ما لم توجد سلطة يحتكمون إليها في فض ما ينجم بينهم من نزاعات، فتحجز الظالم وتقتص منه بقدر إساءته وتنتصف للمظلوم بقدر ما ناله من ظلم وفق معايير عادلة، وهو ما ينبغي أن يكون، حتى إذا لم يكن وتختلف الواقع عن بلوغ هذا المقصد كاملاً، يظل العدل هو غاية القانون وأساسه، وتظل شرعية السلطة تتحدد بقدر

ما تحقق من المقصد الأصلي لاجتماع الناس، وفي كل الأحوال لا بد للناس من سلطة برة أو فاجرة كما هو مروى عن الإمام علي . فما طبيعة السلطة في الإسلام؟ ما مصدر شرعيتها؟ ما ضمانات عدم جورها؟ .

I- ضرورة السلطة ومدنيتها في الإسلام

أ- تكاد مذاهب الإسلاميين لا تختلف في أن إقامة سلطة في الجماعة (نصب الإمام) واجب ديني لإقامة الشريعة وضرورة اجتماعية إنسانية لا بديل عنها في توفير شروط بقاء الجماعة، من مثل وزع القوي عن الضعيف وإقامة الحدود وحماية الثغور (I) ولم يشذ في القديم غير فرقة من الخوارج ذهبت إلى نفي الضرورة الدينية لإقامة الحكم وانصب اهتمامها على وظيفته الاجتماعية ألا وهي إقامة العدل فإذا تيسر للناس إقامته من دون سلطة لم تكن لهم بها حاجة. ورغم شذوذ هذا الرأي إلا أنه مهم جدا من حيث التأكيد على الطبيعة الوظيفية المدنية للدولة في الإسلام المتمحورة حول إقامة العدل، بما يجعل شرعية وجودها تقاس بقدر ما تقيم من العدل، وهو ما يجردها من كل مزاعم دينية أو حتمية لمكانتها، فهي مجرد ضرورة لسد ثغرة تضيق وتوسع حسب حال الجماعة صلاحا، فبقدر ما يزداد الناس صلاحا واستقامة بقدر ما تقل وتتضاءل الحاجة للدولة والعكس بالعكس. ومعلوم أن الخير هو الأصل في الطبيعة البشرية. وإنما جاءت النبوات لتعزيز هذا الأصل في مواجهة اندفاعات الغرائز وتحريضات شياطين الجن والإنس.

إن تعويل الإسلام في صلاح الناس على طبائعهم الخيرة وما تتلقاه ضمائرهم من مدد رباني وتعزيز تربوي بما يجعل الخير يصدر تلقائيا من داخلهم فيكون الوازع لفعل الخير والامتناع عن الشر من داخلهم، من دون حاجة إلى الوازع الخارجي أي السلطة، إنه بقدر ما تنجز التربية وظيفتها بنجاح بقدر ما تقل الحاجة للدولة، غير أن النقص يظل ملازما لطباع

الناس مهما بلغوا من السمو بما يفرض قدرا من الدولة لإقامة العدل، وحتى في هذه الحالة فهي مجرد وظيفة خادمة للجماعة وأداة من أدواتها لإقامة العدل تحت رقابة الجماعة.

أما في العصر الحديث فإنه بأثر الغزو الغربي لديار المسلمين وما زرعه من فكر وقيم وأساليب تنظيم حضاري فقد اختلف الأمر، إذ طلعت على المسلمين دعوات في مجال علاقة الدين بالسياسة تروح بينهم لمذهب الفصل بين المجالين تأسيسا على أن النبي عليه السلام، بزعمهم، لم يكن سوى مبلغ عن الله وكذلك سائر إخوانه النبيين وأن ما قام من أوضاع سياسية بعد ذلك لم يكن لها شأن بالدين وإنما اقتضتها ظروف البيئة وطبائع الملك.

تكاد مذاهب الإسلاميين لا تختلف في أن إقامة سلطة في الجماعة (نصب الإمام) واجب ديني لإقامة الشريعة وضرورة اجتماعية إنسانية لا بديل عنها في توفير شروط بقاء الجماعة

وقد مثل كتاب "الإسلام وأصول الحكم" للشيخ علي عبد الرازق المشجب الذي تعلق به العلمانيون تعلق الغريق بقشة،

ليعلقوا عليه دعاوهم العلمانية وقد شهد لها شيخ، ولم تردهم عنها الحملات التي شنّها فطاحل العلم الإسلامي المعاصر في سائر أرجاء دار الإسلام (3). وحتى لما تراجع الشيخ عبد الرازق عن دعواه وتاب منها لم يوهن ذلك شيئا من تشبث العلمانيين بالمذهب الأول للشيخ معرضين عن كل مراجعة لموقفهم حتى بعد أن امتلأ عالم الإسلام بحركات إسلامية قامت على أساس فكرة شمول الإسلام لقضايا الدنيا والدين بل قامت على نفس الأساس دول مثل الجمهورية الإسلامية في إيران والسودان وأفغانستان بصرف النظر عن مدى توفيقها في تجسيد مثل الإسلام في العدل والشورى. كما قامت على أساس الشريعة مؤسسات اقتصادية عملاقة كالبنك الإسلامي وفنون وآداب وأزياء ومنظمات ومراكز وحركات جهادية وثقافية وسياسية ومشاركات فاعلة في كل المناشط الاجتماعية. وبذلك عاد الإسلام بقوة طرفا فاعلا في السياسات المحلية والدولية رغم اختلال ميزان القوة الدولي ضده، وذلك مقابل انزواء

الفكرة العلمانية وتواتر وتفاقم أوضاع فشلها، بما فاقم من تعويلها في البقاء على جهاز الدولة القمعي وعلى الظهير الخارجي، بينما يتصاعد تأثير حركات الإسلام على الأفراد ومؤسسات المجتمع. والثابت أن فكرة الإسلام الإصلاحية الشمولية هي أسرع وأشد الأفكار نموا اليوم إن داخل بلاد الإسلام أو خارجها، بما يشهد على فشل ذريع لرهان ومخططات استبعاد الإسلام وتهميشه أو علمنته.

ب- غير أنه مقابل الطرح العلماني لعلاقة الدين بالدولة المتأثر بالنمط الغربي ولا سيما في صورته الفرنسية والشيوعية المتطرفة، نجد الطرح الشيعي التقليدي للمسألة الذي يصر على اعتبار الإمامة جزءاً من العقيدة وأن الإمام منصب ديني يحث نص عليه الشارع كما نص على الصلاة والصيام، إذ نص بزعمهم على قائمة اسمية لمن يجب أن يتولاها نيابة عن الرسول عليه السلام فليس يسع المؤمن إلا أن يسلم تسليماً بإمامة تلك القائمة من نسل النبي من ولد علي وفاطمة عليه وعليهم جميعاً السلام، وذلك رغم أن دعاة الإمامة الوراثية قد اختلفوا في ترتيب وتسلسل قائمة الوارثين كما اختلفوا في الحكم على من تولى الخلافة قبل علي رضي الله عنه وعنهم جميعاً، هل هم أئمة شرعيون كما هي عقيدة جمهور المسلمين أم هم لصوص سطوا على إرث النبوة وخانوا معلمهم بمجرد وفاته بينما هو قد شهد لهم بل شهد لهم الكتاب العزيز بالصحة والقرب والرضوان، وهو أمر خطير يفرض التمزيق في ضمير المسلم إذ يفرض عليه أن يحكم بضلال أكثر من 90% من بين أفضل أجيال الأمة، حتى الذي شرفه رب العزة بالذكر وخصه ورسوله بالمعية "ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا" (التوبة).

وقد يجمع بإخواننا العشق لآل البيت وهم جديرون بالولاء والحب، ولكنهم يتجاوزون إلى النطق بعبارات تتجاوز الحدود الجائزة، من مثل العبارة الواردة على لسان الإمام الخميني غفر الله له "إن أئمتنا قد بلغوا من القرب مبلغاً لم يصله نبي مرسل ولا ملك مقرب" (4)، وذلك رغم أن الإمام الخميني يعتبر من أعظم المجددين في الفكر السياسي الشيعي

الحديث من خلال بعثه الحياة والروح العملية العصرية في مفهوم "ولاية الفقيه" الذي كان قد ذكره بعض فقهاء الشيعة القدامى إلا أنه ظل مهملا على هامش عقيدة الغيبة والرجعة للمهدي المنتظر التي جعلت طائفة إسلامية معتبرة في حالة عتالة انتظارا لعودة الغائب .

تعتبر فكرة ولاية الفقيه كما نقلها إلى العصر في صيغة دولة حديثة الإمام الخميني الفكرة المركزية في الثورة التي قادها وأطاحت بأعتى دكتاتورية في المنطقة، وخلصتها أنه في مرحلة غياب الإمام المنتظر ما ينبغي أن تعطل أحكام الإسلام وتضيق مصالح المسلمين بل يجب على الفقهاء أن ينهضوا بهذه المهمة فيختاروا واحدا منهم وليا للمسلمين ونائبا للإمام في انتظار قدومه فينهض حتى يومئذ بكل وظائفه ويتمتع بكل صلاحياته تقريبا . والفكرة هي من الغنى أنها تكاد تلخص ككل الأفكار المهمة في التاريخ الجانب الأعظم مما حققت الثورة ودولتها وشعبها من نجاحات وهي كثيرة وما اصطد مت به ولا تزال من عقبات، لدرجة أن الاختلاف حول مضمونها لا يزال المحور الأساسي للصراع في الجمهورية الإسلامية بين داع إلى سلطة مطلقة للولي الفقيه تجعل سلطانه فوق القانون وكل مؤسسات الدولة -وفي الدستور الذي صيغ على مقياس الإمام الراحل ما يدعم هذا التأويل- وداع إلى اعتبار سلطة الولي الفقيه سلطة رمزية تمارس صلاحياتها في ظل سلطة القانون والمؤسسات .

يقابل الطرح العلماني لعلاقة الدين بالدولة المتأثر بالنمط الغربي ولا سيما في صورته الفرنسية والشيوعية المتطرفة، نجد الطرح الشيعي التقليدي للمسألة الذي يصر على اعتبار الإمامة جزءا من العقيدة وأن الإمام منصب ديني تحت نص عليه الشارع كما نص على الصلاة والصيام

وواضح أن اتجاه الرأي العام في الجمهورية الإسلامية يتطور بسرعة صوب دولة إسلامية ديمقراطية تستمد سلطانها بالكامل من الشعب وتعمل كلها في إطار القانون ومرجعية الإسلام العليا، وتشهد على ذلك النسب العالية المتصاعدة

التي فاز بها السيد خاتمي رافع لواء الدولة الإسلامية الديمقراطية والمجتمع المدني وحوار الحضارات والدور الفاعل للشباب والنساء والأقليات وتأكيد سلطان الأمة بما يؤسس لتقارب حقيقي بين الشيعة والسنة والعصر على قاعدة الشورى والديمقراطية .

ج- يقف جمهور الإسلاميين في مكانة الدولة في الإسلام موقفا وسطا بين المعطلة النفاة من العلمانيين الذين عملوا ولايزالون على إفراغ الإسلام من محتواه الاجتماعي السياسي ونقله من العام إلى الخاص لحبسه في هذا الأخير تمهيدا لتهميشه فالإجهاز عليه انطلاقا من إهدار مبدأه الأعظم في التوحيد بين المادي والروحي وبين السياسة والأخلاق وبين الدنيا والدين، وهو أعظم مبادئه وخصوصياته... وسطا بين هؤلاء المعطلة النفاة والرؤى الثيوقراطية الشيعية التقليدية والصوفية التي لم تسلم منها بعض التصورات السننية التي رسختها أنظمة الجور والاستبداد ونظر لها بعض فقهاء السلطة والتي تجعل سلطان الحاكم فوق سلطان الأمة ما دام منسجما مع الوجهة العامة للشريعة كما يقدرها . وفي هذا الصدد تؤثر عبارات عن بعض خلفاء بني أمية وبني العباس .

أما موقف الوسطية الذي عليه جمهور الإسلاميين فيتمثل في اعتبار السلطة ضرورة اجتماعية وأداة من أدوات الأمة في إقامة عدل الإسلام . أنها مجرد أداة اجتماعية توظفها الأمة لحراسة الدين والدنيا وأن القائمين بها ليسوا سوى خدام عند الأمة، إذ هي المخاطب الحقيقي بإقامة الشريعة، بما يجعل شرعيتهم موقوفة على إنفاذهم للشريعة والتوافق مع توجيهاتها كما يرتضيها جمهور المسلمين كما أنها موقوفة على مدى احترامهم لإرادة الأمة المعبر عنها تعبيرا حرا ومنظما "الشورى" أو الديمقراطية بالمصطلح الحديث، فهي بهذا الاعتبار مجرد سلطة مدنية من كل وجه لا تختلف عن الديمقراطيات المعاصرة إلا من حيث علوية المبدأ الخلقى في إقامة العدل وفق ما جاءت به الشريعة أو وفق ما لا

يخالفها (6). وهو ما أسست له مدرسة الإصلاح كما جاء بيتنا في فكر كل رموزها مثل الأفغاني وعبدو ورشيد

رضا وحسن البنا وحسن الترابي والمرجع الشيعي المعتبر المرحوم آية الله محمد مهدي شمس الدين (7)

إن الدولة الإسلامية وسيلة لا غنى عنها ما دام الإنسان اجتماعيا بطبعه وما دام الإسلام نظاما شاملا للحياة من أجل إنتاج بيئة اجتماعية تتيح لأكبر عدد ممكن من أفرادها وجماعاتها أن يعيشوا روحيا وماديا في توافق فطري مع القانون الذي جاء به الإسلام. إن الدولة الإسلامية ليست سوى أداة من أدوات أمة وقفت نفسها على خدمة رسالة الإسلام وعدله تحق الحق وتبطل الباطل في الأرض كلها حتى تكون عبادة الله والتقرب إليه بالطاعات وفعل الخيرات أمورا مرغوبا فيها ميسورة مجزية، وتكون محادثه بالكفران وانتهاك الحرمات وإشاعة الشرور واقتراف المظالم أمورا بغیضة عسيرة منكرة، في المستوى الاجتماعي على الأقل.

إن تصور إتاحة الفرصة أمام أكبر عدد من البشر للتعرف على مثل الإسلام والعيش وفقها عدلا وإحسانا وتقوى وتعاوننا على الخير، من دون قيام سلطة إسلامية تذب عن دار الإسلام وتحمي ثغورها وتدافع عن حرية الدين بعيدا عن كل أساليب الإكراه "حتى لا تكون فتنة" (الأنفال) هو محض خيال خادع وانحراف شنيع وسقوط في الإثم والضلال وهو من جهة أخرى استسلام لأعداء الإسلام وإيكاله لمصيره.

دولة الإسلام هي دولة الناس الذين يجتهدون فيصيبون ويخطئون عبر الشورى المتخصصة والشورى العامة التي تجعل الحاكم مجرد خادم للشعب ووكيل عنه ويعمل تحت رقابته

وفي كل الأحوال فإن دولة الإسلام هي دولة الناس الذين يجتهدون فيصيبون ويخطئون عبر الشورى المتخصصة والشورى العامة التي تجعل الحاكم مجرد خادم للشعب ووكيل عنه ويعمل تحت رقابته في إنفاذ حكم الله حكم الشعب،

فهي حكومة مدنية من كل وجه طريقها الاختيار الشعبي الحر كما سيأتي، يحكمها قانون يتساوى أمامه كل مواطني الدولة بصرف النظر عن جنسهم واعتقادهم. لا تختلف آليات سيرها عن الديمقراطيات المعاصرة إلا بمرجعيتها الخلقية العلوية مرجعية الشريعة. وما من دولة ديمقراطية أو غير ديمقراطية إلا وتوفر في أساسها على فلسفات وقيم تمثل الموجّهات الكبرى لسياساتها بصرف النظر عن مآثها أرضيا كان أم سماويا صريحا كان أم متضمنا من مثل مبادئ حقوق الإنسان أو مبادئ القانون الطبيعي.

2- مصدر الشرعية في الدولة الإسلامية

إن الشرعية من أهم المفاهيم التي تقوم عليها الدولة الديمقراطية الحديثة تمييزا لها من الدول القديمة. والمقصود بالشرعية خضوع كل تصرفات الدولة لقواعد قانونية يستطيع المواطنون المطالبة باحترامها أمام قضاء مستقل وأن يكون صدور ذلك القانون وفق إجراءات متبعة وأن تمتنع الدولة عن إتيان أي فعل لا ينسجم مع نظامها القانوني السائد وأن تلتزم باحترام القيم الأساسية والأهداف العليا للمجتمع بما يؤدي إلى القبول الطوعي من قبل الشعب بقوانينها وسياساتها وبعدها وملاءمة مؤسساتها لحاجيات المجتمع وقيمه.

فما الذي يضمن الشرعية على الحاكم في الدولة الإسلامية بما يجعل حكمه مقبولا من طرف شعبه؟.

إن شرعية الحكم في دولة إسلامية تستمد من مصدرين :

الأول: يتعلق بالمرجعية القانونية القيمة العليا التي تستند إليها كل سياسات الدولة في سائر المجالات، وهي هنا ما ينبغي أن تخرج أو تتصادم مجال مع مبادئ الإسلام وقيمه العليا، الأمر الذي يجعل من تلك السياسات والتصرفات عبارة عن تطبيقات مباشرة لنصوص الشريعة أو اجتهادات مستندة إليها ومستمدة منها عبر أصل من أصول الاجتهاد، بما

يجعل أي مصادمة لنصوص الشريعة ومقاصدها تمثل طعنا موجعا في شرعية تلك الدولة من حيث اتسائها للإسلام. ونصوص الشرع الآمرة جزما برد جميع الأمور إلى الشرع والاحتكام متواترة وقاطعة. قال تعالى "فاحكم بينهم بما أنزل الله" (المائدة) "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول" (النساء) وهو ما يجعل مخالفة تلك الأصول خروجاً عن الملة وتقويتاً في الشرعية وتشريعاً للتمرد على سلطان الدولة. قال تعالى: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" (المائدة). وفي الحديث: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" "وعلى المرء المسلم السمع والطاعة فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة" (رواه مسلم) وهو ما يجعل النص كتاباً وسنة السلطة المؤسسة للدولة الإسلامية (IO) والحاكم الأعلى وكل ما سواه محكوم به وتابع له، وهو أيضاً ما يجعل الدولة الإسلامية دولة قانون ويفرض على كل مسالكها أن تكون منضبطة بالقانون ويفقد أوامرها المخالفة للقانون كل شرعية. بل إن الدولة تفقد شرعية الطاعة بقدر ما تنتكح عن القانون أي الشريعة، وهو ما يسفه كل اتهام للدولة الإسلامية بأنها دولة استبدادية مطلقة، رغم أنها كثيراً ما كانت كذلك لأسباب لا تعود للإسلام بقدر ما هي عائدة إلى أحوال العصر وأحوال المسلمين، وهو ما يفسر استمرار الثورات الدامية في تاريخ الإسلام تقمة على الاستبداد وانجذاباً صوب مُثل الإسلام العليا في الحكم خلال حكم النبي وخلفائه الراشدين.

الشورى في الإسلام هي الأصل الأعظم بعد النص الذي تقوم به شرعية الحكم ومدى استحقاقه للطاعة الثاني: الشورى، والأمر بالشورى ذاته نص أمر صريح يؤسس لحق الأمة المستخلفة من الله المخاطبة من قبله مباشرة بإقامة شريعته وتهيئة الوسائل الضرورية للوفاء بهذا التكليف الواجب. ومنها إقامة الحكومة الإسلامية، بما يجعل الحاكم المسلم نائباً عن الأمة في إقامة الشريعة وإنفاذها وفق العقد الذي بينه وبين الأمة: ألا يخرج في كل تصرفاته عن الشريعة وألا يستبد بالأمر دونها بل يلتزم عملياً بمشورتها والاستماع لنصحها وتوجيهها، فباعتبارها المصدر الوحيد

لسلطته هي التي تقيمه وهي التي لها أن تصرفه من الخدمة متى شاءت، وهو مجرد وكيل عنها في أداء ما هي مخاطبة ومكلفة بأدائه من إنفاذ عدل الله وفق شريعته .

إن الشورى في الإسلام الأصل الأعظم بعد النص الذي تقوم به شرعية الحكم ومدى استحقاقه للطاعة . وهذا الأصل هو أعظم من أن يستدل عليه بنص أو نصين قد يختلف في تأويلهما ومدى إلزاميتهما للحاكم، على اعتبار أنها ليست حكما فرعيا وإنما هي أصل من أصول الدين ومقتضى من مقتضيات الاستخلاف أي أولولة السلطة الربانية إلى العباد (II) . إن الشورى هي العمود الفقري في الحكم الإسلامي باعتبارها رمزا لسلطة الأمة ونهوضها بأمانة الاستخلاف عن الله عز وجل على أساس التعاون على الخير والتأمر بالمعروف والتناهي عن المنكر والمشاركة الفردية والجماعية في أداء الأمانة في مستوى التشريع والتنفيذ . وهو ما يقتضي توفير الآليات الضرورية الكفيلة بنقل هذا الأصل العظيم من المستوى النظري أو الفردي الذي قد لا يتجاوز مستوى موعظة يلقيها عالم جريء يجابه بها طاغية معرضا نفسه لبطشه وقد يتحمل الطاغية وطأة ألمها للحظات ثم ينتهي الأمر لتمضي الأمور على معادها، نقله من هذا المستوى الفردي الجزئي إلى مستوى نظام للحكم يستمد كل سلطاته من الشعب فتنال كل شؤونه الجماعية والفردية وفق ترتيبات وآليات تجعل أمور الأمة بيد الأمة وهو مقتضى "وأمرهم شورى بينهم" (الشورى) "وشاورهم في الأمر" (آل عمران) . ولأن الإسلام دين لكل العصور ولكل البشر فقد اكتفى بما من شأنه التطور بتأسيس القواعد العامة كما هو حاصل في مسألة شؤون الحكم حيث اكتفى بالأمر بالشورى والعدل واحترام رأي الجماعة والتشجيع على حكم الأفراد والاستبداد، تاركا لاجتهاد المسلمين وتجارب الزمن استنباط وتطوير الآليات القيمة بترجمة قاعدة الشورى وسلطان الأمة في نظام سياسي يمنع الاستبداد، وهو ما كان إسهام التجربة الغربية في تطويره معتبرا . والأصل أن كل ما

من شأنه العون على تحقيق مقاصد الإسلام في العدل والشورى وغيرها هو من الشريعة وإن لم يرد نص بها في كتاب ولا سنة كما هو متواتر على السنة علماء الإسلام.

3- ما ضمانات عدم الجور ومقاومته عند حصوله في نظام حكم إسلامي؟

ليست الدولة في التصور الإسلامي سلاحا في يد طبقة لتصفية طبقة أخرى كما هو التصور الماركسي (I3) ولا هي أداة لتحقيق مجد شعب أو طبقة أو طائفة على حساب شعوب وأعراق وطوائف أخرى، وإنما هي أداة للتهديب والتربية والارتقاء وتوفير مناخات الحرية والعدل والتطهر بما يتيح لأكبر قدر من الناس مزيدا من الفرص لمعرفة الله سبحانه وعبادته واكتشاف طاقات الكون وتسخيرها لصالح تعارف وتعاون وتضامن الشعوب وتأخيها وارتقاها.

ولكن ما الذي يضمن ألا تتحول الدولة الإسلامية إلى جهاز للقمع ومطاردة الأحرار والحيف على حقوق الأفراد والشعوب، منحرفة بواجب الطاعة لولي الأمر في المعروف الذي أمر به الشارع المسلم أمرا ملزما يستوجب الخروج عنه الإثم والعقوبة في الدنيا والآخرة، منحرفة به إلى تأله وثيوقراطية وحكم مطلق؟ أوليس ذلك هو ما حدث فتأله الحكام وزعموا أنهم ظل الله في الأرض وأن إرادتهم من إرادة الله والانصياع لها هو ما أمر به الله والخروج عنها تمرد عن إرادته، فساد تاريخ الإسلام الاستبداد وأحكام الجور والتلاعب بالشرائع، فسالت دماء الثائرين والمظلومين أنهارا فكان تاريخ الإسلام تاريخ الاستبداد الأعمى والجور المطلق!! أولا تكون الدعوة لحكم الإسلام مجددا ليست سوى ضرب من عودة عصور الظلمات بدل الدعوة إلى حكم ديمقراطي يرسي قواعده على مبادئ العلمانية وحقوق الإنسان؟.

كلا، إن الأمر ليس بهذا التبسيط بل هو أعقد من ذلك. فلا بد من البيان:

ليس في وسع أحد مهما بلغت درجة تحامله أن يدلل على أن نصوص الإسلام جاءت داعية للاستبداد والظلم وتقييد حريات الإنسان، إذ كلها دعوة لإقامة العدل وحرث على الظلم، حتى اعتبر إقامة العدل في الأرض المقصد الأسنى لبعثة الرسل

أولاً: ليس التاريخ المنسوب للمبادئ والعقائد ترجمة أمينة لها وإنما هو خليط يشمل ما هو منها وما ليس منها بل ما يناقضها . وتلك هي طبيعة الإنسان ينو إلى المبادئ والمثل فيقترب منها إذ يسمو ويشف ويتحرر ولكن دون درجة التماهي معها، ويتعد عنها إلى حد التناقض البين معها إذ يصاب بالضعف والوهن لا سيما عندما تكون الأحوال المحيطة به لا تدفعه إلى الأعلى بل تتخذ به إلى الأرض والركون إلى أهوائه . وليس الإسلام في ذلك شذوذاً عن جملة المبادئ التي حكمت أو لا تزال تحكم البشرية مثل مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان وما إليها، بما يفرض التمييز بين المبادئ وتاريخها . فليس تاريخ الإسلام ترجمة أمينة لمبادئه في الحكم الداعية بكل جلاء إلى حكم العدل والشورى وإعلاء كرامة الإنسان وسلطان الأمة وقوامتها على حكامها أمراً بمعروف ونهياً عن منكر، والنصوص في ذلك محكمة متواترة .

ثانياً: واضح أن العهد الإسلامي المثالي كان موجة عابرة في بحر تاريخ الإسلام، إذ هو لا يتجاوز بضعة عقود . ولكنها على قصرها شهادة على أن مثاليات الإسلام ليست طوباويات حاملة وإنما هي مناهج واقعية قابلة للتحقق في واقع مجتمعي بشري مع كل نقائصه، بما يغري بإعادة التجربة والمحاولة . وأنها وإن لم تستمر لأسباب كثيرة منها روح وموارث الاستبداد والجهالات التي كانت تسود البيئة والعصر يومئذ والتي جرف تيارها الكاسح النموذج الإسلامي فتفاعل معه نأثراً وتأثيراً أخذاً وعطاءً، فإنها قابلة للإحياء والتجربة والمحاولة مجدداً لا سيما في عصر انداحت فيه العلوم والمعارف وقيم وثقافة التحرر والديمقراطية وحقوق الإنسان، على أنقاض قلاع الجور التي تداعت للسقوط وانكشفت

سواتها واشتد النكير عليها وعتا هدير الثورات ضدها، حتى ما بقي في العالم نظام يزعم لنفسه الألوهية كما كانت عموم الأنظمة زمن ظهور الإسلام ونظامه الشورى الشعبي، بما يجعل قابليات الحكم الإسلامي الشوري للتحقق في هذا العصر أوفر مما كانت زمن ظهور الدعوة المحمدية.

ثالثا: ليس الإسلام مسؤولا عما حدث من استبداد في تاريخ المسلمين لأنه ليس في وسع أحد مهما بلغت درجة تحامله أن يدل على أن نصوصه جاءت داعية للاستبداد والظلم وتقييد حريات الإنسان، إذ كلها دعوة لإقامة العدل وحرث على الظلم، حتى اعتبر إقامة العدل في الأرض المقصد الأسنى لبعثة الرسل. وكان فرعون نموذجاً للحاكم المتأله المستبد الذي صب عليه القرآن لعناته مقابل الانتصار لدعوة موسى التحررية، على غرار كل الأنبياء الذين جاءوا حاملين لواء الثورة التحررية الشاملة في مواجهة تحالف المستبدين مع رموز الدين المنحرف.

رابعا: ومع أن حكم الفرد كان السحابة التي غطت معظم تاريخ الإسلام فإن الاستبداد لم يتحول عقيدة للأمة كما كان حال أنظمة العصور الوسيطة الأوروبية بل ظل ينظر إليه على أنه انحراف عن النموذج الإسلامي كما جسدهته مرحلة حكم النبوة والخلافة، وانحراف عن منهج الخلافة الراشدة، واجب على الأمة تغييره سواء أكان عبر الوسائل السلمية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أم كان عبر الجهاد المسلح، بما جعل أنظمة الجور لا تكاد تعرف الاستقرار، وما ذاك إلا بسبب ما وفق الله إليه علماء الإسلام الأفاضل الذين كانوا حراس العقيدة والثقافة الإسلامية، فضلت الدولة محجوبة عن التأثير فيهما والعبث بهما لتسوية مظالمهما، وكانت في هذا السياق محنة الإمام أحمد ومالك وأبي حنيفة وغيرهم، بما أبقى على صورة الظلم سافرة من دون براقع من الحق، قابلة للجرح والطنع والنيل منها والترصص للإطاحة بها.

خامسا: لم يكن الاستبداد وصفا مميذا لتاريخ الإسلام بل كان نظام العالم قبل الثورات الحديثة التي خففت من بعض أشكاله مستفيدة من تراث الإسلام الشوري ولكنها استحدثت وطورت منه صورا أشد فداحة بعضها منظور سافر

كالاستعمار وبعضها مستر كالسيطرة عبر الاحتكارات الإعلامية والاقتصادية العملاقة. وإنما الحكم العلمي السليم على كل مرحلة من التاريخ لا يكون خارج وضعها في سياقها المعاصر لها. وبهذا المقياس يبدو الاستبداد في تاريخ الإسلام مفهوماً وأقل بشاعة من مثيله المعاصر في أي قطر من أقطار الأرض، ومرد ذلك إلى عوامل كثيرة سيأتي ذكرها إن شاء الله. وما يفوتنا أن نلاحظ في هذا الصدد أن تاريخ أمتنا لم يشهد من الاستبداد ما يشهده اليوم في بلاد الإسلام تحت مسميات خادعة مثل دولة القانون وحقوق الإنسان والديمقراطية حيث تحولت الدولة ملكاً خاصاً مستباحاً للحاكم وأسرته، في عزلة شبه كاملة عن الشعب وعقيدته ومصالحه وارتباط كامل بالأجنبي ثقافة ومصالح.

سادساً: لم يعرف تاريخ الإسلام الاستبداد المطلق كما سنرى بل ظل قدر من التعددية قائماً في المستوى الثقافي الفكري من حيث تعدد المدارس الاجتهادية أو في مستوى التعددية الدينية فلم يعرف تاريخ الإسلام الحروب الدينية الطاحنة سواء أكان ذلك بين المذاهب الإسلامية أم كان بين المسلمين ومواطنيهم من غير المسلمين "أهل الذمة". ولا تزال حواضر الإسلام التاريخية مثل بغداد ودمشق والقاهرة وما حولها شاهدة على هذا التعدد الفريد في تاريخ الدنيا والتعايش العجيب بين أهل كل الملل حتى الوثني منها في ظل حماية دول الإسلام وفقهائه. أما ما كان حاصلًا من صنوف الظلم والاستبداد فلم يكن ضحاياها سوى أهل ملة الإسلام، أما أهل الملل الأخرى فلم يعرفوا الاضطهاد إلا يوم أن سقط حكم الإسلام كما حصل لليهود في الأندلس بعد طرد المسلمين وإبادتهم.

سابعاً: يمكن إدراج العوامل التالية أهم الحواجز التي حالت أو تحول دون التردّي في الاستبداد أو ديمومته واستقراره عند حصوله:

أ- اعتبار أن مشروعية الحكم الإسلامي إنما تتأسس على تعاقد حقيقي وليس مفترضا أو شكليا بين الحاكم والمحكوم، كما هي نظرية العقد الاجتماعي. وليست البيعة العامة والخاصة إلا رمزا من رموز هذا العقد الذي يلتزم

فيه الحاكمون بإقامة العدل بينهم وفق شريعة الله ومراقبة المحكومين ونوابهم، بما يجعل الحاكم ليس سوى وكيل على الناس ينصبونه بإرادتهم الحرة ويراقبونه ويحاسبونه ويصرفونه متى شاءوا، وإنما طاعة المحكوم للحاكم متوقفة على الالتزام الجاد من قبل هذا الأخير بالوفاء بما تعهد به، ولذلك نص مفسر كبير لآية الشورى أن من لا يستشير واجب عزله.

البيعة للحاكم تعبر عن عقد يلتزم فيه الحاكمون بإقامة العدل بينهم وفق شريعة الله ومراقبة المحكومين ونوابهم، بما يجعل الحاكم ليس سوى وكيل على الناس ينصبونه بإرادتهم الحرة ويراقبونه ويحاسبونه ويصرفونه متى شاءوا .

ب- اعتبار أن المشروعية العليا في الدولة والسلطة التي لا تعلوها ولا تجاورها ولا تزاحمها سلطة إنما هي سلطة الله جل جلاله ممثلة في إرادته التي جسدها الوحي كتابا وسنة، وأن الأمة مستحلفة على إقامة شرع الله في الأرض وليس الحاكم سوى أداة من أدواتها في إنفاذ هذه الأمانة، الأمر الذي يضع قيودا على سلطان الدولة التشريعي وجملة سياساتها في الداخل والخارج ولا سيما السياسة المالية والفكرية والتربوية، بينما يعد سلطان الدولة الديمقراطية العلمانية -ناهيك بدولة الباباوات استبدادا- لا سلطان يعلو سلطان مؤسساتها فتغدو الميزان الأعلى للحق والباطل والخير والشر: فالعدل هو قانونها وما تختاره مؤسساتها، فإذا أقرت تدمير شعب ونهب خيراته ولو عبر نشر المخدرات وحروب الإبادة وحتى لو قررت تلويث مصادر الحياة في الأرض كلها كما تفعل الولايات المتحدة اليوم متحذية البشرية كلها فقراراتها حق مشروع مادامت قد صدرت عن مؤسساتها ولا حق للمواطن في الامتناع عن تنفيذ تلك السياسة بينما يحق في دولة الإسلام بل يجب على كل مواطن أن يزن كل سياسات الدولة بميزان الإسلام فيتوقف عن تنفيذ كل سياسة أو قرارات تصادم المشروعية العليا: الوحي .

إن الدولة الحديثة كيان مطلق حلوي، هو تطور لسلطان الباباوية والإله الذي حل محل الله والمقدس الأعظم الذي يعلو سلطانه كل سلطان . وما فعل الفكر السياسي سوى عقلنة للآلهة القديمة، عقلنة العنف والنهب وتنظيم الصراع على الغنائم المنهوبة، وتنظيم توزيعها بين النخب بتفويض شكلي محتمل عليه من قبل الجماهير التي أتاح لها النهب الرأسمالي لثروات الشعوب المغلوبة أن تلقي لتلك الجماهير بقنات من الغنائم امتص شحنات غضبها وثبطها عن الثورة . وما دامت الذئاب الرأسمالية قادرة على مواصلة نهبها الخارجي ما توفر منه فضلة تلقيها للجماهير فستظل اللعبة متواصلة والاستقرار قائما وميكانيزم الديمقراطية شغالا . إلا أنه يوم أن يتوقف ذلك النهب بما يجعل الذئاب لا تجد ما تلقيه للكلاب -حسب تعبير غلنر- ستوحش الكلاب .

ج- أبعد الإسلام الدولة عن سلطة التشريع الأصلي التي هي للوحي وكذلك سلطة تفسير نصوص الوحي فهي للعلماء بما يجعل نفوذ الحاكم ينصب على الجانب التنفيذي .

د- سلطة الرأي العام: تمارس الأمة صاحبة السلطة الحقيقية مهمة الرقابة على الحكم وذلك عبر ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الركن الأعظم في الدولة الإسلامية، سواء أكان ذلك في المستوى الفردي أم كان في مستوى مؤسسات الدولة والمجتمع كالمساجد والصحافة والأحزاب ومجلس الشورى وغيرها من أشكال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الركن الأعظم في دولة الإسلام، وواجب أدائه على كل مسلم بحسب إمكانه ولا يتوقف على إذن من الحاكم بما يجعل قيام الأحزاب ونشر الصحف والكتب والمسيرات السلمية وما إليها من أشكال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يحتاج قيامها لإذن الحاكم لأنه موضوع لها فكيف يتوقف قيامها على إذنه، وهي تتجاوز كونها حقوقا إلى مستوى الواجب الديني، إذ الساكت على الحق شيطان أخرس .

هـ- إن دولة الإسلام يتمتع فيها العلماء وقادة الرأي العام وزعماء العشائر والطوائف وكل ممثلي الشعب بمكانة عظيمة باعتبارهم أهل الحل والعقد، بما يجعل سلطان الحاكم إضافة إلى ما تقدم سلطانا تنفيذيا محدودا جدا لصالح سلطان الشريعة والمجتمع وسائر المؤسسات الممثلة لهما . فليست دولة الإسلام دولة شمولية، فهي تكاد تكون مسلوحة من التشريع ولا سيما التشريع الأصلي تشريع العقائد والقيم والحلال والحرام والخير والشر كما أنها محجوبة عن السلطة الفكرية والتربوية كما أن سلطانها محدود جدا في مجال السلطة المالية، سلطة فرض الضرائب المحددة بالشريعة في قسم كبير منها . وسلطانها محدد كذلك في مجال القضاء تشريعا وتنفيذا فهذا المجال يتمتع باستقلال كبير عن الحاكم وهو اختصاص لأهله .

كل ذلك جعل دولة الإسلام لا تعرف نوع الاستبداد الذي عرفته الدول في تاريخ أوروبا وآسيا . وإذا أمكن لمسلمي العصر المرهقين إلى حد الاختناق بدولة الاستبداد الشامل، دولة الحداثة المزعومة المغشوشة والمؤيدة من الديمقراطيات الغربية الاستعمارية، إذا أمكن لمشروع دولة الإسلام المستقبلية أن تعتمد كل هذه المبادئ العظمى التي جاء بها الإسلام مستفيدة من كل ما طورت الديمقراطية الغربية من آليات لمقاومة الاستبداد والأخذ منه بما يجسد سلطة الشورى سلطة الأمة في ظل الشريعة فإن أمة الإسلام لن تكون قادرة على التطهر والتحرر من داء الاستبداد وهو أعظم الداء بعد الشرك بالله لتنتقل في الأرض دورتها الحضارية الثانية الموعودة فحسب بل ستكون في الموقع المناسب لتوفير الحضارة المعاصرة التائهة وراء سراب حلول مادية معقلنة وجبارة هي إلى التين المتوحش أقرب، لا تني تعمل في كيان الإنسان وأوصال المجتمع والعلاقات بين الأمم وثروات الكون تدميرا وتفكيكا وإفسادا عبر التطوير المذهل لوسائل الدمار ولأسباب النهب والكنز لصالح حفنة من الشياطين المردة على حساب معظم شعوب الأرض، سائفة البشرية رغم علومها وتقنياتها العملاقة إلى إمعان السير في طريق الكارثة المحققة .

أمام الإسلام فرصة النهوض مرة أخرى بمهمة إنقاذ مركب الحضارة واستعادة المعنى والروح والقيمة والرباط الناظم لكل النشاط والأسرية البشرية على اختلاف مشاربها في إطار عقد التوحيد وهو العقد الوحيد القادر على جمع ما فرقته الحلولية المادية وتجسير العلاقات مجددا بين ما رسخت من قطائع داخل شخصية الإنسان وفي تاريخه وبين الأقسام والحضارات والملل .

أبعد الإسلام الدولة عن سلطة التشريع الأصلي التي هي للوحي وكذلك سلطة تفسير نصوص الوحي فهي للعلماء بما يجعل نفوذ الحاكم ينصب على الجانب التنفيذي

دين التوحيد وحده يملك المنظور الإنساني الإلهي الشامل الكفيل إذا فهم على وجهه الحق واتبع بجد أن يعيد للبشرية الوحدة والتعارف وأواصر الحوار والتعاون عبر القبول بالتعدد والتنوع والاختلاف بدل أيديولوجيات الحلول وما أثمرته من نفي الآخر واعتباره الجحيم ومن تسابق محموم في طريق النهب والأثرة والدمار والإفساد . "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" (الحجرات) .

إنه ما ينبغي للمسلمين وهم حملة الأمل الوحيد في الإنقاذ أن يتنازلوا تحت أي ضغط وظرف أو إغراء عن جوهر الرسالة المحمدية رسالة التوحيد ورؤيتها الشمولية للإنسان في كل أبعاده وللبشرية في تكاملها ووحدة أصلها والمصير وضرورات إفشاء السلام والحوار والعدل والتعاون بينها في مواجهة مشروع العلمنة مشروع تفكيك الإنسان وتقطيع أوصال المجتمع وترسيخ أيديولوجية النهب والتفكيك والتدمير، أيديولوجية الحلول المادي ممثلا في وثن الدولة الحديثة صنيعه القارون الرأسمالي العامل باستمرار على تهميش الدين، تهميش الإنسان عبر شعارات مضللة من مثل فصل الديني عن الاجتماعي وحبسه في المجال الخاص تمهيدا للإجهاد عليه لينطلق النهب المحموم واستئثار الأقلية بثروات

ومصائر الأغلبية عبر فصل الاقتصاد والسياسة والثقافة عن الأخلاق والدين تعبيدا للبشرية كلها لديانة السوق وشياطينها وتحويل كل الدين وكل الأخلاق وكل الفن وكل البشرية عبيدا لذلك الوثن الرأسمالي .

لا مناص من رفض مشروع علمنة العالم و"حوسلة" كل شيء حسب تعبير عبد الوهاب المسيري أي تحويله إلى مجرد شيء نافع لأخطبوط وآلهة الرأسمالية . إن جوهر الرسالة المحمدية مبدأ التوحيد وأبعاده وانعكاساته التوحيدية الجامعة لمختلف أبعاد الإنسان والطبيعة ضمن تعددية حقيقية تعترف بكل أبعاد الإنسان وبكل ما في الكون من تعدد وما في المجتمعات والحضارة من تنوع في تناغم ورؤية شاملة وصبغة جامعة لا تجرد التعبير الجلي عنها خارج الرسالة الخاتمة رسالة التوحيد . قال تعالى "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"

الآراء المعارضة

كتاب " الإسلام وأصول الحكم " للشيخ علي عبد الرازق

صدر هذا الكتاب في عام 1925 بعد الغاء الخلافة العثمانية، في وقت كان يتنازع فيه بعض ملوك العرب ومنهم الملك فؤاد ملك مصر على لقب خليفة المسلمين ، ومؤلفه الشيخ علي عبدالرازق ، من خريجي الأزهر ، حصل منه على درجة العالمية ، وبعدها التحق بجامعة أوكسفورد البريطانية لدراسة الاقتصاد ، وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى عاد الى بلده مصر ، وتم تعيينه قاضيا شرعيا في محكمة المنصورة الشرعية .

عند صدور هذا الكتاب ظهرت ضجة بسبب آرائه حول موقف الإسلام من الخلافة ، وإثباته بصحيح الدين على عدم وجود دليل على شكل معين للدولة في الإسلام ، وأن للمسلمين الحق في بناء " قواعد ملكهم ونظام حكومتهم على أحدث ما انتجت العقول البشرية وأمتن ما دلت تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم " . . . ما يعني ان

الإسلام لم يفرض على المسلمين نظاما سياسيا معيناً ، بل جعل لهم الحق في اختيار نظامهم وحكومتهم ، وهذا هو المعنى الصحيح لقول الرسول للمسلمين " أتم أعلم بشؤون دينكم " .

ينقسم الكتاب الى ثلاثة أجزاء ، يغطي الجزء الاول منها موضوع الخلافة والاسلام ، والجزء الثاني الحكومة والاسلام ، والجزء الثالث الخلافة في التاريخ ، ويؤكد الكتاب في مضمونه بأنه لا يوجد ذكر أو إشارة للخلافة في القرآن أوفي السنة النبوية ، كما أنه لم يعقد الاجماع عليها ، ولإبراز هذه النتيجة بكلمات واضحة وإضفاء مزيد من الإثارة عليها أكد الكتاب في نفس السياق على ان " الإسلام بريء من الخلافة لانها سياسية ، والخليفة ليس نائباً عن الرسول ولا يقوم مقامه " ، وبهذا نفى وجوب الحكم الذي ارتبط تاريخياً بفكرة الخلافة .

وهكذا توصل الشيخ علي عبد الرازق مؤلف الكتاب الى نتيجة أساسية مفادها " إن ضياع الخلافة لم يؤثر بشيء على أركان الدين واوضاع المسلمين ومصالحهم . . . " ويضيف في هذا السياق مؤكداً في آخر فقرة من فقرات كتابه " والحق أن الدين الاسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون ، وبريء من كل ما هبوا حولها من رغبة ورهبة ومن عزة وقوة ، والخلافة ليست في

شيء من الخطط الدينية ، كلا ، ولا القضاء ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة ، وانما ذلك كله خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ، ولا نهى عنها ، انما تركها لنا لنرجع فيها الى أحكام العقل وتجارب الامم وقواعد السياسة "

في هذا المنحى من التحليل وضح مؤلف الكتاب الشيخ علي عبد الرازق قناعاته ، بأن " الإسلام دين فقط لا علاقة له بالدولة ، ولا علاقة له في جوهره وموروثه العقائدي والفكري بالدولة والسياسة ، وأن النبي كان رسولا لدعوة دينية

خالصة للدين لا تشوبها سلطة او رغبة في تأسيس حكومة ، كما وأنه لم يؤسس مملكة ... وكل ما شرعه الإسلام غير كاف لما يلزم الدولة المدنية من أصول سياسية وقوانين ... كل ما شرعه ديني خالص لمصلحة البشر الدينية لا غير ... "

ساهمت هذه الافكار التي صاغها الشيخ علي عبد الرازق في كتابه ، بظهور حملة ضخمة من الهجوم عليه ، تم ادانته وادانة أفكاره، وعقدت هيئة كبار العلماء في الازهر جلسة خاصة لمحاكمته، رصدت سبع تهم ضده، شملت جعله الشريعة الاسلامية روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ وحكمت الهيئة بالاجماع باخراجه من زمرة العلماء ، وتجريده من شهادة العالمية الازهرية ، وفصله من وظيفته كقاضي شرعي ، كما ترتب على هذا الحكم " محو اسمه من سجلات الجامع الازهر ، والمعاهد الاخرى ، وطرده من كل وظيفة ، وقطع مرتباته في اي جهة كانت ، وعدم أهليته باي وظيفة عمومية دينية كانت أو غير دينية . "

كما صدرت عدة كتب ومقالات كثيرة كرد على مضمون كتابه أثارت عاصفة هائجة مؤثرة في الحياة الفكرية والسياسية المصرية وقتذاك ، منها كتاب بعنوان "حقيقة الإسلام وأصول الحكم" للشيخ محمد نجيت ، وكتاب آخر بعنوان " نقد الاسلام وأصول الحكم " للشيخ محمد الحضرمي حسين ، تم فيهما نقد أفكار الشيخ علي عبد الرازق ، وثمة أدلة كثيرة في صحافة ذلك الزمان تؤكد انه لم يقف ساكنا امام منتقديه ، بل خاض معهم معركة على صفحات الجرائد ، دافع فيها عن كتابه وافكاره ، وتحولت قضيته الى قضية تتعلق بحرية الفكر والتعبير ، ووقف الى جانبه بعض الكتاب دفاعا عن الحرية والفكر ، في مقدمتهم عباس محمود العقاد ، ومحمد حسين هيكل ، وسلامة موسى ، كما ساندته حزب الاحرار الدستوريين ، ودافع عنه كتاب كثر في مجلتي المقتطف والهلل ، وجريدتي كوكب الشرق (الناطقة بلسان حزب الوفد) والسياسة (الناطقة بلسان حزب الاحرار الدستوريين) ، واعتمدوا في دفاعهم عن

افكار الشيخ علي عبد الرازق على نصوص للإمام المجدد محمد عبده ذكرها في كتابه المعروف " الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية " و بين فيها " أن الحاكم الذي تختاره الأمة كالحليفة يمثل حاكما مدنيا من جميع الوجوه ... سلطة الحاكم مدنية ... السلطان في الاسلام فرد تسري عليه كافة الأمور التي تسري على الآخرين ، فإذا ارتكب خطأ فإنه يجب ان يتعرض للمساءلة والحساب ... وليس في الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة الى الخير ... وعلماء الدين ليس لهم سلطان ديني على الافراد في نطاق التوجيه والارشاد دون حق في السيطرة على إيمان الافراد

وعلى الرغم من تأييد البعض لافكار الشيخ علي عبد الرازق ، إلا أنه عاش منعزلا بعيدا عن الاضواء لفترة طويلة من الزمن ، وبعد أن تغيرت الظروف السياسية في مصر بانتهاء عهد الملك فؤاد الذي كان له تأثيره الكبير على قرار محاكمة الازهر السابق ذكرها ، أعيد الاعتبار للشيخ علي عبد الرازق ثانية ... أرجع له الأزهر مؤهله العلمي ، وأرجعه لزمره العلماء ، واكملت في مسيرته سلسلة من الانجازات السياسية والعلمية المهمة ... اختير عضوا في مجلس النواب وفي مجلس الشيوخ وفي مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، واختير وزيرا للاوقاف في عام 1948 ... تغيرت أحواله ، لكنه بقي حتى وفاته وفيه لأفكاره وقناعاته ، وبقي كتابه الذي عمت شهرته الدول العربية في التداول حتى وقتنا الحاضر .

أذكر الان كتاب " الإسلام وأصول الحكم " في ظل صعود الحركات الاسلامية الى السلطة في عدد من الدول العربية ، لتسليط الضوء على موروث الشيخ علي عبد الرازق ... على أفكاره التي ضرب فيها قصب السبق في توضيح المفهوم الصحيح لاصول الحكم في الاسلام ، و بين فيها أن الحاكم ليس ظل الله على الارض ، وأنه لا أحد سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه وان المسلمين كثيرهم من بني البشر أدرى بشؤون دنياهم،

عليهم بناء السلطة المدنية الخاصة بهم ، على أسس تحقق لهم العدل والحرية والتقدم واحترام الانسان ، وتحقيق المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات ، دون تمييز على أي اساس ديني او عرقي او قبلي او طائفي ... الجميع في الدولة المدنية سواء .

الدولة المستحيلة

"هذا عنوان كتاب صدر عن مطابع جامعة كولومبيا الأميركية عام 2013. المؤلف هو الدكتور وائل حلاق، باحث اشتهر باعتباره أحد أبرز المتخصصين في الفقه والدراسات الإسلامية في الغرب. عنوان الكتاب يعبر مباشرة عن فكرته المركزية، وهي أنه يستحيل من حيث المفهوم أن تتخذ الدولة الحديثة مضموناً وبالتالي صفة إسلامية، أو أن تكون الدولة الإسلامية دولة حديثة. لماذا؟ لأن ما بين هذين النموذجين السياسيين للحكم من التناقضات في المفاهيم والمنطلقات، والمرجعيات، والأولويات، والأهداف ما يجعل إمكان التوفيق بينهما مهمة مستحيلة. بعبارة أخرى، يقول حلاق ان إمكان قيام دولة إسلامية، وفي الوقت ذاته حديثة، أمر مستحيل ."

البروفيسور وائل حلاق باحث فلسطيني الأصل، كندي الجنسية، مسيحي الديانة، متخصص بالقانون وتاريخ الفكر الإسلامي، يعمل كأستاذ علوم اجتماعية في جامعة كولومبيا، بقسم دراسات الشرق الأوسط. وفي سنة 2014 صدرت عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في الدوحة، الطبعة العربية لكتابه "الدولة المستحيلة" بترجمة عمرو عثمان، وقد أثار هذا الكتاب العديد من النقاشات والآراء .

تساءل عن المعنى الذي يحمله العنوان، وقد يستفز الكثيرين منا أن نقرأ في صفحات الكتاب الأولى قول المؤلف:

"مفهوم الدولة الإسلامية مستحيل التحقق وينطوي على تناقض داخلي، وذلك بحسب أي تعريف سائد لما تمثله الدولة الحديثة"، إذ تبدو هذه العبارة للوهلة الأولى تشكيكا في أهلية التشريع الإسلامي لمواكبة قضايا السياسة وبناء الدولة .

ولكننا ما إن نمضي شوطاً في قراءة الكتاب، حتى نكتشف أن المراد بما قيل شيءٌ آخر، وأن الكلام فيه ما يُعرف في لغة الأدب باسم: المدح بما يشبه الذم.

وقد اقتضى الطرح الذي أراد الكاتب تقديمه أن يقف مطولاً لإيضاح الأسس التي قامت عليها الدولة الحديثة، والعوامل التي رافقت نشأتها وشكلت هويتها. فقد جرت في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحولات نموذجية أثرت عليها النقلات السريعة في اقتصاداتها وتقنياتها ومجتمعاتها، وبُنّتها السياسية والمعرفية. وبذلك كانت أوروبا تقريباً المعمل الوحيد الذي صُنعت فيه الدولة الحديثة أول ما صنعت، وفيها قامت فكرة سيادة الدولة، التي تعتبر الأمة التي تجسد الدولة هي وحدها صاحبة إرادتها ومصيرها، وأعطيت السيادة صفات تقترب من صفات الألوهية، وصارت الدولة هي الفاعل الأعلى في التشريع، وأصبحت - من خلال جهازها البيروقراطي المتصل بشؤون التعليم والصحة والبيئة والعمل - قادرة على التدخل في تشكيل الفرد والجماعة وفق معايير تضعها هي، وأدت هذه التغييرات إلى إضعاف الروابط الأسرية، وتدمير النظام الاجتماعي، وإنتاج إنسانٍ أشبه بالآلة افتقدت روحانيته، وتمت برمجتها لتكون عنصراً يخدم استمرارية الدولة، وغابت في حسابات الدولة المعايير الأخلاقية أمام طغيان حسابات المنفعة المادية.

في مقابل ذلك، كان قانون الإسلام الأخلاقي المعروف باسم "الشريعة" حتى بداية القرن التاسع عشر، ولمدة 12 قرناً، قد نجح في العالم الإسلامي في تشكيل القوة القانونية والأخلاقية العليا التي تنظم شؤون الدولة والمجتمع، وذلك قبل أن يتم على يد المستعمر الأوروبي تفكيك النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي كانت تنظمه الشريعة هيكلية، وقد أقر الحكم الإسلامي أن الله هو الشارع الوحيد، وقانون الله هو الشريعة، والشريعة هي الشرعة الأخلاقية، تمثيلاً لإرادته الأخلاقية التي هي الشاغل الأول والأخير. وقد شكل مفهوم سيادة الله في الإسلام، مع ما يعنيه من عدم وجود ملك أو دولة يتحكمان في الشريعة، نموذجاً خاصاً من نماذج الفصل بين السلطات، واختلافاً أساسياً يميزه. وفي

ظل الحكم الإسلامي كان التعليم، مثل الشريعة، مستقلاً بصورة دالة عن الإرادة التنفيذية التي لم يكن لها سيطرة على مضمونه أو تكوينه الديني الأخلاقي، وتضافر عند الفرد حب الله والخوف منه لتحقيق إحساس عميق بالخضوع لقوة أعلى خلقت، وبالتالي تملك كل شيء في الوجود .

وبالمقارنة بين الصورتين، يصل مؤلف "الدولة المستحيلة" إلى أنه إذا أراد المسلمون اليوم تبني قانون الدولة الوضعي وسيادتها، فإن ذلك يعني بلا شك قبولاً بقانون نابع من إرادة سياسية، كما يعني القبول بأننا نعيش بكونٍ بارد نملكه ونستطيع أن نفعل به ما نشاء، والقبول بأن تُنحى جانبا المبادئ الأخلاقية للقرآن والشريعة التي قامت على الأخلاق لقرون، لمصلحة قوانين متغيرة صنعها الإنسان، وأقرت من بين ما أقرت السيطرة على الطبيعة نفسها وتدميرها، وهي التي خلقها الله للبشرية للتمتع بها على أساس المسؤولية الأخلاقية .

على هذا، فإن الاستحالة التي أشار إليها عنوان الكتاب لا تأتي من قصور في مضمون التشريع الإسلامي وأبعاده السياسية، وإنما من أنه لا يمكن للحكم الإسلامي أن يقبل بأي سيادة أو إرادة سيادية غير سيادة الله، وأنه ليس لدى المسلمين الساعين لبناء دولة إسلامية تبرير للتضحية من أجل دولة لم تستطع، ولا تستطيع تقدير الالتزام إلا بطريقة وجود منفصلة عن الأخلاق، وبالوضع والوقائع، وما هو قائم، دون اعتبار لما ينبغي أن يكون .

أمام هذه الحقائق، ومع اعتبار أن الانعزال ليس خياراً ممكناً في عالم اليوم، يغدو البحث عن المخرج من هذه التناقضات أمراً ملحاً، وهنا يقدم الكاتب رؤية تأخذ بالاعتبار حاجة الحكم الإسلامي إلى الاعتراف به كمشارك في مجتمع الدول القومية من جهة، وإمكانية تلاقحه مع توجه غربي لدى طائفة من المفكرين يتململون من حالة اقتتار مجتمعات اليوم إلى الأسس الأخلاقية والروحية .

فرغم اندثار مؤسسات الشريعة وتفسيراتها وشخصها عند المسلمين، فإنه لا تزال آثارها الأخلاقية صامدة بإصرار لا يتزعزع. ويمكن لهذا النظام الأخلاقي، وهو رأس مال لا يقدر بثمن، أن يدعم وجهتين للعمل على الأقل، إحداهما داخلية والأخرى خارجية.

فيمكن أولاً للمسلمين الآن خاصة بعد الربيع العربي أن يشرعوا في الإفصاح عن أشكال حكم جديدة، وبنائها على نحو تكون فيه قابلة لتطوير أكبر وأقوى. حيث ينبغي إعادة التفكير في الوحدات الاجتماعية التي تصنع النظام الاجتماعي السياسي الأكبر على أساس مجتمعات أخلاقية، تحتاج إلى أن يُعاد لها ثراؤها الروحي.

ويمكن ثانياً للمسلمين أن يسهموا في إعادة تشكيل الأخلاقيات الحديثة من خلال التفاعل مع نظرائهم الغربيين، وتطوير مفردات يمكن لهؤلاء النظراء أن يفهموها، لينتعش الأمل في أن يوحد الجميع جهودهم لتفكيك أسطورة صراع الحضارات المؤذية، ويتمكنوا من مضاعفة قوتهم الأخلاقية لتحقيق نصر يؤسس الأخلاق كقطاع مركزي لثقافات العالم، بصرف النظر عن التنوعات الحضارية.

ويتركنا وائل حلاق في نهاية البحث مع كلماته: لا شك أن العيش معا في سلام على الأرض هو عمل شاق، وقد يكون يوتوبيا حديثة أخرى، بيد أن إخضاع الحداثة لنقد أخلاقي يعيد هيكلتها يبقى الحاجة الأساس، لا لقيام حكم إسلامي فحسب، بل لبقائنا المادي والروحي، وليست الأزمة حكرا على الحكم الإسلامي والمسلمين.

المبحث الثالث

الخلافة والإمامة

أولا

الطريق الى الخلافة

كانت ولادته عليه الصلاة والسلام ثورة عظيمة قلبت كيان العرب وعقلهم الجاهل وحياتهم راسا على عقب وكذلك فكانت على المستوى البشري أعظم حدث أستطاع أن يغير مجرى التاريخ ويترك بصماته الى يومنا هذا هو آخر الأنبياء والرسل ونزل عليه آخر الكتب السماوية فهو خاتمهم وآخرهم وعليه فأن أكبر نكسة ونكبة حلت بالعرب هو يوم وفاته ففي ذات اللحظة التي توفي فيها بدأت مصائبهم ونكباتهم منذ ذلك الحين والى يومنا هذا .

بوفاته صلى الله عليه وسلم أنهت سلطته الروحية (الدينية) والزمنية (كحاكم) ومن تلك اللحظة بدأت سلسلة من الأحداث الدامية في تاريخ مدينة الرسول الكريم وعاصمة دولته بدأ من حادثة سقيفة بن ساعدة وانتهاء بمقتل الحسين رضي الله عنه .

ولأحدنا يعلم تمام العلم ما حدث وجرى في تلك الأحداث الرهيبة التي أعادت المسلمين الى مايشبه حياتهم الجاهلية لكن كل الذي لدينا روايات متناثرة في كتب المؤرخين والرواة وهي مختلفة ومتناقضة لكن بمجملها يعطينا صورة تبين لنا حرص المسلمين في ذلك الوقت وربما الى الآن على الحكم الديني بعد وفاته عليه الصلاة والسلام أكثر من حرصهم على اتباع سنته في نشر دين الإسلام ورسالته .

وستحدث عن خمس أحداث ووقائع تاريخية أكثرها كان دمويًا مأساويًا وهي على التوالي سقيفة بني ساعدة وموضوع الغدير وقصة الوصاية ثم موقعة الجمل ثم صفين وأخيرًا موقعة كربلاء ومقتل الحسين عليه السلام .

سقيفة بني ساعدة

ابن كثير البداية والنهاية « سنة إحدى عشرة من الهجرة » قصة سقيفة بني ساعدة [ص: 81]

قال الإمام أحمد (بن حنبل) : ثنا إسحاق بن عيسى الطباع ، ثنا مالك بن أنس ، حدثني ابن شهاب ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، أن ابن عباس أخبره أن عبد الرحمن بن عوف رجع إلى رحله - قال ابن عباس : وكنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف فوجدني وأنا أتظره - وذلك بمنى في آخر حجة حجها عمر بن الخطاب ، فقال عبد الرحمن بن عوف : إن رجلاً أتى عمر بن الخطاب فقال : إن فلانا يقول : لو قد مات عمر بايعت فلانا . فقال عمر : إني قائم العشي ، إن شاء الله ، في الناس ، فمخدرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوهم

أمرهم . قال عبد الرحمن : فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا تفعل فإن الموسم يجمع رعايا الناس وغوغاءهم ، وإنهم الذين يغلبون على مجلسك إذا قمت في الناس ، فأخشى أن تقول مقالة يطير بها أولئك فلا يعوها ، ولا يضعوها مواضعها ، ولكن حتى تقدم المدينة ؛ فإنها دار الهجرة والسنة ، وتخلص بعلماء الناس وأشرفهم ، فتقول ما قلت متمكنا ، فيعون مقاتلك ويضعونها مواضعها . قال عمر : لئن قدمت المدينة سالما صالحا لأكلمن بها الناس في أول مقام أقومه . فلما قدمنا المدينة في عقب ذي الحجة ، وكان يوم الجمعة عجلت الرواح صكة الأعمى - قلت لمالك : وما صكة الأعمى ؟ قال : إنه لا يبالي أي ساعة [ص : 82] خرج ، لا يعرف الحر والبرد . أو نحو هذا - فوجدت سعيد بن زيد عند ركن المنبر الأيمن قد سبقني ، فجلست حذاءه تحك ركبتي ركبته ، فلم أشب أن طلع عمر ، فلما رأيته قلت : ليقولن العشي على هذا المنبر مقالة ما قالها عليه أحد قبله . قال : فأنكر سعيد بن زيد ذلك وقال : ما عسيت أن يقول ما لم يقل أحد ؟ فجلس عمر على المنبر ، فلما سكت المؤذن قام فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد أيها الناس ، فإنني قائل مقالة قد قدر لي أن أقولها ، لا أدري لعلها بين يدي أجلي ، فمن وعها وعقلها فليحدث بها حيث انتهت به راحلته ، ومن لم يعها فلا أحل له أن يكذب علي ، إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووعيناها وعقلناها ، ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية الرجم في كتاب الله . فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، عز وجل ، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء ؛ إذا قامت البينة ، أو كان الحبل أو الاعتراف ، ألا وإنا قد كنا نقرأ : لا ترغبوا عن آبائكم ، فإن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم . ألا وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تطروني كما أطروني عيسى بن مريم ، وإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله " وقد بلغني أن قائلًا منكم يقول : لو قد مات عمر بايعت فلانا . فلا يغترن امرؤ أن يقول : إن بيعة أبي بكر كانت فلتة . ألا وإنها كانت كذلك ، ألا إن الله وقى شرها ، وليس فيكم اليوم من تقطع إليه الأعناق

مثلاً بي بكر ، وإنه [ص: 83] كان من خبرنا حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن عليا والزيبر ومن كان معهما تخلفوا في بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتخلفت عنا الأنصار بأجمعها في سقيفة بني ساعدة ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ، فقلت له : يا أبا بكر ، انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار . فانطلقنا تؤمهم حتى لقينا رجلاً صالحاً ، فذكرنا لنا الذي صنع القوم فقالوا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ فقلت : نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار . فقالوا : لا عليكم أن لا تقربوهم ، واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين . فقلت : والله لنائينهم . فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة ، فإذا هم مجتمعون ، وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : سعد بن عبادة فقلت : ما له ؟ قالوا : وجع . فلما جلسنا قام خطيبهم ، فأثنى على الله بما هو أهله وقال : أما بعد ، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا ، وقد دفت دافة منكم يريدون أن يحتزلونا من أصلنا ويحضنونا من الأمر . فلما سكت أردت أن أتكلم ، وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أردت أن أقولها بين يدي أبي بكر ، وقد كنت أداري منه بعض الحد ، وهو كان أحلم مني وأوقر ، [ص: 84] فقال أبو بكر : على رسلك . فكرهت أن أغضبه ، وكان أعلم مني وأوقر ، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قالها في بديته وأفضل حتى سكت . فقال : أما بعد ، فما ذكرت من خير فأنتم أهله ، ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش ، هم أوسط العرب نسبا ودارا ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئتم . وأخذ بيدي ويد أبي عبيدة بن الجراح ، فلم أكره مما قال غيرها ، وكان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك إلى إثم أحب إلي أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ، إلا أن تغير نفسي عند الموت ، فقال قائل من الأنصار : أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش - فقلت لمالك : ما يعني أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ؟ قال : كأنه يقول : أنا داهيتها - قال : فكثير اللغظ وارتفعت الأصوات حتى خشيت الاختلاف . فقلت : اسبط يدك يا أبا بكر . فبسط يده ، فبايعته وبايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار ، ونزونا على سعد بن عبادة ، فقال قائل

منهم : قتلتم سعدا . فقلت : قتل الله سعدا . قال عمر : أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمرا هو أوفق من مبايعة أبي بكر ، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة ، فإما أن نبايعهم على ما لا نرضى ، وإما أن نخالفهم فيكون فيه فساد ، فمن بايع أميرا عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ، ولا بيعة للذي بايعه تغرة أن يقتلا . قال مالك : فأخبرني ابن شهاب ، عن عروة أن الرجلين [ص: 85] اللذين لقيهما : عويم بن ساعدة ومعن بن عدي . قال ابن شهاب : وأخبرني سعيد بن المسيب أن الذي قال : أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب . هو الحباب بن المنذر وقد أخرج هذا الحديث الجماعة في كتبهم ، من طرق عن مالك وغيره ، عن الزهري به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، ثنا زائدة ، ثنا عاصم ، (ح) وحدثني حسين بن علي ، عن زائدة ، عن عاصم ، عن زر ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . فأتاهم عمر فقال : يا معشر الأنصار أستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس ؟ فأياكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟ فقالت الأنصار : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر . ورواه النسائي ، عن إسحاق بن راهويه وهناد بن السري ، عن حسين بن علي الجعفي ، عن زائدة به . ورواه علي بن المديني ، عن حسين بن علي ، وقال : صحيح لا أحفظه إلا من حديث زائدة ، عن عاصم . وقد رواه النسائي أيضا من حديث سلمة بن نبيط ، عن نعيم بن أبي هند ، عن نبيط بن شريط ، عن سالم بن عبيد ، عن عمر مثله . وقد [ص: 86] روي عن عمر بن الخطاب نحوه من طرق أخر .

وجاء من طريق محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي بكر ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، عن عمر ، أنه قال : قلت : يا معشر المسلمين ، إن أولى الناس بأمر نبي الله ثاني اثنين إذ هما في الغار / أبو

بكر السباق المبين . ثم أخذت بيده ، ويدرني رجل من الأنصار فضرب على يده قبل أن أضرب على يده ، ثم ضربت على يده وتتابع الناس .

وقد روى محمد بن سعد ، عن عارم بن الفضل ، عن حماد بن زيد ، عن يحيى بن سعيد ، عن القاسم بن محمد ، فذكر نحواً من هذه القصة ، وسمى هذا الرجل الذي باع الصديق قبل عمر بن الخطاب ، فقال : هو بشير بن سعد
والد النعمان بن بشير

انتهت رواية ابن كثير

تعليق

واقعة سقيفة بني ساعدة وهي أولى الوقائع التي حدثت بعد رحيل النبي (ص) في السنة II من الهجرة - ومن أهمها - حيث تم مبايعة أبي بكر بعنوان خليفة المسلمين بعد رسول الله (ص) .

فاجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة لملئ فراغ القيادة بعد النبي (ص)، ثم التحق بهم نفر من المهاجرين، فانقسمت الصحابة إلى فريقين: الأول وهم من الأنصار، يطالبون بخلافة سعد بن عبادة، الآخر وهم من المهاجرين، يطالبون بخلافة أبي بكر بن أبي قحافة، إلا أنه -وفي نهاية المطاف- التقت ثلثة حول أبي بكر لتبايعة، ثم تبعها الآخرون، فتم تقليده كخليفة على رؤوس المسلمين، وذلك في اجتماع لم يحضره بنو هاشم وأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - وعلى رأسهم علي بن أبي طالب- ذلك لانشغالهم بتجهيز الرسول وتوديعه صلى الله عليه وآله وسلم .

كانت مبايعة أبي بكر محل خلاف ونزاع في المدينة لفترة من الزمن، ولم تحظى بقبول عام، كما تحفظ البعض بشأنها أيضاً . فضلاً عن أن يرى فيه مخالفة صريحة لما وصى به رسول الله في واقعة غدير خم ومواقف أخرى مؤكدة .

فقد أبدى الإمام علي والسيدة الزهراء (ع) معارضتهما للبيعة ومعهم الفضل وعبد الله، ابنا عباس بن عبد المطلب وعدد من أصحاب النبي، أمثال سلمان الفارسي، وأبي ذر، والمقداد، والزيبر.

وقد عبّرت عنها الإمامية بداية لما تنبأ به النبي (ص) -في أواخر حياته- من إقبال الفتن التي ستصيب الأمة، والتي استهلت بإقصاء أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي طليعتهم علي بن أبي طالب وتجوّده عن حقه المنصوص عليه بحسبهم، كما يعدّونها اللبنة الأولى للخروج عن جادة الصواب المتمثل بالشرعية المحمدية. ثم تمسك أهل السنة بإجماع أهل الحل والعقد، لتسوية خلافة أبي بكر وإعطائه المشروعية.

كما وقد قام مستشرقون من أمثال هنري لامنس، وكيثاني، وويلفرد مدلونغ بنقل الواقعة وتحليلها من خلال آثارهم. ويعد كتاب خلافة محمد (ص) للكاتب مدلونغ وعقيدة "ثلاثي السلطنة" من هنري لامنس من أشهر ما كتب في هذا المجال.

السقيفة وموقعها

السقيفة؛ صفة؛ ذات سقف. ويقصد منها المكان الذي كان يقع في جانب من المدينة، وله سقف ممتد، ويعود لبني ساعدة بن كعب الخزرجي، ولذلك عرف بسقيفة بني ساعدة. وكان الأنصار يجتمعون فيه للمشورة وحلّ قضاياهم. تقع سقيفة بني ساعدة في الجهة الشمالية الغربية من المسجد النبوي بين مساكن قبيلة بني ساعدة بن كعب بن خزرج، جنب بئر بضاعة. وكان سعد بن عبادة -مرشح الأنصار لتولي منصب الخلافة- يسكن قريباً من هذا المكان.

وفاة النبي

هناك حيثيات عديدة دخلت في الواقعة، حيث كانت قد ارتبطت بحياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والتي انطوت في يوم الإثنين 12 من الربيع الأول.

فترة تجهيز النبي

تذكر المصادر التاريخية أحداثاً ذات أهمية للأمة في الفترة التي تقع ما بين وفاة النبي ومواراته الثرى.

يقول المسعودي: في اليوم الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو 12 ربيع الأول سنة 11 من الهجرة، وقد كانت الأنصار نصبت للبيعة سعد بن عباد فكانت بينه وبين من حضر من المهاجرين في السقيفة منازعة طويلة وخطوب عظيمة، وعلي والعباس وغيرهم [من الصحابة] مشغولين بتجهيز النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان ذلك أول خلاف حدث في الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. [6]

في الوقت الذي كان البعض يتناقشون في السقيفة للملء الفراغ الناتج عن فقدان النبي، كان علي بن أبي طالب مهتماً بتجهيز الرسول، ولا يرى ما يستدعي التأخير، وهذا ما يفهم من خلال الروايات :

من قوله (ع) : "أفكنت أذع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيته لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟" وقول فاطمة: ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم فيما أن الاعتقاد السائد على أنه لا رغبة لبني هاشم بمن يمثلهم علي عليه السلام في التصدي لأمر الخلافة كان يطغى على المجتمع المدني حينذاك بحسب القرائن، فبعد احتجاج علي (ع) على ما جرى، قال له بعض من الأنصار: لو كان هذا الكلام سمعته منك الأنصار يا علي قبل بيعتها لأبي بكر، ما اختلف عليك اثنان، فأجاب: أكنت أترك رسول الله ميتاً في بيته لا أجهزه، وأخرج إلى الناس أنازعهم في سلطانه؟

مجريات السقيفة

يبدو أن غالبية الروايات التي أشارت إلى الواقعة تصل إلى عبد الله بن العباس نقلاً عن عمر بن الخطاب في زمن خلافته وهو على المنبر، خلال موسم الحج . وجميع الروايات الأخرى قد أخذت من رواية ابن عباس أو تأثرت منها . فقد ذكرها ابن هشام، الطبري، عبد الرزاق بن همام، البخاري وابن حنبل، مع اختلاف يسير في سلسلة الرواة . يمكن تقسيم الأحداث التي وقعت في السقيفة هذه إلى مرحلتين؛ قبل إلحاق الشيخين بالأنصار، وبعد إلحاقهما وبرفقة أبو عبيدة بن الجراح .

قبل إلحاق الشيخين

ما جرى في السقيفة كما يرويهِ الطبري: "حينما قبض النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت الأنصار اجتمعت في سقيفة بني ساعدة ليؤلّون سعد بن عبادَةَ، الأمر بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخرجوه وهو مريض، فشخص آخر يتكلم بكلامه ويسمع الناس . بعد ما ذكر للأنصار من فضائل لم يتسم بها قبيلة من العرب، إلى أن ينتهي ويدعوهم بالإستئثار بالحكم، فيؤيده القوم ويصفوه بصالح المؤمنين لتولي الأمر، ثم يتردد فيما بينهم" . جاء على رواية أبي مخنف، الذي ذكره الطبري في تاريخه .

فيوعز سعد إليهم أن يأخذوا بزمام المبادرة، غير مكترئين بآراء الناس بهذه العبارة: "استبدوا بهذا الأمر دون الناس" . فيجيبوه بأجمعهم: "وُفقت في الرأي وأصبت في القول ولن نعدو ما رأيت، نوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى ثم إنهم تراءوا الكلام بينهم" في ما لو أبت مهاجرة قريش فقالت: "نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعونا هذا الأمر بعده"؟ فاقترحت طائفة منهم أن يجيبوهم: "متنا

أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً" فقال سعد بن عبادة حين سمعها هذا أول الوهن . وهكذا تداول حشد الأنصار الأمر فيما بينهم قبل أن يلتحق بهم أعلام المهاجرين .

بعد التحاق الشيخين

جاء في الطبري نقلاً عن أبي مخنف: أتى عمر الخبر (إشارة إلى إجتماع السقيفة) فأقبل إلى منزل النبي فأرسل إلى أبي بكر وأبو بكر بن أبي قحافة في الدار -وعلي بن أبي طالب دائب في جهاز رسول الله- مما يدل على عدم حضورهما عند جثمان الرسول بعد وفاته وقبل دفنه . فيرسل عمر إلى أبي بكر يطلبه أن أخرج إليه، فيردّ أبو بكر بأنه مشغول، فيرسل إليه ثانية بأنه قد حدث أمر لا بدّ من حضوره، ثم يخرج إليه، فيقول: "أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولّوا هذا الأمر سعد بن عبادة وأحسنهم مقالة من يقول منا أمير ومن قریش أمير". وهكذا يصف ابن إسحاق الحدث - بعد أن احتشدت الأنصار وجاء الخبر إلى الشيخين - : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة. . . فأتى آتٍ إلى أبي بكر وعمر فقال: إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة وقد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبل أن يتفارق أمرهم ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيته لم يفرغ من أمره، قد أغلق دونه الباب أهله . فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء حتى ننظر ما هم عليه .

فيسرعون نحو السقيفة، فيلتقون بأبي عبيدة بن الجراح، يمشون إليهم ثلاثهم ثم يلتقون بعاصم بن عدي وعويم بن ساعدة، فيخبروهم عن مجريات السقيفة والاجتماع وينصحوهم بالرجوع لعدم سير الأمور على ما يتمنونه، إلا أنهم لا يأخذون بالنصيحة، فيأتون والأنصار مجتمعين، فيقول عمر بن الخطاب: "أتيناهم - وقد كئت زويت أو زورت كلاماً

أردت أن أقوم به فيهم - فلما أن دفعت إليهم ذهب لأبتدأ المنطق، فقال لي أبو بكر: رويداً حتى أتكلم ثم انطلق بعد بما أحببت، فنطق، فقال عمر: فما شيء كت أردت أن أقوله إلا وقد أتى به أو زاد عليه... ."

الصحابة تتنازع

سجّلت المصادر التاريخية النقاشات التي درت في السقيفة بين جهة وأخرى وعلى لسان أشخاص محددين وبحذافيرها، مما آل إلى مشادات كلامية مشينة وأوشكت أن تؤدي إلى العنف والاعتداء .

فيبدأ أبو بكر بعد ما يحمد الله ويثني عليه قائلاً: "إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه وشهيداً على أمته ليعبدوا الله ويوحده وهم يعبدون من دونه ألهة شتى ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ولهم نافعة وإنما هي من حجر منحوت وخشب منجور ثم يقرأ (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ويقولون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به... .

إلى أن يقول: "فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم ثم يردف قائلاً: "وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل اليكم هجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفقتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور".

فهنا يقوم الحباب بن المنذر بن الجموح فيقول: "يا معشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة وأولو العدد والمنعة والتجربة

ذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض عليكم أمركم أبي هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنكم أمير".

فيأتي دور عمر فيقول: "هيهات لا يجتمع اثنان في قرن والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم ولنا بذلك على من أبي من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل باطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة".

فيقوم الحباب بن المنذر فيقول: "يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين أنا جديها المحكك وغذيقها المرجب، أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة".

فيقول له عمر: "إذا يقتلك الله، فيرد ابن منذر: بل إياك يقتل". فيحذر أبو عبيدة، الأنصار من التحريف في أصل الدين وأساسه: "يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدّل وغير".

فيصل الدور إلى بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير -وهو من الأنصار- محذرا إياهم تجاهل أحقية المهاجرين قائلا: "يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبينا والكبح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً فإن الله ولي المنة علينا بذلك، ألا إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من قريش وقومه أحق به وأولى وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم

هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم". كما يفضل عبد الرحمن بن عوف المهاجرين على الأنصار بسبب فقدانهم لشخصيات مثل أبي بكر وعمر وعلي.

أما المنذر بن أرقم - وهو من الأنصار - يصف علياً أنه هو الشخص المؤهل لتولي المنصب ولو قدم نفسه لما كان أحد يقدر على منافسته. ونقلت المصادر بأن الأنصار - وعلى رواية أخرى بعض الأنصار - قالت: لا نبايع إلا علياً.

بيعة السقيفة

فبعد أن انشق رأي الأنصار في السقيفة وحدث شقاق جديد قديم بين قبيلتي الأوس والخزرج، أتى دور أبي بكر. وقال: "هذا عمر وهذا أبو عبيدة، فأيهما شئتم فبايعوا"

فقالا لا والله لا يتولى هذا الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك، ابسط يدك نبايعك.

فلما ذهب لبيباياه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير بن سعد، عفت عقاق ما أحوجك إلى ما صنعت أنفست على ابن عمك الإمارة، فقال: لا والله ولكني كرهت أن أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم.

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير - وكان أحد النقباء الذين اختارهم النبي (ص) بعد بيعة العقبة - والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر، فقاموا إليه فبايعوه فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم قال هشام قال أبو مخنف فحدثني أبو

بكر بن محمد الخزاعي أن أسلم أقبلت بجماعتها حتى تضايق بهم السكك فبايعوا أبا بكر فكان عمر يقول ما هو إلا أن رأيت أسلم فأيقنت بالنصر .

وعندئذ أطلقت رصاصة الرحمة على المنافسين من الأنصار لتولي أمر الخلافة وصبت الأمور في صالح المهاجرين الأولين، فتفوقوا على القوم. ثم يصور لنا الطبري في تاريخه مجريات الأحداث وكأنها أخذت منحى آخر، حيث أقبلت الناس من كل جانب لمبايعة أبي بكر، فحصل تدافع جماهيري -على حد تعبيره- مما كاد أن يؤدي إلى وطئ سعد بن عبادة أو يودي به، كما يذكر أيضاً الاحتدام الذي حصل بين سعد وعمر ووساطة أبي بكر لوضع حد له وحمل سعد إلى الخارج ورفضه للمبايعة رفضاً باتاً إلى آخره

يقول المعتزلي قنالا عن براء بن عازب: "... فكنيت أتردد إلى بني هاشم وهم عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحجر، وأتفتد وجوه قريش، فأني كذلك إذ فقدت أبا بكر وعمر، وإذا قائل يقول: القوم في سقيفة بني ساعدة، وإذا قائل آخر يقول: قد بويج أبو بكر، فلم ألبث وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة، وهم محتجزون بالأزر الصنعانية لا يرون بأحد إلا خبطوه، وقدموه فمدوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه، شاء ذلك أو أبي... .

قال هشام قال أبو مخنف فحدثني أبو بكر بن محمد الخزاعي، أن أسلم أقبلت بجماعتها حتى تضايق بهم السكك فبايعوا أبا بكر، فكان عمر يقول ما هو إلا أن رأيت أسلم فأيقنت بالنصر .

الحضور في الاجتماع

أغلب التقارير المنبثقة من مصادر أهل السنة حول السقيفة، تؤيد تواجد عامة المهاجرين والأنصار ومشاركتهم الفعالة في ذلك الاجتماع. والحال إن كثيراً من المصادر تصف الحدث وتقسمه إلى مرحلتين؛ الأولى هي البيعة في السقيفة، والثانية البيعة العامة والتي شملت عموم أهل المدينة غداة السقيفة.

توصل الباحثون إلى أن من بين المهاجرين أبو بكر وعمر وأبو عبيدة هم من حضر السقيفة واحتمال مرافقة بعض من أعضاء الأسرة أو خدمته هؤلاء الثلاثة، وارد وليس مستبعداً. ومن ضمن الحضور ورد اسم سالم مولى أبي حذيفة، وهو يعد من أول المبايعين لأبي بكر. ولو لم تذكر أياً من أمهات المصادر المقدمة اسمه. كما قد سكنت المصادر عن ذكر اسامي أخرى ممن كان يمكن تواجدهم من المهاجرين وإن كانوا بمستوى أدنى أو بنفس المستوى. وهناك من أكد على قلة حضور المهاجرين في موقع السقيفة أشهر من حضر من الأنصار في السقيفة بحسب التقارير هم: سعد بن عبادة، وابنه قيس، وابن عمه ومنافسه بشير بن سعد، أسيد بن حضير، ثابت بن قيس، منذر بن أرقم، براء بن عازب، وحباب بن منذر.

البيعة العامة

ثم انتشرت رقعة البيعة في المدينة بعد بيعة السقيفة، التي عرفت بالبيعة العامة فيما بعد.

وهناك روايات تصف البيعة العامة وكيفية حصولها بأجواء سلمية وهادئة ومستقرة، ففي رواية ينقلها الطبري عن ابن حميد عن أنس بن مالك يقول: "لما بويج أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أيها الناس إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيي وما وجدت في كتاب الله ولا كانت عهداً عهداً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكني قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا، وإن الله قد أبقي فيكم كتابه الذي هدى به رسول الله فإن اعتصمتم به

هداكم الله لما كان هداه له وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله، وثاني اثنين إذ هما في الغار،
فقوموا فبايعوا فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة.

أهل البيت، بنو هاشم والموالون

يوافينا التاريخ بعدة مواقف لبني هاشم حيث أعربوا عن رفضهم لمبايعة أبي بكر اقتداءً بعلي بن أبي طالب وفاطمة
(ع)، وأبدوا عن استيائهم تجاه ما آلت إليه الأمور .

موقف علي وفاطمة (ع)

بحسب التقارير التاريخية، بعد وفاة رسول الله ومضى الأنصار قدما مع ثلثة من المهاجرين في السقيفة، تقاعس عنهم
علي (ع) وبعض من الصحابة. وبرأي المفيد: أن "المحققين من أهل الامامة يقولون: لم يبايع ساعة قط، فقد حصل
الإجماع على تأخره عن البيعة".

عندما رأى رجل علياً وهو يسوي قبر رسول الله ثم أخبره بما حصل في اجتماع السقيفة، من مبايعة القوم أبا بكر
والاختلاف الذي حصل بين الأنصار ومبادرة الطلقاء بالعقد خوفاً من إدراك بني هاشم الأمر، وضع يده على المسحاة
وقرأ الآيات الأولى من سورة العنكبوت .

وفي موقف آخر له عندما انتهت أنباء السقيفة إلى أمير المؤمنين بعد وفاة رسول الله، سأل عن ما قالته الأنصار في
احتجاجهم أمام المهاجرين والذي أجابوا فيه: "منا أمير ومنكم أمير". فسأل: "لم يحتج أحد عليهم بأن رسول الله
وصى بأن يحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم"؟ فقالوا: "وما في هذا من الحجّة عليهم"؟ فقال: "لو كانت

الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم". وبحسب نص آخر: كيف تكون الإمامة لهم مع الوصية بهم؟ لو كانت الإمامة لهم لكانت الوصية إليهم.

ثم سأل عن ما قالت قريش، فأجابوه: احتجّت بأنها شجرة الرسول، فقال: احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة.

وفي أحد إحتجاجاته حول شأن الخلافة يقول علي: واعجباً! أتكون الخلافة بالصحابة، ولا تكون بالصحابة والقرابة؟ ويروى: ولا تكون بالقرابة والنص

وعن أبي جعفر محمد بن علي، أن علياً حمل فاطمة على حمار، وسار بها ليلاً إلى بيوت الأنصار، يسألهم النصرة وتسالهم فاطمة الانتصار له، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، لو كان ابن عمك سبق إلينا أبا بكر ما عدلنا به، فقال علي: أكت أترك رسول الله ميتاً في بيته لا أجهزه، وأخرج إلى الناس أنازعهم في سلطانه! وقالت فاطمة: ما صنع أبو حسن إلا ما كان ينبغي له، وصنعوا هم ما الله حسبهم عليه.

موقف الموالين لآل الرسول

ولقد عدّ يعقوبي في تاريخه أسامي هؤلاء في حلقة الذين لم يرتضوا بمبايعة أبي بكر إلى جانب علي (ع): العباس، والفضل بن العباس، والزيبر، وخالد بن سعيد، والمقداد، وسلمان، وأبو ذر، وعمار، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب. واتفق الكثير على أنه قد تحلف عن بيعة أبي بكر جماعة أبرزهم: والعباس، والفضل بن العباس، وبنو هاشم بأجمعهم، وعتبة بن أبي لهب، وسعد بن عباد، وسلمان، وعمار، والمقداد، وأبو ذر، وأبي بن كعب، وسعد بن أبي وقاص، والزيبر، وطلحة، والبراء بن عازب، وخزيمة بن ثابت، وفروة بن عمرو الأنصاري، وخالد بن سعيد بن العاص...

وعن أبان بن تغلب في الاحتجاج عندما يسأل من أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن أصحاب الرسول فيمن أنكر على أبي بكر فعله وجلوسه في مجلس رسول الله، فيجيب: نعم، كان الذي أنكر على أبي بكر اثنا عشر رجلاً من المهاجرين: خالد بن سعيد بن العاص، وكان من بني أمية، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود الكندي، وعمار بن ياسر، وبريدة الأسلمي. ومن الأنصار: أبو الهيثم بن التيهان، وسهل وعثمان ابنا حنيف، وخزيمة بن ثابت (ذو الشهادتين)، وأبي بن كعب، وأبو أيوب الأنصاري.

وهناك من يرى بأن الذين بايعوا، إنما بايعوا كرهاً.

وهناك تقارير عن وقائع ما بعد بيعة السقيفة تقول عندما بويع أبو بكر يوم السقيفة، وجُددت البيعة له على العامة، خرج عليُّ أبي طالب فقال: "أفسدت علينا أمورنا، ولم تستشر ولم ترع لنا حقاً. فقال أبو بكر: بلى، ولكني خشيت الفتنة. . . ولم يبايعه أحد من بني هاشم حتى ماتت فاطمة رضي الله عنها".

تجمع الروايات على أنه بلغ عمر بن الخطاب، أبناء من تجمعوا في دار فاطمة، فقام برفقة جماعة، باقتحام البيت وفيه علي مع ثلثة من المهاجرين منهم طلحة والزبير بغية إرغامهم على البيعة.

البواعث لتجمع الأنصار

إن التسائل عن الأسباب التي أدت إلى أن تهرع الأنصار بمناحيها الأوس والخزرج إلى عقد مؤتمرهم، والرسول لم يغيبه مشواه الأخير بعد عن عيون القوم، بات قائما وفي محله. فالبعض يرجع السبب إلى استشعار الأنصار بالخطورة وقصدتهم لسبق الأحداث قبل أن ينتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى.

يرى البعض بأن ما دعى لإجتماع الأنصار وأن يوجه سعد بن عبادَةَ خطابه لهم في السقيفة، يمكن أن يكون إما عفويًا ونابغاً من حبه للمنصب، أو نفاذياً لما كان يخطط له أعلام المهاجرين . وأن إتخاذ هكذا مواقف في تلك اللحظة الحساسة، جاء كردة فعل لما كان يستعد له المهاجرون -على الأرجح- وليس من أجل المخالفة لوصايا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والتي تشمل: حديث الإنذار يوم الدار، حديث المنزلة، حديث الوراثة، حديث الإمارة، حديث الوصاية، حديث مدينة العلم، حديث الهداية، حديث الولاية، حديث السفينة، حديث الثقلين، حديث إثني عشر خليفة، وحديث الغدير . . .

فعدم رضوخ بعض كبار المهاجرين لجيش أسامة رغم ما أكد عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التعجيل في تجهيز الجيش، أو الحيلولة دون جلب القلم والقرطاس بطلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو نية التصدي عن نزع حقوق الأنصار الاجتماعية، وما تنبأ به الرسول من إقبال الفتن كقطع الليل المظلم، يمكن أن تعدّ مجسب البعض - من ضمن الأسباب التي دفعت الأنصار إلى الإسراع لعقد اجتماع في السقيفة، وذلك لإستباق الأحداث تجنباً لتضييع حقوقهم وبالتالي إزاحتهم عن مكائهم الاجتماعية، قبل فوات الأوان .

إطالة

إن ما يستوقف الباحثين هنا هو السؤال عن الصورة التي رافقت البيعة، فهل هي إمتازت بطابع سلمي عبر المشورة والاختيار السليم كما يروج له البعض، أو طغى عليها أثر من العنف والإحتقان "وكانت فلة وقى الله شرها" كما يصفها عمر في مقولته الشهيرة . فإلى ما يستندون؟

المصادر التاريخية عند الفريقين تصف إجتماع السقيفة على صورة :

أن يجعل بن الخطاب يمني قتل سعد، لما يصفه بالمنافق وصاحب فتنة على حد تعبيره. ويقوم على رأسه ويقول له: "هممت أن أطاك حتى تندر عضوك، أو عيونك" فيلقاه قيس بن سعد قائلاً: "لئن حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة، أو جارحة".

ويقول عمر بن الخطاب: "والله ما يخالفنا أحد إلا قتلناه. . . ثم ارتفعت الأصوات حتى كادت الحرب تقع. . . واتضح الحباب بن المنذر السيف ويقول: "والله لا يرد علي أحد ما أقول إلا حطمه بالسيف". فيقول له عمر: إذن يقتلك الله. فيجيب: بل إياك يقتل. فيأخذ ويوطئ في بطنه، ويدس في فيه التراب وآخر ينادي: "أما والله أرميكم بكل ما في كنانتي من نبل، وأخضب منكم سناني ورحمي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم مع من معي من أهلي وعشيرتي".

وآخر يقول: "إني لأرى عجاجة لا يُطفئها إلا دم".

ويبعث أبو بكر عمراً إلى بيت فاطمة، ويأمره بقتالهم إن أبوا، وما روي من حمل قبس من نار لإحراق البيت إن لم يدخل من فيه فيما دخلت فيه الأمة، ولم يخرجوا إلى البيعة

ويستل الزبير سيفه عند بيت فاطمة، ويقول: "لا أغمده حتى يبايع علي". فيقول عمر بن الخطاب: "عليكم بالكلب". فيؤخذ سيفه من يده، ويضرب به الحجر فيكسر". كما أن المقداد يدفع في صدره، ويضرب أنف الحباب بن المنذر ويكسر.

وأخيراً الإعتداء على الزهراء و. . . [٦٥] ولم يبايع علي حتى يرى الدخان يخرج من بيته.

السقيفة في الكلام الشيعي

تعتقد الشيعة بأن الاجتماع في السقيفة وما تمخض عنه، كان تحلفاً عن صريح وصايا النبي حول استخلافه علي بن أبي طالب (ص) من بعده. وقد استشهدت الشيعة ببعض الآيات والروايات والأحداث التاريخية، للرد على مشروعية السقيفة وإثبات أحقية الإمام علي لخلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم طبقاً لما ورد عن أتباع أهل البيت وتداولته مصادر أهل السنة أيضاً، ومن أهمها الروايات المتعلقة بواقعة الغدير. فبرأي الشيعة استخلف النبي علي بن أبي طالب (ع) في غدير خم لإكمال الرسالة الإلهية وعلى نحو صارخ أمام المسلمين المشاركين في حجة الوداع.

يذكر العلامة المظفر روايات عديدة عن مختلف المواقف التاريخية والتي فيها يُشير النبي إلى خلافة علي بعده إما بتصریح أو بتلميح وإيحاء. أحاديث نحو: "إن علياً مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي" و"لكل نبي وصي ووارث وإن وصيي، ووارثي علي بن أبي طالب" أو "أنا مدينة العلم وعلي بابها" وحديث الإنذار يوم الدار، والغدير، وعند مؤاخاة الصحابة، ويوم الخندق والخير، وإغلاق أبواب الصحابة المنتهية إلى المسجد النبوي عدا باب علي و... تدل على مؤهلات الإمام علي (ع)، بشكل أو بآخر.

السقيفة وأصل الإجماع

إن أصل الإجماع، يعد أحد قواعد استنتاج الحكم الشرعي لدى أهل الجماعة والذي اعتمد عليه في إثبات مصداقية خلافة أبي بكر. وقد تمسكت السنة إلى دليل إجماع الأمة في تبرير شرعنة خلافة أبي بكر حسب الباحثين الشيعة. وأبدعوا مفهوم الإجماع في الإمامة العامة والخاصة، لصحة اجتماع الأمة، قاصدين نبذ عقيدة الشيعة ونفي الحاجة إلى الإمام المعصوم. كان طرح هذه النظرية برأي هؤلاء الباحثين، كرد فعل تجاه قضية السقيفة وخلافة أبي بكر والتسوية له، وإن تسريه إلى سائر المجالات العقدية كالإمامة العامة والقضايا الفقهية، يعد محاولة لتكريس هذا الاعتقاد.

ثمرات السقيفة

من المؤرخين من يعدّ أحداثاً تاريخية طوال الفترات التي تلت واقعة السقيفة، ويعتقد بأنها من ثمار تلك الواقعة، من أهمها:

إقحام بيت فاطمة، من أجل إرغام زوجها علي (ع) على البيعة ورافقت الانتهاكات المبرحة -على رأي أتباع أهل البيت عليهم السلام. - التي أدت إلى وفاتها (س).

مصادرة فدك وهي القرية الواقعة في الحجاز والتي وهبها النبي (ص) لإبنته الزهراء (ع) في حياته.

واقعة الطف الذي قتل فيه أبو عبد الله الحسين (ع) سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع جمع من أنصاره وسبي أهل بيت الرسول (ص) في أرض كربلاء سنة 61 للهجرة.

رؤى المستشرقين

هنري لمنس ونظرية القوة الثلاثية؛ في عام 1910 م، أصدر المفكر البلجيكي، هنري لمنس (1863-1937)، مقالة تحت عنوان "القوة الثلاثية؛ أبو بكر، عمر وأبو عبيدة". وادعى فيها بأن الغاية المشتركة والتعاقد الفاعل بين هؤلاء الثلاثة في حياة النبي الأعظم (ص) كان يجري على قدم وساق، ومنحهم القوة لتثبيت خلافة إبي بكر وعمر. وقد كان أبو عبيدة ينال منصب الخلافة، إذا كان يعيش بعد عمر بن الخطاب. ولو لم يتطرق لمنس في نظريته هذه إلى مؤامرة حيكت لكسب الخلافة، إلا أنه احتملها وبشكل غير مباشر عبر طرحه للنظرية.

ويعتقد لمنس بأن ابنتا أبي بكر وعمر؛ عائشة وحفصة -زوجتا الرسول (ص)- نجحتا في إطلاع أبايهما عن كل شاردة وواردة في حياة النبي، وقد توفقتا بلعب دور فاعل في حياة النبي والذي سنعلم بالاحتكام بالسلطة.

نظرية ليون كياتاني؛ وقد يشير هذا المستشرق الإيطالي، في مقدمته لكتاب تاريخ الإسلام، إلى عمق الخلافات بين أبي بكر وبني هاشم ويدي عن استغرابه لتنصيب أبي بكر في اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، بعيد وفاة الرسول (ص). كما يؤيد كياتاني تلميحاً إلى مدى جدية ما يدعيه علي بن أبي طالب (ع) في رفضه للروايات المشهورة التي تمسك بها أبو بكر لخلافته المزعومة، بما فيها تقدم حق قریش لكونهم عشيرة النبي (ص).

لأن الأمر يؤدي إلى ترسيخ مطالبة علي بن أبي طالب (ع) الذي يُعد من أقرب أقارب النبي. ومن وجهة نظره لو كان بإمكان النبي أن يختار أحداً، من الأرجح أنه كان يفضل أبا بكر على السائرين، ورغم ذلك يعتبر كياتاني، نظرية "القوة الثالثة: أبو بكر، عمر، أبو عبيدة" لهنري لمنس، هي النظرية المثلى، في المجلدات اللاحقة لكتابه.

ويلفرد مدلونغ؛ يقوم المستشرق الألماني والخير في الديانة الإسلامية، بطرح الموضوع وجوانبها بإسهاب ويعتقد خلاف ما يراه أغلب المؤرخين، بأن اجتماع السقيفة لم يتكون في بادئ الأمر لتعيين الخليفة على المسلمين، وبما أن عقيدة الخلافة لتولي قيادة الأمة، لم يسبق له نظير في المجتمع الإسلامي، فالتصور بأن الأنصار كانت تطمح إلى ذلك عبر اجتماعها، مستبعد من أصله.

ويعتقد مدلونغ بأنه وبعد وفاة النبي (ص) مباشرة، قد تصورت الأنصار بأن البيعة مع الرسول أصبحت في خبر كان، وتوجست انهيار المجتمع الذي بُني على يد النبي، فقررت اختيار قائد من بينهم لتدبير أمور المدينة، وبناء عليه اجتمعت في السقيفة بدون استشارة المهاجرين.

فتوقعت الأنصار بأن لا وجهة لبقاء المهاجرين في المدينة، فسيعودون إلى ديارهم، ومن لم يعد فسوف يخضع للأمر الواقع تحت إمرة الأنصار.

ويطرح هذه النظرية بجد؛ ألا وهي الرؤية المختصة بعمر وأبي بكر والتي تعتبر خليفة الرسول هو الحاكم على جميع العرب والمسلمين» ولإيليق بهذا المنصب غير قريش .

كما ويعتقد أن أبا بكر كان قد اعتزم على تصدي الخلافة قبل وفاة النبي (ص)، وكان قد يحمل نية الإطاحة بمنافسيه الأقوياء، لأجل الحصول على ذلك .

وكان على رأس المنافسين، أهل بيت محمد (ص) الذين قد فضلهم الله على سائر المسلمين .

إن مبادرة الأنصار لاجتماعهم في السقيفة هيأت الفرصة المناسبة لأبي بكر كي ينال ما كان يتوق له، فقدم في البدء عمرا وأبا عبيدة -وبصورة تمثيلية- كخيارين لخلافة للنبي (ص)، والحال أنهما لم يكونا يتمتا بأقل قدر من الحظ في كسب الآراء، والواضح أن العرض لم يكن جاداً وقد استغله ابن أبي قحافة، لإثارة الجدل فيما بين المجتمعين، كي تصب الأمور في مصلحته في نهاية المطاف .

والأدلة المطروحة من قبل أهل السنة والباحثين في الغرب، التي ترى عدم جدية ترشيح علي بن أبي طالب، نظراً لحداثة سنه وعدم كفاءة -مقارنة ببعض الصحابة الآخرين مثل أبي بكر وعمر- يتعارض مع واقع المجتمع -على حد تعبير مدلونغ- وهناك أمور أخرى مثارة من جانب أبي بكر أدى إلى تغافل المسلمين عن ابن أبي طالب، ومن ثم حرمانه من منصب الخلافة .

خلافة الصديق رضي الله عنه

وفق رؤية محايدة

يقول احدهم: (لقد آليت على نفسي عند الدخول في هذا البحث أن لا أعمد إلا ما هو موثوق عند الفريقين وأن أطرح ما انفردت به فرقة دون أخرى، وعلى ذلك أبحث في فكرة التفضيل بين أبي بكر وعلي بن أبي طالب وأن الخلافة إنما كانت بالنص على علي كما يدعي الشيعة أو بالانتخاب والشورى كما يدعي أهل السنة والجماعة) . . . وقال أيضاً: (والباحث في هذا الموضوع إذا تجرد للحقيقة فإنه سيجد النص على علي بن أبي طالب واضحاً جلياً كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) قال ذلك بعدما انصرف من حجة الوداع فعدد لعلي موكب للتهنئة حتى أن أبا بكر نفسه وعمر كانا من جماعة المهنيين للإمام يقولان: (بيخ بيخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة) . وهذا النص مجمع عليه من الشيعة والسنة، ولم أخرج أنا في البحث هذا إلا مصادر السنة والجماعة . . . الخ.

ردود العلماء

اختلف أهل السنة في خلافة أبي بكر، فقالت جماعة: ان خلافة أبي بكر ثبتت بالنص الجلي أو الخفي، في حين قالت جماعة أخرى من أهل السنة أن الخلافة كانت بموافقة أهل الحل والعقد، وقد استدل الطرف الأول على وجود النص بالخلافة على أدلة قوية، فعلى التقديرين لم يخرج الحق عن أهل السنة .

أما قوله أن الشيعة يدعون بأن الخلافة كانت بالنص على علي بن أبي طالب رضي الله عنه مستندين على عدة أحاديث فهذا فيه نظر كما سيأتي، ومن جانب آخر لو فرضنا أن القول بالنص على الخلافة هو الحق لم يكن لهذا الأمر

دليل على ما يدعيه الشيعة الاثني عشرية، فإن الراوندية القائلين بإمامة العباس بن عبد المطلب يدعون النص الثابت عليه كما يدعي الشيعة أن النص الثابت هو في علي .

أما قوله: أن الباحث عن الموضوع إذا تجرد للحقيقة فإنه سيجد النص على علي بن أبي طالب واضحاً جلياً كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) .

الرد:

أ- اختلف أهل الحديث في تصحيح وتضعيف هذا الحديث فمنهم من ضعفه ومنهم من حسنه .

ب- الإدعاء أن هذا الحديث نص واضح وجلي على علي فاقول: البرهان على عدم وجود هذا الوضوح والجلال هو في نفس النص لأن النص كان بعد رجوع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حجة الوداع عند غدير خم، ومعلوم أنه بعد حجة الوداع لم يرجع المسلمون كلهم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة بل رجع أهل مكة إلى مكة وأهل الطائف إلى الطائف وأهل اليمن إلى اليمن فلم يرجع معه إلا أهل المدينة، فلو كان ما ذكره في غدير خم بلاغاً للناس كافة لذكره في حجة الوداع التي اجتمع فيها المسلمون كافة، ولم يذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الحجة الإمامة بشيء ولا ذكر علياً أصلاً، ومن هنا نعلم أن إمامة علي لم تكن وحياً منزلاً ولا منصوصاً عليها في دين الله عزوجل، ولا مما أمر ببلاغها، فهذا الحديث ليس حجة على خلافة علي فضلاً عن وضوحه وجلالته!

ج وبالنسبة لكلمة مولاه فلم يرد بها الخلافة قطعاً ولا اللفظ يدل على ذلك لتعدد معاني المولى، ففي مختار الصحاح يقول الرازي: (المولى المعتق والمعتق وابن العم والناصر والجار والحليف . . . والمولاة ضد المعادة . وقال: الولاية بالكسر السلطان والولاية بالفتح والكسر النصر)، وقال الفيروزآبادي: (الولي: القرب والدنو، . . . والولي: الاسم منه، والحب

والصديق، والنصير، وولي الشيء، وعليه ولايةٌ وولايةٌ أو هي المصدر وبالكسر: الخطة والإمارة والسلطان . . .
والموَلَى: المالك، والعبد، والمُعْتَقُ، والمُعْتَقُ، والصاحب، والابن، والعم، والنزيل، والشريك، وابن الأخت، والوَلِيُّ،
والرب، والناصر، والمُنْعَمُ، والمُنْعَمُ عليه، والمحِب والتابع، والصحْر).

ومن هنا نعلم أن المولى جاءت بمعنى النصرة وغيرها من التعريفات السابقة فجعلها في معنى السلطان يحتاج إلى دليل واضح لإثبات ذلك، هذا بالإضافة لتعذر حمل المولى على الوالي.

يقول شيخ الإسلام: (وليس في الكلام ما يدل دلالةً بيّنة على أن المراد به الخلافة . وذلك أن المولى كالولي، والله تعالى قال: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا [المائدة : 55] وقال: وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ [التحريم : 4] فبيّن أن الرسول وليّ المؤمنين، وأنهم مواليه أيضاً، كما بيّن أن الله وليّ المؤمنين، وأنهم أولياؤه، وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، فالموالاة ضد المعادة، وهي تثبت من الطرفين، وإن كان أحد المتواليين أعظم قدراً، وولايته إحسان وتفضل، وولاية الآخر طاعة وعبادة، كما أن الله يحب المؤمنين، والمؤمنون يحبونه، فإن الموالاة ضد المعادة والمحاربة والمخادعة، والكفّار لا يحبون الله ورسوله، ويحادون الله ورسوله ويعادونه.

ولكن ما الذي استوجب قوله صلى الله عليه وآله وسلم لهذا في حق علي رضي الله عنه ؟

لا جدال في أن علياً رضي الله عنه كان في اليمن عند خروج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى حجة الوداع، وأنه رضي الله عنه لحق به وحج معه . وهناك في اليمن حصلت أمور بينه وبين أصحابه توضحها روايات عدة :

منها: ما رواه عمرو بن شاس الأسلمي: أنه كان مع علي بن أبي طالب في اليمن، فجفاه بعض الجفاة فوجد عليه في نفسه، فلما قدم المدينة اشتكاه عند من لقيه، فأقبل يوماً ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس في المسجد، فنظر إليه حتى جلس إليه، فقال: يا عمرو بن شاس، لقد آذيتني، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، أعوذ بالله وبالإسلام أن أؤذي رسول الله، فقال: (من آذى علياً فقد آذاني). وعن الباقر قال: «بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً إلى اليمن، فذكر قضاءه في مسألة فيها أن علياً رضي الله عنه قد أبطل دم رجل مقتول، فجاء أولياؤه من اليمن إلى النبي يشكون علياً فيما حكم عليهم، فقالوا: إن علياً ظلمنا وأبطل دم صاحبنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن علياً ليس بظلام».

وفي رواية: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أراد التوجه إلى الحج كاتب علياً رضي الله عنه بالتوجه إلى الحج من اليمن، فخرج بمن معه من العسكر الذي صحبه إلى اليمن ومعه الحلل التي كان أخذها من أهل نجران، فلما قارب مكة خلف على الجيش رجلاً، فأدرك هو رسول الله ص، ثم أمره بالعودة إلى جيشه، فلما لقيهم وجدهم قد لبسوا الحلل التي كانت معهم، فأنكر ذلك عليهم، وانتزعها منهم، فاضطغنوا لذلك عليه، فلما دخلوا مكة كثرت شكايته من أمير المؤمنين رضي الله عنه، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مناديه فنادى في الناس: (ارفعوا ألسنتكم عن علي بن أبي طالب؛ فإنه خشن في ذات الله عزوجل، غير مدهان في دينه).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جيشاً واستعمل عليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فمشى في السرية وأصاب جارية، فأنكروا ذلك عليه، وتعاقد أربعة من أصحاب رسول الله، فقالوا: إذا لقينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبرناه بما صنع علي. فذكر شكوى الأربعة وإعراض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنهم، وقوله: (من كنت مولاه فعلي مولاه).

وهكذا بدأت تتضح الصورة

وعن بريدة رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله في سرية، فلما قدمنا قال: كيف رأيتم صحابة صاحبكم؟ قال: فإما شكوته أو شكاه غيري، قال: فرفعت رأسي وكنت رجلاً مكباباً، قال: فإذا النبي قد احمر وجهه وهو يقول: (من كنت وليه فعلي وليه).

وفي رواية عنه أيضاً رضي الله عنه قال: غزوت مع علي اليمن، فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تنقصته، فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتغير، فقال: يا بريدة، ألسنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال صلى الله عليه وآله وسلم: (فمن كنت مولاه فعلي مولاه).

وفي أخرى: أن رجلاً كان باليمن فجفاه علي بن أبي طالب، فقال: لأشكونك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله عن علي فشنا عليه، فقال: (أنشدك بالله الذي أنزل علي الكتاب واختصني بالرسالة عن سخط تقول، ما تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: ألا تعلم أنني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قال: بلى، قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه).

فدلت هذه الروايات على أن سبب قوله صلى الله عليه وآله وسلم لذلك إنما كان بسبب ما ذكرناه من شكوى الناس منه، وأنه ليس المراد به الدلالة على الوصاية إليه لجعله على سبب، وبعد تفرق الحجيج وانصراف كل أهل ناحية إلى ناحتهم.

وكتب الإمامية تذكر أن قوله صلى الله عليه وآله وسلم في حق علي رضي الله عنه: (من كنت مولاه فعلي مولاه)، قد كان تكرر منه قبل الغدير بسنين عديدة، مما يدل على أنه ليس فيما كان في يوم الغدير خاصية مختلفة لقوله هذا عن

ذي قبل سوى أن قوله يوم ذاك كان في محضر الكثير من أصحابه الذين خرجوا معه للحج، ومن تكرار شكوى الناس منه في اليمن، فتوهم من توهم أن قوله ذلك إنما كان لبيان إمامته .

ومن الروايات في ذلك ما كان يوم المؤاخاة الذي ذكرناه، حيث آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار وترك علياً فبكى فذهب إلى بيته، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلالاً رضي الله عنه في طلبه، فقال: (يا علي، أجب النبي . فأتى علي النبي، فقال النبي: ما يبكيك يا أبا الحسن؟ فقال: آخيت بين المهاجرين والأنصار يا رسول الله وأنا واقف تراني وتعرف مكاني ولم تؤاخ بيني وبين أحد، قال: إنما ذخرتك لنفسي، ألا يسرك أن تكون أخا نبيك؟ قال: بلى يا رسول الله، أتى لي بذلك؟ فأخذ بيده فأرقاه المنبر، فقال: اللهم إن هذا مني وأنا منه، ألا إنه مني بمنزلة هارون من موسى، ألا من كنت مولاه فهذا علي مولاه) .

والمؤاخاة كانت في بداية الهجرة ومنها: ما كان يوم التصدق بالخاتم، فعن زيد بن الحسن، عن جده رضي الله عنه قال: سمعت عمار بن ياسر رضي الله عنه يقول: (وقف لعلي بن أبي طالب سائل وهو راكع في صلاة تطوع، فنزع خاتمه فأعطاه السائل، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعلمه ذلك، فنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ [المائدة : 55]، فقراها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علينا، ثم قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) .

ومنها: ما جاء في حديث الطير وقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: (اللهم اتني بأحب خلقك إليك، فجاء علي، فقال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) . وغيرها .

فهذه مواطن ذكرها الإمامية وقال فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه)، وهي مقولة الغدير تماماً .

فإن كان ما نحن فيه من استدلال هو دليل النص على الإمامة، فقد بطلت النصوص السابقة، وإن كان العكس فأبي جديد في الغدير؟! .

ويذكرني هذا بقول الصدوق في حديث الغدير: (ونظرنا فيما يجمع له النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس ويخطب به ويعظم الشأن فيه، فإذا هو شيء لا يجوز أن يكونوا علموه فكرره عليهم، ولا شيء لا يفيدهم بالقول فيه معنى، لأن ذلك صفة العايب، والعبث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منفي).

فهذا اعتراف من الصدوق أن كل ما سبق الغدير من استدلال ليس فيه ما يفيد النص على الإمامة لعلي رضي الله عنه؛ لأنه لا يجوز أن يكون شيئاً علموه فكرره عليهم.

وبعيداً عن كل ما ذكرناه، لنتكلم الآن في دلالة ما صح من حديث غدير خم وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (من كنت مولاه فهذا علي مولاه)، حيث إن هذا الجزء يكاد يتفق عليه جميع المسلمين، وهو صحيح كما ذكرنا في مقدمة هذا الاستدلال.

فنقول: ورد ذكر الموالة ومشتقاتها في القرآن الكريم في عشرات المواضع وكذلك في السنة الشريفة والآثار، وكلها تدل على أن معنى الموالة تحمل على وجوه عدة ومعانٍ مشتركة قد تبلغ الثلاثين، وقد مر بك ذكرها . ولا شك أن الكثير من هذه الألفاظ لا تنطبق على حديثنا، ولكن أقربها إلى مدلوله هي لفظة [الموالة] التي هي ضد المعادة والحاربة والمخادعة، وليست الإمارة والخلافة، لذا لم يقل صلى الله عليه وآله وسلم: من كنت واليه فعلي واليه أو قريباً من

هذا . وأما كون المولى بمعنى الوالي فهذا باطل، فإن الولاية تثبت من الطرفين؛ فإن المؤمنين أولياء الله وهو مولاهم، وفي الحديث دليل صريح على اجتماع الولايتين في زمان واحد، إذ لم يقع التقييد بلفظ [بعدي]، بل يدل سياق الكلام على التسوية بين الولايتين في جميع الأوقات من جميع الوجوه كما هو الأظهر، وشركة علي رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في التصرف في عهده ممتعة، فهذا أدل دليل على أن المراد وجوب محبته، إذ لا محذور في اجتماع محبتين، بل إحداهما مستلزمة للأخرى، سواء في حياتهما أو بعد وفاتهما صلوات الله عليهما، أما اجتماع التصرفين ففيه محذورات كثيرة كما لا يخفى .

وهذا يجزنا إلى القول أن إمامته رضي الله عنه غير مرادة في زمن الخطاب، لأن ذلك عهد النبوة، والإمامة نيابة فلا تتصور إلا بعد انتقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا لم يكن زمن الخطاب مراداً، تعين أن يكون المراد الزمان المتأخر عن زمن الانتقال ولا حد للتأخير، فليكن ذلك بالنسبة إلى علي بعد مضي زمان أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، وبهذا يتحقق الوفاق بين الفريقين .

نعم، لا يخلو تخصيص علي رضي الله عنه بالذكر بهذه الموالاتة التي هي ضد المعاداة من علة، وقد بينا أن ذلك بسبب ما ذكرناه من شكوى الناس، ومن علمه صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي من وقوع الفساد والبغي في زمن خلافته، وإنكار بعض الناس لإمامته بل ومحاربتة، حتى احتج هو رضي الله عنه بحديث الغدير لإلزامهم بموالاته ومناصرتة . وهذا موافق تماماً لقول الإمام العسكري رحمه الله لما سأله الحسن بن طريف: «ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمر المؤمنين: من كنت مولاه فعلي مولاه؟ قال: أراد بذلك أن جعله علماً يعرف به حزب الله عند الفرقة» .

وهذا الحسين رضي الله عنه يقول لجيش الشام: «أتعلمون أن علياً ولي كل مؤمن ومؤمنة؟ قالوا: نعم». .

فهل فهموا من ذلك أنه إما منصوص، حتى بايعوا غيره، وقاتلوا ابنه رضي الله عنهما؟! وهكذا . .

والإمامية أوردوا في مصنفاتهم ما يفيد عدم فهم الناس لحديث غدير خم على أنها الخلافة العامة للمؤمنين، ومن هذه

الروايات:

عن أبي إسحاق قال: قلت لعلي بن الحسين: «ما معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من كنت مولاه فعلي

مولاه. . .» الرواية؟

وعن أبان بن تغلب قال: «سألت أبا جعفر محمد بن علي عن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من كنت مولاه

فعلي مولاه؟ فقال: يا أبا سعيد، تسأل عن مثل هذا؟». .

وعن أبي التيهان قال: «أنا أشهد على النبي أنه أقام علياً، فقالت الأنصار: ما أقامه إلا للخلافة، وقال بعضهم: ما أقامه

إلا ليعلم الناس أنه ولي من كان رسول الله مولاه». .

ويؤكد هذا رواية الصادق، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، وعلي أولى به من

بعدي، فقيل لي: ما معنى ذلك؟ قال: قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من ترك ديناً أو ضياعاً فعلي، ومن ترك

مالاً فلورثته». .

فانظر هنا . . فرغم صراحة اللفظ إلا أنه لم يحمل على الخلافة العامة . . فتأمل!

وعن الصادق أيضاً قال: «لما أقام رسول الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يوم غدِير خم، أنزل الله تعالى على لسان جبرئيل، فقال له: يا محمد، إني منزل غداً ضحوةً نجماً من السماء يغلب ضوءه على ضوء الشمس، فأعلم أصحابك أنه من سقط ذلك النجم في داره فهو الخليفة من بعدك، فأعلمهم رسول الله، فجلسوا كلهم كل في منزله يتوقع أن يسقط النجم في منزله، فما لبثوا أن سقط النجم في منزل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفاطمة».

فكان واضح هذه الرواية يؤكد ما نحن بصده من عدم فهم من حضر الغدير وقد عرفت عددهم، وعرفت معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (من كنت مولاه فعلي مولاه)، من أنها تعني الخلافة بعده، حتى انتظروا إلى يوم التاسع عشر من ذي الحجة ليروا على دار من سيسقط ذلك النجم، فيكون الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والروايات في الباب كثيرة، وكلها تدل على خلاف هذا الفهم وإليك المزيد:

عن سالم قال: قيل لعمر: «نراك تصنع بعلي شيئاً لا تصنعه بأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: إنه مولاي».

وعن الباقر قال: «جاء أعرابيان إلى عمر يختصمان، فقال عمر: يا أبا الحسن، اقض بينهما. فقضى على أحدهما، فقال المقضي عليه: يا أمير المؤمنين، هذا يقضي بيننا؟ فوثب إليه عمر فأخذ بتلابيبه وتببه، ثم قال: ويحك ما تدري من هذا؟! هذا مولاي ومولى كل مؤمن، ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن».

فاسأل نفسك: هل فهم من وثب إلى الأعرابي أنه وثب على حق من اشتكى منه الأعرابي؟

ولعل أبلغ من هذا كله ذكر ما كان من أهل البيت، وهل أنهم فهموا مما كان من شأن الغدير ما ادعاه القوم لهم؟

ذكر الإمامية أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي رضي الله عنه: أما ترضى أن تكون أخي وأكون أخاك وتكون وليي ووصيي ووارثي؟

فهل يعني الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لعلي رضي الله عنه: وتكون أميراً أو خليفة علي؟

وعن الصادق قال: «لما فتح رسول الله مكة قام على الصفا، فقال: يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب، إني رسول الله إليكم، وإني شفيق عليكم، لا تقولوا: إن محمداً منا، فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلا المتقون».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قال الله ليلة الإسراء: اشهدوا يا ملائكتي وسكان سماواتي وأرضي وحملة عرشي أن علياً وليي وولي رسول الله وولي المؤمنين بعد رسولي».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعلي: (إنك وليي، ووليي ولي الله، وعدوك عدوي، وعدوي عدو الله). وفي رواية: (ووليك وليي، ووليي ولي الله).

فماذا تفهم من هذه النصوص غير الموالاتة التي هي المحبة.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (هبط علي جبرئيل، وقال: يا محمد، الله يقرئك السلام، ويقول لك:

قد فرضت الصلاة ووضعتها عن المعتل والمجنون والصبي، وفرضت الصوم ووضعه عن المسافر، وفرضت الحج

ووضعه عن المعتل، وفرضت الزكاة ووضعتها عن المعدم، وفرضت حب علي بن أبي طالب وفرضت محبته على

أهل السماء والأرض، فلم أعط أحداً رخصة).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أهل الكساء: (من والاهم فقد والاني، ومن عاداهم فقد عاداني).

وعن رباح بن الحارث قال: «جاء رهط إلى أمير المؤمنين، فقالوا: السلام عليك يا مولانا، فقال: كيف أكون مولاكم وأتم قوم عرب؟ فقالوا: سمعنا رسول الله يقول يوم غدير خم: من كنت مولاه فعلي مولاه، وكان فيهم نفر من الأنصار، منهم: أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله.»

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لزيد رضي الله عنه: (أنت أخونا ومولانا).

فهذه الروايات التي سردناها سرداً دون تعليق وغيرها كثير، تدل بوضوح على معنى الموالاتة.

ولعل في ذكرنا للرواية الآتية كخاتمة لما أسلفناه أبلغ الدليل على مقصودنا، ففيها غنى عن كل ما مر. تقول الرواية: «إن هارون الرشيد سأل الكاظم: إنكم تقولون: إن جميع المسلمين عبيدنا وجوارينا، وإنكم تقولون: من يكون لنا عليه حق ولا يوصله إلينا فليس بمسلم. فكان مما رد عليه الكاظم: إن الذين زعموا ذلك فقد كذبوا، ولكن ندعي أن ولاء جميع الخلاق لنا - يعني: ولاء الدين - وهؤلاء الجهال يظنونهم ولاء الملك، حملوا دعواهم على ذلك، ونحن ندعي ذلك لقول النبي يوم غدير خم: من كنت مولاه فعلي مولاه، وما كان يطلب بذلك إلا ولاء الدين.»

وقد ذكر الإمامية أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي: سألت الله عزوجل أن يجعلك ولي كل مؤمن ومؤمنة ففعل.

فتدبر قوله: [ففعل]. فتحصل لديك من كل ما مر بك الاضطراب الشديد في فهم مقصود الموالاتة، مما يتنافى مع القول بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد استخدم كلاماً مبهماً لبس على الناس أمرهم، وهو الذي أوتي جوامع الكلم، والقائل: أنا أفصح العرب.

ثم إن علياً رضي الله عنه لم يفهم من رواية الغدير ولا غير الغدير أن ولايته واجبة وخلافها كفر وبطلان وهو يقول: «أما بعد: فإن الله سبحانه بعث محمداً، فأخذ به من الضلالة، ونعش به من الهلكة، وجمع به بعد الفرقة، ثم قبضه الله إليه وقد أدى ما عليه، فاستخلف الناس أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، فأحسننا السيرة وعدلنا في الأمة، وقد وجدنا عليهما أن توليا الأمر دوننا ونحن آل رسول الله وأحق بالأمر، فغفرنا ذلك لهما». وفي موطن آخر قال: «ثم إن المسلمين من بعده استخلفوا أميرين منهم صالحين أحييا السيرة ولم يعدوا السنة». وقال فيهما: «فتولى أبو بكر تلك الأمور، وسدد وقارب واقتصد، وتولى عمر الأمر، فكان مرضي السيرة، ميمون النقيبة».

لم يفهم علي رضي الله عنه من رواية الغدير ولا غير الغدير أن ولاية من سبقوه إحداث في الدين، وهو يتذكر قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإخباره له بما يلقيه بعده، فقال: (فعالما أقاتلهم؟ قال: على الإحداث في الدين). فهل قاتل الأمير أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، أم التزم التقيية خوفاً، وهو القائل: والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها، أم قال عن ولايتهم كما روى القوم: «فلم أر محمد الله إلا خيراً»؟

هل فهم رضي الله عنهم رواية الغدير وغير الغدير أنه إمام وهو يقول: «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لندم المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك...». إلى أن قال: «وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلمهم بجمله، ولا الجاني فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة».

يقول هذا عندما اضطرت الأمور في عهده، ولم يقله في الشيخين أو ذي النورين رضي الله عنهم، إنما قال فيهما ما قال من حسن السيرة، والعدل في الأمة، والخير الذي رآه في ولايتهم.

ويذكرني هذا برواية الإمامية عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الذي يروي فيه الرضا، عن آباءه، عن علي رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال فيه: (أبو ذر صديق هذه الأمة)، وهو يقول لعثمان: (اتبع سنة صاحبك، لا يكن لأحد عليك كلام).

وفي رواية: «ويحك يا عثمان! أما رأيت رسول الله ورأيت أبا بكر وعمر، هل هديك كهديهم؟».

وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أبرأ من خمسة: من الناكثين وهم أصحاب الجمل، ومن القاسطين وهم أصحاب الشام، ومن الخوارج وهم أهل النهروان، ومن القدرية وهم الذين ضاهوا النصارى في دينهم، فقالوا: لا قدر، ومن المرجئة الذين ضاهوا اليهود في دينهم، فقالوا: الله أعلم».

فهل أمره النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتبري من أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وهم الذين اغتصبوا حق الأمير وأتوا بأعظم من أفعال هؤلاء الخمسة الذين أمر بالتبري منهم بزعم المخالفين.

أبداً: لم يفهم علي رضي الله عنه أن خلافة الشيخين خلاف هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو أن فلاناً دون آخر أحق بالخلافة من غيره.

لم يفهم رضي الله عنه لا من الغدير ولا غير الغدير أنه أحق بالخلافة، وهو لا يزال يردد القول بكَراهيته لها، وهو يعلم يقيناً قول الله تعالى: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ [الأحزاب]:

[36]. وقوله: وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [القصص : 68].

وقوله: وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْبِينَ عَظِيمٍ [الزخرف : 31].

هل فهم علي رضي الله عنه من الغدير وغيره أنه الإمام وهو يقول لمن جاءه مباحياً: «ألا وإن الله عالم من فوق سمائه وعرشه أني كنت كارهاً للولاية على أمة محمد حتى اجتمع رأيكم على ذلك؛ لأني سمعت رسول الله يقول: أيما والٍ ولي الأمر من بعدي أقيم على حد الصراط ونشرت الملائكة صحيفته، فإن كان عادلاً أنجاه الله بعدله، وإن كان جائراً انتقض به الصراط حتى تنزائل مفاصله، ثم يهوي إلى النار فيكون أول ما يتقيها به أنفه وحر وجهه، ولكن لما اجتمع رأيكم لم يسعني ترككم»؟!!

هل تفهم - عزيزي القارئ - من هذه الرواية أن هناك نصاً على من يأتي بعده صلى الله عليه وآله وسلم، أو أن هناك شروطاً يجب أن تتوفر فيه فحسب؟ وهل من جاء بعده سينجيه بعدله، كما قال ا: «فاستخلف الناس أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، فأحسننا السيرة، وعدلا في الأمة» أم سينتقض بهم الصراط لجورهم، كما يرى من يدعي أنه من شيعة ا؟

ألم يعلم أنه الخليفة الحق والمنصوب من الله عزوجل وغيره غاصب لهذا الحق، وهو يقول لطلحة والزبير: «نشدتكما الله هل جئتماني طائعين للبيعة ودعوتاني إليها وأنا كاره لها» وفي موضع آخر: «فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة ولكنكم دعوتوني إليها وحملتوني عليها، فخفت أن أردكم فتختلف الأمة»؟!!

ألم يعلم كل هذا، وهو يقول للمهاجرين والأنصار وقد جاءوا لبيعته: «لا حاجة لي في أمركم أنا بمن اخترتم راض»؟!!

ويقول لطلحة لما برز الناس للبيعة عند بيت المال: «بسط يدك للبيعة، فقال له طلحة: أنت أحق بذلك مني، وقد استجمع لك الناس ولم يجتمعوا لي» .

فهل كان له الاختيار والأمر في أن يباع هذا أو يتركه لذلك، أو أن ذلك إلى الله وليس للبشر حق الاختيار، وأن طلحة وقبله الشيخين رضي الله عنهم سيكونون بذلك أئمة ليسوا من الله؟!!

ألم يعلم رضي الله عنه أنه منصوص من الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: «أتيموني لتبايعوني، فقلت: لا حاجة في ذلك، ودخلت منزلي فاستخرجتوني، فقبضت يدي فبسطتموها وتداكمت علي حتى ظننت أنكم قاتلي، وأن بعضكم قاتل بعض، فبايعتوني وأنا غير مسرور بذلك ولا جدل، وقد علم الله سبحانه أنني كنت كارهاً للحكومة بين أمة محمد»؟!!

ألم يعلم كل ذلك وهو يقول لما أراده الناس على البيعة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه: «دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والحجة قد تنكرت، واعلموا أنني إن أجبتكم ركبتمكم بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً»؟!!

فهل رأى رضي الله عنه أن اختياره أو اختيار الصحابة خير من اختيار الله عزوجل، وهو يقرأ: : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ [القصص : 68].؟!!

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما تروي الإمامية: (إن الله خلق آدم من طين كيف يشاء، ثم قال: ويختار، إن الله اختارني وأهل بيتي على جميع الخلق فاتجبنا، فجعلني الرسول وجعل علي بن أبي طالب الوصي، ثم قال: ما كان لهم الخيرة، يعني: ما جعلت للعباد أن يختاروا ولكن أختار من أشاء).

فهل رأى ذلك؟ وهل هذا إلا كمن يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قال لهذا أو ذلك: ابسط يدك للنبوة؟!

فهل علم رضي الله عنه هذا وهو يقول: «والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتوني إليها وحلمتوني عليها فكرهت خلافتكم»؟!

هل كان يرى مخالفة الله الذي اختاره من دون الناس من فوق سبع سموات، هل كان يرى مخالفته جائزة، وطاعة البشر واجبة؟!

هل علم هذا عندما قال: «وبسطم يدي فكففتها، ومددتها فقبضتها، ثم تداككتم علي تداكك الإبل الهيم على حياضها يوم وردها، حتى انشطعت النعل، وسقط الرداء، ووطيء الضعيف..» إلى آخر ما قاله رضي الله عنه واصفاً بيعته بالخلافة؟!

هل علم هذا وهو يقول: «إني لم أرد الناس حتى أرادوني، ولم أبايعهم حتى أكرهوني».

وقال: «فلما رأيت ذلك منكم رويت في أمري وأمركم، وقلت: إن أنا لم أجبهم إلى القيام بأمرهم لم يصيبوا أحداً يقوم فيهم مقامي ويعدل فيهم عدلي»؟!

هل وهل . . وهو لا يزال يردد ويقول بكراهته لأمر لولاه لما خلق الله شيئاً، حتى : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [الفصص : 68]. قال لابن عباس رضي الله عنهما وقد رآه يخصف نعله: «ما قيمة هذه النعل؟ فقال: لا قيمة لها، فقال: والله لهي أحب إلي من إمرتكم».

أبداً لم يكن رضي الله عنه يرى أن مشروعية خلافته مستمدة من تلك النصوص المزعومة، وأنه لو كان من ذلك شيء حق لقاتل عليها حتى لو تظاهرت العرب كلها عليه . بل كان يرى أن شرعية خلافته إنما هي مستمدة من مبدأ الشورى الذي أقره القرآن وأكد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بهديه وسنته .

كيف لا وهو القاتل رضي الله عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (من جاءكم يريد أن يفرق الجماعة، ويغصب الأمة أمرها، ويتولى من غير مشورة فاقتلوه، فإن الله عزوجل قد أذن ذلك) .

ويقول معاوية: «إن الناس تبع المهاجرين والأنصار وهم شهود للمسلمين في البلاد على ولايتهم وأمراء دينهم، فرضوا بي وبايعوني، ولست أستحل أن أدع ضرب معاوية يحكم على هذه الأمة ويركبهم ويشق عصاهم .

فلما بلغ معاوية ذلك قال: ليس كما يقول، فما بال من هو ههنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر؟ فقال ا: وَيَحْكُمُ! هذا للبدرين دون الصحابة، وليس في الأرض بدري إلا وقد بايعني وهو معي، أو قد أقام ورضي، فلا يغرنكم معاوية من أنفسكم ودينكم» .

وقال معاوية في موطنٍ آخر: «إن بيعتي لزمك بالمدينة وأنت بالشام؛ لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار؛ فإن اجتمعوا

على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضىً، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيراً» .

فهو يرى إجماع المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم على رجل هو رضىً لله .

بل ولا يرى بيعته دون رضاهم كما قال: «إن بيعتي لا تكون إلا عن رضا المسلمين وفي مآل وجماعة» .

وهو القائل رضي الله عنه: «وما كان الله ليجعلهم على ضلال ولا يضربهم بعمى» .

وقال له في موطن آخر: «إن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام كما لزمك بيعة عثمان بالمدينة وأنت أمير لعمر على

الشام، وكما لزمك يزيد أخاك بيعة عمر بالمدينة وهو أمير لأبي بكر على الشام .

أما قولك: إن بيعتي لم تصح لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها، فإنما هي بيعة واحدة تلزم الحاضر والغائب لا يستثنى فيها

النظر، ولا يستأنف فيها الخيار، والخارج منها طاعن، والمروي فيها مداهن» .

وكان يقول له: «واعلم أنك من أبناء الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يعرض فيهم الشورى» .

وكذلك قال ابنه الحسن لمعاوية في كتاب الصلح الذي استقر بينهما: «هذا ما صالح عليه الحسن بن علي بن أبي طالب

معاوية بن أبي سفيان: صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المسلمين، على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى

الله عليه وآله وسلم وسيرة الخلفاء الراشدين، وليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً، بل يكون

الأمر من بعده شورى بين المسلمين» .

فهل ترى بعد كل هذا أن الأمير أو ابنه رضي الله عنهما يرون أن الله عزوجل ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم قد نصا عليهما رضي الله عنهما، أو أنهم يقررون مبدأ الشورى وبه يستمدون شرعية إمامتهم للمؤمنين دون أن يتطرقوا إلى ذكر أي نص من تلك النصوص التي زُعمت لهم، وهم في تلك الحال من الخلاف، وفي موطن هم بأمس الحاجة فيه إلى ذكر نص من تلك النصوص لو وجدت، ليرد به على معاوية الذي احتج عليه بعدم اجتماع أهل الشام عليه؟

فهل قال له علي رضي الله عنه مثلاً: ليس لاختيار أهل الشام أو بيعتهم شأن أو قيمة، ما دام الله عزوجل ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم قد نصا على إمامتي؟ أو أنه رضي الله عنه دال على بيعته باجتماع أهل المدينة عليه، حتى لم ير شرعية لخلافته إلا بقياس ذلك على بيعة الصديق، والفاروق، وذو النورين رضي الله عنهم أجمعين، وأن بيعتهم كانت لله رضىً، وأنهم كانوا خلفاء راشدين، يستحقون أن يدعوا من جاء بعدهم بالافتداء بهم، لا أنهم مغتصبون لحق غيرهم.

وأكد إقراره رضي الله عنه بمنهج القرآن الكريم: *وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [آل عمران : 159]*. و: *وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ [الشورى : 38]*.

لذا فلا عجب من أن يردد رضي الله عنه: «إنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضىاً».

ولا عجب من أن يقول لمعاوية في المهاجرين والأنصار: «وما كان الله ليجمعهم -وفي لفظ: ليجمعهم- على ضلالة ولا يضربهم بالعمى». ويقول للخوارج وقد خطئوه وضللوه: «فإن أبستم إلا أن تزعموا أنني أخطأت وضللت فلم تضللون

عامّة أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بضاللي؟ . كيف لا وهو رضي الله عنه قد سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (لا تجتمع أمتي على ضلالة) .

ثم يقول هذا الطاعن: (أما الإجماع المدعى على انتخاب أبي بكر يوم السقيفة ثم مبايعته بعد ذلك في المسجد، فإنه دعوى بدون دليل، إذ كيف يكون الإجماع وقد تخلف عن البيعة عليّ والعباس وسائر بني هاشم كما تخلف أسامة بن زيد والزيبر وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وخزيمة بن ثابت وأبو بريدة الأسلمي والبراء بن عازب وأبي بن كعب وسهل بن حنيف وسعد بن عباد وقيس بن سعد وأبو أيوب الأنصاري وجابر بن عبد الله وخالد بن سعيد وغير هؤلاء كثيرون . فأين الإجماع المزعوم يا عباد الله؟ على أنه لو كان علي بن أبي طالب وحده تخلف عن البيعة لكان ذلك كافياً للطعن في ذلك الإجماع إذ أنه المرشح الوحيد للخلافة من قبل الرسول على فرض عدم وجود النص المباشر عليه) . ثم يعزو تخلف من ذكرهم عن بيعة أبي بكر إلى المصادر التالية الطبري، تاريخ ابن الأثير، تاريخ الخلفاء، تاريخ الخميس، الاستيعاب، وكل من ذكر بيعة أبي بكر!؟ ولم يشر إلى الجزء أو الصفحة في أي من المصادر السابقة!؟

الرد

لوراجعنا هذه المصادر لم نجد في أي منها ما ادّعاه من عدم مبايعة المذكورين للخليفة أبي بكر الصديق، فبالنسبة لتاريخ الطبري فقد ذكر عدة روايات بعضها صحيح والبعض الآخر ضعيف، فذكر حديث ابن عباس الذي أخرجه البخاري وهو حديث طويل وفيه (. . . أن عمر بن الخطاب قام على المنبر يخطب الناس ليرد على من يقول: لو مات أمير المؤمنين لقد بايعت فلاناً) فذكر في جملة الحديث قصة السقيفة قوله: (وأنه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن علياً والزيبر ومن معهما تحلفوا عنا في بيت فاطمة، وتخلفت عنا الأنصار بأسرها، واجتمع

المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم، فلقينا رجلاً صالحاً قد شهدا بدرًا، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. قالوا: فارجعوا فاقضوا أمركم بينكم. فقلنا: والله لنايتهم، قال: فأتيناهم وهم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة. قال: وإذا بين أظهرهم رجل مُزَمَّل، قال: قلت: من هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ما شأنه؟ قالوا: وجع، فقام رجل منهم فحمد الله، وقال: أما بعد فنحن الأنصار وكتيبة الإسلام، وأتم معشر قريش رهطُ نبينا، وقد دَفَّتْ إلينا من قومكم دافة، قال: فلما رأيتهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر. وقد كنت زورت في نفسي مقالةً أقدمها بين يدي أبي بكر، وقد كنت أداري منه بعض الحد، وكان هو أوفر مني وأحلم، فلما أردت أن أتكلم، قال: على رسلك. فكرهت أن أعصيه، فقام فحمد الله وأثنى عليه، فما ترك شيئاً كنت زورت في نفسي أن أتكلم به لو تكلمت، إلا قد جاء به أو بأحسن منه. وقال: أما بعد يا معشر الأنصار، فإنكم لا تذكرون منكم فضلاً إلا وأتم له أهل، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، وهم أوسط العرب داراً ونسباً، ولكن رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم. فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح. وإني والله ما كرهت من كلامه شيئاً غير هذه الكلمة، إن كنت لأقدم فتضرب عنقي فيما لا يقربني إلى إثم أحب إلي من أن أوامر على قوم فيهم أبو بكر. فلما قضى أبو بكر كلامه، قام منهم رجلٌ فقال: أنا جُذيلُها المُحنك، وعُذيقُها المُرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، قال: فارتفعت الأصوات وكثر اللغط، فلما أشفقت الاختلاف، قلت لأبي بكر: بسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون، وبايعه الأنصار... .) ثم ساق الطبري الأثر عن الوليد بن جميع الزهري قال: قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد: (أشهدت وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: نعم، قال: فمتى بويع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كرهوا أن يتقوا بعض يوم وليسوا في جماعة. قال: فخالف عليه أحد؟ قال: لا، إلا مرتدٌ أو من قد كاد أن يرتد، لولا أن الله عزوجل ينقذهم من الأنصار، قال: فهل قعد أحد من المهاجرين؟ قال: لا،

تتابع المهاجرون على بيعته، من غير أن يدعوهم) ثم ساق رواية حبيب بن أبي ثابت قال: (كان عليّ في بيته إذا أتى فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء، عجباً، كراهية أن يبطئ عنها، حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأثاه فتجلله، ولزم مجلسه)، ثم ساق الطبري بعد ذلك الحديث الذي أخرجه البخاري من مبايعة عليّ لأبي بكر بعد وفاة فاطمة. وأخيراً ساق رواية أنس بن مالك فيبيعة أبي بكربيعة عامة بعدبيعة السقيفة ولم يذكر بعدها أي شيء آخر. وأما كتاب تاريخ ابن الأثير فلا يوجد فيه ذكر لما ادعاه هذا الطاعن بشأن تخلف المذكورين عنبيعة أبي بكر. وأما بالنسبة لكتاب تاريخ الخلفاء المنسوب لابن قتيبة فحريّ أن لا نبحت فيه للشك في نسبه ابن قتيبة. وأما تاريخ الخميس فلم أجده مع الأسف الشديد. وأما كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر فقد ساق فيه المؤلف من الأدلة على خلافة الصديق أكثر من أي مطبوع آخر.

لو فرضنا جدلاً أن هؤلاء الصحابة المذكورون لم يبايعوا أبا بكر على الخلافة، فهذا أيضاً لا يقدر في البيعة لأنها لا تحتاج إلى إجماع كل الناس، ولكن يكفي موافقة أهل الشوكة والجمهور الذي يقام بهم أمر الخلافة، وهذا ما اتفق عليه أهل العلم. يقول علي رضي الله عنه كما في نهج البلاغة: لعمرى لئن كانت الإمامة لا تتعد حتى يحضرها عامة الناس فما إلى ذلك سبيل!، ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها، وليس للشاهد أن يرجع ولا للغائب أن يختار.

ثم يتابع هذا الطاعن فيقول: (وإنما كانتبيعة أبي بكر من غير مشورة بل وقعت على حين غفلة من الناس وخصوصاً أولي الحل والعقد منهم كما يسميهم علماء المسلمين إذ كانوا مشغولين بتجهيز الرسول ودفنه، وقد فوجئ سكان المدينة المنكوبة بموت نبيهم وحمل الناس على البيعة بعد ذلك قهراً. كما شعرنا بذلك تهديدهم بحرق بيت فاطمة إن لم يخرج المتخلفون عن البيعة فكيف يجوز لنا بعد هذا أن نقول بأن البيعة كانت بالمشورة وبالإجماع؟).

الرد

إذا كانت بيعة أبي بكر وقعت من غير مشورة وعلى حين غفلة من المسلمين فكيف يوفق هذا الطاعن بين قوله هذا وقوله قبلاً أن بعضاً من الصحابة قد تخلفوا عن البيعة؟! فهل كان المسلمون هم الفئة القليلة؟!

الإمامية يؤكدون هذه الحقيقة، فهذا إمام الشيعة الاثني عشرية الحسن بن موسى النوحجي يؤكد ذلك في كتابه فرق الشيعة فيقول: (. . . فصار مع أبي بكر السواد الأعظم والجمهور الأكثر فلبثوا معه ومع عمر مجتمعين عليهما راضين بهما). وهذا إبراهيم الثقفي أحد كبار الشيعة الاثني عشرية يورد قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في جزء من رسالة له لأصحابه: « . . . فما راعني إلا انتيال الناس على أبي بكر وإجفاهم إليه لبياعوه . . . » [70]. ثم يشرح محقق الكتاب انتيال الناس، أي: انصباهم من كل وجه كما ينثال التراب، على أبي بكر! ويقول: قال المجلسي: الإجفال: الإسراع! ثم يأتي هذا الطاعن بعد كل ذلك ليكشف ما غاب عن السنة والشيعة، وهو أن أبا بكر وعمر حملوا الناس على البيعة قهراً!؟

أما قوله عن حرق بيت فاطمة فسيأتي بيانه إن شاء الله .

قوله: (وقد شهد عمر بن الخطاب نفسه بأن تلك البيعة كانت فلتة وقي الله المسلمين شرّها، وقال: فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه، أو قال: فمن دعا إلى مثلها فلا بيعة له ولا لمن بايعه). أقول: لم ترد الرواية عن عمر بهذا السياق لا في البخاري ولا في غيره، بل وردت في حديث طويل رواه ابن عباس: (أن عمر قام خطيباً في المدينة ليرد شبهة أثارها فلان من الناس وكان مما قال . . . ثم لأنه بلغني أن قائلاً منكم يقول: والله لو قد مات عمر بايعت فلاناً، فلا يغترن امرؤ أن يقول: إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت، ألا وإنها قد كانت كذلك ولكن وقي الله شرّها، وليس فيكم من نُقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تُعْرَأ أن يُقتل) ومعنى

قول عمر أنها كانت فلتة أي: فجة دون استعداد لها، وهكذا وقعت بعة أبي بكر فجة من دون أن يستعدوا أو يتهيأوا لها فوقى الله شرها، أي: فتنها، وعلل لذلك بقوله: مباشرة، وليس فيكم من تُقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، أي: ليس فيكم من يصل إلى منزلة أبي بكر وفضله، فالأدلة عليه واضحة، واجتماع الناس إليه لا يجوزها أحد . يقول الخطابي: (يريد أن السابق منكم الذي لا يلحق في الفضل لا يصل إلى منزلة أبي بكر، فلا يطمع أحد أن يقع له مثل ما وقع لأبي بكر من المبايع له أولاً في الملاء اليسير ثم اجتماع الناس عليه وعدم اختلافهم عليه لما تحققوا من استحقاقه، فلم يحتاجوا في أمره إلى نظر ولا إلى مشاورة أخرى، وليس غيره في ذلك مثله) . وبالطبع كان سبب قول عمر هذا؛ لأنه علم أن أحدهم قد قال: لو مات عمر لباعيت فلاناً، أي: يريد أن يفعل كما حدث لأبي بكر، ويتعذر بل يستحيل أن يجتمع الناس على رجل كاجتماعهم على أبي بكر، فمن أراد أن ينفرد بالبيعة دون ملاء من المسلمين فسيعرض نفسه للقتل، وهذا هو معنى قول عمر: تغرة أن يقتلا، أي: من فعل ذلك فقد غرر بنفسه وبصاحبه وعرضهما للقتل، وهنا يظهر معنى ما أراده عمر في هذه القضية، وهذا الطاعن نقل نقلاً مبتوراً عن عمر وذلك لعدم نقله سبب قوله ذلك، فإذا عرف السبب بطلت الحجة التي يستند عليها هذا الطاعن، بل وانقلبت عليه لأن عمر عندما ذكر ذلك أراد إظهار الفضيلة والسبق لأبي بكر، وهي اجتماع الناس عليه وانثياهم إليه، وهذا ما حدث والتاريخ يشهد على ذلك، فمن ظن أن قول عمر منقصة لأبي بكر فليعلم أن هذا بسبب نقصان فهمه ليس إلا!!

ثم يقول: (أن علياً قال في حق الخلافة: أما والله لقد تمصها ابن أبي قحافة وأنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير) .

الرد

1- نحن نجلّ علياً من أن يقول هذا الكلام في حق أبي بكر أو يدعي لنفسه الخلافة، لأنّ أبا بكر لا يتقصص ما ليس من حقه، ولو كان عليّ محلّه من الخلافة محلّ القطب من الرحي كما يدعيه الطاعن، لما بايعه باتفاق السنة والشيعّة.

2- لو فرضنا جدلاً أن علياً قال ذلك فليس فيه أيّ قدحٍ في أبي بكر، بل القدح في عليّ أظهر منه في أبي بكر، لأننا قد بينا أن الإجماع قد انعقد لأبي بكر دون إكراه لأحد، فالأنصار والمهاجرون ومن فيهم بنو هاشم بايعوا دون إكراه ولا قهر، فلم يكن هذا تقمصاً من أبي بكر، وأما الادعاء بأن علياً قال أنه ليعلم أن محليّ منها محلّ القطب من الرحي، فأقول: حاشى لأبي بكر أن يتقدم أحداً ثبت بالنص أنه الخليفة، فلو كانت الخلافة من حق عليّ لبايعه الناس دون أبي بكر، فإذا علم ذلك علمنا أن الذي محلّه من الخلافة محلّ القطب من الرحي هو أبو بكر وقد كان، وأما الأدلة التي يقال أنها تثبت الخلافة لعليّ فهي أوهى من بيت العنكبوت فلا تقف في وجه الأدلة على أحقيّة أبي بكر.

3- ثبت بالدليل الواضح مبايعة عليّ بن أبي طالب لأبي بكر بالخلافة سواءً في بداية المبايعة أم بعدها بستة أشهر، فكيف يقال أن علياً قال ما قاله فيما يسمّى «الخطبة الشقشقية»، فإن قلنا أنه بايع والكلام مكذوب عليه كان كلامنا حقاً، ولو قالوا: بل بايع تقيّة، قلنا: حاشا عليّ أن يكون الحق معه بالنص الواضح والجليّ ثم يتنازل عنه لأيّ أحد وأن يتظاهر بالموافقة على بيعة أبي بكر فهذا عين النفاق والجن، ونحن ننزه علياً من ذلك.

4- هل قرأ هذا الطاعن كتاب نهج البلاغة كلّ أم اختار فقرات معيّنة لنقلها في كتابه مثبتاً بها ادعاءه؟ ولو راجعنا رسائل عليّ لوجدنا بها ما يصاد ما نقله هذا الطاعن، ففي إحدى رسائله إلى معاوية التي يحتج بها على أحقيّته بالخلافة والبيعة بقوله: «إنّه بايَعني القوم الذين بايعوا أبا بكر، وعمر، وعثمان، على ما بايعوهم عليه، فلم يكن لشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يردّ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجلٍ، وسّمُوهُ إماماً، كان ذلك لله رضا، فإن خرج من أمرهم خارجٌ بطنٍ، أو بدعةٍ، ردّوه إلى ما خرج منه، فإنّ أباي قاتلوه على أتباعه غير سبيل

المؤمنين، وولاه الله ما تولى» ([74]). سبحان ربي! كيف يتوافق قول علي: «لقد تَمَّصَهَا ابن أبي قحافة» مع قوله هنا: «لقد بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان فكيف يكون أبو بكر متمصاً بنفس الوقت يحتاج بها علي على صحة خلافته، وكيف يتفق قوله: «إنه ليعلم محلي منها محل القطب من الرحي» مع قوله: «فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد»!! إضافة لقوله: «إنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا على رجل، وسموه إماماً كان ذلك لله رضا، فإن خرج من أمرهم خارج بطعن، أو بدعة، ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبي قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين»!!!

ثم يقول: (إن سعد بن عبادَةَ هاجم أبا بكر وعمر وحاول منعهما من الخِلافة وأنه لولا مرضه لقاومهم وقَاتلهم .) إلى آخر هذا الهراء .

الرد

I- أن هذه الرواية لو كانت صحيحة لكانت قد حُجِّجَتْ في سعد وليست مكرمة له، ولكنَّ هذا الفعل والقول في الرواية أجل من أن يصدر عن صحابي كأمثال سعد بن عبادَةَ سيد الأنصار .

2- مجرد النقل من كتاب تاريخ الخلفاء المنسوب لابن قتيبة لا يعد صحيحاً .

3- أنا لن أرد على كذب الرواية بالأدلة والحجج السنية، بل سأرد بما ورد في نهج البلاغة، فقد قال علي أن أبا بكر بايعه المهاجرون والأنصار، والشورى لهم، وقال أيضاً: «فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه»، وعلى فرض صدور ما ادعاه هذا الطاعن على سعد، فأني مدح أو حجة على مهاجمة سعد لأبي بكر

وعمر؟ وقد بايعه المهاجرون والأنصار! فهل عمل سعد هذا يبطل شورى المهاجرين والأنصار؟! وهل إذا خرج عليهم بطعن، يريد قتالهم يكون فعله حقاً؟! أم يجب أن يرد عن ذلك ويقا تل على اتباعه غير سبيل المؤمنين؟!!

اهم القضايا التي أثارتها خلافة ابي بكر الصديق (ر)

1. المناقب

2. ولاية الحكم

3. الردة والفتوحات

4. الذمة المالية للحاكم

وهي كلها قضايا متداخلة . وتعرض لها في هذه المقالة البحثية العاجلة .

اولا : المناقب :

والمقصود بها المناقب التي وضعها اهل السنة في ابي بكر مقابل الذم الذي وضعه فيه الشيعة ، والفريقان معا استخدمتا نفس الاساليب ، وهي الروايات والاحاديث التي وضعها الشيعة في ذم ابي بكر ، ووضعها السنة في مدح ابي بكر وتعداد مناقبه ومكارمه .

صار من اسس الدين الشيعي التبرؤ والتولي ، أي التبرؤ من ابي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير وعمرو ومعاوية ، في مقابل تولي ونصرة علي بن طالب وبنيه الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وذرية الحسن والحسين . وفي

اطار التبري والتولي هم يختلفون ، منهم من يبالغ في التبرؤ الي درجة تكفير ابي بكر وعمرو وعثمان . . الخ . . ويبالغ في موالة "علي" الي درجة التأليه والتقدیس له ولذريته من الائمة ، مع اختلاف في شخصيات الائمة ، ومنهم من يتوسط كالزيدية الاوائل ، فيكتفي بتفضيل علي ابي بكر وعمرو وعثمان ، ويعترف بخلافة الراشدين ، ولا يؤله عليا وذريته .

وفي المقابل فان السنة اتفقوا علي افضلية ابي بكر ثم عمر ثم عثمان علي "علي" بنفس ترتيب الخلافة ، الا انهم لم يطعنوا في علي ، بل حرموا الطعن في كل الصحابة ، واعتبروهم مثل النجوم في الهداية ، ونهوا من خلال حديث صنعوه عن اتخاذ الصحابة غرضا للهجوم . .

وهكذا بدأت كتابة المناقب في فضائل الخلفاء الراشدين في التراث السني في مقابل التراث الشيعي الذي يقدر عليا والائمة .

الا ان كتب المناقب السنية لم تلبث ان عرفت تنوعا في عصور التخلف والتقليد ، اذ لم يقتصر الامر علي تزايد التقديس للخلفاء الراشدين ، وانما ضمو الي دائرة المناقب ائمة المذاهب الفقهية ، حيث انعدم الاجتهاد وانحصرت الحياة العقلية في ترديد ما قاله الائمة ، خصوصا مع تزايد الانحراط في التصوف وسيطرته ، وافضي ذلك الي دخول شيوخ التصوف في مجال المناقب ، فكتبوا مصنفات في مناقب وكرامات شيوخ التصوف . . واصبح ذلك عنصرا اساسيا في تدين المسلمون وحياتهم الفكرية يعبر عما يسمي بعبادة الابطال . ومن الطبيعي ان يتم تصوير اولئك الابطال بطريقة تختلف تماما عن حقائق التاريخ ، ولكن يتم تسويغها بصنع الاحاديث المنسوبة للنبي ، تلك التي جعلوها تمدح الخلفاء الراشدين وائمة المذاهب ، بالاضافة الي المنامات الصوفية التي جعلوا فيها النبي يشيد بائمة التصوف ، الذي ظهر بعده بعدة قرون .

اذن كانت البداية في كتابة مناقب ابي بكر في اطار الصراع الشيعي السني وتبارز الفريقين بالاحاديث المصنوعة . ولا شك ان من يكتب في تاريخ ابي بكر قلما ينجو من الاستشهاد بتلك المناقب دون ان يدري خلفيتها السياسية والاجتماعية ، وان كتابتها قد بدأت في عهد التدوين بعد ابي بكر بقرنين وأكثر .

علي اننا نلاحظ تفاوتاً من حيث الكم والنوع بين المناقب المكتوبة في ابي بكر في عصر الازدهار الفكري وبين مثيلتها المصنوعة في عصور التقليد والتخلف ، وذلك امر طبيعي لأن عبادة الأبطال او صناعتهم انما تروج في عصور التخلف التي يأخذ فيها العقل اجازة مفتوحة . والفكر السلفي الوهابي المسيطر الآن على معظم افئدة المسلمين قد استعاد تقديس الأسلاف وتراثهم واعتبره صحيح الاسلام ومن اجله يتهم بالكفر كل من يجروء على مناقشته من داخله ومحكما فيه للقرآن الكريم . وهو نفس ما فعله قريش في جاهليتها حين تمسكت بثوابها الدينية المتوارثة ورفضت الاحتكام بشأنها الى القرآن "البقرة170-171" "المائدة104" "لقمان21" "الزخرف2422"

والله جل وعلا يجعل القرآن العظيم حكماً فيما نجد عليه ابناءنا لنقوم بعملية تصحيح مستمرة لواقع عقائدنا حتى لا تنشأ فجوة بين ما يجب أن يكون عليه الواقع العقيدى للمسلمين وعقيدة الاسلام التي لا تقديس فيها الا الله تعالى وكلامه او قرآنه الكريم . الا أن اسناد تراث المسلمين - زورا - لله تعالى ورسوله جعله ديناً موازياً للإسلام يتمسك به السلفيون ومن اجله ينكرون القرآن طالما تعارضت آياته مع مجرد حديث واحد من مفتريات البخارى وغيره . المهم انه بدأت عبادة الأبطال او تقديس الأسلاف في تاريخ المسلمين بكتابة مناقب الصحابة الكبار ثم تطورت نوعياً وكماً بين عصر الازدهار الفكري وعصر التخلف العقلى الذى لا زلنا تتمتع به بفضل نفوذ السلفيين البترولين .

ونعطي علي ذلك امثلة . .

المؤرخ محمد بن سعد ﴿ توفي 222 من الهجرة ﴾ صاحب " الطبقات الكبرى " وتلميذ الواقي وصديق احمد بن حنبل وصاحبه في قضية خلق القرآن ، هذا المؤرخ لم يذكر من المناقب التي اشاعتها الاحاديث عن ابي بكر سوي حديثين هما ﴿ : من سره ان ينظر الي عتيق من النار فلينظر الي هذا) يعني ابي بكر ، وحديث اخر في جعل ابي بكر وعمر سيدي كهول اهل الجنة وشبابها ما عدا النبيين والمرسلين .

وقد توفي ابن سعد سنة 222 ، وبعده بقرن من الزمان عاش الطبري خصم الحنابلة والذي كان ضحية لانغلاقهم الفكري ، ونري الطبري لم يذكر في تاريخه عن مناقب ابي بكر الا حديثا واحدا هو الذي يزعم ان النبي قال له (انه عتيق من النار) . والواضح ان تلقيب ابي بكر بلقب عتيق هو الذي اوحى لهم بعته من النار .

وقد توفي الطبري سنة 310 هـ ، وبعده بنحو ثلاثة قرون جاء المؤرخ الحنبلي ابن الجوزي المتوفي سنة 597 وهو من كبار علماء الحديث ، ومع ذلك فلم يذكر من احاديث مناقب ابي بكر الا اربعة فقط . . وهو (هذا عتيق الله من النار) و (من سره ان ينظر الي عتيق من النار فلينظر الي هذا) . وحديث فطيع يفترى فيه الراوي ان جبريل نزل علي محمد عليه السلام وكان ابو بكر يرتدي عباءة قديمة ، فقال جبريل للنبي : ان الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول لك : قل لابي بكر : اراض انت عني في فقرك هذا ام ساخط ؟ فقال ابو بكر : أأسخط عن ربي ؟ انا عن ربي راض . .) ثم حديث اخر يزعم فيه احدهم ان محمد بن الحنفية قال لابيه علي بن ابي طالب (أي الناس خير بعد رسول الله ؟ قال : ابو بكر ، قلت : ثم من ؟ قال : عمر ، وخشيت ان اقول من فيقول عثمان ، فقلت : من انت ؟ فقال : ما انا الا رجل من المسلمين) وبهذا الحديث اتزعموا اقرارا بأفضلية الخلفاء الثلاثة علي " علي " وذلك وفقا لعقائد اهل السنة .

أي اننا خلال محطات فكرية ثلاث من القرن الثالث الى نهاية القرن السادس - من بداية عصر الازدهار الفكري الي خفوته - لم نعثر لدي محققي المؤرخين والمحدثين السنين الاربعة احاديث في مناقب ابي بكر . فاذا قفزنا الي القرن العاشر الهجري بداية العقم الفكري والتخلف العقلي وجدنا تنوعا في تأليف مناقب ابي بكر يعبر عن تطور هائل في عقلية عبادة البطل وتقديس السلف و تأليه الصحابة و تحصينهم من النقد والنقاش وهو موضوع طويل يستحق بحثا مستقلا، ولكن نكتفى ببعض الأشارات التي تتجلي فيما كتبه السيوطي (ت 911) في " تاريخ الخلفاء " عن ابي بكر ، وقرأ في العناوين : الصديق افضل الصحابة وخيرهم ، الايات التي نزلت في مدحه او تصديقه ، الاحاديث الواردة في فضله ، الاحاديث المشيرة الي خلافته ، حديث في فضله ، وتحت هذه العناوين تفصيلات ، نأخذ منها بعض الامثلة :

فهناك احاديث تجعل ابا بكر شعيرة دينية وضمن معالم الايمان ، مثل حديث (حب ابي بكر وشكره واجب علي كل امتي [، وحديث يقول فيه علي ابن ابي طالب (لا يجتمع حبي وبغض ابي بكر في قلب مؤمن [وفيه اتهام للشعبة بالكفر ، وحديث (حب ابي بكر وعمر ايمان ، وبغضهما كفر) وحديث [حب ابي بكر ومعرفتهما من السنة) وحديث (اني لارجو في حبهم لابي بكر وعمر ما ارجو لهم في قولة لا اله الا الله) . أي مساواة بين شهادة الاسلام وألوهية الله تعالي بحب ابي بكر وعمر . !!

واحاديث تجعل النبي ينطق بالغيب وبما سيحدث لابي بكر ، علي مثال حديث : (انت عتيق الله من النار) مثل حديث النبي الي جبل احد حيث تحرك بزعمهم ، فقال النبي للجبل (اسكن فانما عليك ني و صديق وشهيدان) وحديث ابي هريرة الذي يقول (تباشرت الملائكة يوم بدر فقالت : اما ترون الصديق مع رسول الله في العرش) والمتخلفون عقليا الذين وضعوا هذا الحديث لم يعرفوا ان ابا هريرة وقت غزوة بدر كان كافرا ، لأنه لم يسلم الا بعد غزوة خيبر !! .

وحديث ابن عباس : (هبط جبريل وعليه طنفسه وهو يتخلل بها ، فقال له النبي : ما هذا يا جبريل ؟ ، فقال جبريل : ان الله تعالى امر ملائكته ان تتخلل في السماء كما يتخلل ابو بكر في الارض " !! . و حديث (ان الله يكره فوق سمائه ان يخطأ ابو بكر) أي يرميه الناس بالخطأ .

وحديث (اما انك يا ابا بكر فأول من يدخل الجنة من امتي) وحديث (انت صاحبي علي الحوض) وحديث (عرج بي السماء فما مررت بسماء الا وجدت فيها اسمي محمد رسول الله ، وابو بكر خليفتي) وحديث ان ملك الموت سيقول لابي بكر عند موته (يا ايها النفس المطمئنة) وحديث (الناس كلهم سيحاسبون الا ابا بكر) وحديث (دخل النبي المسجد وهو آخذ بيدي ابي بكر وعمر وقال : هكذا نبعث) وحديث (انا اول من تنشق عنه الارض ، ثم ابو بكر ثم عمر] .

واحاديث اخري مسندة كذبا للصحابة أو التابعين تجعل المتحدث يعلم غيب السرائر الذي لا يعلمه الا الله تعالى وحده ، مثل حديث عمر (لو وزن ايمان ابي بكر بايمان اهل الارض لرجح بهم) وقول الزهري (من فضل ابي بكر انه لم يشك في الله ساعة فقط] .

واحاديث تفضله علي الناس جميعا ما عدا الانبياء ، مثل (ما طلعت الشمس ولا غربت علي احد افضل من ابي بكر الا ان يكون نبيا) وحديث (اتاني جبريل فقلت له يا جبريل حدثني عن فضائل عمر بن الخطاب ، فقال : لو حدثتك بفضل عمر مدة ما لبث نوح في قومه ما نفذت فضائل عمر ، وان عمر حسنة من حسنات ابي بكر) وقال الربيع بن يونس : مكتوب في الكتاب الاول (ولا تعرف طبعنا ما هو ذلك الكتاب الاول) : مثل ابي بكر الصديق مثل القطر (المطر) انما وقع نفع) ويقول الربيع بن يونس ايضا (نظرنا في صحابة الانبياء فما وجدنا نبيا كان له صاحب مثل ابي بكر الصديق) وهذا الرجل المفتري الربيع بن يونس لم يجد من يسأله هل تعلم عدد الانبياء اولا قبل ان تعرف

اصحابهم ؟ وهل لديك علم بسرئيرهم ؟ ولكنه التهاون بقدسية الغيب الالهي الذي جعلهم يتجرأون علي قول هذه الطامات .

هذا بالاضافة الي " تفسيرهم " لآيات كثيرة علي انها نزلت في ابي بكر وفعولوا مثل ذلك مع عمر .

واضعوا حقائق الاسلام

واولي هذه الحقائق : انه ليس في الاسلام ايمان بشخص ، حتي ولو كان شخص النبي ، وانما الايمان يكون بالوحي الذي نزل علي شخص النبي ، وليس بشخص النبي البشري ، يقول تعالي (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل علي محمد وهو الحق من ربهم . . محمد 2) . لم يقل وآمنوا بمحمد ، وانما (وآمنوا بما نزل علي محمد) أي الايمان بالوحي ، أي بالقرآن الذي يكون فيه محمد نفسه اول المؤمنين به ، اما الايمان بشخص محمد فذلك يعني البداية لتأليهه ، ولا اله مع الله ولا اله الا الله ، ولذلك نزلت آيات كثيرة لتؤكد علي بشرية النبي وتؤكد علي اخطائه هو والانبياء لتظل العصمة للنبي بالوحي فقط ، وليظل التقديس خالصا لله تعالي وحده . واذا كان شخص محمد خارج القرآن قضية تاريخية . كما هو الحال في الروايات التاريخية في السيرة النبوية وما بينها من تعارض داخلي ، بالاضافة الي تعارضها مع حقائق القرآن " وهذا أيضا يستحق مجثا منفصلا " . فإنه بالتالي لا يكون لابي بكر او عمر او علي وسائر الشخصيات التاريخية موقع في عقائد الاسلام ، وبالتالي - ايضا - يكون ادخال هذه الشخصيات في تدين المسلمين ابتعادا عن حقائق الاسلام ، خصوصا وان ذلك تم عن طريق احاديث كاذبة .

وثاني هذه الحقائق : ان النبي محمدا عليه السلام لا يعلم الغيب ، وليس له ان يتكلم في الغيبات ، وبهذا نزلت أكثر من عشرين آية قرآنية ، منها ما يؤكد ان النبي لا يعلم ما سيحدث له او لغيره في المستقبل في الدنيا او في الآخرة " الأعراف 187 - 188 " " الأحقاف 9 " ، ومنها انه لا يعلم ما سيحدث من احوال الآخرة وعلامات الساعة ووقتها ، النازعات

42 - 46 وانه لا يعلم سرائر الناس وما تخفيه صدورهم من ايمان او نفاق حتى اولئك الذين يحيطون به . " التوبة IOI .
أي ان تلك الافتراءات المنسوبة للنبي انما تعكس عقليات عصرها وعقائدهم، ولا شأن للاسلام او خاتم النبيين بها
وثالث هذه الحقائق ، ان تركية النفس او الغير بالتقوي ممنوعة ، فلا يصح ان تمدح نفسك او غيرك بالصلاح (الجمعة
5 : 6 ، البقرة 94 : 96 ، النساء 49 : 50) وقد قال تعالي (فلا تركوا انفسكم ، هو اعلم بمن اتقي : النجم 32]
وهناك حقائق اخري يطول شرحها ، ولكن نكتفي بذلك لندخل في ملامح الدولة الاسلامية في خلافة ابي بكر .

ثانيا : ولاية الحكم

الاسلام دين ودولة ، الا ان دولة الاسلام ليست دولة دينية ولكنها دولة مدنية هدفها الاول [اقامة القسط بين الناس]
(الحديد : 25) اما الدولة الدينية فهدفها ادخال الناس الجنة بالاكراه وحث الردة وتغيير المنكر بالقوة ، وذلك بالمخالفة
للقرآن الذي يجعل الهداية مسؤلية شخصية [الاسراء 15 ، القصص 56] .

ودولة الاسلام المدنية تجعل الامة مصدر السلطات ، ولو كان النبي وهو الحاكم فظا غليظ القلب لانفض الناس من
حوله ، واذا انفضوا من حوله فلن تكون له دولة ، بل ستعود اليه قصة المطاردة والاضطهاد ، لذلك جعله الله تعالي
هينا لينا مع الناس ، وامره بأن يستشيرهم لأنهم مصدر السلطة والقوة (آل عمران 159) اما في الدولة الدينية فالخليفة
يزعم انه يستمد سلطته من الله ، وانه مسئول امام الله عن الرعية ، أو الاغنام التي يحكمها او يملكها ، ويعاونه في
حكمها الملائة او اهل الحل والعقد وهو ما يذكرنا بفرعون وملائه وحرص القرآن الكريم على ترديد قصته وملامح
الأستبداد وذهنية الحاكم الطاغية فيها لكي يفهم المسلمون ، ولكنهم ما فهموا ولن يفهموا طالما يقدسون الطغاة
وينتفضون غضبا اذا حاول باحث مسلم عرض تاريخهم على القرآن الذي يزعمون الايمان به .

وفي دولة الاسلام فالمسلم هو كل انسان مسالم بغض النظر عن عقيدته ، لأن العقائد مرجعها لله تعالى يوم القيامة ، أي ان الدين لله تعالى والوطن للجميع على قدم المساواة والعدل . اما في الدولة الدينية فالمواطنون درجات اعلامهم الخليفة والمقربون منه ، ثم جهاز السلطة من الفقهاء والجند والموظفين ، ثم الذين علي مذهب السلطان من المسلمين ، ثم الويل كل الويل لاصحاب المذاهب الاخرى والاديان الاخرى في داخل الدولة .

وفي دولة الاسلام لكل فرد فيها - بغض النظر عن عقيدته- الحق المطلق في شيتين : العدل وحرية العقيدة والفكر ، ولكل فرد حقوق نسبية على قدر امكاناته في المشاركة السياسية . أي الحكم - وفي الامن وفي الثروة . ويكون المجتمع هو صاحب الحق المطلق في الثروة والسلطة والامن . اما في الدولة الدينية فالخليفة هو الذي يملك الارض ومن عليها ، وهو الذي يحتكر السلطة والثروة والامن وعقائد الناس وقلوبهم ، ومن عصاه فمصيره القتل في الدنيا والجحيم في الآخرة ، او هكذا يزعمون .

وهذه الدولة الاسلامية اقامها النبي فعلا في المدينة (فالدولة هي شعب + ارض + نظام حكم) . الا ان بداية التغيير في اسس هذه الدولة الاسلامية حدث في خلافة ابي بكر نفسه ، ثم تقام التغيير في عهده بالفوحات العربية التي حملت اسم الاسلام زورا وبهتانا ، وهي التي أوصلت المسلمين بعده الي الحرب الاهلية في الفتنة الكبرى التي أسقطت الدولة الاسلامية نهائيا وبدأت عصر الخلفاء غير الراشدين . ومع ذلك تبقي الدولة الإسلامية واقعا تاريخيا حيا لا مجال لانكاره ، أقامه خاتم النبيين . عليه وعلينهم السلام . ثم أضع اصحابه ملاحمها شيئا فشيئا . ولأن الدولة الإسلامية كانت واقعا حيا في العصور المظلمة فانه من الممكن اعادتها في عصرنا الحالي ، وهذا ما نجح فيه الغرب حين انهى سيطرة الكهنوت و التراث الديني وتمسك بدلا منهما بحقوق الانسان و القيم الإنسانية العليا . و حقوق

الأنسان و القيم الأنسانية العليا هي جوهر الإسلام فيما يخص تعامل البشر فيما بينهم , وهي جوهر الشريعة الإسلامية الحقيقية والدولة الإسلامية على نحو ما فصلناه في مؤلفات لنا سابقة .

و حقوق الأنسان و القيم الأنسانية العليا هي جوهر الخلاف بين الدولة الإسلامية و نقيضتها الدولة الدينية تلك الدولة التي عرفها المسلمون بعد دولة ما يسمى بالخلفاء الراشدين تمييزا لهم عن الخلفاء غير الراشدين ممن احترفوا الظلم والأستبداد تحت لافتة الإسلام . وفي عهدهما تم تدوين التراث ونسبته - زورا - لله تعالى و لرسوله ليصبح مقدسا محميا من النقاش و مصنونا عن النقد . و في عصرنا البائس هذا يراد لنا ان نبتلع هذا التراث دون نقاش لكي نتيح لأصحابه ان يركبوا ظهورنا حكما باسم الإسلام وهم اعدى اعدائه . و يكفي ان الإسلام اصبح بهم متهما بالارهاب والتخلف والتعصب والرجعية والجمود . و هو في الأصل دين السلام والعدل و الحرية والتقدم والتسامح , ورسوله - عليه السلام - بعثه الله تعالى - ليس ليقاتل الناس حتى يقولوا لاله الا الله وليكرههم على دخول الإسلام كما يقول ذلك الحديث الكاذب , ولم يعثه ربه جل و علا بالسيف بين يدي الساعة كما يردد دعاة الوهاية . وانما بعثه ربه جل و علا رحمة للعالمين . ان اقرب النظم اقترابا من نموذج الدولة الإسلامية هي دولة الاتحاد السويسري ودول اسكندنافيا التي تطبق الديمقراطية المباشرة , وتظل ابعد الدول عن نموذج الدولة الإسلامية هي الدولة الدينية التي اقامها المسلمون في العصور الوسطى بعد فترة انتقالية بين الدولة الأموية ودولة الرسول محمد - عليه وعلى كل الأنبياء السلام - وهذه الفترة الانتقالية هي ما يسمى بالدولة الراشدة , و كان ابو بكر اول خلفائها , وجاءت دول المسلمين الدينية لتجعل منه ومن اصحابه جزءا من مقدساتها لا يجوز لأحد الأقتراب منهم الا بالتحميد والتمجيد حيث لم يعودوا بشرا يخطئون ويصيبون مثلما وصف الله تعالى أنبياءه في القرآن الكريم .

ان تدوين التراث قام في ظل الدولة الدينية العباسية ، لذلك اهمل التدوين كل ما يخص الشوري وفرضيتها كاصلاصة
والزكاة (الشورى 38 آل عمران 159) والتأكيد علي حضور مجالسها في المسجد لكل الناس (الايات الثلاث الاخيرة
في سورة النور) وما كان يحدث في مجالس الشوري من امور عرضت لها سورة المجادلة . هذه التربية السياسية
الديمقراطية ضاعت ولم يتم تدوينها في عصور الاستبداد السياسي العباسي ، ولم يبق من دليل عليها الا ايات القرآن
الكريم .

ان الدولة الاسلامية التي انشأها النبي عليه السلام كانت ضد منطق العصور الوسطي القائم علي الاستبداد الديني
والسياسي ، ولكن وجود النبي ونزول الوحي كان مما يعين هذه الدولة علي الثبات ، خصوصا مع دخول الناس في دين
الله افواجا خلال قوى الاعراب والقريشيين بعد فتح مكة ، فلما مات النبي وانقطع الوحي نزولا اجبرت القوى الجديدة
هذه الدولة ان تبدأ التنازلات علي حساب القرآن وما كان عليه النبي عليه السلام . وبدأها ابو بكر في بيعة السقيفة
وحرب الردة والفتوحات ، أي انه اضطر للتعامل مع العصور الوسطي بمنطقها علي حساب المعتقد الاساسي للدولة
الاسلامية . وكان حتما ان ينتصر في النهاية منطق العصور الوسطي فانتصر بالامويين ثم العباسيين . وحين انتصر
منطق العصور الوسطي في العصرين الاموي والعباسي زالت كل ملامح الدولة الاسلامية ، واصبحت الحاجة ماسة الي
تشريع مخالف للقرآن ، وتمت صياغة هذا التشريع عن طريق علماء السلطة بالاحاديث المفتراة والفتاوي وهجر القرآن
وتشريعاته تحت مسميات شتى كالنسخ والتأويل والفقهاء والتفسير . ولنا مع كل منها وقفات توضح التناقض بينها وبين
الاسلام .

بعد هذا التوضيح نعود الي ابي بكر والخريطة السياسية للمنطقة في عهده بعد موت النبي محمد عليه السلام .

في اواخر ما نزل من القرآن نعرف ان الناس قد دخلوا في دين الله افواجا ، وهذا ما كان يبدو علي السطح . ولكن الوحي الذي انزله عالم الغيب قد اخبر ان المنافقين من الصحابة كانوا صنفين ، صنف مكشوف معروف ، وصنف مرد أو أدمن النفاق لا يعلمهم النبي بل الله وحده الذي يعلمهم ، بل ان الآية التي تحدثت عن محمد والذين معه ووصفتهم باستدامة الركوع والسجود وان سيماهم في وجوههم من اثر السجود ، هذه الآية تقول في النهاية (وعد الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا عظيما : الفتح 29) أي قالت (منهم) ولم تقل جميعهم . أي انه بغض النظر عن علامات الخشوع والسجود فان ما في القلب شيئا اخر ، وهكذا فان اهل المدينة منهم السابقون ومنهم من خلط عملا صالحا واخر سيئا ، ومنهم من ارجأ الله تعالى امره اليه يوم القيامة ، ومنهم المنافقون المعروفون - ومنهم المنافقون المجهولون ، ثم ممن كان حولهم من الاعراب منافقون (التوبة -46 ، -61 ، -67 ، -74 ، -97 -110) . والقرآن يتحدث دائما عن اصناف لا عن اشخاص . ثم يضاف الي ذلك الملائة القرشي ، اشراف قريش من بني امية الذين اسلموا بعد الفتح حرصا علي الجاه والثروة بعد تاريخ حافل بالعداء لله تعالى ورسوله . وليس معقولا ان يمنحى هذا العداء وثارته بمجرد التسليم الظاهري والجلوس مع النبي بضع مرات قبل موته .

وقد كان النبي بشخصيته وهداية الوحي له يستطيع التعامل مع كل هذه الاصناف بدليل نجحة في ضمهم جميعا للاسلام بمعناه الظاهري ، وهو ايثار السلم (الحجرات -14 ،) فدخلوا فيه افواجا . ولكن تغير الوضع بعد موته ، ولذلك تحتم التنازل عن الملمح الاول من ملامح الدولة الاسلامية ، وهو ولاية الحكم . ولنستعد هنا لمفاجأة .

اذ ليس في الدولة الاسلامية حاكم بأي معني من المعاني المألوفة سياسيا . الحاكم المستبد يناقض شريعة الاسلام وعقيدته ، والحاكم بمفهوم العقد الاجتماعي العلماني الغربي مرفوض ايضا في شريعة الاسلام . في العلمانية الغربية يتنازل الشعب عن السلطة لمن يقوم بانتخابهم ومن يمثلونه وينوبون عنه في السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ،

اما في الدولة الاسلامية فالدولة هي الشعب ، بمعنى ان الشعب هو الذي يحكم نفسه بنفسه في نظام يقوم بادارة الحكم فيه اولو الامر ، واولو الامر أي اصحاب الشأن والخبرة والاختصاص في الموضوع المطروح بحثه وتنفيذه (النساء 59 ، 83] . وطاعتهم مقيدة في اطار طاعة الله تعالى ورسوله، اي الرسالة اي القرآن الكريم .

والشوري الاسلامية تعني الديمقراطية المباشرة في كل حي وفي كل قرية ومدينة ، وحضورها فريضة عينية علي كل انسان ذكر او انثي ، ولا يجوز التسلل منها او الاعتذار عنها الا بعذر قهري (النور [62 : 64] وفيها يتم الحكم والمساءلة ، ولذلك فان اوامر السياسة كانت توجه الي مجتمع المؤمنين ، علي سبيل المثال : سورة المائدة 8 ، 33- ، 51- ، 54 ، 75 النساء ، 2- ، 5- ، 25- ، 29- ، 58- ، 71- ، 94- ،] وليس الي حاكم ، بل ان كلمة " حكم " ومشتقاتها فيما يخص التعامل بين الناس تعني في القرآن الكريم الحكم بين الناس أي في امور التقاضي لأن الاساس الاول في الدولة الاسلامية هو اقامة القسط مع العدو والصدیق . والموضوع طويل ونكتفي منه بالتأكيد علي ان دولة النبي في حياته كانت تدار بالناس وليس عن طريق حاكم ، وذلك وفقا لآليات يطول شرحها عرضنا لها في كتابنا عن ديمقراطية الإسلام، ولكن المهم ان ابا بكر ضحي بذلك كله وهو يواجه الوضع الجديد بعد موت النبي ، فكانت بيعة السقيفة التي اسفرت عن تعيينه حاكما او خليفة علي خلاف ما كان مألوفا في عهد النبي ، ولو كان تعيين حاكم من اسس الدولة الاسلامية النبي لبادر النبي محمد عليه السلام الي تعيين من يخلفه ، الا انه تركهم علي ما كانوا عليه يحكمون انفسهم بأنفسهم ، فكان ما كان . .

بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ارتفعت رءوس المنافقين ، ويلاحظ كثرة حديث القرآن . في اواخر ما نزل . عن المنافقين . ثم بعد انقطاع الوحي نزولا وبعد موت النبي انقطع الحديث القرآني عن المنافقين في المدينة وخارجها ، فهل قدموا استقالتهم من نادي النفاق ؟!! المنتظر ان يكونوا عنصرا هاما في العمل علي اسقاط الدولة التي يكرهونها ،

خصوصا وان حمي الردة انتشرت بين الاعراب المنافقين حول المدينة ، وقد ربطت الايات بين الفريقين في قول الله تعالى (ومن حولكم من الاعراب منافقون ، ومن اهل المدينة مردوا علي النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم : التوبة IOI] ثم الي جانب ذلك هناك القرشيون من مسلمة الفتح وزعماءهم من بني امية وقد اسلموا حديثا بعد طول عداء ، وازاء هذه الاخطار كان اول ما يفكر فيه المخلصون من المسلمين هو البيعة وأخذ العهود والميثاق علي التكايف سويا لمواجهة خطر الاستئصال خلف قائد حربي في هذه الظروف الاستثنائية .

ومفهوم البيعة في القرآن وفي ثقافة عصر النبي لا يعني البيعة لحاكم ، وانما البيعة علي التمسك بالاسلام او الجهاد في سبيل الله حين التعرض للخطر (الفتح IO ، IO8 ، المتحنة I2 ، الاحزاب I5] ولكن البيعة في السقيفة اكتسبت مفهوما اخر ، انتهز فرصة الخطر الداخلي والخارجي ليكسب البيعة مفهوما سياسيا اصبحت بها تعنى تولي الحكم أوالعهد بالحكم . سواء كان ديمقراطيا بعض الشيء في عهد الخلفاء الراشدين ، ام كان وراثيا استبداديا ، كما في عهد الخلفاء غير الراشدين وأذئابهم من مستبدي حكام المسلمين في عصرنا البائس .

وترتب الاحداث حسبا جاءت في روايات التراث السنى .

فبعد موت النبي مباشرة اجتمع الانصار في سقيفة بني ساعدة ، واتفقوا علي تولية سعد بن عبادة الذي كان مريضا ، ولم يمنعه مرضه من الحضور ، وخطب فيهم سعد موضحا حقهم في الحكم . ولو كان الوحي ينزل لأخبر عن مكائد المنافقين في هذا اليوم . ووصل الخبر الي عمر فأسرع الي ابي بكر وكان مع " علي " يشرف علي تجهيز جثمان النبي للدفن ، وخرج ابو بكر مع عمر الي السقيفة وفي الطريق لحقهم ابو عبيدة بن الجراح . وفي السقيفة خطب ابو بكر متوددا للانصار وقال لهم : نحن الامراء واتم الوزراء ، فاحتج عليه الحباب بن المنذر مطالبا بحق الانصار ، وقال : فان ابي هؤلاء فمننا امير ومنهم امير ، فرد عليه عمر بعنف فاشتعل الشجار وامتشق الحباب سيفه ، فالتقطه منه

عمر واتجه به ليقتل سعد بن عبادة ، ولكن اسرع ابو بكر فأقذ سعدا ، فقال له عمر : قتله الله انه منافق ، واتهي الامر ببيعة ابي بكر البيعة الخاصة ، ثم ببيع البيعة العامة في المسجد في اليوم التالي .

ورفض سعد بن عبادة ان يبايع ابا بكر ، وقيل له : (لئن نزعنا يدا من طاعة او فرقت جماعة لنضربن الذي فيه عيناك] ورد سعد رافضا البيعة (والله لا ابايع حتي اراميكم بما في كنانتي واقاتلكم بمن تبغني من قومي وعشيرتي) ونصح بشير بن سعد ابا بكر بالأيرغم سعدا علي البيعة : " لأنه لن يبايع حتي يقتل ، ولن يقتل حتي يقتل معه ولده وعشيرته ولن يقتلوا حتي يقتل الخزرج ، ولن يقتل الخزرج حتي يقتل الاوس ، فلا تحركوه ، فإنه ليس يضركم ، انما هو رجل واحد طالما تركتموه) فتركوه .

وكان سعد بن عبادة من اشد الناس غيرة ، ما تزوج الا امرأة بكرا ، وما طلق امرأة فتجاسر احد علي زواجها بعده ، وكان بعصبية وماله وشخصيته عنصر قلق لأبي بكر و عمر بعد الالهانة التي لحقت به في السقيفة ، خصوصا بعد تولي خصمه عمر الخلافة ، لذلك لم يطلق الامر وترك المدينة بعد ان قسم امواله علي ذريته . وحدث انه بعد وفاته في الشام ولدت احدي نساته ولدا فقال عمر لابنه قيس ان يدخل الوليد معهم في الميراث ، فقال قيس بن سعد : " اني لا اغير ما قال ابي سعد ولكن نصيبي لهذا الولد " الي هذا الحد بلغت طاعة قيس لابيه بعد موته ، مما يعطينا لمحة عن خطورة سعد السياسية والشخصية وهذا يفسر لنا من ناحية اخري موته الغامضة في حوران بالشام ، اذ عثروا علي جثته هناك مقتولا ، وقد تغيرت ملامحه ، واشيع في المدينة ان الجن قتله ، وان الجن قالت في ذلك شعرا :

قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة رميناه بسهم فلم نخطئ فؤاده

وبهذا تم التخلص نهائيا من معارضة الانصار ، وبقيت معارضة بني عبد مناف . وال عبد مناف هم الهاشميون والامويون ، فهم معا ابناء رجل واحد هو عبد مناف .

ومن الطبيعي ان يحتج علي هذا الوضع . تولية أبي بكر الخلافة . ابو سفيان ومن علي شاكلته من اصحاب الثقافة القرشبية الجاهلية ، بل ان ابا قحافة والد ابي بكر كان ينتمي الي هذه الثقافة ، اذ تعجب كيف يصبح ابنه حاكما في وجود بني امية وبني هاشم وهم كبار قريش ، لذلك لا نعجب اذ ردد ابو سفيان نفس المعني ثائرا حين قال (ما بال هذا الامر في اقل حي من قريش) وقال (مالنا ولابي فصيل) يتندر علي ابي بكر ، (انما هي عبد مناف) وصرح (اين المستضعفان : علي وعباس) ودعا الي بيعة علي ، فزجره " علي " قائلا (طالما عادت الاسلام واهله فلم تضر شيئا) وأخيرا هدا أبو سفيان حين استرضاه ابو بكر بتعيين ابنه يزيد قائدا ، فقال حين بلغه الامر (وصلته رحم] .

وكانت بيعة ابي بكر شيئا جديدا بالنسبة لعلي المشغول بدفن النبي وتجهيزه . واجتمع بعض المهاجرين المحتجين في بيت علي ومعهم الزبير بن العوام (وأمه صفية عمة النبي) وتخلفوا عن بيعة ابي بكر . وامشق الزبير سيفه وقال : لا اغمده حتي يبايعوا عليا . أي طالما في الامر حاكم فعلي هو الاولي . وجاءهم عمر فقال : والله لأحرقن عليكم البيت او لتخرجن الي البيعة ، فخرج عليه الزبير بالسيف فتعثر فوق فأخذوا منه السيف و . . وبايعوا ابا بكر ، وتسكت المصادر السنبة عندها ، وتترك فجوات تحتاج الي من يملؤها ، خصوصا في العلاقة الحميمة بين ابي بكر وعمر وموقفهما معا من علي وآل بيته (طبقات ابن سعد 3/1/128 ، -3/2/144 - تاريخ الطبري 3/2I8 : 223 ، تاريخ ابن كثير 7/ 33 .

ثالثا : الردة .. والفتوحات

بعد تأمين الجهة الداخلية بتعيين ابي بكر حاكما كان لابد من مواجهة خطر الردة .

وليس صحيحا ان ابا بكر حارب المرتدين ، ولكن الصحيح ان المرتدين هم الذين حاربوا ابا بكر والمدينة .

والروايات التي دونها العصر العباسي عن حركة الردة فيها تناقض ، واحدة منها تقول ان ابا بكر صمم علي قتال مانعي الزكاة ، وعارضه عمر . مع أنه المشهور بشدته . قاتلا (كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله امرت ان اقاتل الناس حتي يقولوا لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، فمن قالها عصم مني ماله ودمه الا بجتها وحسابه علي الله) فقال ابو بكر : والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة

وهذا الرواية كاذبة . فليس صحيحا ان الرسول قال (امرت ان اقاتل الناس حتي يقولوا . .) فذلك الحديث المزعوم الذي يستحل قتل الناس يعارض قوله تعالي (لا اكراه في الدين) وعشرات الايات الاخرى في تشريع القتال في الإسلام، ثم انه يعني الاستئصال التام لأهل الكتاب ومن يطلق عليهم " اهل الذمة " وهم لا ينطقون الشهادتين ، وقد آن الاوان لاعلان تبرئة النبي من هذا الحديث الدامي الذي لا يزال يحرض علي الارهاب .

وليس صحيحا ايضا ان النبي كان يأخذ الزكاة من القبائل ، بل ان الزكاة كانت تؤخذ من اغنياء اهل الحي لكي يتم توزيعها علي فقراء الحي انفسهم ، أي انها ليست حجة للمرتدين علي الاطلاق في ان يواجهوا ابا بكر برفض الزكاة ، لأنهم حسبما تعودوا في عصر النبي هم الذين يدفعون الزكاة لفقرائهم .

وليس صحيحا ايضا ان هناك اكراه وارغام من السلطة علي تحصيل الزكاة ، اذ انه قبل ذلك بقليل تكاسل المنافقون عن دفع الزكاة ، فأمر الله تعالي النبي الكريم بالأيقبل منهم الزكاة ، وقال (قل انفقوا طوعا او كرها لن يتقبل منكم ،

انكم كنتم قوما فاسقين ، وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة الا وهم

كسالي ، ولا ينفقون الا وهم كارهون ، فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم : التوبة 53-55-56.]

وليس منطقياً ايضاً ان يبادر ابو بكر مجرب طاحنة لأناس يقبلون الطاعة الا دفع الزكاة وهو في حالة ضعف سياسي

وحرابي .

والمنطقي والصحيح ان العصر العباسي وضع ملامحه في هذه الرواية ، خصوصاً ارغام (الرعية) علي دفع الاموال

والا اعتبرهم مرتدين .

والرواية التي قبلها هي التي تؤكد بين سطورها ان الاعراب المحيطين بالمدينة اعدوا جيشين لغزوها في مكانين مختلفين ،

وبعثوا بوفد للتفاوض ، واهدافه الحقيقية رصد دفاعات المدينة ، وفهم ابو بكر انهم جواسيس فرفض التفاوض

معهم ، وقام بتدعيم قواته داخل المدينة وحوطها ، وفعلاً ، وكما توقع ابو بكر هاجم القسم الاول من المرتدين المدينة ،

فبعث حرس المدينة يستغيثون بأبي بكر فأمرهم بالثبات ، ثم انطلق ابو بكر باهل المدينة الي طليعة المرتدين فقهرهم ،

فهربوا الي حيث الكمين او القسم الثاني في منطقة ذي حسي ، وانتهت المعركة بهزيمة كاملة للمرتدين ، وأكد ابو بكر

هذا النصر باتصارات اخري علي الاعراب المرتدين من عبس ومرة وذبيان وكثانة وهزمهم في ذي القصة ، ثم تابعت

حروب الردة الي ان اوصلت جيوش المسلمين الي مشارف الشام والعراق ، فكانت الفتوحات .

ذلك ان ابا بكر اراد تصدير الشوكة الحربية للاعراب الي خارج الجزيرة العربية ليستفيد من قوتهم الحربية في اكتساب

ارض جديدة ويتخلص من متاعبهم ، والا كان سيظل في معارك متصلة مع قبائل تحترف القتل والقتال والاستحلال

طلباً للعيش ، وتلك حياتهم التي استمرت قروناً قبل الاسلام ، وبعده ايضاً . . الا ان الفتوحات جعلت ابا بكر

يتغاضي عن ملحمين اثنين آخرين من ملامح دولة النبي ، وهما : ان يكون القتال في الدفاع عن النفس فقط ، وليس للهجوم ، وان يعاقب العدو المعتدي بأرغامه علي دفع الجزية اذا انتصر المسلمون ، والجزية غرامة يدفعها المعتدي المهزوم في كل زمان ومكان .

الذي حدث هو ان القواد الغزاة في دولة ابي بكر وعمر كانوا يطلبون قبل الهجوم - ممن جعلوه عدوا : اما الاسلام ، واما الجزية واما الحرب ، او بمعنى اخر ، ارغامه علي الاسلام والا فالجزية ، والا فليحارب قوما اعتبروا الغزو جهادا يضمنون به الجنة او النصر . وتلك ثقافة لم يعرفها عصر النبوة ، الا انها ثقافة العصور الوسطي التي تعامل بها ابو بكر ، انها ثقافة الاكراه والارغام التي تخالف الاسلام .

رابعاً : الذمة المالية للحاكم

الا ان ابا بكر حافظ علي ملامح الدولة الاسلامية ، وهي الشفافية والطمارة المالية ، فاذا كانت الدولة الدينية تجعل الخليفة يملك الارض ومن عليها ، وليس عليه رقيب فيما ينفق وفيما يجمع من اموال ، فان الدولة الاسلامية تجعل الثروة : ملكا للمجتمع ، وهي للافراد طالما احسن الفرد استثمارها ، والا وجب الحجر عليه وكان سفيها ، يقول تعالي : [ولا توتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها : النساء 5] وهنا نلاحظ ان المسلمين حتى اليوم يعطون اموالهم طوعا أو كرها لأكثر المخلوقات سفاهة . أي حكامهم الذين يتندر العالم المتحضر على مخازيمهم وسفاههم . وقد أضعوا البترول وحقوق الأجيال القادمة فيه في اللهو والأنحلال و قتل بعضهم البعض وأكثناز اموال لا يستحقونها وسلاح لا يستعملونه الا في قتل انفسهم ، وفي الدعوة للكهنوت الوهابي وتكذيب حقائق القرآن والأسلام . أن الأسلام الحق هو اعظم نعمة وقد أضعوه واستخدموا نعمة البترول في الصد عن سبيل الله تعالى . اقرأ

فيهم وفي غيرهم قوله جل وعلا: "ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . . . "ابراهيم 28" واقرأ ما بعدها للعظة والأعتبار.

وفي الغرب فأن الحاكم هناك يأخذ راتبه من اموال دافعي الضرائب بعكس ما تتمتع به في عالمنا الثالث ، حيث يمتن علينا الحاكم بأنه ينفق علينا في الصحة والتعليم والخدمات ، كما لو كان ينفق من ضيعته او حر ماله ، ثم ينفق اموال الامة بما يحلوه . ولكن الواقع التاريخي يثبت انه في ظلام العصور الوسطي كان ابو بكر اول حاكم يأخذ مرتبة او عطاءه من المجتمع . او بتعبير السيوطي " اول خليفة فرض له رعيته العطاء " اذ كان يعمل تاجرا ، وبعد الخلافة ذهب الي السوق كعادته الا ان عمر وبعض المسلمين ارجعاه والزماه ان يتفرع للحكم مقابل مرتب سنوي قدره الفان ، وطلب علاوة " فقال زيدوني فان لي عيالا وقد شغلتموني عن التجارة ، فزادوه خمسمائه " .

وعند احتضاره امر ابو بكر ابنته السيدة عائشة ان تعيد " العهدة" الي بيت المال ، وقال لها " اما انا منذ ولينا امر المسلمين لم نأكل لهم دينارا ولا درهما ، لكننا اكلنا من جريش طعامهم ولبسنا خشن ثيابهم " وامرها ان تعيد لبيت المال عبدا وبعيرا وقطيقة .

وبعد موته جرى بهذه " العهدة " الي عمر فقال باكيا : " رحم الله ابا بكر ، قد اتعب من بعده " وتلك هي المنقبة التي تسجل لأبي بكر .

نظام الحكم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كان عهد عمر بن الخطاب عهد فتوح حالف النصر فيه المسلمين، فامتدَّت رقعة دولتهم حتى جاورت أفغانستان والصين شرقاً، والأناضول وبحر قزوين شمالاً، وتونس غرباً، وبلاد النوبة جنوباً، وكان لا بُدَّ لهذه الدولة المترامية

الأطراف من تنظيمٍ حتى تستمر، وقَدَّر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يكون رائد هذا التنظيم بما استوحى مِنْ نهج مَنْ سبقه؛ النبي مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وربَّما طرأ على أوضاع المسلمين السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة بفعل احتكاكهم الحضاريِّ بشعوب البلاد المفتوحة، ونمو الدولة بسرعةٍ مذهلة، فكان على حاكمها أن يُتابع هذا التطوُّر في النمو.

التفت عمر رضي الله عنه -في بادئ الأمر- إلى تنظيم مركز القوَّة الدافعة في بلاد العرب، ثُمَّ عمل على توثيق الروابط بين أجزاء الدولة وتأكيد تضامنها، فإنَّ التطوُّر الذي طرأ على أجهزة الحكم في عهده يُعدُّ نقلة نوعيَّة في إطار بناء الدولة بما يتجاوز مفهوم العرب لها .

كانت الدلالة المباشرة للخلافة أنَّ الخليفة هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينتهج نهجه ويسلك مسلكه، ولعلَّ الماورديَّ كان الأكثر دقَّةً في تحديد المفهوم الإسلامي لهذا الاصطلاح الذي تمَّ التداول به بين المسلمين بشكلٍ عفويٍّ: "الإمامة موضوعةٌ لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم في الأمة واجب الإجماع".

الإطار العام لمؤسَّسة الدولة الإسلاميَّة قبل عمر

لم يُحدِّد النبيُّ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم قبل وفاته ماهية الخلافة لا في الشكل ولا في المضمون، وهو الذي تولى هذا المنصب كرجل دولةٍ بالإضافة إلى سلطته كنبِي . وهذا التغيير العمليُّ الذي طبَّقه النبيُّ صلى الله عليه وسلم الذي يختلف عن الأطر الجاهليَّة المعروفة عبر الانسجام المطلق في الصلاحيات، هو الذي حدَّد الإطار العام لمؤسَّسة الدولة الإسلاميَّة، وتعدُّ هذه الممارسة المزدوجة من جانب النبيِّ صلى الله عليه وسلم أوَّل ظاهرة في التاريخ .

حافظ أبو بكر الصديق على روحية هذا الإطار العام إلا أنه أعطى الخلافة دورًا محددًا، ومضمونًا خاصًا أتضح في العهود اللاحقة، على الرغم من أنه لم يتمكن من أن يُعطي منصب الخلافة شخصية أكثر تفصيلًا؛ ذلك بفعل ولاية أبي بكر رضي الله عنه القصيرة، وانهماك أبو بكر في إخضاع المرتدين بالإضافة إلى الفتح التي ابتدأت في عهده، وقد وقع عبء هذه المهمة بالضرورة على عاتق عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي وجد نفسه أمام ظروف مستجدة لا يمكن تجاوزها، لا سيما في مجال حالات خاصة ليست لها سابقة لا في عصر الرسالة ولا في عهد سلفه، وقد دفعته إلى أن يتخذ صفةً تشريعيةً - كذلك - لمعالجة المواقف الطارئة التي واجهت الحكم.

شكّلت هذه الازدواجية بين فكرة الخلافة بمفهومها الروحي وبين مؤسسة الدولة كنظام سياسي، الخطوة الأولى في مسيرة الدولة الإسلامية منذ عهد عمر بن الخطاب، والمعروف أن النظام السياسي يشمل: الفكر السياسي، والنظم السياسية بما فيها الدستور والحكومة المركزية، والحكومات الإقليمية والمحلية، والإدارة العامة، والوظائف الاقتصادية والاجتماعية للحكومة، والنظم السياسية المقارنة، والأحزاب والجماعات والهيئات، ودور الفرد في الحكومة والرأي العام.

بعد هجرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وظهور نواة الدولة الإسلامية، تمثلت المبادئ الخاصة بها بمضمون الوثيقة التي حدّدت قواعد السلوك الداخلي والتعايش بين فئات المجتمع المدني، ووضعت الأسس للعلاقات الخارجية، وعالجت شؤون الحرب.

لكن هذا النظام على الرغم من أنه لبي حاجة ماسة إليه في ذلك الوقت، وأحدث انقلابًا في قوانين التعامل الاجتماعي والعلاقات السياسية، فإن هذا النظام ظلّ لمُدّة في النطاق الحجازي دونما حاجة إلى تطوير، وذلك في عصر الرسالة وعهد أبي بكر رضي الله عنه الذي لم يكن بوسع أن ينصرف عن إخضاع المرتدين ومواجهة الفرس والبيزنطيين، إلى

تفصيل النظام الملثم للوضع الجديد في ظلّ عدم تجانس المجتمع الإسلامي الجديد؛ حيث لم تكن وحدة الدولة قد استقرت بعد .

تطوير عمر بن الخطاب لنظام الحكم

بعد الانتشار الإسلامي السريع في عهد عمر بن الخطاب والاحتكاك بشعوب البلاد المفتوحة التي تمتلك تجربة في شؤون الحكم والعلاقات السياسية، أضحى هذا النظام بحاجة إلى تطوير ليتماشى مع الظروف البيئية والاجتماعية والسياسية الجديدة، وهي في مضمونها استجابة حتمية لتحديات ما أفرزته الفتوح.

الواقع أنّ نظام الحكم في عهد عمر رضي الله عنه هو استمرارٌ للأساس الذي قام عليه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد أبي بكر رضي الله عنه من بعده، وهو أنّ الخليفة يجمع في يده - من حيث المبدأ - السلطة المطلقة وفقاً لشروط وأعراف غير مكتوبة، غير أنّ القرارات لم تأخذ طابعها الفردي المحض، بل كان هناك ثلاثة أنواع من المجالس الاستشارية غير الرسمية، ولم تكن هذه المجالس يومئذٍ نطاقاً غايته الحدّ من سلطان الخليفة، كما لم يكن لأصحاب الرأي الذين يُستشارون حقوقٌ يفرضونها عليه، بل كان الخليفة مطلق الصلاحية، وهو الذي يختار من يستشيرهم، ثمّ كان يُفاضل بين آرائهم فيأخذ منها ما يشاء ويدع ما يشاء .

كان المهاجرون والأنصار هم أهل الرأي والمشورة في عهد النبي؛ يلتقون من حوله ويستمعون منه ويُشِيرُون عليه ويسيرُون معه، فلَمَّا كان عهد أبي بكر رضي الله عنه انساح كثيرٌ منهم في العراق وفي بلاد الشام، وبقي بعض كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار إلى جانبه، واستمرُّوا في عهد عمر رضي الله عنه .

المجالس الاستشارية في عهد عمر بن الخطاب

أما المجلس الاستشارية الثلاثة، فهي:

I- مجلس المهاجرين والأنصار:

يتشكّل هذا المجلس من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار من ذوي الخبرة والتجربة، فكانوا يُزودون الخليفة بالنصيحة ويتناقشون معه في القضايا المهمة، فإذا طرأ أمرٌ يحتاج إلى التدبير كان أعضاء هذا المجلس يجتمعون والمعروف أنّ عامّة المسلمين اعترفوا بتقدّم المهاجرين والأنصار وأسبقيتهم، فكان اشتراك أعضاء من كلا الجماعتين أمراً حتمياً، ومن أعضاء هذا المجلس: العباس بن عبد المطلب، عثمان بن عفان، عليّ بن أبي طالب، عبد الرحمن بن عوف، معاذ بن جبل، أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وتعدّ أحكام هذا المجلس كافيةً في شؤون الحياة اليومية العادية.

2- مجلس العامة:

يتألف هذا المجلس من عامّة المسلمين؛ المهاجرين والأنصار وزعماء البدو الوافدين على المدينة، فتعرض عليهم القضايا المهمة على مستوى الأمة الإسلامية ويناقشونها، أما طريقة انعقاد المجلس فكان يُنادى الصلاة جامعة، وعندما يجتمع الناس يذهب عمر رضي الله عنه إلى المسجد النبوي -وهو المكان المخصّص لانعقاد المجلس- فيصلي ركعتين، ويصعد بعد الصلاة على المنبر ويلقي خطبة، ثمّ يُقدّم القضية التي تحتاج إلى النقاش والبحث.

نذكر من بين القضايا التي ناقشها هذا المجلس قضية توزيع أراضي البلاد المفتوحة كقطاع على أفراد الجيش، وقد افتتح عمر رضي الله عنه الجلسة بقوله: "إني لم أزعجكم إلا لأن تشركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم؛ فأني واحد كأحدكم، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هواي". استمرت جلسات المناقشة عدّة أيام كان الناس يدلون برأيهم بحريّة

وجراًة[5]، وناقش هذا المجلس -كذلك- الوضع على الجبهة العراقية بعد مقتل أبي عبيد الثقفي؛ إذ همَّ الخليفة أن يذهب بنفسه[6]، فقال العامة: "سر وسر بنا معك". وأجمع الخاصَّة على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس الجيش إلى العراق، ويبقى عمر بن الخطاب في المدينة يمدُّ هذا الرجل، عند ذلك جمع الناس وقال لهم: "يحقُّ للمسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم، وإنِّي إنما كنت كرجلٍ منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم على الخروج، فقد رأيت أن أقيم، وأن أبعث رجلاً".

عندما أراد عمر رضي الله عنه أن يذهب إلى بلاد الشام مع اشتداد وباء طاعون عمواس خرج من المدينة حتى إذا نزل بسرغ لقيه أمراء الجند فأخبروه بأنَّ الأرض سقيمة، وأنَّ فتك الطاعون شديد، فجمع المهاجرين الأولين واستشارهم في ما يفعل، أتباع طريقه أم يعود أدراجه؟ فاختلّفوا عليه فمنهم من أشار بالخروج ومنهم من نصحه بالعودة، فجمع عند ذلك الأنصار واستشارهم فسلّكوا طريق المهاجرين، ثمَّ جمع مهاجرة الفتح من قريش فنصحوه بالعودة وقالوا له: "ارجع بالناس، فإنّه بلائٌ وفناء". فقرَّر عندئذٍ العودة، وأمر عبد الله بن عباس أن يجمع الناس ليعرض عليهم قراره.

وهكذا كان الأمر في ما يتعلق بمرتبّات الجند وترتيب الدواوين وتعيين العمّال وحرية التجارة للأجانب وتحديد الضرائب عليها، وكثيرٌ من القضايا من هذا النوع عُرضت على مجلس الشورى للاستئناس برأي أعضائه، ومن ثمَّ يتخذ الخليفة القرار المناسب.

روى أبو يوسف أنه "لما قَدِمَ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيش العراق من قبل سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه، شاور أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في تدوين الدواوين، وكان قد أتبع رأي أبي بكر في التسوية بين الناس، فلما جاء فتح العراق شاور الناس في التفضيل، ورأي أنه الرأي، فأشار بذلك عليه من رآه".

3- مجلس المهاجرين:

وُجد في عهد عمر رضي الله عنه مجلسٌ آخرٌ مخصَّصٌ لمناقشة الشؤون الإدارية والمتطلبات اليومية الخاصة الناتجة عن الفتح، ولا يشترك فيه إلا المهاجرون من الصحابة. إنه مجلسٌ خاصٌّ كان عمر رضي الله عنه يعرض فيه الأخبار اليومية التي كانت تصل إليه من الأقاليم والمراكز، وقد عُرضت على هذا المجلس مسألة فرض الجزية على الجوس. الواقع أن دولة لها ذلك الاتساع وتلك الطاقات من الصعوبة أن تُدار من قبل شخصٍ واحدٍ مهما كان نشيطاً وملتماً بمرافق الحياة، على الرغم من أن مفهوم عمر رضي الله عنه لنظام الحكم المستمد من النظرية الدينية وعدم السماح بنشوء مراكز قوى داخلية، فإن هذا الخليفة كان يميل إلى مناقشة القضايا المهمة مع كبار الصحابة، وقد اختار بعضهم ليكونوا لصيقين به حاضرين أمامه وجاهزين كلما احتاج إليهم للمناقشة.

تلك كانت صورة النظام السياسي في عهد عمر رضي الله عنه؛ حيث تمتع هذا الخليفة بنفوذٍ رئيسٍ نابعٍ من خصوصية مركزه الجامع لكافة الوظائف الدينية والديوية التي فرضها القرآن الكريم، ولما كان الخليفة هو صاحب الرأي الأخير والقول الفصل في كل أمر فقد كان عليه -لقاء ذلك- كل التبعية عن سياسة الدولة.

المصدر من كتاب: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، لمحمد سهيل طقوش

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

فلما قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لم يعهد بالخلافة إلى شخص بعينه، ولكنه جعلها شورى بين ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين، وقال: يحضركم عبد الله يعني ابنه، وليس له من الأمر شيء، بل يحضر ليشير بالنصح، وبعد اجتماع هؤلاء فوض سعد ما له في ذلك إلى عبد الرحمن بن عوف، والزبير إلى علي، وطلحة إلى عثمان فقال عبد الرحمن بن عوف لعلي وعثمان: أيكما يبرأ من هذا الأمر، فنفوض الأمر إليه ليؤيى أفضل الرجلين الباقين، فسكت عثمان وعلي فقال عبد الرحمن: إني أترك حقي في ذلك، وسأجتهد فأولي أولاكما بالحق، فقالا: نعم، ثم خاطب كل واحد منهما بما فيه من الفضل، وأخذ عليه العهد والميثاق، لئن ولاه ليعدن، ولئن ولي عليه ليسمعن وليطيعن، فقال كل منهما: نعم، ثم تفرقوا، ثم نهض عبد الرحمن يستشير الناس فيهما، ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس وأقيادهم جميعا وأشتاتا، مثنى وفرداى ومجتمعين، سرا وجهرا، حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من الركبان والأعراب إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام بلياليها، فلم يجد اثنين يختلفان في تقديم عثمان بن عفان، إلا من نقل عن عمار والمقداد أنهما أشارا بعلي بن أبي طالب، فلما كانت الليلة التي يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت عمر بن الخطاب جاء إلى منزل ابن أخته المسور بن مخرمة وعثمان فقال المسور: فقلت: بأيهما أبدا؟ فقال: بأيهما شئت، فذهب المسور إلى علي ثم إلى عثمان، فأحضرهما، ثم خرج بهما عبد الرحمن إلى المسجد، ونودي في الناس: الصلاة عامة، ثم صعد المنبر فوقف وقوفا طويلا، ودعا دعاء طويلا، لم يسمعه الناس، ثم تكلم فقال: أيها الناس إني سألتكم سرا وجهرا بأمانيتكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين، إما علي وإما عثمان، فقم يا علي فقام إليه، فوقف تحت المنبر فأخذ عبد الرحمن بيده، فقال: هل أنت مباعبي على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي، قال: فأرسل يده، وقال: إني يا عثمان، فأخذ

بيده، فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم نعم، قال: فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان، فقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان، قال: وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر، وبهذا تمت خلافة عثمان على المسلمين برضا واختيار منهم. ملخصاً من كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير رحمه الله تعالى. والله أعلم.

أعمال عثمان بن عفان (ر)

ابرز ما فعله عثمان بن عفان -رضي الله عنه- في خلافته:

انتهاج سياسة الاتباع والتفويض: حيث سار عثمان على كتاب الله تعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والتزم بكل قرارات الخلفاء من قبله واجتهاداتهم، واتبع ما اتفق عليه أهل الشورى، ولم يتدخل في شؤون الشعب، إلا في حال حدوث جريمة أو انتهاك حد من الحدود يستوجب تدخل الحاكم.

تثبيت مجلس الشورى: ثبت عثمان في زمنه مجلس الشورى، وهو مجلس مكون من مجموعة من الصحابة يساعده في إدارة الدولة، وهم علي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أجمعين.

بناء المحكمة: يعّد عثمان بن عفان رضي الله عنه أول من بنى المحكمة، ومن أشهر القضاة الذين كانوا في عهده: زيد بن ثابت على المدينة المنورة، وأبو الدرداء على دمشق، وكعب بن سور على البصرة، وشريح على الكوفة، ويعلى بن أمية على اليمن، وثمامة على صنعاء، وعثمان بن قيس على مصر.

إدارة الولايات: أعاد عثمان ترتيب الولايات وحكامها ولم يتركها كما كانت في زمن عمر بن الخطاب، وكان يديرها بالتشاور مع كبار الصحابة .

ضم بعض الولايات إلى بعضها البعض لما يراه في مصلحة المسلمين، فضم ولايات الشام إلى بعضها، وضم البحرين إلى البصرة .

كما كان دائم النصح لولائه بأن يكونوا رعاة للأمة وليسوا سادة عليها، وكان يأمرهم بالعدل والرحمة وإعطاء الحق لأهلها، ومطالبتهم بما عليهم من واجبات، وأوصاهم بالذمة وقيادة الجيوش، والشورى والتشاور وأمرهم باتباع منهج أبي بكر وعمر، والعمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والابتعاد عن البدع، فضلا عن الاهتمام باللغة العربية، والمحافظة على القرآن وقراءته .

نهوض عثمان بالاقتصاد الإسلامي

اتبع عثمان السياسة المالية لعمر بن الخطاب نفسها، وكان عهده عهد رخاء على المسلمين، وقد اتبع بعض الأسس في سياسته المالية أهمها:

تطبيق سياسة مالية عامة إسلامية .

عدم إخلال الجباية بالرعاية .

إعطاء المسلمين ما لهم من بيت مال المسلمين .

أخذ ما على المسلمين بالحق لبيت مال المسلمين .

اختيار عمال الخراج من المتخلفين بالأمانة والوفاء .

أخذ ما على أهل الذمة لبيت مال المسلمين بالحق وإعطاؤهم ما لهم وعدم ظلمهم .

تفادي أي انحرافات مالية .

مقتل عثمان بن عفان (ر)

فتنة مقتل عثمان أو الفتنة الكبرى وتُعرف كذلك بالفتنة الأولى هي مجموعة من القلاقل والاضطرابات والنزاعات أدت

إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان في سنة 35 هـ، ثم تسببت في حدوث نزاعات وحروب طوال خلافة علي بن أبي

طالب .

كان للفتنة الكبرى أثر كبير في تحويل المسار في التاريخ الإسلامي، فتسببت لأول مرة بتوقف الفتوحات وانشغال

المسلمين بقتال بعضهم البعض، كما تسببت ببداية النزاع المذهبي بين المسلمين، فبرز الخوارج لأول مرة كجماعة تطالب

بالإصلاح وردع الحاكم الجائر والخروج عليه، كما برزت جماعة السبئية المتطرفة التي اتفقت على تقديم أهل البيت على

جميع الناس وغالت في حبهم. كما كان من آثار الفتنة مقتل عددٍ مهول من الصحابة على رأسهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب.

كما كانت من أبرز تحولات المسار، انتهاء عصر دولة الخلافة الراشدة والخلافة الشوريّة، وقيام الدولة الأموية وبروز الخلافة الوراثية.

بداية الفتنة

لم يغير عثمان بن عفان الولاية الذين عينهم عمر بن الخطاب عند توليه الخلافة؛ وذلك لوصية عمر بأن يبغي على ولاته في مناصبهم لمدة سنة بعد وفاته، خشية من تغيير مُستعجل، يضطرب له أمر المسلمين.

وكان ولاية عمر على الأمصار:

على مكة نافع بن عبد الحارث الخزاعي

على الطائف سفيان بن عبد الله الثقفي

على صنعاء يعلى بن أمية

على الكوفة المغيرة بن شعبة

على البصرة أبو موسى الأشعري

على مصر عمرو بن العاص

على حمص عمير بن سعد

على دمشق معاوية بن أبي سفيان

على فلسطين عبد الرحمن بن علقمة

على البحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي

وأغلب هؤلاء الولاة ليسوا من قريش، وليس فيهم أحد من عشيرة عمر. حيث كان عمر يختار ولائه على أساس الكفاءة، وكان يراقب عماله في أمور الدين والدنيا، ولا يتأخر في عزل من ثبت تقصيره. ثم بعد ذلك قام عثمان بمباشرة سلطته في العزل والتولية. كانت الولايات تختلف فيما بينها من ناحية الأهمية اختلافاً شديداً. فكان لبعضها خطر سياسي وإداري وعسكري وهي تلك الولايات البعيدة التي حُررت من السيطرة الرومية والفارسية وهي أربع ولايات: الشام ومصر والكوفة والبصرة.

وكانت كل واحدة من هذه الولايات تواجه جبهة مفقحة نتيجة الفتوحات الإسلامية المستمرة. وتُقَاد من هذه الولايات جيوش المسلمين المنطلقة إلى التحرير في الجهات الثلاثة. فكان بحر وبلاد الروم في مواجهة الشام، وكان البحر وبلاد إفريقية في مواجهة مصر، وكان ما لم يُفتح بعد من بلاد فارس أمام الكوفة والبصرة. إذن لا ريب أن تكون هذه الولايات الأربع، موطن القوة الإسلامية العسكرية. إضافة لذلك فقد كانت هذه الولايات مصدراً لثراء المسلمين وفيها حضارات مستقرة، وأراضٍ خصبة، وكان تأتي منها كل غنائم الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب والشمال.

ف نجد أن الخارجين من المدينة كانوا يتوجهون إلى هذه الأقاليم الأربعة. حيث كان الصالحون يلتمسون بها ثواب الآخرة في الجهاد والمشاركة في فتوحات المسلمين، وكان الذين يقصدون مواطن الثراء ويتكسبون رزق الدنيا، يتقبلون في تلك الأقاليم بين التجارة والزراعة وغير ذلك.

لم يُلقِ عثمان أهمية للولايات التي لم يكن لها خطر سياسياً أو عسكرياً . وأبقى على ولاية عمر في تلك الولايات ولم يغير منهم إلا القليل . إلا أنه سارع في تغيير الولاية في الولايات الخطرة فور انتهاء العام الأول من حكمه . وفيما يلي ذكر مجريات الأحداث في هذه الولايات :

الكوفة

من أوائل التغييرات السياسية التي قام بها عثمان هو عزل المغيرة عن الكوفة وتولية سعد بن أبي وقاص عليها سنة 24 هـ، وكان هذا التعيين بسبب وصية سابقة لعمر بن الخطاب . إلا أن إمارة سعد على الكوفة لم تستمر طويلاً . حيث اضطر عثمان إلى عزل سعد اضطراراً .

وقد كان سبب عزل سعد هو خلاف حدث بينه وبين عبد الله بن مسعود المسؤول عن بيت المال . حيث اقترض سعد من بيت المال وأعطى به على نفسه صكاً . فطلب منه عبد الله بن مسعود بعد فترة أن يؤدي دينه، فطلب سعد منه أن ينتظر حتى يتيسر له المال . الأمر الذي رفضه ابن مسعود، فنشب شجار بينهم، انتهى بوصول الأمر لعثمان الذي سارع بعزل سعد وولى بدلاً منه الوليد بن عقبة سنة 26 هـ .

لم يكن أهل الكوفة يطمنون للوليد . لأنه كان من المذمومين في عهد رسول الله ونزل ذمه في القرآن . حيث غش الرسول وكذب عليه، وأنزل الله فيه قرآناً فقال يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ جَاءَكُمُ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . وكان هذا الفاسق المقصود هو الوليد .

والوليد هو أخ عثمان بن عفان من أمه، وقد تكون هذه القرابة هي التي جعلت الوليد مفضلاً على بقية أعلام المسلمين في إمارة أحد أخطر الأمصار وهي الكوفة . استاء أهل الكوفة من تولية الوليد عليهم فهم لم يكونوا يرون فيه الحاكم

الكُفء، ولا صاحب الدين المستقيم. حتى صلى بالناس وهو سكران، فذهب وفد من أهل الكوفة يشهد على الوليد بمعاقرة الخمر وجاءوا بجنازة الذي استلوه من يده وهو سكران دليلاً على ذلك. الأمر الذي أثار غضب عثمان وعلي بن أبي طالب وكبار أعيان المدينة فقام بعزل الوليد وأتى به إلى المدينة حيث أقام عليه الحد. ونفذ فيه حكم الجلد الإمام علي بن أبي طالب

وما كان من عثمان إلا أن ولي على الكوفة سعيد بن العاص بدلاً عن الوليد سنة 30 هـ. استقبل أهل الكوفة سعيداً بكل رحابة وكانت الأمور تنبئ بخير بما كان من توافق بين الأمير ورعيته. إلا أن هذا الحال التوافقي لم يستمر طويلاً قبل أن يعكره سعيد بن العاص نفسه، ففي عام 33 هـ وفي أحد الليالي عندما كان الأمير جالساً مع كبار أهل الكوفة قال في خضم جدال طويل «إنما السواد بستان لقريش» (يعني أن أرض العراق ملك لقريش) الأمر الذي أغضب كبار أهل الكوفة الذين لم يتأخروا بالرد عليه وقالوا: «إنما السواد فيء الله علينا، وما نصيب قريش منه إلا كصيب غيرها من المسلمين». فغضب صاحب الشرطة لأن القوم ردوا رداً غليظاً على الأمير. فحدث تشاجر واشتباك بالأيدي أدى إلى ضرب صاحب الشرطة وإغمائه.

كتب سعيد بن العاص إلى عثمان بما حدث. فأرسل عثمان أمره بإخراج الذين ردوا على الأمير وفيهم إلى الشام عند معاوية لاستصلاحهم. وبالفعل أبعد هؤلاء القوم عن الكوفة، ووصلوا إلى معاوية الذي أحسن معاملتهم. وظل معاوية يدخل عليهم، فيناظرهم ويعظهم ويذكرهم في فضل قريش على العرب فلم يقنعوا له، وردوا عليه قائلين بأن الإسلام لا يعرف لقريش فضلاً غير أن النبي بعث منهم. وأن انبعاث النبي من قريش لا يبيح لها التحكم في رقاب الناس. كما أن لا حق لقريش بأن تمتاز عن بقية العرب، فكل الناس في الإسلام سواسية، بل إنهم طلبوا منه ان يعتزل الإمارة إلى من هو أقدم منه للإسلام عهداً، وأكرم منه أباً، وأجدر منه أن يقيم حدود الله.

ويظهر أن معاوية قد خاف منهم أن يجرؤوا أهل الشام عليه . فكتب إلى عثمان يطلب منه إبعادهم عنه وإعادتهم إلى الكوفة . فقبل عثمان بذلك . لم يكادوا يعودون إلى الكوفة حتى أطلقوا لسانهم في سعيد بن العاص وعادت المشاحنات بينهم وبينه، فأعاد سعيد الكتابة إلى عثمان، يشكو له منهم، ويطلب منه إبعادهم عنه . فأمر عثمان بنفيهم مرة أخرى، لكن هذه المرة كان النفي إلى الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

تلقاهم عبد الرحمن على عكس معاوية . فجعل يسومهم الخسف ويعظم لهم أمر نفسه وأمر أبيه وأمر قريش، لا بالمناظرة والحجج الدينية، وإنما بالقول الغليظ والسيرة التي هي أغلظ من القول . وصار لا يركب إلا وجعلهم يمشون خلفه، يؤنبهم ويذجرهم ويذلهم ويجعلهم للناس نكالاً . فعندما زاد في أذيتهم أظهروا له الطاعة والقبول بسيادة قريش وتمييزهم على العرب . وأرسلوا إلى عثمان مالك بن الحارث الأشتر يبين له طاعتهم فقبل عثمان ذلك، لكنهم ظلوا مُقيمين عند عبد الرحمن لكن إقامتهم لم تطل

حيث قدم سعيد على عثمان في المدينة، فاستغل أهل الكوفة خروج سعيد منها فجمعوا وأقسموا أن لا يدخلها سعيد مرة أخرى وكتبوا إلى أصحابهم المنفيين عند عبد الرحمن، ففروا من عبد الرحمن وأقبلوا مسرعين حتى دخلوا الكوفة . فكتب زعيم المنفيين العائدين إلى الكوفة كتاباً إلى عثمان جاء فيه:

«من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبلى الخاطئ الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم القرآن وراء ظهره . أما بعد فقد قرأنا كتابك؛ فانه نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين، نسمح لك بطاعتنا . وزعمت أنا قد ظلمنا أنفسنا، وذلك ظنك الذي أرداك فأراك الجور عدلاً والباطل حقاً . وأما محبتنا فأن تنزع وتوب وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا، وتسييرك صلحاءنا، وإخراجك إيانا من ديارنا، وتولييتك الأحداث علينا، وأن تولي مصرنا عبد

الله بن قيس أبا موسى الأشعري وحذيفة، فقد رضيتهما . واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك اليه الهوى من أهل بيتك إن شاء الله والسلام»

فقبل عثمان بولاية أبو موسى مضطراً . وكان أبو موسى يمينا من أصحاب النبي، ولاء عمر البصرة مصر

كان عمر بن الخطاب قد مات وعلى مصر عمرو بن العاص والياً عليها . فما كاد بعض الوقت من ولاية عثمان ينتقضي حتى جعلت قرابة عثمان تنظر إلى أحد أهم أمصار المسلمين نظرة لا تخلو عن الطمع والطموح إليها . وكانت مصر جبهة مفتوحة إلى إفريقية حيث لم يُتَصَرَّ عمرو في غزوها لفتحها والعودة من غزواته محملاً بالغنيمة، متولياً مهمة فتح البلدان الجاورة طيلة سنين، إلا أن عثمان سرعان ما قرر كف عمرو بن العاص عن غزو إفريقية، وأرسل جيشاً لا يذعن لسلطان الوالي بمصر، وإنما يتصل بالمدينة مباشرة، متخطياً عمرو بن العاص على غير المألوف . حيث أن قادة الأمصار هم من يتولون قيادة الغزوات والفتوحات عادة . وكان المكلف بقيادة هذا الجيش عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخو عثمان من الرضاعة . ووعدته بأنه لو استطاع فتح إفريقية فله خمس الخمس (أي 4%) من الغنيمة .

ومن الطبيعي أن يغضب عمرو لهذا التهميش . لأن عثمان قد خص عبد الله به عن نظرائه من العمال . فلم يكن عثمان يرسل الجيوش من قبله مباشرة إلى الثغور . وإنما كان ذلك إلى العمال حيث يغزو معاوية الروم ويغزو عامل البصرة والكوفة فارس .

وقد نجح عبد الله بن أبي سرح في فتح الأراضي الواسعة من إفريقية والحجيم منها بعظيم الغنائم، وما إن انتهى من غزوه ولاء عثمان خراج مصر (المسئولية المالية للبلاد) تاركاً لعمرو بن العاص مسئوليتها العسكرية . وكان لابد من

حدوث الاختلاف بين عمرو وعبد الله . فكتب كلاهما إلى عثمان يشكو الآخر، وما كان من عثمان إلى أن عزل عمرو بن العاص عن مصر، وسلم عبد الله بن أبي سرح إمارة مصر كلها عام 27 هـ .

لم يكن عبد الله بن سعد بن أبي سرح رجل صدق، ولم يكن المسلمون يرضون عنه، فهو كان من الذين اشتدوا على النبي وأسرفوا في السخر منه، وقد ارتد بعد إسلامه، وأعلن كشفه عن زيف نبوة محمد، وأحل الرسول دمه، وكاد يقتله عند فتح مكة، لولا شفاعته عثمان له وإعلان إسلامه . ولا يوجد شك في كون سيرة عبد الله في مصر قد أصابت أهلها بالسخط عليه . فكان يكلفهم فوق ما يطيقون ويتحملون ويتشدد فيهم، حتى شكوه إلى عثمان . فكتب عثمان له يأمره بالرفق في رعيته فلم يحفل بذلك، وإنما عاقب الذين شكوه وضرب منهم رجلاً حتى قتله، وبذلك غضب أهل مصر غضباً عظيماً وغضب معهم أعيان الإسلام في المدين الشام .

كان معاوية بن ابي سفيان أعظم الولاة حظاً من كل شيء في أيام عثمان . فكان عُمر قد ولي معاوية حكم دمشق، وولى أخاه يزيد بن أبي سفيان حُكم الأردن، وعندما مات يزيد ضم عمر الأردن إلى سلطة معاوية، فاستعت بذلك سلطاته . وبعد موت عمر، كان معاوية من المقربين لعثمان، حيث أن معاوية هو ابن عم عثمان، فلم يتم بتغييره . بل على العكس، حيث ضم إلى سلطته الكبيرة: فلسطين، بعد موت حاكمها عبد الرحمن بن علقمة، وقام بعزل عمير بن سعد الأنصاري حاكم حمص، وضمها إلى معاوية أيضاً . وبذلك اجتمعت عند معاوية الأجناد الأربعة وبسط قوته على بلاد الشام كلها، ليصبح ذا سلطة عالية لا ينافسه فيها أحد .

وقد طال حكم معاوية للشام، فأحبه أهل الشام، وأصبح لطول ولايته وحسن تديره لأمر رعيته، أشبه بالملك منه بالوالي . وكان عثمان إذا ما أراد أن يُسَيِّر أحد من المخالفين له والمعارضين لسياسته، فإنه كان يرسلهم إلى الشام عند معاوية، فقد كان حزم معاوية هو الملجأ الذي كان عثمان يلجأ إليه إذا أراد تأديب المعارضين له . ويبدو أن معاوية

كان حازماً حتى على عثمان نفسه. فهو كان يلتقي المنفيين الذين يرسلون إليهم لإصلاحهم، فإذا لم يقدر عليهم طلب من عثمان أن يخرجهم من عنده، ولم يكن عثمان يرد له طلباً.

البصرة

كان أبو موسى الأشعري عامل عمر على البصرة. وأبقاه عثمان على حكمه أعواماً. والكثرة من أهل البصرة مُضَرِّبَةٌ، وفيهم ربيعون، وفيهم قلة من اليمانية، -ولأمر ما- أحب عمر أن يولي رجلاً من اليمن على البصرة، وكثرة أهلها مضرية، وأن يولي رجلاً ثقيلاً وهو المغيرة بن شعبة على الكوفة؛ وكثرة أهلها يمانية؛ يريد بذلك أن يقاوم العصبية القبلية حتى يزيلها.

كان أبو موسى رجلاً من أصحاب النبي مقدماً فيهم، وقد استقامت أمور البصرة في عهده أعواماً، لم يشك فيها أهل البصرة من أميرهم، ولم يشك الأمير من رعيته. ولكن يبدو أن العصبية القبلية (والقرشية بالأخص) قد عادت في زمن عثمان. فقد كانت ثلاثة من الولايات الأربعة الكبرى يلبها أمراء من قريش أقرباء لعثمان: الوليد بن عقبة في الكوفة وبعده سعيد، ومعاوية بن أبي سفيان في الشام، وعمر بن العاص في مصر وبعده عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

فلم يبق إلا ولاية واحدة من هذه الولايات الكبرى، لم يُلِ أمره أموي ولا قرشي، وإنما وليه رجل من أهل اليمن، فكان مركز أبي موسى بن هؤلاء الولاة غربياً شاذاً، حيث أنه اليماني الوحيد الذي يَلِي ولاية ذات خطر. حتى جاء في أحد

الأيام رجلٌ مضربٌ من بني ضبة، هو أحد كبار المرتدين عن الإسلام في عهد الصديق أبي بكر ومن أتباع المتنبئة

(سجاح) زوجة (مسيلمة الكذاب)، وهو أحد المعاقبين عقاباً شديداً من أبي موسى الأشعري نفسه لفسقه ولفسوق

قبيلته ضبة بأمر من الفاروق عمر، اسمه غيلان بن خرشة الضبي فقال لعثمان: «أما لكم صغير فتستشبهوه فتولوه

البصرة؟ حتى متى يلي هذا الشيخ البصرة؟» ويبدو أن غيلان لم يكن وحده، بل كان معه مجموعة من قبيلة ضبة من

أهل البصرة اشتكوا أيضاً على أبي موسى . والذي يظهر من سياق الخبر أنه لم يكن يعرفه مثل معرفة عمر له، أو أن عثمان رضي الله عنه كان يوقر رؤساء القبائل ويسمع لقولهم . فسارع عثمان في عزل أبي موسى وتولية ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز عام 29 هـ، فدخل البصرة والياً عليها وهو ابن خمس وعشرين عاماً .

بداية التخطيط للمؤامرة

عبد الله بن سبأ

يعتقد أهل السنة أن سبب بداية القلاقل والسخط على حكم عثمان بسبب شخص يدعى عبد الله بن سبأ . ويعرفه أهل السنة على أنه من يهود صنعاء ومعروف بابن السوداء، أظهر الإسلام ووقف موقف العلماء، حاول التأثير في الأعراب والأمصار والذين دانوا حديثاً بالإسلام . جعل يطعن في الخليفة عثمان ويقول أنه عين الولاة لقرابتهم به، وأنه حرق المصاحف بعد أن صار لعبد الله بن سبأ أتباع . ووصل الأمر إلى الخليفة فجمع أمراء الأمصار في موسم الحج سنة 34 هـ وقد رأى عثمان أن يلين لهم ويؤلف قلوبهم .

في ذي الحجة من عام 35 هـ جمع المتمردون أنفسهم من البصرة، والكوفة، ومصر، وبدأوا في التوجه ناحية المدينة المنورة؛ لمطالبة عثمان بالرجوع عن موقفه، وعزل بعض الأمراء الفاسدين من بني أمية، وطلبوا مناظرة عثمان رضي الله عنه في ما وصلوا إليه من مطاعن في حقه وأظهروا أنهم أتوا للحج .

وقد قسموا أنفسهم مجموعات :

مجموعة أهل مصر وعليهم الغافقي بن حرب وعبد الله بن سبأ .

مجموعة أهل الكوفة وعليهم عمرو بن الأصم وزيد بن صولجان العبدي .

مجموعة أهل البصرة وعليهم حرقوص بن زهير السعدي وحكيم بن جبلة العبدي.

وواجهوا عثمان، إلا أنه قابلهم بالحجج، وأوضح لهم موقفه، فلم يقتنعوا وتظاهروا بالطاعة والرجوع إلى بلادهم.

صحابة معارضين لسيلسة عثمان

أبو ذر الغفاري

وكان أبو ذر الغفاري رضي الله عنه من أكبر المعارضين للسياسة المالية، فكان يرى عطايا عثمان لمروان بن الحكم وأخيه الحارث، فينكر ذلك ويستنكره، وكان يتلو قول الله عز وجل: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم» سورة التوبة وقد شكوا مروان بن الحكم إلى عثمان من قول أبي ذر، فأرسل عثمان إليه من ينهاه فقال أبو ذر: «أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله؟». ولم يتوقف أبو ذر، بل ألح في نقده واستنكاره لهذه السياسات، حتى أمره عثمان بالخروج من المدينة والذهاب إلى معاوية في الشام.

وعند وصوله الشام، صار ينتقد معاوية أشد الانتقاد لجمعه المال وبناء القصور الفارهة، فانتقده بشكل كبير لبناء قصر الخضراء، وقال: "إن كنت بنيتها من مال المسلمين فهي الخيانة، وإن كنت بنيتها من مالك فهذا إسراف" وكان يقول: "ويل للأغنياء من الفقراء" حتى أصبح الناس يسمعون له ويتجمعون حوله، فخاف معاوية من أن ينقلب أهل الشام عليه فكتب إلى عثمان يشكو له أبو ذر، فأمر عثمان بأن يجلبوا له أبا ذر إلى المدينة، فلما بلغ المدينة أصبح يقول: "وبشر الأغنياء بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. وأصبح يطعن بعثمان نفسه، حتى ضاق به عثمان فنفاه خارج المدينة، إلى الربرة، فمات هناك، فإذا ركب من أهل الكوفة فيهم عبد الله بن مسعود، فسأل:

«ما هذا؟»، قيل جنازة أبي ذر، فبكى ابن مسعود، وتذكر قول النبي محمد: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده». فصلى عليه، وألحده بنفسه.

عمار بن ياسر

اشترك عمار مع جماعة من أصحاب النبي في كتابة كتاب يلمون فيه عثمان، وكان عمار هو من تجرأ على حمله والذهاب به إلى عثمان. فقرأ عثمان جزءاً منه، وكان شيخاً كبيراً. وعندما مات أبو ذر منفياً في الصحراء، حزن عليه عمار، وأصبح يلوم عثمان، فغضب عثمان وأمر بنفيه إلى الربذة كما نفى أبا ذر. فغضب لذلك علي بن أبي طالب فأقبل على عثمان ولامه بنفي أبي ذر، وطلب منه أن يترك عماراً ويتراجع عن قراره. حتى تشاجرا، وكاد أن ينفيه هو أيضاً قائلاً له: ما أنت بأفضل من عمار، وما أنت أقل استحقاقاً للنفي منه" وبعد وساطة المهاجرين ووجهاء المدينة تراجع عن قرار النفي بخصوص عمار وعلي.

لكن تلك الحادثة أنكرها العديد من الفقهاء: فمن حيث سند الرواية، الحديث الذي يستند عليه في تلك الرواية مروى عن سالم بن أبي الجعد وهو ضعيف السند. إلا أن الإمام الذهبي وثقه وقال أن أحاديثه مخرجة في الكتب الستة، ثم قال أنه مدلس قال عنه ابن سعد: «كان ثقة، له أحاديث صالحة» وقد وثقه يحيى بن معين وأبو زرعة الرازي والنسائي، كما روى له الجماعة.

وأما الرواية الأخرى ففيها الأعمش عداه في صغار التابعين، لم يدرك عثمان ولا علياً ولا عماراً؛ وقد وضح ذلك ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد.

طلحة بن عبيد الله

كان طلحة أحد اغنياء المدينة ومن أكبر أعلامها . اختاره عمر ليكون أحد أعضاء المجلس الذي اختاره لينصب الخليفة من بعده . إلا أنه لم يشارك في اختيار الخليفة، حيث كان مسافراً خارج المدينة عندما توفي عمر، فأرسلوا له يستعجلوه فأقبل إلى المدينة مسرعاً، ولكن كانت بيعة عثمان قد تمت . وقد أغضبه ذلك فجلس في داره ولم يبايع عثمان .

إلا أن مساعي عبد الرحمن بن عوف وعثمان نفسه قد انتهت بقبول طلحة ومبايعته لعثمان بالخلافة . وكانت هناك علاقات تجارية تربط الطرفين، لذا - فإن الأمور استقامت بينهما سريعاً .

مقتل عثمان (ر)

وكانت المعارضة تشتد في الولايات وتصل أصدائها إلى المدينة، وتشتد في المدينة فيصل أصدائها إلى الولايات البعيدة فتزداد جرأة، حتى كتب أصحاب الرسول المقيمين في المدينة إلى أصحابهم خارج المدينة بالتقدم إليها لتصحيح ما اعوج من أمور الخلافة . فتكاثر الناس واجتمعوا في المدينة سنة 34 هـ، ولاموا عثمان على سياسته، ثم كفوا الإمام علي بن أبي طالب أن يدخل على عثمان فيكلمه . فدخل عليه وقال له بعد أن مدحه كلاماً منه: «تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هُدي وهُدَى، فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة متروكة، فوالله إنَّ كلاً لبيِّن، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله إمام جائر، ضلَّ وُضِلَّ به، فأمات سنة معلومة، وأحيا بدعة متروكة» .

خطب بعد هذه المقابلة عثمان في الناس ينذرهم ويحذرهم ثم ذهب إلى بعض من اللين، ولكنه بقي على موقفه، ورغم أن علي بن أبي طالب لم يكن راضياً على ما كان يفعله عثمان، إلا أنه وضع في ذلك اليوم ولديه الحسن والحسين

أمام بيت عثمان ليقوموا بحمايته. أرسل بعدها عثمان يطلب قدوم معاوية وعبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص إلى المدينة للاجتماع بهم.

فاستشارهم عثمان عند قدومهم في كيفية التعامل مع المعارضة، فأشار له معاوية بأن يترك التعامل مع المعارضة على عاتق العمال (حكام الأقاليم) وأشار له سعيد بقتل قادة المعارضة وأشار له عبد الله بن أبي سرح بأن يرشوهم من المال ليسكتوا، وأشار إليه عبد الله بن عامر أن يشغل المسلمين في الحرب والفتوحات الإسلامية. فعمل عثمان براي عبد الله بن عامر.

وما إن دخل عام 35 هـ ثار أهل الكوفة على حاكمهم سعيد (كما ذكرنا) وطلبوا أن يولى عليهم أبو موسى الأشعري. وظهر للناس بأن الثورة هي الطريق الوحيد لتنفيذ مطالبهم.

ولم يكن للمصريين حل سوى أن يرسلوا وفداً إلى المدينة يطلبون فيه من عثمان كف عماله عن التسلط على رقاب المسلمين ومُقدراتهم. فخرجوا ب 35 وفداً ضخماً في رجب من عام 35 هـ يظهرون أنهم يريدون العمرة. فأرسل لهم عثمان جماعة من المهاجرين والأنصار على رأسهم علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة الأنصاري ليلتقوا بهم في قرية خارج المدينة. فخرج لهم علي ومن معه فوعدهم على لسان عثمان أن ينفذ مطالبهم، وقدم وفد منهم إلى عثمان في داخل المدينة، فخطب بهم وأثنى عليهم وأعطى التوبة واستغفر الله، وبكى وبكى الناس ورضوا بما قطعته عثمان على نفسه من عهود. وغادر وفد المصريين المدينة عائدين إلى ديارهم.

وما إن عادت وفود المصريين إلى مصر حتى تلقاهم عبد الله بن أبي سرح بعد أن عرف بأمرهم، فضرب رجلاً منهم فقتله (كما قدمنا) ومرت الأيام بدون أن يعزل عبد الله بن أبي سرح فتواعد المصريون مع أهل الكوفة والبصرة للقدوم

إلى المدينة بعد أن استيأسوا من وفاء الخليفة بعهوده. فتحركوا في شوال من نفس السنة صوب المدينة. وما إن وصلت وفود المعارضين إلى ضواحي المدينة، طلب عثمان من علي أن يخرج لهم فأبى، وأبى كذلك محمد بن مسلمة وقال: لا أكذب الله في السنة مرتين.

وانتهى الأمر بعزل ابن أبي سرح، وتولية محمد بن أبي بكر، فأرسله إلى مصر، ومعه جمع من الصحابة، وعندما كان محمد بن أبي بكر ومن معه في الطريق إلى مصر. فأزعجهم رجل يركب بعيراً فأوقفوه بعد أن شكوا فيه، وظهر أنه مبعوث من عثمان إلى والي مصر، ويحمل معه كتاباً له، ففتحوا الكتاب المختوم، وفي الكتاب أمراً من الخليفة إلى عبد الله بن أبي سرح يدعو فيه إلى قتل المعارضين الذين قدموا إلى المدينة، وقيل أن حامل الرسالة هذه هو أبو الأعور السلمي.

فأرسل المصريون إلى أهل العراق الذين تفرقوا عنهم يرجعهم إلى المدينة، ودخلوا المدينة بسرعة حتى فاجئوا من فيها، فذهبوا إلى عثمان وقالوا له: هل هذا غلامك (يقصدون حامل الكتاب)؟ فقال: نعم إنه غلامي انطلق بغير علمي. قالوا: هل هذا جملك؟ قال: أخذه من الدار بغير أمري. قالوا: هل هذا خاتمك؟ فقال: نقش عليه. فقالوا له إن لم تكتب أنت الكتاب فسلمنا من كئبه.

وهنا ارتفعت مطالب المعارضين الذين تحولوا إلى ثوار فطالبوا بأن يعزل عثمان نفسه، وأن يولي كبار صحابة المسلمين خليفةً جديداً بدلاً عنه. فرفض عثمان ذلك، وما كان من الثوار إلا الاعتصام في المدينة حتى تنفذ مطالبهم، وكانوا خلال ذلك لا يضايقون عثمان وكانوا يصلون وراءه.

حتى كتب عثمان إلى عماله كتاباً يدعوهم فيه إلى إرسال مقاتلين حتى ينصروه على الثوار، فعلم الثوار بأمر الكتاب، فبدأ الحصار، وتغيرت معه سيرتهم مع عثمان. فخرج عثمان على المنبر يلعن الثوار، فتشاجر القوم بالأيدي، حتى ضرب عثمان، فسقط مغشياً عليه، وحمل إلى بيته، وضرب الثوار حصاراً على بيته ومنعوه من الخروج منه.

ثم أخذت الأمور تصل إلى حدتها بالتأزم عندما قُتل أحد الثوار وهو «نيار بن عياض الأسلمي» عندما رمى أحد الحاصرين من داخل دار عثمان سهماً نحوه. فقالوا لعثمان عند ذلك: ادفع إلينا قاتل نيار بن عياض فلنقتله به، فقال: لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأتم تريدون قتلي. حتى بلغ الأمر ذروته فاقحم الثائرون الدار، وتشابكوا مع أهله، فأصابوا عبد الله بن الزبير بجراحات كثيرة، وصرع مروان بن الحكم حتى اعتقدوا أنه مات، ودخلوا على عثمان فقتلوه. في يوم الجمعة 18 من ذي الحجة سنة 35هـ، ودفن بالبقيع •

علي بن أبي طالب رضي الله عنه

والفتنة الكبرى

ببيع علي بن أبي طالب للخلافة بالمدينة المنورة في اليوم التالي لمقتل عثمان، فبايعه أغلب من كان في المدينة من الصحابة والتابعين. يُروى أنه كان كارهاً للخلافة في البداية، واقترح أن يكون وزيراً أو مستشاراً إلا أن بعض الصحابة حاولوا إقناعه. وانتقل عليّ إلى الكوفة ونقل عاصمة الخلافة إلى هناك.

رأى عليّ تأجيل تنفيذ القصاص حتى تستقر الأمور في المدينة، وكان كثير من الصحابة مع عليّ في رأيه، ولكن كان هناك مجموعتان يرون رأياً مخالفاً؛ فكانوا يرون وجوب القصاص الفوري من قتلة عثمان، الفريق الأول: يضم السيدة عائشة، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام.

الفريق الثاني: يضم معاوية بن أبي سفيان وإبي الشام من قبل عثمان، والذي يعتبر نفسه وليّ دمه؛ لأنه من بني أمية مثله.

موقعة الجمل

أسباب موقعة الجمل

حدوث حدثين مهمين، وهما مقتل الخليفة عثمان بن عفان مع حدوث فتنة بشكل كبير.

مبايعة كبار الصحابة لخلافة المسلمين للإمام الخليفة عليّ ابن أبي طالب، وقبل أبي طالب المبايعة.

ولكن وهو كارهاً لها أي عليّ مضض .

تم نقل الخلافة على يد عليّ ابن أبي طالب إلى الكوفة، ومن ثم انتقل إلى هناك هو أيضاً.

قام علي ابن أبي طالب بعزل الولاة الذين كانوا في عهد الخليفة عثمان بن عفان، والذين قد قام بتعيينهم هو في أيامه وعلى رأسهم معاوية بن سفيان.

السبب الأساسي وراء قيام علي ابن أبي طالب بعزل الولاة، هو تهديئة الشعب والذي كان ساخطاً بشكل كبير على الولاة جميعهم.

وأنهم يهتموا بمصالحهم الشخصية عن مصلحة الشعب، مع عدم حفاظهم على سنة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

بعد تلك المبايعه على الخلافة انتظر الصحابة من علي ابن أبي طالب، أن يقوم بالقصاص من قتلة عثمان بن عفان ولكنه قام بتأجيل هذا.

الأسباب وراء تأجيل علي ابن أبي طالب لقتل من قاموا بقتل عثمان

حتى تهدأ الفتنة الشديدة التي قد قامت في تلك المرحلة. عدم قدرته على التعرف على أعيان قتلة عثمان بن عفان.

كثرة عدد الثوار واختلاط كلاً منهم مع السبئية في جيشه وبين جنوده مع استعدادهم الشديد للقتل.

بلوغ عدد المقاتلين حوالي 2000 مقاتل.

بعد تأجيل علي ابن أبي طالب لأخذ القصاص، من الأشخاص الذين قد قاموا بقتل عثمان بن عفان.

لمدة حوالي أربعة شهور على البيعة للولاية له قاموا بعض الصحابة برفض هذا التصرف.

اتفق كلاً من عبد الله بن الزبير وطلحة بن عبيد الله رفض التباطؤ الخاص، بأخذ حق قاتلي عثمان.

من خلال اجتماعهم مع السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها، وذلك بعد عودتها من أداء فريضة الحج من أجل أن يتم التخلص من قتلة عثمان بن عفان.

على الرغم من كل تلك الأمور إلا إن علي ابن أبي طالب رأى إن هذا القرار هو قرار متسرع بشكل كبير وواضح وبه كم كبير من عدم الصبر.

ولكن السيدة عائشة مع الصحابين رأوا بأن هذا القرار، هو الصواب وذهبت مع الجيش للقيام بهذا القصص مما جعل الشعب يشعر بالأمان والرضا والراحة.

أحداث موقعة الجمل

بدأت الحرب تلك وقد كان الناس باتوا بئير ليلة وقتلة عثمان باتوا بشر ليلة، على الرغم من الاتفاق السلمي.

إلا أن الجيش الخاص بعلي ابن أبي طالب قد قام بتنفيذ خطة، وعدم الاهتمام بالصلح السلمي.

قامت السيدة عائشة بتقديم نصائح لكعب بن سور، بأن يقوم برفع المصحف لأعلى ودعوتهم إليه وإلى الكفاء عن الحرب.

ولكن بمجرد ما علم أهل الفتنه بتلك التوصية، قاموا برمي النبال، وقد قتلوا كعب بن سور وظلوا يضربوا الجمل.

كان الهدف من ضرب الجمل هو قتل السيدة عائشة، ولكن قد نجاها الله سبحانه وتعالى وبالتالي دعت هي وعلي ابن أبي طالب من الكف عن القتال، ولكن مع الأسف ظلوا يضربوا الجمل الخاص بعائشة بهدف قتلها.

رفضوا الكف عن القتال وظلوا يضربوا الجمل بالنبال، مما جعله ممتلئاً بالضرب من كل اتجاه له وقام علي بإلقاء الأوامر على عدم أخذ سبايا وعدم اللحاق بالهارب وعدم استحياء النساء، مع رغبته الشديدة في الذهاب والاطمئنان على صحة عائشة بعد الموقعة تلك.

وتلك كانت هي أهم الأحداث الخاصة بالموقعة تلك.

نتائج موقعة الجمل

قبل البدء في سرد نتائج تلك الموقعة لكم، نود أن نعرفكم سبب تسميتها بهذا الاسم.

وهي إن الحرب كانت موجهة من ضرب بالنبال على جمل عائشة بشكل كبير، مع انتصار جيش علي ابن أبي طالب.

انتهى القتال في تلك المعركة، وقد تبج عنه موت طلحة بن عبيد بن عبد الله رضي الله عنه .

وذلك بعد أن تم إصابته بسهم في ركبته، وظل ينزف بشدة مما أدى إلى استشهاده في تلك المعركة.

تأثر علي ابن أبي طالب بوفاة طلحة بشكل كبير، وقد استمر بالبكاء بشكل كبير على صديقه وأخوه طلحة بن عبيد

بن عبد الله استشهد الزبير أيضاً بن العوام وقد جاء قاتله بالسيف الخاص به، وأعطاه لعلي بن أبي طالب. مما جعله

حزيناً بشكل كبير ولا يتمكن من التعبير عن ضيقه هذا.

ولكنه كان لا يتمكن من البوح بما في داخله، نظراً لأنه المسؤول عن الجيش المقابل.

انتصار جيش السبئيين برعاية علي ابن أبي طالب، على الرغم من عدم قيام جيوش المسلمين بالحرب.

وعلى الرغم من اتفاقهم على الصلح، إلا إن الجيش ظل يقاتل حتى النهاية استشهد في تلك المعركة حوالي IO آلاف شخص من كل فريق، حيث تم وفاة 5 آلاف شخص من جيش علي رضي الله عنه وأرضاه.

وأيضاً 5 آلاف شخص من جيش السيدة عائشة رضي الله عنها، ولا ننسى موت طلحة والزبير رضي الله عنهما. تعد معركة الجمل تلك واحدة من أكثر المعارك، والتي قد تسببت بحدوث فتنة شديدة بين المسلمين بعضهم البعض ووقوفهم ضد بعض مع الأسف.

موقف لا ينسى في معركة الجمل

هو الموقف الذي قام به علي بن أبي طالب تجاه السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها زوجة النبي صلى الله عليه وسلم.

حينما انتهت المعركة بانتصار جيش علي وخسارة جيش المسلمين، مع استشهاد اثنين من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاها قام علي بن أبي طالب باستضافة عائشة رضي الله عنها، في أحد أكبر الدور في مدينة البصرة وهو دار عبدالله بن خلف وهي واحدة من أعظم الديار في المكان، وحينما كان يجلس علي عند سنية بنت الحارث جاءه رجلاً. وقال له بأن هناك رجلان يقوموا بالنيل من عائشة.

قام علي بعد ذلك بإعطاء أمر للقعقاع بن عمرو، بأن يقوم بجلد كل رجل من الرجلين IOO جلدة وتجريدهما من ثيابهما. حتى يكونوا عبرة من أجل أن يعتبر بها الآخرين، حتى لا يتجرأ أي شخص من تعريض السيدة عائشة رضي الله عنها للإهانة والمهازل.

قام علي بن أبي طالب بإعادة السيدة عائشة رضي الله عنهما وأرضاهما إلى المدينة المنورة، مع الحفاظ عليها من أي مكروه كتوع من الاحترام لها. وفقاً لأمر من النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وقد كان ذلك في عام 36 هجرباً .

موقعة صفين

وقعة صفين هي معركة وقعت بين جيش علي بن أبي طالب وجيش معاوية بن أبي سفيان في 26 يوليو 657 م / 37 هـ . وكانت امتداداً للفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان على يد ثوار اجتمعوا من مصر وغيرها . وبدأت معركة صفين في I صفر 37 هـ ، وصفين منطقة بين الشام والعراق

أسباب المعركة

بعد مقتل عثمان طلبت البيعة لخلافة المسلمين لعلي وتمت له في المسجد النبوي في المدينة . نزل علي بن أبي طالب الرحبة بعد موقعة الجمل وأرسل إلى معاوية يدعوه للمبايعة والطاعة إلا أن معاوية اشترط القصاص ممن أقدموا على قتل عثمان أو تسليمهم لكي يقتصوا منهم فاعتذر علي بعدم معرفته بالجناة وأن الأولى للمبايعة ليكونوا بعدها يداً واحدة في معاقبة الجناة، ودارت بينهما مراسلات عدة أدرك خلالها قتلة عثمان خطورة موقفهم وأن مبايعة معاوية لعلي ستجر عليهم العقاب والقصاص، لذلك حرصوا على التحريش بين الفريقين وجرهم إلى المواجهة وقد نجحوا في ذلك .

الجيش

جهز معاوية جيشاً عدده 130 ألف مقاتل من الشاميين، وجهز الإمام علي جيشاً عدده 135 ألف مقاتل من الكوفيين، منهم 100 مقاتل ممن قاتل مع رسول الله في معركة بدر الكبرى، كعمار بن ياسر، وحزيمة بن ثابت، وسعد بن قيس، وعبد الله بن عباس وغيرهم .

الاستعانة بقتلة عثمان

رأى علي بن أبي طالب أن مصلحة المسلمين العامة تقتضي مقاتلة هذه الفئة التي خرجت على أمير المؤمنين، وخرجت على جماعة المسلمين، ورأى أن من المصلحة أيضاً أن يستعين على قتالهم بهؤلاء القوم من أهل الفتنة لما لهم من العدد والعدة . وكانوا ينقسمون إلى مجموعتين كبيرتين :

- مجموعة تظن أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وذهبت لأجل هذا لخلع عثمان بن عفان، أو قتله، وكذلك قال محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه لعثمان بن عفان رضي الله عنه:

إنا لا نريد أن نكون يوم القيامة ممن يقول: [رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا] ﴿الأحزاب: 67﴾ .

فكان رضي الله عنه يعتقد ابتداءً، ولديه قناعة تامة أن عزله لعثمان رضي الله عنه، أو قتله قرينة إلى الله، وكان الكثير منهم قد ضلَّ من قبل رءوس الفتنة .

- أما المجموعة الأخرى، فكانت تظهر الإسلام، وتبطن الكفر والكيد والحقد على الإسلام، فكانوا من المنافقين .

وقائع المعركة

اليوم الأول

أخرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه في اليوم الأول- وكان غرة شهر صفر- الأشر النخعي على رأس مجموعة كبيرة من الجيش، وأخرج معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه حبيب بن مسلمة مع مجموعة كبيرة من جيشه، وتدور الحرب بين الفريقين بشدة من الصباح حتى المغرب، ويسقط الكثير من القتلى الشهداء من الفريقين، ويكون القتال في هذا اليوم متكافئاً .

اليوم الثاني

في اليوم التالي الخميس 2 من شهر صفر، أخرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد المجاهدين الذين لمعت أسماءهم كثيرًا في فتوح فارس والروم، وأخرج معاوية رضي الله عنه أبا الأعور السلمي، ويدور قتال شديد، ويتساقط القتلى والشهداء من الفريقين دون أن تكون الغلبة لأحدهما .

اليوم الثالث

في اليوم الثالث يخرج على فريق العراق عمار بن ياسر رضي الله عنه وأرضاه، وهو شيخ كبير قد تجاوز التسعين من عمره، ويخرج في الناحية الأخرى عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه ويتقاتل الفريقان من الصباح حتى المغرب، ولا يتم النصر لأحد الفريقين على الآخر .

اليوم الرابع

في اليوم الرابع يخرج على فريق علي بن أبي طالب محمد بن علي بن أبي طالب المُسمّى محمد بن الحنفية، وعلى الناحية الأخرى عبيد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، ويدور القتال من الصباح إلى المساء، ويسقط القتلى والشهداء من الفريقين ثم يتحاجزان، ولا تتم الغلبة لأحد الفريقين على الآخر .

اليوم الخامس

اليوم الخامس يخرج على فريق علي بن أبي طالب رضي الله عنه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وعلى الفريق الآخر الوليد بن عقبة فاتح بلاد أذربيجان وجزء كبير من بلاد فارس في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد ولّاه عثمان رضي الله عنه، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وكانت له جهود كبيرة في الجهاد في سبيل الله، وتقاتل الفريقان طوال اليوم دون أن يحرز أحدهما النصر على صاحبه .

اليوم السادس

في اليوم السادس يخرج على فريق العراق قيس بن سعد، وعلى جيش الشام ابن ذي القلاع الحميري، وكان هو وأبوه ذو القلاع في جيش معاوية رضي الله عنه، وقد استشهد والده في هذه المعركة، ويدور القتال الشديد بين الفريقين من الصباح إلى المساء، ويتساقط القتلى والشهداء ويكثر الجرحى دون أن تكون الغلبة لأحد الفريقين.

اليوم السابع

في اليوم السابع يخرج للمرة الثانية الأشتر النخعي على مجموعة من جيش العراق، ويخرج على جيش الشام حبيب بن مسلمة الذي قد خرج له في المرة الأولى.

وفي مساء هذا اليوم تبين أن استمرار هذا الأمر، من إخراج فرقة تتقاتل مع الفرقة الأخرى دون أن يكون النصر لأحد سيأتي على المسلمين بالهلاك، ولن يحقق المقصود، وهو إنهاء هذه الفتنة، وكان علي بن أبي طالب رضي الله بفعل ذلك ليجنب المسلمين خطر اللقاء الجيشين الكبيرين، وثلاً تُراق الدماء الكثيرة، فكان يخرج مجموعة من الجيش لعلها أن تهزم المجموعة الأخرى، فيعتبروا ويرجعوا عن ما هم عليه من الخروج على أمير المؤمنين، وكذلك كان معاوية رضي الله عنه يخرج مجموعة من جيشه فقط دون الجيش كله ليمنع بذلك إراقة دماء المسلمين.

فقرر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يخرج بجيشه كله لقتال جيش الشام، وكذلك قرر معاوية رضي الله عنه، ويبقى الجيشان طوال هذه الليلة يقرءون القرآن، ويصلون، ويدعون الله أن يمكنهم من رقاب الفريق الآخر جهاداً في سبيل الله، ويدوي القرآن في أنحاء المعسكرين، ويباع جيش معاوية معاوية رضي الله عنه على الموت، فليس عندهم تردد فيما وصلوا إليه باجتهادهم، ويستعدون للقاء الله تعالى على الشهادة في سبيله، ومع أنهم يعلمون أنهم يقاتلون

فريقاً فيه كبار الصحابة؛ علي بن أبي طالب، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن عباس، وغيرهم، إلا أنه كان معهم أيضاً الكثير من الصحابة معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وهو من أفتقه الصحابة، ولم يكن يرغب على الإطلاق أن يقاتل في صف معاوية، أو علي رضي الله عنهما ولم يشترك رضي الله عنه في هذه المعركة إلا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد أوصاه بالألا يخالف أباه، وقد أمره أبوه عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يشارك في القتال، فاشترك رضي الله عنه في الحرب، ولكنه لم يقاتل ولم يرفع سيفاً في وجه أحد من المسلمين.

اليوم الثامن

وفي اليوم الثامن يخرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بنفسه على رأس جيشه، كما يخرج معاوية بن سفيان رضي الله عنه على رأس جيشه، ويدور بين المسلمين من الطرفين قتال عنيف، وشرس لم يحدث مثله من قبل، فهؤلاء هم الأسود الشجعان الذين قهروا دولة الروم ودولة الفرس، وثبت الفريقان لبعضهما ولم يفتر أحد، ودار هذا القتال من الصباح حتى عشاء هذا اليوم، وتجازز الفريقان بعد سقوط الكثير من الشهداء، والقتلى والجرحى.

اليوم التاسع

وفي اليوم التاسع يصلي علي بن أبي طالب رضي الله عنه الصبح، ويخرج مباشرة لساحة القتال مستأنفاً من جديد، وفي هذا اليوم كان على ميمنة علي بن أبي طالب رضي الله عنه عبد الله بن بديل، وعلى ميسرته عبد الله بن عباس، ويهجم عبد الله بن بديل بالميمنة التي هو عليها على ميسرة معاوية رضي الله عنه التي كان عليها في ذلك الوقت حبيب بن مسلمة، ويجبرهم عبد الله بن بديل على التوجه إلى القلب، ويبدأ جيش علي رضي الله عنه في

إحراز بعض من النصر، ويرى ذلك معاوية رضي الله عنه، فيوجه جيشه لسد هذه الثغرة، وينجح جيشه بالفعل في سد الثغرة ويردّون عبد الله بن بديل عن ميسرتهم، وقُتل في هذا اليوم خلق كثير، وانكشف جيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى وصل الشاميون إلى علي رضي الله عنه، فقاتل رضي الله عنه بنفسه قتالاً شديداً، وتقول بعض الروايات إنه قتل وحده في هذه الأيام خمسمائة من الفريق الآخر، وقد يكون مبالغاً في هذه الرقم، وخاصةً أنه في أحداث الفتن تكثرت الروايات الموضوعة، والكاذبة التي تشمّر منها النفوس، ويتهمون فيها بسوء ظنهم، وقبح قصدهم، يتهمون معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما بأنهما يريدان الإمارة والملك ويخدعان الناس بمكرهما الشديد، ويقذفان في جيش علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر رضي الله عنهما، وروايات أخرى مختلفة في إظهار تقوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والفريق الذي معه لينتقصوا بذلك من معاوية رضي الله عنه وجيشه، وكلها روايات شيعية مغرضة ليس لها أساس من الصحة، وكلها تأتي من أبي مخنف لوط بن يحيى أحد الوضّاعين الذي قال عنه الإمام ابن حجر العسقلاني: إخباري تالف لا يوثق به. وقال عنه الدارقطني: ضعيف.

وقال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة. وقال عنه مرة: ليس بشيء.

وقال عنه ابن عدي: شيعي محترق.

بدأ جيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الانكسار بعد الهجمة التي هجمها عليها جيش معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فيأمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه الأشتر النخعي لينتقد الجانب الأيمن من الجيش، واستطاع بقوة بأسه، وكلمته على قومه أن ينتقد الموقف، وظهر بأسه، وقوته وشجاعته في هذا الموقف، وردّ الأمر إلى نصابه، واستطاعت ميمنة الجيش من السيطرة مرةً أخرى على أماكنها التي كانت قد انسحبت منها.

وَيُقْتَلُ فِي هَذَا الْوَقْتِ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ بَدِيلٍ وَتَكَادُ الْكُرَّةُ تَكُونُ عَلَى جَيْشِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَوْلَا أَنْ وَلَّى عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمِيْمَنَةِ الْأَشْرَ النَّخَعِيَّ . اسْتَشْهَادُ عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

مقتل عمار بن ياسر

قرب العشاء يُقْتَلُ عِمَارُ بْنُ يَاسِرٍ ، وَكَانَ فِي جَيْشِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَيُقْتَلُ مَعَهُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ هَاشِمُ بْنُ عَتَبَةَ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ فِي لِحْظَةٍ وَاحِدَةٍ .

يقول أبو عبد الرحمن السلمي: رأيت عمارًا لا يأخذ واديًا من أودية صفين إلا أتبعه من كان معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأيتَه جاء إلى هاشم بن عتيبة وهو صاحب راية، فقال: يا هاشم تقدم، الجنة تحت ظلال السيوف والموت في أطراف الأسنة وقد فُتحت أبواب الجنة وتزينت الحور العين اليوم، ألقى الأحبة محمدًا وحزبه . ثم حمل هو و هاشم بن عتبة حملةً واحدةً فقتلًا جميعًا .

فكان لهذا الأمر الأثر الشديد على كلا الطرفين وحدثت هزة شديدة في الفريقين، وزادت حمية جيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه بشدة، وزاد حماسهم، وذلك لأنهم تأكدوا أنهم على الحق، وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: وَيُحِ عَمَارٍ، تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ .

وتيقن الناس أنهم على الحق البين، وأنهم الجماعة .

وعلى الناحية الأخرى خاف الناس، لأنهم إذن البغاة الخارجين على إمامهم، واجتمع رءوساء جيش معاوية رضي الله عنه، عمرو بن العاص رضي الله عنه، وأبو الأعمور السلمي، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ومعهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وأخذوا يتشاورون في الأمر ويتدارسونه .

رفع المصاحف ووقف القتال

وبعد سير المعركة في صالح فريق الإمام علي، دعا عمرو بن العاص جيش معاوية إلى رفع المصاحف على أسنة الرماح، ومعنى ذلك أن القرآن حكماً بيننا، أراد من ذلك أن يخدع أصحاب الإمام علي، ليقفون عن القتال ويدعون الإمام علي إلى حكم القرآن.

وفعلاً جاء زهاء عشرين ألف مقاتل من جيش الإمام علي حاملين سيوفهم على عواتقهم، وقد اسودت جباههم من السجود، يتقدمهم عصابة من القراء الذين صاروا خوارج فيما بعد، فنادوه باسمه لا بإمارة المؤمنين: يا علي اجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت، وإلا قتلناك كما قتلنا عثمان بن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم.

فقال علي: "عباد الله إني أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وإني اعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً، فكانوا شرّ الأطفال وشرّ الرجال، إنها كلمة حق يراد بها باطل، إنهم والله ما رفعوها، إنهم يعرفونها ولا يعملون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة، أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا". ثم قال لهم: "ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه . . .".

قالوا: فابعث إلى الأشتر ليأتيك، وقد كان الأشتر صبيحة ليلة الهير قد أشرف على عسكر معاوية رضي الله عنه ليدخله، فأصروا على رأيهم، وكان أمير المؤمنين الإمام علي في هذا الموقف أمام خيارين:

المضي بالقتال، ومعنى ذلك أنه سيقا تل ثلاثة أرباع جيشه وجيش أهل الشام القبول بالتحكيم وهو أقل الشرين خطراً وهكذا كان القبول بالتحكيم نتيجة حتمية لظروف القاهرة لا خياراً لأمير المؤمنين.

التحكيم

اتفق الجيشان - جيش أهل الشام وجيش أهل العراق - على مبدأ التحكيم، وكان عمرو بن العاص المفاوض من قبل أهل الشام، وكان أبو موسى الأشعري المفاوض من قبل أهل العراق.

وقد اختلف الناس في أبي موسى الأشعري أشد الاختلاف ، فاللذين استجابوا لفكرة التحكيم أرادوه مفاوضاً عنهم، واللذين رفضوا فكرة التحكيم - وهم الإمام علياً أصحابه - رفضوا أن يكون الأشعري مفاوضاً عنهم، ولكن لم يكن أمام الإمام بد من الاستجابة لأهل العراق والقبول بأبي موسى الأشعري.

وقد تعرض الأشعري لخداع ابن العاص الذي أقنعه بخلع أمير المؤمنين، بينما قام عمرو بن العاص بتثبيت معاوية وخلع أمير المؤمنين .

نتيجة المعركة

بعد اجتماع الحكمان في دومة الجندل في الموعد المحدد حسب المتفق عليه، إلا أنهما لم يتفقا على شيء بل رجعا من غير تفاهم . وأراد علي بن أبي طالب أن ينهض مرة أخرى لقتال أهل الشام فاستنهض من انشقوا عنه من الخوارج لكنهم امتنعوا عن الخروج معه واتهموه بالكفر والفسوق مما جعل خروجه إلى الشام يتحول إلى معركة بينه وبينهم عرفت بموقعة النهروان تغلب فيها عليهم واستأصل شأفتهم وقضى عليهم إلا قليلا ، ومنذ ذلك الحين أخذ موقف علي بن أبي طالب يتراجع بسبب تحاذل أنصاره وتعنتهم ، وفي المقابل أخذ موقف معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام يتقدم واستمر السجال بينهم دون تحقيق أحد من الطرفين مكاسب حاسمه ، حيث انتهى هذا السجال الذي استمر زهاء سنتين بقيام ثلاثة من الخوارج هم : عبد الرحمن بن ملجم البراء بن عبد الله التميمي وعمرو بن بكر التميمي وعقدوا العزم على التخلص من كل من : علي بن ابي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، إذ رأوا بنظرهم القاصر

أن هؤلاء هم سبب الفتن والمصائب التي حلت بالامة فقررُوا التخلّص منهم ، وقد تمكّن عدو الله عبد الرحمن بن ملجم من طعن علي بن ابي طالب حيث استشهد (رضي الله عنه) في مسجد الكوفة وهو خارج لصلاة الفجر سنة (40 هـ) بينما أخفق صاحباؤه في قتل معاوية وعمرو بن العاص .

آل الأمر من بعد إلى تولية الحسن بن علي الخلافة إلا أنه تنازل عنها طواعية لمعاوية حقناً لدماء المسلمين وجمعاً لهم على إمام واحد، وقد سمي ذلك بعام الجماعة وانقضى بذلك عصر الخلافة الراشدة وابتدأ عصر بني أمية .

سؤال احدهم علي عن قتلة الموقعة من الطرفين

ولقد سئل علي رضي الله عنه عن قتلى الجمل وصفين فقال والذي نفسي بيده لا يموتن أحد من هؤلاء وقلبه تقي إلا دخل الجنة يشير إلى الفريقين نقله الطبري وغيره فلا يقعن عندك ريب في عدالة أحد منهم ولا قدح في شيء -- ص 268 مقدمة بن خلدون الجزء الاول طباعة دار الفكر

الخسائر

قُتل من الطرفين خلال المعركة 70 ألف رجلاً، فمن أصحاب معاوية من أهل الشام 45 ألف رجل، ومن أصحاب الإمام علي من أهل العراق 25 ألف رجل .

نهاية الخلافة وبدء مرحلة الحكم الوراثي

بعد هذه الفتن التي قتلت ثلاثة خلفاء، والتي كانت تستهدف اقتلاع الدولة الإسلامية ثم اقتلاع الإسلام، توجه

معاوية بن أبي سفيان إلى "توريث" ابنه، وتجميد قاعدة "الشورى" وقد ساعده على هذا توجه خطوتان :

الأولى - عام الجماعة: عندما تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنهما، واعتبر المسلمون هذا العام عام الجماعة، وجاءت خطوة الحسن بن علي رضي الله عنه تحقيقاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه عن الحسن: (لِإِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

الثانية - مبايعة بعض الصحابة ليزيد:

لقد بايع عدد كبير من الصحابة يزيد على الخلافة، وأقروا معاوية على توريث ابنه يزيد، وتقدر بعض هذه الروايات بأن عددهم زاد عن المائة، ولا شك أن الصحابة عندما أقروا معاوية على ذلك، أقروه لأنهم يدركون أن هذا في مصلحة استقرار الدولة، وأن البديل سيكون تهديد وجود الدولة الإسلامية، وزعزعة استقرارها، بل إمكانية اقتلاعها ثم اقتلاع الإسلام. ليس من شك أن الصحابة اتخذوا هذا الموقف نتيجة وعي متقدم في الحرص على الدولة الإسلامية.

موقعة ومذبحة كربلاء واستشهاد الحسين (ر)

هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم سبط رسول الله -صلى الله عليه وسلم، وريحاته ومحجبه، ابن بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فاطمة - رضي الله عنها -، كان مولده سنة أربع للهجرة، ومات ورضي الله عنه قتيلاً شهيداً، في يوم عاشوراء من شهر المحرم سنة إحدى وستين هجرية بكربلاء من أرض العراق فرضي الله عنه وأرضاه.

وقد وردت في مناقبه وفضائله أحاديث كثيرة منها:

1- ما رواه أحمد بإسناده إلى يعلي العامري - رضي الله عنه - أنه خرج مع رسول الله يعني إلى طعام دعوا له، قال: فاستمثل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب فأراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأخذه فظنق الصبي يفر هنا مرة وها هنا مرة، فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يضحكه حتى أخذه قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه، والأخرى تحت ذقنه، ووضع فاه وقبله، وقال: «حسين مني وأنا من حسين، اللهم أحب من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط»

2- ما رواه البخاري بإسناده إلى ابن عمر قد سأله رجل من العراق عن المُخْرِمِ يَقتل الذباب، فقال - رضي الله عنه - : أهل العراق يسألون عن الذباب، وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - !، وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «هما رِيحَانَتَايَ مِنَ الدنْيَا . يعني الحسن والحسين» .

3- وروى أحمد بإسناده إلى أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» . وغير ذلك من الأحاديث، وفي النية أفراد كتاب مستقل عن أبي عبد الله الشهيد الحسين بن علي - رضي الله عنهما - بإذن الله - تعالى - .

الأسباب التي أدت إلى خروج الحسين، والفتوى التي بنى عليها خروجه - رضي الله عنه - :

عدم مبايعة الحسين ليزيد كانت تعني عدم إعطاء الشرعية للحكم الأموي وهو أمر كان الأمويين يحرصون عليه أشد الحرص .

كان موقف الحسين من بيعة يزيد بن معاوية هو موقف المعارض، وشاركه في المعارضة عبد الله بن الزبير، والسبب في ذلك: حرصهما على مبدأ الشورى، وأن يتولى الأمة أصلحها، وتلك الممانعة الشديدة من قبل الحسين وابن الزبير، قد عبرت عن نفسها بشكل عملي فيما بعد، فالحسين - رضي الله عنه - كما مر معنا، كان معارضاً للصلح، والذي حملة على قبوله هو متابعة أخيه الحسن بن علي، ثم إن الحسين بن علي استمر على صلواته بأهل الكوفة، وقد كان يعدهم بالمعارضة، ولكن بعد وفاة معاوية، والدليل على ذلك أنه بمجرد وفاة معاوية سارع زعماء الكوفة بالكتابة إلى الحسين، وطلبوا منه المسير إليهم على وجه السرعة

ومن الأسباب التي أدت إلى خروج الحسين - رضي الله عنه -:

I . هو إرادة الله - عز وجل - وأن ما قدره سيكون وإن أجمع الناس كلهم على رده فسينفذه الله، لا راد لحكمه ولا لقضائه - سبحانه وتعالى - .

2 . قلب الحكم من الشورى إلى الملك الوراثي: ومن الأسباب: ما كان من عدم التزام معاوية بشروط الحسن في الصلح والتي من ضمنها ما ذكره ابن حجر الهيتمي: . . بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين .

ورأى الحسين في محاولة معاوية توريث الحكم من بعده لابنه يزيد مخالفة واضحة لمنهج الإسلام في الحكم، ومع ذلك فإنه لم يهتم بالخروج على معاوية؛ نظراً لمبايعته له بالخلافة، فظل على عهده والتزامه . ولكن بعد وفاة معاوية تغير الموقف، فالحسين لم يعد في عنقه بيعة توجب عليه السمع والطاعة، ويدل على ذلك محاولة والي المدينة الوليد بن عتبة أخذ البيعة من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، وخروجهما بعد ذلك إلى مكة دون أن يأخذ بيعتهما . إن موقف الحسين وقتواه ضد الحكم الأموي مرت بمرحلتين:

الأولى: مرحلة عدم البيعة ليزيد، وذهابه إلى مكة، وهذه المرحلة أسس فيها الحسين موقفه السياسي من حكم يزيد، بناء على نظراته الشرعية لحكم بني أمية، فهو يرى عدم جواز البيعة ليزيد، وذلك لسببين، فعلى الصعيد الشخصي فإن يزيد لا يصلح خليفة للمسلمين؛ نظراً لانعدام توفر شرط العدالة فيه، كما أن الحسين أفضل وأحق منه بمنصب الخلافة؛ فهو أكثر منه علماً، وصالحاً وكفاءةً وأكثر قبولاً لدى الناس من يزيد، أما الصعيد السياسي فلانعدام شرط الشورى، والاستئثار بالسلطة للحكم الأموي، والذي يخالف المنهج الإسلامي في الحكم، ولم يغيب عن الحسين - رضي الله عنه - قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»، ولكن فهمه لهذا الحديث أنه في حق من كان صالحاً للخلافة وأهلاً لها، وكان عن شورى المسلمين.

وعدم مبايعة الحسين ليزيد كانت تعني عدم إعطاء الشرعية للحكم الأموي وهو أمر كان الأمويين يحرصون عليه أشد الحرص، وقد كتب يزيد إلى واليه في المدينة بأخذ البيعة من الحسين وابن عمر وابن الزبير، وأن يأخذهم بالشدّة حتى يبايعوا، وفي نفس الوقت فإن عدم البيعة يسهل له حرية العمل السياسي، واتخاذ القرار الذي يراه مناسباً لمقاومة الحكم الأموي.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة العمل على مقاومة الحكم الأموي وطرح نفسه بديلاً للسلطة الأموية في دمشق، وهو ما يعبر عنها الفقهاء بالخروج على الإمام، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الحسين قد مكث في مكة بضعة أشهر قبل خروجه إلى العراق، فقد قدم إلى مكة في الثالث من شعبان سنة: 60هـ للهجرة، وخرج إلى العراق في الثامن من ذي الحجة من نفس السنة، وفي هذه الفترة كان - رضي الله عنه - يرأس أهل العراق، وتقدم إليه الوفود، حتى رأى أنه لا بد من مقاومة الظلم وإزالة المنكر وأن هذا أمر واجب عليه، وكانت شيعته بالعراق على اتصال به وتمت بينهم مراسلات.

وقد وصل الحسين بن علي إلى قناعة راسخة، وبني قراره السياسي على فتوى اقتنع بها في مقاومته للحكم الأموي، فهو يرى أن بني أمية لم يلتزموا حدود الله في الحكم، وخالفوا منهج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين، وبني الحسين - رضي الله عنه - فتواه بتسلسل منطقي شرعي، فاستبداد بني أمية، والشك في كفاءة وعدالة يزيد، توجب عدم البيعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على علماء الأمة، ومن أكبر المنكر حكم بني أمية واستبدادهم، وبما أن الحسين ليس في عنقه بيعة، وهو أحد علماء الأمة وساداتها، فهو أحق الناس بتغيير هذا المنكر، وعلى ذلك فليس موقفه خروجاً على الإمام، بل هو تغيير المنكر، ومقاومة للباطل، وإعادة الحكم إلى مساره الإسلامي الصحيح، ومما يدل على حرص الحسين - رضي الله عنه - على أن تكون فتواه وتحركاته السياسية في مقاومته للحكم الأموي متماشية مع تعاليم الإسلام وقواعده، امتناعه عن البقاء في مكة عندما عزم على مقاومة يزيد حتى لا تستحل حرمتها وتكون مسرحاً للقتال وسفك الدماء، فيقول لابن عباس: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلي من أن أقتل بمكة وتُستحل بي.

عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة ونصائح الصحابة والتابعين ورأيهم في خروج الحسين إلى الكوفة:

I - عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة:

محاولات ابن عباس لم تُجدِ في إقناع الحسين على الرغم من أنه أظهر له أنه لا يقف عند فكرة الحسين تماماً، ولكنه يوضح له عوامل فشل ما هو سائر لتحقيقه

بعد توافد الرسائل من زعماء الكوفة على الحسين - رضي الله عنه - والتي تطلب منه المسارعة في القدوم إليهم، ولما كان العدد مشجعاً أراد أن يطَّلِع على حقيقة الأمر، فبعث ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب؛ ليستجلي له

حقيقة الخبر، ثم يكتب إليه بواقع الحال، فإن كان ما يقولون حقاً قدم عليهم، خرج مسلم بن عقيل بصحبة عبد الرحمن بن عبد الله الأرحبي، وقيس بن مسهر الصيداوي، وعمارة بن عبيد السلولي، فلما وصل مسلم المدينة أخذ معه دليلين، وفي الطريق إلى الكوفة تاهوا في البرية ومات أحد الدليلين عطشاً، وكتب مسلم إلى الحسين يستغفیه؛ وذلك بسبب إحساسه النفسي لمدى الصعوبات التي تنتظره في الكوفة، ولكن الحسين رفض طلبه، وأمره بمواصلة المسير نحو الكوفة.

ولما وصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة نزل عند المختار بن أبي عبيد في أول قدمه، فلما جاء ابن زياد، وتولى إمارة الكوفة، وأخذ يشدد على الناس اتقل مسلم عند هانئ بن عروة؛ وذلك خشية انكشاف أمره، ثم لمكانة هانئ وأهميته كأحد أعيان الكوفة، ولما بدا الشك يساور ابن زياد من هانئ بن عروة خشى مسلم بن عقيل على نفسه، وانتقل أخيراً ولفترة قصيرة جداً عند مسلم بن عوسجة الأسدي -أحد دعاة الشيعة-، ولما بلغ أهل الكوفة قدوم مسلم بن عقيل قدموا إليه فبايعه اثنا عشر ألف، وتمت تلك المبايعة بصورة سرية مع تحرص شديد، ولما تأكد لمسلم بن عقيل رغبة أهل الكوفة في الحسين وقدمه إليهم كتب إلى الحسين :

أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، إن جميع أهل الكوفة معك، فأقبل حين تنظر في كتابي، وهنا تأكد للحسين صدق نوايا أهل الكوفة، وأنه ليس عليهم إمام كما ذكروا من قبل، فلا بد في هذه الحالة أن يفني لهم بما وعدهم به، حين كتب إلى أهل الكوفة: وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إليّ مجالكم وأمركم ورأيكم، فإذا كتب إلي أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم، وقرأته في كتبكم، أقدم عليكم -إن شاء الله-، فلما وصل إلى الحسين بن علي كتاب مسلم بن عقيل الذي طلب منه القدوم إلى الكوفة وأن الأمر مهياً لقدمه، تجهز الحسين بن علي، وعزم على المضي إلى الكوفة بأهله وخاصته.

2 . مواقف الصحابة والتابعين من خروج الحسين:

محمد بن الحنفية

لما بلغ محمد بن الحنفية عزم أخيه الحسين على الخروج إلى الكوفة، قدم عليه وقال: يا أخي أنت أحبُّ الناس إليَّ، وأعزهم عليَّ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحقُّ بها منك، تنحَّ ببيعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثم ابعت رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك، فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم يُنقص الله بذلك دينك ولا عقلك، ويُذهب به مروءتك ولا فضلك؛ إني أخاف أن تدخل مصرًا من هذه الأمصار وتأتي جماعة من الناس فيختلفون بينهم، فمنهم طائفة معك، وأخرى عليك فيقتلون فتكون لأول الأسنة، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً، وأباً، وأماً، أضيعها دماً، وأذلها أهلاً. فقال الحسين:

فإني ذاهب يا أخي، قال: فانزل مكة فإذا اطمانت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نبث بك لحقت بالرمال وشعث الجبال، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنتظر إلى ما يصير أمر الناس، وتعرف عند ذلك الرأي، فإنك أصوب ما تكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً . قال: يا أخي قد نصحت فأشفت وأرجو أن يكون رأيك سديداً . وجاء في رواية: . . فإن الحسين حين عزم على الخروج بعث إلى بني عبد المطلب في المدينة يدعوهم للخروج معه، فقدم عليه من خف منهم، وتبعهم محمد بن الحنفية فأدرك الحسين بمكة، فأعلمه أن الخروج ليس له برأي يومه هذا، فأبى الحسين أن يُقبل في نفسه على أخيه محمد، وقال: ترغب بولدك عن موضع أُصاب فيه؟ فقال محمد: وما حاجتي أن تصاب، ويصابون معك، وإن كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم .

عبد الله بن عباس - رضي الله عنه -:

ولما بلغ خبر عزمه على الخروج إلى ابن عمه عبد الله بن عباس آتاه وقال: يا ابن عم، إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبين لي ما أنت صانع؟ قال: قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله - تعالى -، فقال له ابن عباس: أخبرني إن كان عدوك بعد ما قتلوا أميرهم، وقفوا عدوهم، وضبطوا بلادهم، فسر إليهم، وإن كان أميرهم حياً وهو مقيم عليهم، قاهر لهم، وعماله تجبي بلادهم، فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال، ولا آمنُ عليك أن يستنزوا عليك الناس، ويقلبوا قلوبهم عليك، فيكون الذي دعوك أشد الناس عليك. فقال الحسين إني أستخير الله وأظن ما يكون. ولكن ابن عباس أدرك من كلام الحسين واستعداده أنه عازم على الخروج ولكنه يحاول إخفاء الأمر عنه؛ لعلمه بعدم رضاه عن ذلك، لذا جاء ابن عباس إلى الحسين من الغد فقال: يا ابن عم إني أتصبر ولا أصبر، وإني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك، إن أهل العراق قوم غدُرُ فلا تغرن بهم، أقم في هذا البلد حتى ينفي أهل العراق عدوهم ثم أقدم عليهم، وإلا فسر إلى اليمن؛ فإن به حصوناً وشعاباً، ولأبيك به شيعةٌ، وكن عن الناس بمعزل، واكتب إليهم وبث دعواتك فيهم، فإني أرجو إذا فعلت ذلك أن يكون ما تحب. فقال الحسين: يا ابن عم، والله إني لأعلم أنك ناصح شفيق، ولكني قد أزمعت المسير. فقال له: فإن كنت ولا بد سائراً فلا تسر بأولادك ونسائك، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونسأوه وولده ينظرون إليه... إلى أن قال: فوالله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع عليّ وعليك الناس أعطيتني وأقمت لفعلت ذلك

وهكذا نجد أن محاولات ابن عباس لم تُجدِ في إقناع الحسين على الرغم من أنه أظهر له -لما علم تصميمه على عدم رضاه بيزيد وضرورة العمل على تغييره- أنه لا يقف عند فكرة الحسين تماماً، ولكنه يوضح له عوامل فشل ما هو سائر لتحقيقه، وي طرح له البدائل التي ربما تكون أقرب لتحقيق ما يصبو إليه، وذلك بالانتظار حتى يقوم أهل العراق

بالسيطرة التامة على إقليمهم ويحرروه من سلطان بني أمية، وهو يدرك أنهم عاجزون عن ذلك، فبالتالي هم عاجزون عن حماية الحسين، أو أن يذهب إلى اليمن، ويعمل بما أرشده إليه؛ فإن عوامل النجاح فيه أكثر، وعوامل الفشل فيه أقل من رحيله إلى العراق، ولعل ابن عباس قد لا يريد للحسين لا هذا ولا ذلك، ولكن أراد تأخير الحسين عن اتخاذ تلك الخطوة السريعة بخروجه إلى العراق، التي لا ينفع معها تدارك الأمر، أما لو اقتنع برأي ابن عباس من الانتظار حتى يتهاى له الأمر في العراق، أو يعدل عنه إلى اليمن، وهذا سيأخذ وقتاً طويلاً لترتيب الأمور هناك، وبهذا أو ذاك فإنه يمكن أن يكون لعامل الوقت أثر في حل الوضع وإطفاء الفتنة. ويفهم من كلام ابن عباس بأنه لا يخالف الحسين في خروجه على يزيد من الناحية الشرعية، ولكن كان يخالفه من الناحية الاستراتيجية فكان يرى ألا يخرج الحسين للعراق حتى يتأكد من قوة شيعته وأنصاره هناك، وأن الأمويين لم يعد لهم نفوذ، وإلا فإن اليمن بعيدة عن النفوذ الأموي وله فيها أنصار، وبها أماكن كثيرة للتخفي، حتى يتمكن من جمع القوى الكافية لمقاومة الأمويين.

عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -:

مما يلفت الانتباه - زيادة على إجماع الناصحين للحسين على خيانة أهل الكوفة ووجوب عدم الثقة بوعودهم - كذلك يلفت الانتباه إجماعهم في توقعهم لمقتل الحسين كما يبدو ذلك من أسفهم عليه

فقد نصح الحسين - رضي الله عنه - في أكثر من موقف، فحين بلغه خروج ابن الزبير والحسين إلى مكة رافضين بيعة يزيد لقيهما، وقال: أذكر كما الله إلا رجعتما فدخلتما في صالح ما يدخل فيه الناس وتنتظران، فإن اجتمع عليه الناس لم تشدأ، وإن افترق عليه كان الذي تريدان، ولما قدم المدينة وبلغه خروج الحسين لأهل الكوفة لحقه ابن عمر على مسيرة ليلتين فقال: أين تريد؟ قال: العراق، ومعه طوامير وكتب، فقال: لا تأتهم، قال: هذه كتبهم وبيعتهم. فقال: إن الله خير نبيه بين الدنيا والآخرة، فاختر الآخرة، وإنكم بضعة منه، لا يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو

خير لكم، فارجعوا، فأبى، فاعتقه ابن عمر، وقال: أستودعك الله من قتيل. وكان ابن عمر يقول بعد ذلك: غلبنا الحسين بن علي بالخروج، ولعمري لقد رأى في أبيه وأخيه عبرة، ورأى من الفتنة وخذلان الناس لهم ما كان ينبغي له ألا يتحرك ما عاش، وأن يدخل في صالح ما دخل فيه الناس؛ فإن الجماعة خير.

عبد الله بن الزبير - رضي الله عنه -:

اتهمته بعض الروايات الضعيفة أنه أحد المتسببين في إقناع الحسين بالخروج إلى الكوفة، هو نفسه ثبت عنه بأنه قد أسدى النصائح للحسين، وحذره من مغبة مغادرة مكة والذهاب إلى الكوفة، وقد نصح الحسين قائلاً: أين تذهب إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟، فقال له الحسين: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلي من أن تُسَحَّلَ بي - يعني مكة-. وقد نظر بعض الصحابة إلى العمل الذي سيقدم عليه الحسين بأنه في حقيقته خروج على الإمام صاحب البيعة، كما نظروا إلى خروج الحسين وما يحمله خروجه على أنه نذر شر وبلاء على الأمة مهما كانت النتائج لأي من الطرفين منهم.

أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه -:

حيث قال: غلبني الحسين على الخروج وقد قلت له: اتق الله في نفسك والزم بيتك، ولا تخرج على إمامك.

وقال جابر بن عبد الله - رضي الله عنه:

كلمت حسيناً فقلت له: اتق الله، ولا تضرب الناس بعضهم ببعض، فوالله ما حمدتم ما صنعتم، فعصاني. ولم تتوقف المحاولات الهادفة بين الحسين وبين خروجه إلى الكوفة فكتب إليه ابن جعفر.

عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه:

كتب إلى الحسين وأرسل كتابه مع ابنه محمد وعون: أما بعد، فإني أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي؛ فإني مشفق عليك من الوجه الذي توجهت له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك. ولكن الحسين رفض الرجوع وهنا ظن عبد الله بن جعفر أن سبب خروج الحسين هو خوفه من الوالي عمرو بن سعيد بن العاص، فذهب إلى عمرو بن سعيد بن العاص، وطلب منه أن يكتب كتاباً إلى الحسين يؤمنه فيه ويعدّه بالخير، وكان رد عمرو بن سعيد أن قال لعبد الله بن جعفر: أكتب ما شئت واثت به أخته. فكذب ابن جعفر: "بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي، أما بعد، فإني أسأل الله أن يصرفك عما يبوقك، وأن يهديك لما يرشدك، بلغني أنك قد توجهت إلى العراق، وإني أعيدك بالله من الشقاق، فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر، ويحيى بن سعيد، فأقبل إليّ معهما؛ فإن لك عندي الأمان والبر والصلة وحسن الجوار لك، والله بذلك شهيد وكفيل، ومرأع ووكيل، والسلام عليك. ولكن الحسين - رضي الله عنه - رفض هذا الرجاء أيضاً وواصل مسيره.

أبو واقد الليثي - رضي الله عنه:

فقد روي عنه أنه قال: بلغني خروج الحسين، فأدركته بمل، فناشدته الله ألا يخرج، فإنه يخرج في غير وجه خروج، إنما يقتل نفسه، فقال: لا أرجع.

عمرة بنت عبد الرحمن:

فقد كتبت إليه تعظم عليه ما يريد أن يصنع، وتأمره بالطاعة ولزوم الجماعة، وتخبره أنه إنما يساق إلى مصرعه.

أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث:

يا ابن عمّ إن الرحم تظأرنى عليك، وما أدري كيف أنا عندك فى النصيحة لك؟ قال: يا أبا بكر ما أنت ممن يُستغش ولا يُتَّهم، فقل. قال: قد رأيت ما صنع أهل العراق بأبيك وأخيك، وأنت تريد أن تسير إليهم وهم عبيد الدنيا، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره فأذكرك الله فى نفسك. فقال: جزاك الله يا ابن عمّ خيراً، ومهما يقضى الله من أمر يكن. فقال أبو بكر: إنا لله، عند الله نحتسب أبا عبد الله.

عبد الله بن مطيع فقد قال:

إني فداك أباى وأمى، متعنا بنفسك، ولا تسر إلى العراق، فوالله لئن قتلك هؤلاء القوم ليتخذنا خولا وعبيداً.

سعيد بن المسيب :

فقد نقل عنه الذهبي أنه قال: لو أن الحسين لم يخرج لكان خيراً له.

عمرو بن سعيد بن العاص:

فقد كتب إليه يقول: إني أسأل الله أن يلهمك رشداً وأن يصرفك عما يردىك، بلغنى أنك قد اعترمت على الشخصوس إلى العراق، فإني أعيدك بالله من الشقاق.

أسباب قيام معركة كربلاء

استقرت خلافة المسلمين لمعاوية بن أبى سفيان بعد أن تنازل الحسن بن على -رضى الله عنه- عن الخلافة وباع معاوية عليها وباع الحسين بن على معاوية بن أبى سفيان على خلافة المسلمين بعد خلاف وقتال انتهى بالصلح ومبايعة معاوية، وكان هذا بعد سلسلة من الصراعات بدأت فى فتنة قتل عثمان بن عفان -رضى الله عنه- ثم معركة الجمل ثم صفين، ثم عقد الصلح وسُمى العام الذى تم فيه الصلح بينالأطراف المتنازعة بعام الجماعة، وكان من بنود الصلح

أن ترجع الخلافة إلى مبدأ الشورى من جديد بعد موت معاوية، أى أن يستشير المسلمون بعضهم فى تحديد خليفتهم القادم تمامًا كما كان يحدث فى عهد الخلفاء الراشدين، وتمّ الصلح والتزمت الأطراف به كاملة، وبعد فترة مات الحسن بن على وبقي الحسين ملتزمًا بنود الصلح حتى أنه خرج مجاهدًا فى سبيل الله مع الجيش الذى أرسله معاوية لفتح القسطنطينية سنة 49 للهجرة، ولكنّ الحدث الذى دفع البلاد إلى كثير من الاضطراب هو ما فعله معاوية بن أبى سفيان قبل وفاته، حيث قام معاوية بترشيح ابنه يزيد للخلافة بعده مخالفًا بنود الصلح ورافضًا نظام الشورى الذى اتفق على العمل به بعد وفاة معاوية، فنار الصحابة الكرام على قرار معاوية، معتبرين ترشيحه ليزيد من باب توريث الخلافة دون البحث عن الشخص المناسب لها، فبدأت الاثناثقات فى صفوف الدولة الإسلامية وبدأت حركات المعارضة لحكم معاوية تظهر بين الناس.

تفاصيل معركة كربلاء

فى العاشر من محرم من سنة 61 للهجرة كانت معركة كربلاء حين عبأ عمر بن سعد جيشه ووضع فى ميمنته عمر بن الحجاج وفى الميسرة شمر بن ذى الجوشن، وقد سعى عمر بن سعد إلى حبس الماء عن أنصار الحسين قبل معركة كربلاء، فباتوا أيامًا دون ماء يعانون من العطش، وعندما التقى الجيشان فى معركة كربلاء بدأ الجيش الأموى يمتطر أنصار الحسين بالسهم فقتل الكثير منهم، والتحم الجيشان واستمر القتال ساعة واحدة، قُتل فيها خمسون من أنصار الحسين، ثم استمرّ القتال فى كربلاء وأنصار الحسين يُقتلون واحدًا وراء واحد، وكلما استمر القتال كلما قُتل عدد من أنصار الحسين وأقربائه وأهل بيته، وشارفت معركة كربلاء على الانتهاء عندما تقدّم الحسين بن على على جواده وأمامه العباس بن على يحمل لواءه، وعندما حاول العباس أن يأتى بالماء لعلى من بحر العلقمى قتله الجيش الأموى ولم يبق فى الساحة إلاّ الحسين الذى أصيب بسهم فى نحره وأمطرته ضربات الرماح والسيوف بعده.

وفاة الحسين رضي الله عنه

قام شمر بن ذى الجوشن بفصل رأس الحسين عن جسده، فمات الحسين فى معركة كربلاء عن 56 عامًا، ولم ينبج من معركة كربلاء إلاّ علي الأصغر بن الحسين الذى حافظ على نسل أبيه من بعده.

الفتن وعودة الحمية الجاهلية

لقد عانى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام من العقل العربي الجاهلي ما لم يعاينه بشر وذلك منذ اللحظة الأولى لبدء دعوته وحتى وفاته .

ولسنل هنا فى صدد الحديث عن حياة الرسول وملاقاه لكننا سنضع بعض الدلالات التاريخية الموجزة التى ستعطينا رؤيا واضحة عن معاناته عليها الصلاة والسلام .

أولا : مع بدايات الدعوة فى كانت قريش ومشركيها ورموزها ومالها مسخرة بالكامل لمحاربة الرسالة السماوية عامة ولحاملها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

ولقد استخدم مشركي مكة وعقلها الجاهلي أساليب متنوعة بدأوها بأتهامه بالسحر والجنون وقول الشعر والمتلقي عن غيره الى المساومة مع عمه على شراء موقفه والتخلي عن رسالته مقابل المال والمنصب والعز والجاه .

ثم بدأت أساليب القمع لمواليه ثم محاصرتهم وأصدار وثيقة المقاطعة معهم الى القتل ثم التهجير وأخراجهم من ديارهم دون وجه حق .

ثانيا : ما أن حط الرحال بالرسول الكريم في يثرب المدينة المدينة التي سمها الأنصار باسمه حتى لاحقته قريش الى هناك وتحالفت مع يهود المدينة وعدد من القبائل للنيل منه وفرض الحصار عليه عمل حلف عدواني لمحاربه ومن بين صفوف المسلمين خرجت في المدينة طائفة المنافقين الذين كانوا أشد مكرا ودهاء وكفرا من أخوانهم المشركين .

ثالثا : ولولا نصر الله ورعايته وحفظه لدينه ورسوله وكتابه لكانت حياة الرسول الكريم قد انتهت غيلة في مكة لكنها أرادت الله التي نصرت عبده وأعزت جنده .

رابعا : بالرغم من هذه العدوان الخارجي والداخلي الذي وقف في وجه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فلقد استطاع في بضع سنوات أن ينشأ مجتمعا متآخيا معتمدا بحبل الله وأستطاع أن يؤسس لأول دولة عرفتها العرب والجزيرة العربية دولة محصنة من الداخل والخارج أستطاعت في بضع سنوات أن تفتح مكة وتستعيدها من المشركين لتكون البلد الآمين وتبع ذلك أن ادانت العرب قاطبة للرسول الكريم وأزدهرت وقويت مكاتته ورسالته ودولته .

خامسا : لقد كان الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في خوف دائم وشغل شاغل بأحوال أمته التي سيتركها حينما يلاقي ربه الكريم فهذا المجتمع الذي بدأ له متماسكا لم تنقى عقول وقلوب الكثيرين من أتباعه من حمة الجاهلية وعصبتها وحكمها فالعصبية طبع تطبع به العقل العربي .

لذلك فلقد صحت تنبأته كيف لا وهو النبي الرسول الكريم ومن عجائب الأمور وغرابتها ان ترجع العقلية الجاهلية الى المسلمين وكلهم من صحابة الرسول والمؤمنون الأوائل في ذات الساعة التي رحل فيها وبدلا من أن ينشغلوا في تكريمه ودفنه تركوه وراحوا يتنافسون على الزعامة والخلافة من بعده ويتنازعوا عليها ووقعت من بعدها الفتن كما قال عنها وصورها لهم فتنة تلحق بالتي هي قبلها واستمرت ولازالت ليومنا هذا .

تحذير النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الفتن

وعن أسامة بن زيد - رضي الله عنه - قال: أشرف النبي - صلى الله عليه وسلم - على أطم من أطام المدينة، ثم قال: «هل ترون ما أرى؟ إني أرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر» (3).

قال النووي: «والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم، أي أنها كثيرة، وتعم الناس، لا تختص بها طائفة، وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم؟ كوقعة الجمل، وصفين، والحرة، ومقتل عثمان، ومقتل الحسن - رضي الله عنهما -، وغير ذلك، وفيه معجزة ظاهرة له - صلى الله عليه وسلم» (4). اهـ.

وعن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، قال: انتهيت إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو جالس في ظل الكعبة، والناس مجتمعون عليه، فسمعته يقول: بينا نحن مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سفر إذ نزل منزلاً، فمنا من يضرب خبائه، ومنا من ينتضل (7)، ومنا من هو في جشره (8)، إذ نادى مناديه: «الصلاة جامعة»، فاجتمعنا، فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخطبنا، فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيراً لهم، وينذرهم ما يعلمه شراً لهم، وإن أمتكم هذه، جعلت عافيتها في أولها، وإن آخرهم يصيبهم بلاء، وأمور تنكرونها، ثم تجيء فتن يرقق بعضها بعضاً، فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، ثم تجيء فتنة، فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، فمن سره أن يترجح عن النار ويدخل الجنة، فلندركه موته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يجب أن يأتوا إليه، ومن باع إماماً فأعطاه صفقة يمينه، وثمرة قلبه، فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه، فاضربوا عنق الآخر».

ولمسلم: عن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية، دخل، فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلاً، ثم انصرف إلينا، فقال: "سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدة، سألت ربي: ألا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها. وسألته ألا يهلك أمتي بالفرق، فأعطانيها. وسألته: ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها".

ولأبي داود عن أبي ذر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا ذر"، قلت: لبيك يا رسول الله! وسعديك وذكر الحديث. قال فيه: "كيف أنت إذا أخذت الناس موت، تكون البئث فيه بالوصيف؟"، يعني: القبر قلت: الله ورسوله أعلم، أو قال: ما يختار الله لي ورسوله. قال: "عليك بالصبر"، أو قال: "تصبر". ثم قال لي: "يا أبا ذر! ما قلت: لبيك يا رسول الله! وسعديك. قال: "كيف أنت! إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم؟"، قلت: ما خار الله لي ورسوله. قال: "عليك بمن أنت منه"، قلت: يا رسول الله! أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي؟ قال: "شاركت القوم إذا"، قال: قلت: فماذا تأمرني؟ قال: "لزم بيتك"، قلت: فإن دخل على بيتي؟ قال: "فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف، فآلق ثوبك على وجهك يوء بأثمك وإثمه".

زاد ابن ماجه: "كيف أنت وجوائح تصيب الناس، حتى تأتي مسجداً، فلا تستطيع أن ترجع إلى فراشك ولا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجداً؟". قلت: الله ورسوله أعلم، أو قال يختار الله لي ورسوله. قال: "عليك بالعفة". وفي حديث عن ابن مسعود رضي الله عنه: وذكر الفسنة. قال: "الزم بيتك"، قيل: فإن دخل على بيتي؟ قال: "فكن مثل الجمل الأورق الثقال، الذي لا ينبعث إلا كرهاً، ولا يمشي إلا كرهاً". رواه أبو عبيد.

ولأبي داود عن المقداد مرفوعاً: "إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفَنَنَ . إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفَنَنَ . وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ . قَوَاهَا" .

للبخاري، عن عوف بن مالك رضي الله عنه . قال: أَثَبْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ ثُبُوكَ وَهُوَ فِي قَبَةِ مِنْ أَدَمٍ فَقَالَ: "اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، ثُمَّ مَوْتَانِ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقَعَصِ الْغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِقْصَاةُ الْمَالِ، حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَطْلُ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلْتَهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَيَعْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَاتَيْنِ غَايَةٍ، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا" .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ((إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنذِرَهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنْ أَمَّتْكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَاقِبَتُهَا فِي أَوْلِيهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُكْرَهُنَّهَا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَرْتَقِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ . فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْحَجَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْيَأْتِهِ مَنِيَّتَهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)) .

ومنها: «: وَقَعَةُ صِفَيْنَ، فَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَلَ قَتَانِ عَظِيمَانِ تَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ دَعَاؤُهُمَا وَاحِدَةٌ

((وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)): (فِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ: ((وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ

حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَنَّ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَخْبَرَهُ: أَنَّ عَمْرُو بْنَ عَوْفٍ - وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، كَانَ شَهِدًا بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ ابْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجَزِيرَتَيْهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ صَالِحَ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمُ الْعَلَاءُ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ، فَوَافَتْهُ صَلَاةُ الصُّبْحِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا أَنْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ، فَسَبَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَاهُمْ، وَقَالَ: أَطْنُكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ؟ قَالُوا: أَجَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَبْشِرُوا وَأَمَلُوا مَا يُسْرُكُمْ، قَوْلَ اللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَحْسَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَحْسَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِبُكُمْ كَمَا أَلْهَبَهُمْ.

أحاديث الفتن أصناف

محمد عابد الجابري منشور في صحيفة الاتحاد 7 سبتمبر 2009

"أحاديث الفتن" كثيرة متنوعة، منها ما هو في كتب الحديث "التسعة"، ومنها ما تزخر به مؤلفات خاصة، حاول مؤلفوها استقصاء ما روي عن الفتنة من أحاديث، وكثير منها يطرح مسألة الصحة! وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أن المختصين في نقد الحديث كان اهتمامهم بنقد السند بالتحديد والتجريح، أكثر من أي شيء آخر، وعلمنا أنهم كانوا يتساهلون مع أحاديث "الترغيب والترهيب" لأنها لا تترتب عنها أحكام فقهية كما هو الشأن في الأحوال الشخصية والمعاملات. . الخ، أدر كما أن باب أحاديث الفتن هو باب مفتوح أمام الزيادة والنقصان فضلا عن السهو والنسيان، دع عنك "الوضع" بدافع من الدوافع، خاصة السياسية منها. وبما أن التحذير من الفتنة قد ورد في القرآن خصوصا قوله تعالى "وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً" (الأنفال 25) (بمعنى أنها لا تصيب الذين ظلموا وحدهم، بل

تعم الجميع لأن الفتنة إذا نشبت انتشرت كالنار في الهشيم)، أقول بما أن الأمر كذلك، فيمكن اعتبار الأحاديث التي في معنى تلك الآيات أحاديث صحيحة. ذلك أن أحداثاً قد جرت زمن النبي عليه الصلاة والسلام كانت مشبوهة، بل منها ما كان وجه الفتنة فيه واضحاً، مثل ما حدث مرات في موضوع الغنائم... وبالتالي لا يستبعد أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال فيها أحاديث تشجبها وتفضحها وتحذر المسلمين من السقوط في شركها سواء في الحال أو الاستقبال. ومن هنا كانت أحاديث "الفتن" تخاطب الناس في جميع عصور الفتنة، بمعنى أن الناس يقرؤون فيها ما يحدث في زمانهم. أحاديث الفتن إذن كثيرة متنوعة، يمكن تصنيفها أنواعاً من التصنيف، تقترح منها الأصناف الثلاثة التالية: I- أحاديث تنبه إلى الفتن وتشجبها: منها حديث يقول فيه النبي عليه الصلاة والسلام: "إني أرى الفتن خلال بيوتمكم". وقد فسروا هذا الحديث على أنه "إشارة إلى القتل والحروب والاختلاف الذي يكون بين فرق المسلمين إذا تحزبوا". وأيضاً: "قال النبي صلى الله عليه وسلم: سباب المسلم فسوق وقتاله كهز". وفي نفس المعنى روي: «عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويُلقي الشُّخ، وتظهر الفتن ويكثر الهرج، قالوا: يا رسول الله، أما هو؟ قال: القتل القتل". وأيضاً: "قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن بين يدي الساعة أياماً ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج. والهرج القتل". و"عن ابن عمر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض". وأيضاً: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حطَب الناس فقال: ألا تدرُونَ أيُّ يوم هذا؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، فقال: أليس بيوم التَّحَرُّ؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: أيُّ بلدٍ هذا؟ أليس بالبلد الحرام؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: فإنَّ دِمَاءَكُم وأموالِكُم وأعراضِكُم وأبشارِكُم عليكم حرام كحرمة يومِكُم هذا، في شهرِكُم هذا، في بلدِكُم هذا. ألا هل بلغت؟ قلنا: نعم. قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فإنه ربِّ مبلغ يبلغه من هو أوعى له". و"عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ستكونُ فتنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، من

تَشَرَّفَ لها تَسْتَشْرِفُهُ، فَمَنْ وَجَدَ منها ملجأً أو معاذاً فليُعْذَ به". وأخيراً وليس آخراً: "قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: إذا تَوَاجَهَ المسلمان بسيفيهما فكلاهما من أهل النار. قيل: فهذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه". واضح أن رواية مثل هذه الأحاديث وبالتالي الترويج لها لم يكن من أجل أنها صادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فحسب، بل لأنها تستجيب لحاجة في حاضر راويها أو مروجها، وهي في الغالب حاجة تستدعيها فتن قائمة فعلاً أو محتملة، والغالب أن الغرض منها هو صد الناس عن إشعالها أو المشاركة فيها... الخ. وهذه حالنا نحن اليوم: فالعالم العربي والإسلامي يعاني من حال الفتنة -وأكاد أقول "الدائمة" - "حال الاقتتال الجماعي" الذي تستباح فيه نفوس الأولاد والنساء والشيوخ وغيرهم ممن لا يقوى على القتال، عندما يكون القتال مشروعاً أي دفاعاً عن النفس، فكيف بالقتل غير المشروع ابتداءً: القتل الذي يتحول إلى اقتتال، إلى فتنة "وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ" (البقرة 191). 2- هناك صنف آخر من أحاديث الفتن يتوجه بالخطاب إلى الذين "يثورون" على الحكام ويتمردون على الدولة بدعوى الإصلاح، دون أن يأخذوا في حسابناهم ما سياتر على عملهم من مساوئ ومصائب، لكونهم لا يمتلكون القوة التي تمكنهم من تحقيق ما يدعونه من إصلاح بأقل ثمن، فتتقلب "ثورتهم" أو "خروجهم" على الحاكم إلى حال الفتنة، حال اللادولة، حال "قانون الغاب". من ذلك ما روي من أن أحد الصحابة سأل النبي قائلًا: "يا رسول الله، إنا كنا في جاهليةٍ وشرٍّ؛ فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرٍّ؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قومٌ يهدونَ بغير هديي، تعرفُ منهم وتتكبر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شرٍّ؟ قال: نعم، دُعاةٌ على أبواب جهنم، من أجا بهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صنفهم لنا، قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموتُ وأنت على ذلك". ومن ذلك أيضاً: ما روي عن أحدهم، قال: «أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من

الحجاج، فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشد منه حتى تلقوا ربكم؛ سمعته -يقول أنس- من نبيكم صلى الله عليه وسلم». وفي هذا المعنى روى «عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية». مثل هذه الأحاديث واضح من أمرها أنها تنبه الناس إلى خطورة وأضرار "حال اللادولة" وتدعو إلى اعتزال "أمراء الحرب" الذين هم الوحيدون الذين يستفيدون منها، لا بالبناء بل بالهدم والتدمير. إن الدعوة إلى طاعة "الأمير القائم الظالم"، ليس لأنه "قائم" باستبداده وشوكته، بل لأنه يتعذر في وقت من الأوقات -إن لم يكن في جلها- إقامة حاكم جديد بدله، يحكم بالعدل. . الخ. فتكون النتيجة استفحال الفتنة! إن طاعة "القائم الظالم" الذي يقيم الحد الأدنى الضروري من "الأمن" أفضل من "حال الفتنة"، حال اللادولة". إن هذه الطاعة تدخل في باب: "الضرورات تبيح المحظورات". 3- هناك جملة من الأحاديث تنسب إلى النبي عليه الصلاة والسلام أقوالاً فيها تشاؤم كبير من مستقبل أمته: منها قوله: «سألت ربي ثلاث فأعطاني منهن ثنتين ومعني الثالثة: سألته أن لا يهلكنا بما يهلك الأمم قبلنا، فأعطانيها، وسألته ألا يظهر علينا عدواً، فأعطانيها، وسألته ألا يلقي بيننا سيفاً، فمنعنيها». ومن ذلك ما روي من أن رجلاً: أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: استعملت فلاناً (عينته عاملاً لك) وما استعملتني، فقال: إنكم «ستلقون بعدي أثره، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» (في الجنة). ومن هذا الصنف من الأحاديث: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده، لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيم قتل، فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: الهرج، القاتل والمقتول في النار. ومن هذا الصنف أيضاً: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيأتي على الناس زمان يتعدون في المساجد حلقاتاً حلقاتاً، إنما همتهم الدنيا، فلا تجالسوهم، فإنه ليس لله فيهم حاجة». وعن حذيفة بن اليمان أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تكون فتن كقطع الليل المظلم، يتبع بعضها بعضاً، تأتيكم مشبهة

كوجوه البقر، لا تدرّون أيها من أي». وهذا النوع من الأحاديث يصعب تفهمه لأنه لا يشهد له القرآن بالصحة بل يقرر عكس ما بشر به أمة المسلمين فيتوعد المسلمين، وليس في القرآن وعيد للمسلمين وإنما وعيده للكافرين والمنافقين .

هل الخلافة دينية أم سياسية

الخلافة في اللغة

الخلافة لغةً: مصدر ، تخلف فلان فلاناً إذا تأخر عنه، وإذا جاء خلف آخر، وإذا قام مقامه . ويقال خلف فلان فلاناً إذا قام بالأمر عنه، إما معه وإما بعده . قال تعالى: **وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ** ﴿ [الزخرف / 60].

والخلافة النيابة عن الغير إما لغيبه المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه . . إلخ،

والخلافة في لسان المسلمين، وترادفها الإمامة، هي: «رياسة عامة في أمور

الدين والدنيا نيابة عن النبي (ويقرب من ذلك قول البيضاوي): «الإمامة

(١) راجع المفردات في غريب القرآن للأصفهاني . (٢) القاموس والصحاح وغيرهما .

سبب التسمية بالخليفة

وسمي الخليفة بذلك «خليفة وإماماً، فأما تسميته إماماً فتشبيها بإمام الصلاة، في اتباعه والافتداء به، وأما تسميته

خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله، واختلف في تسميته خليفة الله، فأجازه

بعضهم . . . ومنع الجمهور منه . . . وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به، وقال: لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله
(.

الأنه في الخليفة عمر بن الخطاب قد بدل اللقب الى (أمير المؤمنين) لسهولة التعامل والتداول .

الأصل الذي قامت عليه

رأينا في الحور السابق كيف كانت الوقائع والأحداث التي سبقت الاتفاق بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة على تولية أمر المسلمين لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وبإمكاننا أن نستخلص من تلك الوقائع والروايات التاريخية الأسس والأصول التي أستند عليها المسلمون في تولية أميراً عليهم لإدارة شؤونهم وحياتهم وحفظ دينهم بعد وفاة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

أولاً : لم يذكر أياً من المتجادلون في سقيفة بني ساعدة نصاً قرأنا أو حديثاً نبوياً يسيروا بهديه في اختيار ولي أمرهم وهذا يؤكد من ان المنصب الذي فرغ بوفاة الرسول الكريم هو منصب سياسي مدني زمني وليس ديني أو شرعي أو غير ذلك هم أجمعوا لأختيار رئيساً لدولتهم القائمة وخافوا جميعاً في حال اختلافهم أن يفرط عقد هذه الدولة لذلك لم يكن أمامهم سوى الوصول الى اتفاق وهذا الذي حصل .

ثانياً : ان الاعتبارات التي أخذت في اختيار ولي الأمر كانت قبلية مجته فالرسول الكريم هو من قریش لذلك فقريش أحق بالزعامة والرئاسة من الأنصار الذين لم يكن لديهم أي حجة ليثروها في الرد على طلب المهاجرين .

ثالثاً : ان طريقة الاختيار تم بالتوافق والتراضي وليس الاجماع اقتضته كما ذكرنا المصلحة السياسية قبل الدينية ثم بعد ذلك وأسوة بسنة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام جرت المبايعة الفردية ثم الجماعية ولم يأت أي معترض على

اختيار أبو بكر أو يعتبر من الخصوم فكثير من الصحابة لم يبايعوا أبا بكر وهذا يعني ليس للبيعة صفة الزامية في عنق المسلمين يأثموا ان لم يؤدوها .

رابعا : لم يرث ولي الأمر أي صفة تتعلق بذات رسول الله من كونه نبيا ورسولا فهو ولي أمر مأمور بتطبيق شرع الله الحكم بالعدل والمساواة وحفظ الحقوق وهي مسؤوليات عامة ضرورية .

خامسا : ان كل ما ذكر في العديد من كتب الأخبار والمؤرخين والفقهاء وغيرهم من إضفاء صفة دينية أو قدسية للخليفة فهو مردود وهو كما ذكرنا ليس له خصوصية دينية أو فقهية أو غير ذلك .

سادسا : نستنتج من كل ذلك ان منصب الخليفة هو منصب مدني دنيوي اداري سياسي وللمسلمين في أي زمان ومكان الاتفاق على تولية أولياء أمورهم واختيار الطريقة القائمة على مبدأ الشورى لتحقيق ذلك .

المحور الثاني

الأمامة

ومن أهم المباحث الكلامية التي أثارت جدلاً طويلاً هي مسألة الإمامة ، ونعني بها هنا الإمامة الكبرى ، وقد اعتنى كثير من العلماء المسلمين بمبحث الإمامة منذ وقت مبكر ، ونبع هذا الاهتمام من كثرة الجدل الذي دار بين المسلمين ، والذي كان سبباً في ظهور عدد من الفرق الإسلامية التي دارت مباحثها الكلامية حول الإمامة ، كمبحث رئيس من مباحثها الجدلية ، ومن أشهر هذه الفرق هم الشيعة على اختلاف طوائفهم ، ويقف على رأس فرقهم ما عرف عند

علماء الملل والنحل بفرق الإمامية ، وهم أكثر من فرقة ، بل إن فرق الشيعة على الإطلاق اعتنت بهذا المبحث ، واعتبرته الأساس في تكوينها ودعوتها ، وحتى انتمائها وعباداتها .

إن الأمر الرئيس الذي تجتمع عليه فرق الشيعة منذ ظهورها هي الإمامة ، وقد أصبحت هذه المسألة هي السبب نفسه في تفرق الشيعة فيما بعد ، بل السبب في تقسيمها عند علماء المسلمين الذين صنفوا الفرق الإسلامية ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه من الذي قال أولاً بنظرية الإمامة ، والإمام الحجة ؟

يذهب معظم العلماء الذين أرخوا لتاريخ ظهور الفرق الإسلامية ، إن أول من أظهر هذه المقالة هو عبد الله بن سبأ اليهودي الذي كان من أهل الفتنة والزيف ، قال الشهرستاني : ((وكان يقول في اليهودية في يوشع بن نون وصي موسى عليهما السلام مثل ما قال في علي رضي الله تعالى عنه ، وهو أول من أظهر القول بالنص بإمامة علي رضي الله عنه ، ومنه تشعبت أصناف الغلاة . .)) . من هذا النص يتضح أن عبد الله بن سبأ لم يكن صاحب المقالة التي أشيعت عنه بالقول بالوهية علي رضي الله عنه فقط ، كما روى ذلك عدد من المؤرخين من كلا الفريقين ، بل المقالة الأخطر بنظرنا ، والتي لقت رواجاً كبيراً فيما بعد ، وكانت الأساس الذي قامت عليه فرق الشيعة ، هي قوله بالنص على إمامة علي رضي الله تعالى عنه ، وبأن الصحابة رضي الله عنهم قد خالفوا وصية النبي صلى الله عليه وسلم ، وحاشاهم من ذلك ، عندما بايعوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وهذا واضح من خلال الروايات المتناثرة التي وردت في كتب الشيعة أنفسهم ، فقد أخرج الإمامية أكثر من رواية تفيد بأن عبد الله بن سبأ كان يدخل على أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه في خلافته مع بعض أصحابه .

ومن هنا رجح الحافظ ابن حزم الظاهري بأن عبد الله بن سبأ قد ادعى الإسلام ، ولم يسلم حقاً : ((ليضل من أمكنه من المسلمين ، فنهج لطائفة ذليلة كانوا يتشيعون في علي رضي الله عنه أن يقولوا بالوهية علي)) ، وليس هذا

كلام العلماء من أهل السنة فقط ، بل هو كلام علماء الشيعة الإمامية أيضاً ، بأن عبد الله بن سبأ اليهودي كان أول من أشهر القول بإمامة علي وسائر أهل بيته ، فقد نقل أكثر من واحد من علمائهم عن الكشي قوله : ((وذكر أهل العلم أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ووالى علياً ، وكان يقول وهو على يهوديته في يوشع بن نون ، فقال في إسلامه في علي مثل ذلك ، وكان [ابن سبأ] أول من أشهر القول بإمامة علي ، وأظهر البراءة من أعدائه ، وكشف مخالفيه وكفرهم ، فمن هنا قال من خالف الشيعة عن أصل التشيع والرفض مأخوذ من اليهود)) .

وهذا النص يبين مقالة خبيثة أخرى أظهرها عبد الله بن سبأ ، وهي البراءة من أعداء علي كرم الله تعالى وجهه ، ويعني بعبارة أخرى البراءة من الصحابة رضي الله عنهم ، لأنهم هم الذين حرموه من حقه ، وهذه المقالة لازالت عند الشيعة الإمامية لهذه اللحظة ! ، فكانت خطة عبد الله بن سبأ ترمي إلى زعزعة احترام المسلمين لخير هذه الأمة بعد نبينا صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يكون قد حقق غرضين من فعلته هذه ، الأولى تفريق المسلمين بعد أن حثهم الله تعالى على التمسك بقوة بهذا الدين وعدم تتبع السبل : [وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] [IO] . والثانية إظهار الطعن بصحابة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبالتالي التشكيك بالإسلام وشرعه ، وهذا يقطع صلة الإلتصال بين المسلمين والصحابة رضي الله عنهم ، ومع شديد الأسف حصل هذا بالفعل ، وانطوى على كثيراً من الناس ممن سلك مسلك التشيع وهو لا يدري بأصله .

ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل تطورت هذه المقالة بشكل يثير الاهتمام والغرابة ، وتلقفتها الأيدي رغم موت ابن سبأ واضمحلال فرقته التي ادعت ألوهية علي رضي الله عنه ، بحيث لعنه أهل البيت كما أورد ذلك الشيعة في كتبهم عن زين العابدين علي بن الحسين قال : ((لعن الله من كذب علينا ، إني ذكرتُ عبد الله بن سبأ فقامت كل شعرة من جسدي ، لقد ادعى أمراً عظيماً ماله لعنه الله ، كان علي لا والله عبداً صالحاً لله أخاً لرسول الله ، ما نال الكرامة

من الله إلا بطاعته لله ولرسوله ، وما نال رسول الله ﷺ وآله الكرامة من الله إلا بطاعته لله)) ، من هذا يتضح تحذير أئمة أهل البيت من هذا الرجل ، ومن كذبه على لسانهم خاصة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وكانوا على علم بما دعى إليه وما انتشر على لسانه من مقالات الزيف والضلال ، ومع ذلك فقد أخذوا هذه المقالات ، وعدوها من الدين ! .

وقد تطورت هذه المقالات التي دعى إليها عبد الله بن سبأ على أيدي كثير من أهل الأهواء الذين وجدوا فيها بئنة خصبة لزرع هذه المقالات من جديد بحيث تكون أكثر إقناعاً وقبولاً ، ومن أشهر هؤلاء هشام بن الحكم الكندي (ت 195هـ) ، وقد وصفه ابن قتيبة وكان معاصراً له : ((كان رافضياً غالباً ، ويقول في الله تعالى بالأقطار والحدود والأشبار وأشياء يتخرج من حكايتها وذكرها لا خفاء على أهل الكلام بها)) ، واشتهرت هذه المقالة عنه وتواترت حتى أصبح لا ينكرها إلا من ينكر القمر ليلة البدر ، قال ابن حزم عن هشام بن الحكم : ((كان من كبار الرافضة ومشاهيرهم وكان مجسماً يزعم أن ربه طوله سبعة أشبار بشبر نفسه ، ويزعم أن علم الله محدث)) ([I4]) ، وهو في نظر الشيعة من أوثق الرجال قال عنه النجاشي : ((كان ثقة في الروايات ، حسن التحقيق بهذا الأمر)) ([I5]) ، ومن الراجح لدينا أن الحكم بن هشام هذا مع آخرين سيأتي ذكرهم قد طور مقالة الإمامة التي أظهرها عبد الله بن سبأ اليهودي ، وبدأ برواية الأخبار عن علماء آل البيت خاصة جعفر الصادق وابنه موسى الكاظم ، وقد أخرج له الكليني أكثر من (134) رواية مباشرة عن هذين الإمامين ويعده الشيعة من مشاهير متكلميهم ، وهو الذي أصل نظرية الإمامة عندهم ، ومن ضمن روايته الشهيرة التي أخرجها الكليني روايته عن الصادق القول بتحريف القرآن وبأن : ((القرآن الذي جاء به جبرئيل ﷺ إلى محمد ﷺ سبعة عشرة ألف آية)) .

ومثل هذا الرجل يجب أن لا يتطرق لروايته الشك عند الشيعة أو التفكير بأن افتعل الأخبار قال العالمي : ((هشام بن الحكم من أصحاب الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام ، قال أصحاب الرجال في حقه : كان ثقة في الرواية حسن التحقيق بهذا الأمر رفيع الشأن عظيم المنزلة . . . وكان ممن فتن الكلام وهذب المذهب بالنظر ، وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب)) ، والعجيب أن الشيعة يعظمون هذا الرجل التعظيم الذي تراه ، مع أنهم يروون في كتبهم ذم علماء أهل البيت له خاصة جعفر الصادق ففي رواية أخرجهما الكليني عن : ((علي بن حمزة قال قلت لأبي عبد الله u سمعت هشام بن الحكم يروي عنكم أن الله جسم صمدي نوري معرفته ضرورة يمن بها على من يشاء من خلقه ، فقال u : سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلا هو [كَمِثْلَهُ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ] ([I8])) ([I9]) ، ففي هذه الرواية تصريح بأن هشام هذا كان يكذب على الصادق ، فكذبه الأخير ، فكيف يحل للشيعة الأخذ عن هذا الرجل وعده من أوثق رجالهم ؟ ! .

وعند العودة إلى علماء أهل السنة ، خاصة من كتب منهم في أقوال الفرق والمقالات ، نجدهم يصنفون فرقة تحمل اسم هشام بن الحكم وهي فرقة (المشامية) أو (الحكمية) التي ادعت إمامة أولاد علي رضي الله عنه انتهاً بالصديق ، وهناك من يقول إلى موسى الكاظم ، وهو التاريخ الذي مات فيه هشام بن الحكم ، وبذلك استطاع هذا الرجل أن يكون له تياراً خاصاً اعتمد عليه من جاء بعده في إثبات نظرية الإمامة بالاعتماد على أسلوب الجدل والكلام الذي اشتهر به ، ليأخذها من بعده صاحبه هشام بن سالم الجواليقي ويواصل ما بدأه أستاذه من تحقيق هدفهم بإتمام ترسيخ مقالة الإمامة وجعلها مضاهية أو مقاربة لمقام النبوة .

والكلام نفسه يمكن قوله على هشام بن الحكم الجواليقي ، الذي وردت الأخبار عند الشيعة في ذمه على لسان الصادق ، فهذا الكليني ينقل مقالة الجواليقي في : ((أن الله تعالى أجوف من الرأس إلى السرة الباقي مصمت ، فخر

[الصادق] لله ساجداً ثم قال : سبحانك ما عرفوك ولا وحدوك ، فمن أجل ذلك وصفوك)) ، ووردت رواية أخرى عند الكليني في ذم الجواليقي عن موسى الكاظم ، وينقل العلماء من أهل السنة هذه المقالات نفسها عن هشام الجواليقي ، وإنما قدمنا النقل من كتبهم ليتضح الحق من الباطل ، وإلى هشام بن الحكم تنسب فرقة من الشيعة هي فرقة الهشامية أو الجواليقية .

وعلى كل حال لا يمكن أن نتطرق إلى كل من قال بالإمامة من رواة الشيعة من أمثال زرارة بن أعين الذي تنسب إليه الزرارية من فرق الشيعة ، وشيطان الطاق الذي تنسب إليه فرقة الشيطانية ، مما سيأتي الآوسي على ذكره ، لأن هذا بحاجة إلى بحث معمق ومستقل ، ولكن الذي نريد أن نبينه أن هؤلاء الرواة كانوا قد وقفوا في إمامة عدد من الأئمة ، ولا ضير عند الشيعة الإمامية في النقل عنهم إذا لم تكن هذه الروايات توافق مذهبهم [24] ، إلا أن هؤلاء القوم هم الذين حملوا على عاتقهم تطوير مقالة ابن سبأ من حصر الإمامة بعلي بن أبي طالب إلى مسائل أخرى مثل القول بالحجة والعصمة .

وتدرجياً بدأت ترسخ فكرة الإمامة عند الشيعة على اختلاف فرقهم ، مع عدم تعيين أيأ من الأئمة ، وكان الهدف من ذلك تغذية الجوانب كافة ، وعدم تحديد اتجاه معين ، لكي يقع الاختيار على المقالة التي يمكن أن تعيش طويلاً وتفرع منها شجرة خبيثة التي بدأت تتلفها أيدي المنافقين ، وتشذبها حتى ظهرت مقالة قريبة منها ، وهي أن الإمامة هي بمنزلة النبوة ، بل تزيد عليها ، لأن الأرض قد تخلو من نبي ولكنها لا يمكن أن تخلو من إمام كما روي فيما بعد في كتب الإمامية عن جعفر الصادق : ((لم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة الله ظاهر مشهور ، أو غائب مستور ، ولا يخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة الله فيها ، ولما ذلك لما عيد الله ، قال سليمان [راوي القصة] فقلت للصادق ما فكيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور ؟ قال : كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب)) ، فإذن

وظيفة الإمام لا تنحصر في وظيفة البلاغ المبين ، بل هو حجة الله تعالى على خلقه رغم أن ذلك يعارض القرآن الكريم قال تعالى : [قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ] [26] وقال أيضاً : [لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ] [27] .

والناظر لتطور نظرية الإمامة عند الشيعة يجدها غير واضحة المعالم ، في الوقت نفسه الذي اختلفت فيه تفاصيل الإيمان بها عند فرق الشيعة المختلفة ، وفي تحديد الإمام الواجب الاتباع ، وإن ذهبت أغلبية الشيعة إلى القول بإمامة البيت العلوي ، وبالتحديد إمامة الفاطميين ، بل اصبح هذا النسب محط أنظار الطامعين في الوصول للسلطة ، مثل العبيديين الذين ادعوا النسب الفاطمي ، رغم أنهم لا يمتون بصلته إليه .

والإمامة عند الشيعة قد تطورت مع مرور الوقت ، حتى أصبحت فرق الشيعة تتنافس لكسب الأعوان ووصل بها الأمر إلى أن تكفّر بعضها بعضاً ، فالإمامية الذين يقولون بإمامة موسى الكاظم بعد جعفر الصادق يكفرون الإسماعيلية الذين قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، بل يكفرون عدد من رجال البيت الطاهر مثل تكفيرهم جعفر بن موسى الكاظم لأنه أنكر أن يكون لأخيه ولد ، فكفروه ولقبوه بالكذاب لهذا السبب ، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى ، وليس هذا الأمر مهماً بقدر اعترافهم بأن منكر الإمامة من أي جماعة كان أو فرقة يعد كافراً يستحق الخلود في النار كما قال شيخهم المضر الذي يسمونه بـ (المفيد) : ((اتفقت الإمامية على كفر من أنكر إمامة أحد الأئمة ، وجحد ما أوجب الله تعالى له فرض إطاعته فهو كافر ضال مستحق الخلود في النار)) ،

وكانت هذه الخطوة التالية عند الإمامية في سبيل تثبيت هذه العقيدة في صدور اتباعهم ، والتأكيد على مخالفة جمهور المسلمين عندما عدوا الإيمان بالإمامة من شروط الإيمان ، وجاهد ذلك كافر مخلد في النار ، وبتقديري فإن هذا الانحراف الخطير في فهم الإمامة عند الشيعة قد جاء في وقت متأخر عن عصر الأئمة الذين يدعون اتباعهم ، فليس

هناك رواية مبكرة تثبت بأن الإمامة من ضروريات الإيمان في كتب الشيعة المبكرة خاصة عند الكليني ، والذي ابتدع ذلك في عقيدتهم ابن بابويه القمي وتلميذه المضر (المفيد) ، كما هو واضح من كلام الأخير الذي يقول فيه :

((اتفقت الإمامية على أن الإمامة بعد النبي ﷺ في بني هاشم ، ثم في علي والحسن والحسين ، ومن بعده في ولد الحسين ^u دون ولد الحسن إلى آخر العالم ، واتفقت الإمامية على أن رسول الله استخلف أمير المؤمنين ^u في حياته ، ونص عليه بالإمامة بعد وفاته ، وإن من دفع ذلك عنه دفع فرضاً من الدين)) .

ولشدة تطرف التفكير في عقيدة الشيعة الإمامية فإنهم لم يكتفوا بما أضفوه على الإمامة من غلو ، فكان لا بد من إضافة شيء آخر يكون أكثر تطميناً لأعوانهم وهو القول بعصمة الأئمة الاثني عشرية ، وهذا ينفعهم في عد قول الإمام مساوياً لقول الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وفق مقياس العصمة ، قال شيخهم الصدوق ، وهو كذوب :

((يجب أن يعلم أهل كل زمان أن الله هو الذي لا يخلفهم في كل زمان من إمام معصوم ، فمن عبد رباً لم يقم لهم حجة ، فإنما عبد غير الله عز وجل)) ، إن هذا التقديس الغير متناهٍ للإمام لم يكن حياً لأهل البيت من قبل هؤلاء الرجال الذين يفترون على الله الكذب ، وإنما كان للتقول عليهم كيفما شاءوا وبما أرادوا ، حتى تكون لهم الطاعة العمياء للمفتونين بهم ، فيجب أن يؤمن هؤلاء بأن الإمام عند الإمامية : ((معصوم من الذنوب كلها صغيرها وكبيرها ، لا يزل في الفتيا ولا يخطئ في الجواب ، ولا يسهو ولا ينسى ولا يلهو بشيء من أمر الدنيا)) ، والعجيب أن أياً من أولئك الأئمة لم يصرح بعصمته أو إمامته تصریحاً يعول عليه في كتب الشيعة أنفسهم ، ولم يسع إلى الإمامة سعياً يفهم منه أنها وظيفة إلهية لا تجوز لغيره ، وإنما فعلوا عكس ذلك كما روى الشيعة في كتبهم ونقلوه عنهم ، كما اخرج الكليني عن علي ^t أنه قال لأصحابه : ((لا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل ، فإنني لست آمن أن أخطئ)) ، والإمام كما نفى عن نفسه العصمة ، نفى عن نفسه الإمامة بعد موت الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كما في (نهج

البلاغة) : ((إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى ، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى)) ، وهذا هو الحق الذي آمن به علي t وآمن به أهل البيت من بعده كما آمن به الصحابة الآخرين ، ويؤمن به المسلمون في كل عصر وزمان .

من خلال ذلك يتضح أن الإمامة كما يفهما الإمامية لا تختلف عن الفرق الشيعية الأخرى ، من حيث الاعتقاد بالعصمة والإمامة ، وقد ظهرت عندهم متأخرة عن الفرق الشيعية المبكرة الأخرى مثل الزيدية والإسماعيلية ، ولم ترد تسمية الاثني عشرية عند الأشعري في كتابه عن مقالات الإسلاميين ، وقد وردت لأول مرة عند البغدادي (ت 423 هـ) هو أول من حدد مفهوم هذا المصطلح الذي تبلور في نهاية القرن الرابع الهجري ، وليس قبل ذلك ، ولذلك ربما انتسب الإمامية الآن إلى جعفر الصادق فيقولون نحن جعفرية أو موسوية كما هو الحال لكثير من عوام الشيعة في العراق ، لأن هذا المصطلح سبق المصطلح الأول بعقود عديدة ، ولا يترك ما يقوله الإمامية الاثني عشرية من كونهم أقدم دعاة التشيع ، لأن هذا مجرد كلام ليس له قرائن تاريخية شاهدة على مدعاهم ، وإنما هي دعوى لا دليل عليها كما فضل ذلك الآلوسي الحفيد : ((وادعاء كل منهم التواتر على مزعوماتهم وهو أن يستدل بذلك على كذبهم وافتراءهم ، إذ لو تواتر خبر إحدى فرقهم أيضاً لم يقع الاختلاف بينهم . . . فإن هذه كلها افتراءات لهم قرروا - على وفق مصلحة الوقت - إماماً بزعمهم وأخذوا يدعون إليه ليأخذوا بهذه الذريعة الخمس والندور والتحف والهدايا من اتباعهم باسم إمامهم المزعوم ، ويتعيشوا بها ، ومتأخروهم قد قلدوا الأوائل بلا دليل ، وسقطوا في ورطة الضلال ، إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون))

دراسة نقدية للإمامة عند الشيعة الإثني عشرية

نحاول في هذه الدراسة إيجاز نشأة وتطور فكرة الإمامة عند مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية ووضعها في إطارها التاريخي بعيدا عن دوغما العقيدة الإثني عشرية.

تؤمن الشيعة بالإمامة، وهي "القيادة السياسية الدينية"، ويرى جمهور الإمامية الإثني عشرية أن منكر الإمامة خارج عن الدين وهو كافر حقيقة، ومحروم من النجاة والسعادة يوم القيامة، وإلى ذلك ذهب الشيخ الصدوق والشيخ المفيد والشيخ الطوسي ونور الله التستري والبحراني صاحب الحدائق ومحمد حسن المظفر وباقر النجفي والمرعشي النجفي وغيرهم كثير، وخالف في ذلك البعض فرأى أنها من اصول المذهب لا من اصول الدين منهم كاشف الغطاء والإمام الخميني والشهيد مطهري والسيد الطباطبائي.

فكيف تطورت فكرة الإمامة تاريخيا حتى وصلت إلى العقيدة التي تتطلب الايمان بإثني عشر إماما؟، وما هي أهم الإشكاليات في معتقد الإمامة عند الشيعة الإثني عشرية؟، هذا ما نحاول هذه الدراسة إيجازه.

بداية كان للأئمة نواب في الأماكن التي يوجد فيها الشيعة يهتمون بأمرهم ويجبون الأموال منهم وهو ما تحصل النزاعات بينهم بسببه عادة حتى أن بعضهم كان يزعم الغيبة للإمام بعد موته تهربا من دفع الأموال التي جمعها لمن تصدى للإمامة بعده. وكان الشيعة يعملون بسرية تامة خوفا من مراقبة الحكومات، ويتفق المؤرخ د. جواد علي مع شتروتمان أنه لم يكن هنالك أئمة حقيقيين بل كانت السلطة المطلقة بيد الوكلاء، ويرى جواد علي أن اختلاف وتضارب روايات أتباع الوكلاء وأصدقاء الإمام يرجع إلى تلك النزاعات مما أورث التعارض في جميع تراجم الشخصيات الشيعية المهمة، كما

يذكر أن الأئمة لم يقوموا بعد الحسين بالعمل السياسي وقد بايعوا الخليفة وأن جميع الأئمة بعد جعفر الصادق قد ابتعدوا عن السياسة وعن الناس باستثناء علي الرضا الذي لم يطلب ذلك بل اختاره المأمون خليفة له .

ومهما يكن هنالك من إشكالات في فرضية وجود الإمام ومعرفة وعرفته وعملية التواصل معه فإن الشيعة يؤمنون بوجوب معرفة الإمام وطاعته وأنه يكون من نسل علي بن أبي طالب وفاطمة ابنة نبي الإسلام اعتمادا على نصوص مروية عن نبي الإسلام منها "تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا كتاب الله وعترتي" وحديث "أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي من بعدي" وحديث "من كنت مولاه فهذا علي مولاه...". ولهذا الحديث زيادة عند الشيعة غير معتمدة عند أهل السنة، وتبحث الإمامية دوما عن الإمام المعصوم في نسل الحسين والذي يعرف عند الإمامية بالنص عليه، وتعتمد الشيعة الإمامية في إثبات العصمة بصورة أساسية على ما يعتبره متكلموهم "أدلة عقلية" لا حاجة للاطالة في الحديث عنها فالواقع يبطلها كما سيأتي، وهم بتلك "الأدلة" علاوة على النصوص الموجبة للتمسك بعتره نبي الإسلام يردون دعوى أهل السنة وغيرهم ممن قال بالخلافة وأنهم يقومون بالخليفة إن لم يطع الله والرسول معتمدين في فهمهم للدين على تفاسيرهم المختلفة لنصوص القرآن والسنة واختراعاتهم المتمثلة باصول الفقه وما يدعى بعلم الحديث والتي هي بدورها غير معصومة أيضا ومبنية على الظن الذي أجازوه بذرائع واهية كما بينا بعضها في موضوع بن شعار الإسلام هو الحل وحقيقة الإسلام السني، وهذه الاختراعات لم تكن موجودة عند الشيعة الإمامية في فترتهم المبكرة فقد استغنوا عنها حسب اعتقادهم بالإمام المعصوم الذي يغنيهم عن تلك الوسائل، لكنهم سيضطرون إلى اللجوء إليها لاحقا بعد فترة من موت الحسن العسكري دون ولد أو غياب ابنه حسب اعتقادهم وكما سيأتي .

يظهر من تتبع معتقدات فرق الشيعة في الفترة المبكرة أن النص على اثني عشر إماما لم يكن له ذكر عندهم مما يوحي أنه لم يُروا أو لم يثبت عن أئمتهم في تلك الفترة رغم أننا نجد نصا مقاربا في حديث أهل السنة لا سيما لفظ البخاري للنص المروي عن نبي الإسلام وهو "سيأتي بعدي اثنا عشر أميرا كلهم من قریش" (في لفظ رواية مسلم "اثنا عشر خليفة") ، ويظهر أن الفكرة تقليد للنقباء الإثني عشر لبني إسرائيل الذين أشار إليهم القرآن على سبيل المثال في قوله "ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا" (المائدة / 12)، أو لحواريي المسيح الإثني عشر، لكن أهل السنة لم يجرؤوا على الاعتراف بأنه تقليد مقبس بشكل يكاد يكون حرفيا من اليهودية أو المسيحية ووجد طريقه إلى أصحاب كتابين عندهم بعد القرآن مع كل الإحتفاء به من قبل الشيعة الإثني عشرية رغم أن الأخيرين لم يستخدموه في تأريخهم المبكر كما سيأتي بيانه ولم يلجأوا إليه إلا لقدرته على حل إشكال موت إمامهم الحادي عشر دون ولد، مع حل مشكلة تطابق العدد باختراع شخصية الإمام الثاني عشر وغيبته.

ويظهر اختلاف الشيعة الإمامية بعد موت الإمام عادة في كتب الفرق ومنها كتاب "فرق الشيعة" للشيعة الإمامي الحسن بن موسى النونجي (الذي توفي بين 300-310 هـ حسب جواد علي)، ومطالعة نجد أنه يؤيد ما يذهب إليه الباحث أحمد الكاتب من أن الشيعة الإمامية كانوا يتحدثون في القرن الثاني والثالث الهجري عن استمرار الإمامة إلى يوم القيامة وعدم تحديد عدد الأئمة برقم معين ، مما يبين أن تحديد عدد الأئمة باثني عشر قد تم اختراعه مؤخرا عند الإمامية ووُضعت الأخبار في ذلك عندهم، وهذا لا يعني أن فكرة القائم المهدي لم تكن قد دخلت إلى الإسلام قبل ذلك لكن العدد "اثني عشر" لم يكن له ذكر بل كان المعبر أن الإمام ينص على الذي بعده حتى إن الشيخ الصدوق يبيّن اعتقاده بصحة روايات الإمامية التي نصت على اثني عشر إماما على تأييد روايات أهل السنة لها .

أما عن الكتب التي ذكرت روايات توصية الإمام لشخص السفراء لتولي تلك المهمة فيعترف رجل الدين الشيعي كاشف الغطاء أنها من أخبار الآحاد لكنه يزعم أنها "أمانة بحيث يمكن إقامة رأي علمي عليها دون حرج" لكن جواد علي يشير إلى أن هنالك روايات متناقضة في تلك الكتب حول هذا الأمر منها ما يذكر أن أم الإمام الحادي عشر هي النائب عن الإمام الثاني عشر. وقد تعرض المعتقد الشيعي الإمامي لمصاعب كثيرة عبر التاريخ فمثلاً يذكر النونجي أن أبا عبد الله جعفر بن محمد قد أوصى لابنه اسماعيل بالإمامة فمات اسماعيل في حياته فارتدت جماعة من أصحابه وقالوا عن جعفر "كذبنا ولم يكن إماماً لأن الإمام لا يكذب ولا يقول ما لا يكون"، ورووا أنه قال مبرراً موت اسماعيل رغم تسميته له إماماً "إن الله بدا له في أمر اسماعيل" فرفض بعض أصحاب أبي جعفر محمد بن علي القول بالبداء ومالوا إلى مقالة سليمان بن جرير الذي أشار لأصحابه إلى أن أئمة الرافضة يلجأون إلى القول بالبداء لتبرير ما يقع من خطأ في تنبؤهم لما يكون في المستقبل وإلى إجازة التقيّة لتبرير نسيان فتاوهم السابقة والقول بخلافها، وقد انقسمت شيعته بعده إلى ست فرق منها فرقة لم تعتقد بموته تدعى الناووسية قالت إنه سيظهر ويولي أمر الناس وهو القائم المهدي، ومنها فرقة قالت بإمامة عبد الله بن جعفر الأفطح الذي مات دون ولد فانضموا لمن قال قبلهم بإمامة موسى بن جعفر. وادعت القرامطة أن محمد بن اسماعيل بن جعفر هو الإمام القائم المهدي.

وبعد موت موسى بن جعفر في سجن الرشيد اختلفت شيعته إلى خمس فرق نذكر منها فرقتين، فرقة قالت أنه لم يمت ولا يموت حتى يملك شرق الأرض وغربها ويملاها عدلاً كما ملئت جوراً وأنه القائم المهدي ورووا عن أبيه جعفر روايات تؤيد ذلك، وفرقة قالت بإمامة علي بن موسى الرضا، ومات الرضا وتفرقت أتباعه من بعده فقد كان أكبر عمر أبنائه وإسمه محمد سبع سنين وكان قد تركه إلى خراسان وعمره أربع سنين وأشهر، لذا رجعت فرقة إلى القول بالوقف وذهبت الأخرى إلى إمامة أحمد بن موسى. (4) لكن فرقاً أخرى من الشيعة رأت أن الإمامة لا ترتبط بسن معينة

وهو ما قد يستغربه المتدينون المخالفون للشيعة كأهل السنة ويتساءلون عن كيفية إنهاء طفل عمره أربع سنوات للتعلم من الإمام الذي قبله أو بإلغام من الله مباشرة ، غير أن أهل السنة كالشيعة لا يرون إشكالا في الإيمان بأسطورة مقاربة هي كلام عيسى في المهدي رغم عدم اعتماد المسيحيين أنفسهم لانجيل الطفولة الذي ذكرها وعدم إيمانهم بها بل بأساطير أخرى مثل إحياء يسوع المسيح للموتى وإبرائه الأكمه والأبرص التي لا يستغربونها هم ولا المسلمون لمجرد ذكرها في كتب يقدسونها .

ونعود إلى سلسلة الأئمة، فبعد محمد بن علي بن موسى، صارت الإمامة إلى ابنه ووصيه علي بن محمد بن علي بن موسى (أبو "الحسن العسكري") فلما توفي اختلفوا إلى فرق منها فرقة تضم كثيرا من أصحابه ذهبت إلى إمامة ابنه الحسن العسكري الذي هو الإمام الحادي عشر عند الإثني عشرية وكانت الصدمة حين مات الحسن العسكري (عام 260 هـ) دون ولد فاختلفوا إلى فرق يعد منها النوبختي ثلاثة عشر فرقة فمنهم من قال إنه لم يمت لكنه غاب وإنه القائم، معتبرين أنه لا يجوز للإمام أن يموت ولا ولد له ولا خلف معروف ظاهر قالوا فنحن مضطرون للوقوف عليه لأن الأرض لا تخلو من إمام فلا بد أنه غائب!، وفرقة ثانية قالت بنحو ذلك غير أنها صدقت بموته وبأنه حي بعد الموت، وفرقة ثالثة قالت بموته وزعموا أن الحسن قد أوصى بإمامة أخيه جعفر من بعده رغم كل العداوات بينهما في حياتهما ورجعوا عن قولهم في منع وصية الأخ لأخيه وأن الإمامة يجب أن تكون في عقب الإمام بعد الحسين، وفرقة رابعة رجعت عن الاعتقاد بإمامة الحسن وادعت بطلانه لأنه لا خلف له وقالت بإمامة جعفر من طريق أبيه حيث أنكروا أنه يجوز حسب قول جعفر بن محمد وغيره من أئمتهم أن تكون الإمامة بين أخوين بعد الحسن والحسين، أما الخامسة فلم تجد مهربا من الصفات الذميمة لجعفر الذي هو ظاهر الفسق ولا من عدم وجود خلف للحسن إلا بإنكار النص على أي منهما والقول بأن الإمامة لمحمد بن علي الذي مات في عهد أبيه لأن له عقب معروف قالوا ولا مناص عن ذلك

سوى بطلان الإمامة أصلا وهو ما لا يجوز، والفرقة السادسة تفرض له ولدا "اسمه محمد" للخروج من المأزق متمسكين بأن إمامة الحسن ووصيته ثابتة ولا يمكن التراجع عنها وبالتالي لا بد له من خلف ومن إمامة هذا الولد وبرروا اختفاءه بالتقية خوفا من عمه جعفر وغيره من أعدائه! وأنه في إحدى غيباته وأنه هو الإمام القائم وزعموا أنه عرف في حياة أبيه وأنه قد نص عليه، بينما كذبتهم الفرقة السابعة في دعوى وجوده أثناء حياة الحسن فقالوا أن ذلك لا يخفى وأن الولد لا بد أنه وُلد بعد موت الحسن بشمانية أشهر وأنكرت ذلك الفرقة الثامنة وقالت لا ولد للحسن أصلا، قالوا "لأننا قد امتحنا ذلك وطلبناه بكل وجه فلم نجد، ولو جاز لنا أن نقول في مثل الحسن وقد توفي ولا ولد له أن له ولدا لجازت مثل هذه الدعوى في كل ميت عن غير خلف ولجاز ذلك في النبي لأن مجيء الخبر بوفاة الحسن بلا عقب كمجيء الخبر بأن النبي لم يخلف ذكرا من صلبه فالولد قد بطل لا محالة ومع ذلك فهناك حبل قائم فإنه لا يجوز أن يمضي الإمام ولا خلف له فتبطل الإمامة وتخلو الأرض من الحجة"، وُرد عليهم بأن الحبل لا يكون أكثر من تسعة أشهر وأن الحبل الذي ادعوه قد مضى عليه سنون ولا بينة على قولهم، وقالت التاسعة إن وفاة الحسن قد صحت لكثرة المشاهدين لموته وتواتر ذلك عن أوليائه وأعدائه كما صح بمثل ذلك أن لا خلف له، وأن الإمامة قد انقطعت بعد الإمام الحادي عشر الحسن العسكري "كما انقطعت النبوة من قبله وزعموا أنه ليس في قولهم هذا بطلان الإمامة، وكذلك لم تزعم ثلاثة فرق أخرى أن للحسن العسكري ولدا، فقالت إحدى تلك الثلاثة إن الأمر قد اشتبه علينا وقد كثر الاختلاف وإن الأرض لا تخلو من حجة ونحن "توقف ولا تقدم على القول بإمام بعده إذ لم يصح عندنا أن له خلفا وخفي علينا أمره حتى يصح لنا الأمر ويتبين".

وأخيرا يذكر الكاتب رأي فرقة يصفها بأنها "الشيعة الإمامية الصحيحة التشيع" وأنها تمثل المأثور عن الأئمة، وهو أن الإمامة بعد الحسن والحسين لا يجوز أن تكون في الأخوين وأنها في عقب الحسن بن علي (العسكري) "إلى فناء الخلق

واقطاع أمر الله ونهيه ورفع التكليف عن عباده متصلًا ذلك ما اتصلت أمور الله" وأن الأرض لو خلت من حجة
لساخت هي ومن عليها، وهم مؤمنون بأن للحسن (العسكري) خلفًا من صلبه سيظهر ويعلن أمره كما فعل نبي
الإسلام في بداية أمره في مرحلة الدعوة السرية في مكة حيث "ترك إظهار النبوة التي هي أجل وأعظم من
الإمامة" . . . انتهى الإقتباس من كتاب "فرق الشيعة".

والآن نلخص أهم ما نفهمه من هذا الكلام :

- 1- أنه لا وجود لأي نص على إثني عشر إمامًا مما يدل على أن الأخبار التي يرويها الإثنا عشرية اليوم موضوعة،
وُضعت ثم اشتهرت بعد الغيبة الصغرى عندما رأى الناس عدم ظهور ذلك الإمام.
 - 2- أن الشيعة الإمامية كانت ترى استمرار الإمامة إلى يوم القيامة مما يؤكد رفض أي عدد محدد للأئمة.
 - 3- أن الاعتقاد بوجود ولد للإمام الحسن العسكري كان مسألة إيمانية عقائدية لا دليل تاريخي عليها .
 - 4- أن الاعتقاد كان سائدًا بين من اعتقد بالغيبة أن الغيبة لن تطول حتى أنهم يستدلون على جواز غيبة الإمام بزمن
الدعوة السرية لنبي الإسلام في مكة!
- وأقصى ما قيل في الفترة بين كل هذه الفرق هو قول الفرقة التاسعة أنها كالفترة المعتبرة بين عيسى ومحمد وهي حوالي
سنة قرون وقد تجاوزت الغيبة اليوم هذه الفترة بأكثر من خمسة قرون، مع ضرورة الإشارة إلى أن هذه الفرقة جوزت
إقطاع الإمامة خلافاً لغيرها من الفرق وتروي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد أن "الأرض لا تخلو من حجة إلا أن
يغضب الله على أهل الأرض بمعاصيهم فيرفع عنهم الحجة إلى وقت" وسيأتي الرد على من يلقي باللائمة على الناس في
غياب الإمام.

وليس من الغريب أن تظهر شائعات بين بعض الشيعة بعد موت إمامهم دون ولد حول وجود ابن "مخفي" لذلك الإمام
أسموه "محمد بن الحسن العسكري" لينتقدوا مذهبهم.

يخبرنا جواد علي أن الحل في ذلك "الوضع المتأزم" بعد موت الإمام الحادي عشر دون ولد عند كثير من الشيعة قد تمثل
بأنه قد كان للإمام ولد، وكان هناك شهود كثيرون على ذلك رأوا الولد، وكان هذا الولد خليفة أبيه، وقد أخفاه الله
خوفا عليه من الخليفة فهو لا يتصل بالناس إلا عن طريق وكيله، ويحدثنا المؤرخ عن الاختلافات بين من أثبت ولدا
للحسن العسكري فعن ولادته كان مقترح أقدم كتب الشيعة الاثني عشرية ذات العلاقة هو عام 255 أو 256 هـ وموضع
واحد يذكر عام 254 هـ، وقد ذكرنا أن الفرقة السابعة في كتاب فرق الشيعة تقول أنه ولد بعد ثمانية أشهر من موت
الحسن، وذهب أبو الحسن الحنصلي (باب النصيرية) أنها عام 257 هـ بينما ذهب آخرون إلى عدم إمكان تحديد سنة
ميلاده والتي لا يذكر الأشعري (324 هـ) مؤلف "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" شيئا عنها، كما أن الكتب في
زمن الغيبة الصغرى لا تحدد زمن إختفاء الإمام ولا مكانه، وقصة الإختفاء في السرداب لم ترد إلا في الكتب المتأخرة.
وحين وشى جعفر أخو الحسن العسكري للخليفة بأن الشيعة يؤمنون بولد للإمام أخفته أمه صيقال، أنكرت أن تكون
قد ولدت لكنها قالت بأنها حامل فوضعت تحت المراقبة لثلاث سنوات دون أن تلد.

لم يجد الإثنا عشرية الأوائل مشكلة أن الإله الإسلامي يأمر الناس باتباع الإمام ويعجز عن حفظه من الناس، لكنهم في
نفس الوقت لم يظنوا أن ذلك الإمام الذي آمنوا بوجوده لن يظهر لأحد عشر قرنا، وبالتالي لم تكن المشكلة نظريا بالحجم
التي هي عليها اليوم عند من يوجب معرفة الإمام وطاعته وهو يجوز غيابه لكل هذه الفترة.

والحاصل أنه قد آمن بعض الشيعة فيما بعد هذه الفترة بوجود هذا "الإمام المخفي" الذي لا دليل على وجوده وأن له
"سفراء أربعة" موثوقون، لكن ذلك المنصب كان يدعيه كثير من النواب الآخرين حيث ينقل الباحث أحمد الكاتب في

كاتبه أسماء أربعة وعشرين شخصا ادعوا نيابتهم عن الإمام الذي أسموه "محمد بن الحسن العسكري" منهم الشيعي والنميري والعبرثاني والحلاج، مما يؤكد أن دعوى النيابة كانت مرجحة فالسفراء كانوا يجمعون مبالغ مالية من الناس مباشرة أو بواسطة الوكلاء أو النواب بدعوى إيصالها للأئمة وبما أنه لا نيابة بدون منوب عنه فإن دعوى السفراء مشاهدة الإمام قد يكون اختلاقا له كوسيلة لتحقيق المنفعة الشخصية لا دليلا على وجوده كما يقول رجال الدين الإثنا عشرية الذين هم بدورهم يبررون بما يدعونه "النيابة العامة" أخذ الخمس من أموال الناس بخلاف المتقدمين منهم كالنفيد والمرضى والطوسي ، والشيعية المتدينون اليوم يدفعون هذا الخمس دون أن يعود عليهم ضمان اجتماعي منه كما هو الحال في الدول التي تحكمها أنظمة ليبرالية اجتماعية أو ديمقراطية اشتراكية.

ومن الشخصيات التي ادعت منصب السفير الثاني حسب ما ينقله جواد علي عن الطوسي هو محمد بن نصير التُميري الفُهري الذي يتبعه النصيرية أوالنميرية الذين يقدسون أيضا الأئمة الإثني عشر، ولديهم معتقدات أخرى كالتناسخ والقول بأن الحسين لم يقتل في كربلاء بل رجل يشبهه كما حصل للمسيح.

ولم يكن أمرا طبيعيا السؤال عن شخص الإمام حيث ينبه جواد علي إلى أن الكتب الشيعة تحرم مجرد ذكر إسم الإمام وأن السفراء كانوا يبررون المنع من ذلك بتعريض الإمام للملاحقة من أعوان الخليفة.

يقول الحسن النوبختي الذي عاش بداية الغيبة الصغرى عند كلامه عن عقيدة فرقة الإمامية مشيرا إلى الإمام:

"ليس للعباد أن يبحثوا عن أمور الله . . . ويطلبوا إظهاره . . . ولا يجوز ذكر اسمه ولا السؤال عن مكانه حتى يؤمر بذلك، إذ هو عليه السلام مغمود خائف مستور بستر الله تعالى وليس علينا البحث عن أمره بل البحث عن ذلك وطلبه أمر محرم ولا يحل لأن في طلب ذلك وإظهار ما ستره الله عنا وكشفه وإعلان أمره والتنويه بإسمه معصية لله

والعون على سفك دمه عليه السلام ودماء شيعته وانتهاك حرمة وفي ستر ذلك والسكون عنه حقها وصيانتها وسلامة ديننا . . . "

ويظهر من ذلك أن تهرب السفراء من إثبات وجود الإمام المزعوم كان أمراً هيناً في ظل هذه العقيدة التي تحرم السؤال عنه بدعوى تعريضه للخطر .

وانتهت فترة الغيبة الصغرى عند الشيعة الإثني عشرية بموت "السفير الرابع" السمرى عام 329 هـ والذي لم يعين سفيراً من بعده ، وكما فعل كثير من الشيعة في تأريخهم عند الوصول إلى طرق مسدودة بعد موت إمامهم أكنفى البعض بأثني عشر إماماً وادعوا غيبة الأخير ووجدوا ضالتهم في تراث الأديان السابقة وتوظيف "النص السنى" عند البخارى ومسلم الذى يتحدث عن اثني عشر إماماً واختلاق نصوص مماثلة .

وهكذا نشأ مذهب الإثني عشرية وأسماها الفترة بين موت الحسن العسكري وموت آخر "السفراء" بـ "الغيبة الصغرى" وما بعد موت السمرى الغيبة الكبرى ووضع رجال الدين الشيعة الأخبار التى تقول بمشاهدة ذلك الإمام وأن المعجزة والكرامة كانت تجري على أيدي السفراء، علماً أن النوبختي الشيعي الإمامي (ت 300-310) لا يذكر في كتاب "فرق الشيعة" شيئاً عن السفراء، وأنه لا دليل على أن الكتب التى تحدثت عن المهدي قبل الغيبة الصغرى تعني الإمام الثاني عشر تحديداً إذ إن فكرة المهدي موجودة قبل ذلك وقد تحدثت الفرق الشيعية المختلفة عن شخصيات أخرى اعتبرتها المهدي والأحاديث التى تذكره عامة غير محددة بشخص معين ولا زال الشيعة الاثني عشرية يعتقدون أن إمامهم موجود لكنه غائب، وما زال بعضهم يردد حتى يومنا هذا أن من أسباب غيابه هو الخوف عليه من العباسيين ! .

أما الأعجب من ذلك عند رجال الدين الشيعة الإثني عشرية هو أنهم ينسون أو بالأحرى يتناسون في معرض تبريرهم لغياب الإمام ما يعتبرونه أدلة على وجوب وجود إمام معصوم فالله حسب زعمهم لا يترك الناس هملا دون إمام معصوم يبين لهم أحكام الشريعة ووجود الإمام المعصوم عندهم لطف من الله واللفظ واجب على الله (يعنون "الوجوب من حيث الحكمة" كما عند المعتزلة).

وفي جواب على استفسار بهذا الخصوص مرسل إلى "مركز الأبحاث العقائدية" يضع الجيب المسؤولية في الغيبة على عاتق الناس المساكين الذين ما زالوا ينتظرون قدوم الإمام المزعوم كل هذه الفترة فيقول:

"أنه لما لم تكن العلة في الغيبة على عاتقه عليه السلام فالمسؤولية في هذا المجال تبقى مع الناس لو كانت المصالح تقتضي - ومنها تلقي الوسط العام من المجتمع قبول الإمام "عليه السلام" لما استمرت الغيبة طوال هذه الفترة المديدة ، وهذا معنى كلام بعض العلماء "رحمهم الله" "وجوده لطف وتصرفه لطف آخر وعدمه منا"

أقول: حتى لو سلمنا جدلا بعدم وجود قبول عام من المجتمع فإن ذلك لا يرد دعوى عدم وجود إمام معصوم بل يعطي سببا آخر يقوي تلك الدعوى فالمسلمون ليسوا فقط مستغنين عن إمام معصوم بل هم لا يستحقونه أو لا يريدونه أصلا! فهو قد أثبت الاعتراض على مذهبه من حيث أراد نفيه!

ثم يتذرع لغياب الإمام بأن هذه الأدلة التي يطرحونها عند محاولة الاستدلال على ضرورة وجود إمام معصوم "تأخذ على عاتقها اثبات وجود الامام في الكون" (6) وكان الناس الذين يريد متكلموا الإمامية الاستدلال على وجوب تدليلهم على مصالحتهم وتعريفهم بالأحكام الشرعية يسكنون في مجموعة شمسية أخرى في مجرتنا أو ربما في إحدى المجرات السحيقة!

ثم يهرب الجيب من "الهداية التشريعية" التي "تعلق بالأمور التشريعية من الاعتقادات الحقة والأعمال الصالحة" وهي طبعا الوحيدة التي يمكن التحقق منها والذي يظهر جليا عدمه بعدم وجود إمام، وينتقل منها إلى الوظيفة الثانية للإمام عنده وهي "الهداية التكوينية" والتي هي "إراءة الطريق وسوق الكائنات إلى ما ينبغي لها من الكمال كل مجسبه"، فالعالم من دون الإمام برأي بعضهم "يضطرب ويختل توازنه" مستدلا بما ورد في حديث أن "الأرض من دون الإمام تسيخ بأهلها"

وطبعا نحن كلابدنيين واثقون بأنه لا الله هو المسؤول عن توازن الكون ولا بعض الأئمة بل نعلم أن الجاذبية تعمل حسب الاصول وفق قانون الجذب العام الذي اكتشفه نيوتن دون الحاجة إلى أي من المذكورين أعلاه، كما إنه من الواضح أن فرضية الهداية التكوينية مبنية على النقل والإيمان الصرف فكيف يستدل على وجوب وجود إمام غائب بفرضية واضحة البطلان.

وإذا كان من الممكن للإمامية الذين عاشوا بعد الغيبة بفترة قصيرة أن ينتظروا بدون إمام دون أن تنتهي صلاحية أدلتهم على وجوب وجوده فإن طول هذه الفترة لقرون طويلة تتجاوز المدة بين نبي الاسلام وعيسى (أو يسوع) هو أكبر دليل على بطلان دعواهم.

ومن الغريب أن يجوز بعض الشيعة اختفاء إمامهم بناءً على اختفاء عيسى عند المسيحيين فالمسيحية لا تؤمن بوجود وجود من يدل الناس على مصالحهم ومنافعهم ويبين لهم الأحكام الشرعية كما تقول الإمامية.

أما بالنسبة لاختراع "النبأ العامة" و"ولاية الفقيه" فهو ليس إلا التفاف على فكرة ضرورة وجود إمام معصوم(3)، فإن جاز حسب زعم بعض الشيعة المتأخرين نيابة الفقهاء لقرون طويلة عن الإمام وهم غير معصومين دل ذلك على بطلان ضرورة وجود إمام معصوم في كل زمان وأن تركهم دونه جائز الوقوع وبالتالي جائز على الإله الذي يؤمنون به .

وعملها مرة أخرى نرى الشيعة الإثني عشرية قد واجهت نفس المشكلة التي واجهها من لا يؤمن بالإمامة فسلوكوا بعد عصر الغيبة سلوكا مشابها لسلوك أهل السنة قبلهم في القرن الثاني من حيث الحاجة إلى الإجتهد بسبب عجز النصوص الدينية عن الإيفاء بالمستجدات، فظهر "الاصوليون" من الشيعة الإمامية الذين تأثروا بعقائد المعتزلة بعد أن طال الزمان واختلفت الروايات الموجودة في كتب الحديث عند الشيعة عن أئمتهم بين الجبر والإختيار مثلا، فكان أصحاب جعفر بن محمد يلعن بعضهم بعضا فمنهم من يرى الجبر ومنهم من يرى الإختيار، ولم تكن هذه هي المسألة الفقهية أو الكلامية الوحيدة التي اختلفوا حولها بل كان "الإنقسام سمة علم التوحيد الشيعي" قبل الغيبة حسب تعبير جواد علي الذي يرى أنه لم تكن هنالك سوى الإيمان بالإمامة عقيدة موحدة عند الإمامية قبل الغيبة الصغرى كما لم تكن هنالك عقيدة موحدة في علم التوحيد بعد موت النبي عليه السلام، ويُلاحظ الشبه مع عقائد المعتزلة في اصول الدين كما صاغها الشيخ المفيد (413هـ) بنقاطها الخمسة في اشتراكها مع المعتزلة في الأصلين الأولين (التوحيد والعدل) .

ومن الأمثلة عن ما يروى من اختلاف رأي أصحاب جعفر بن محمد (الملقب بالصادق) في العقائد عن الذي ساد عند الإمامية فيما بعد هو أن زرارة بن أعين قد اتهم بالتشبيه وبأنه كان يرى أن الله جسم صلب، وكذلك كان هشام بن سالم الجواليقي يقول بالتشبيه . وقد روي أن هشام بن الحكم كان مشبها أيضا ومن روى ذلك من الشيعة المتقدمين الحسن بن موسى النونجي .

بدأت فرقة الاصوليين بعد الغيبة الصغرى بمعالجة مشكلة عجز النصوص الدينية عن تلبية المستجدات باختراعات مشابهة إلى حد ما لما وجد قبل ذلك عند الاصوليين من أهل السنة كوسيلة لحل المشكلة ذاتها حيث استخدم الحسين بن عقيل العملي وابن الجنيد مناهج المتكلمين ومصطلحات علم الكلام، ورغم الرفض الذي لاقاه عمل ابن الجنيد بالقياس فقد لقي مذهب الاصوليين الذي أسس للإجتihad عند الإمامية دعماً من المفيد والمرتضى وبدأ هذا المذهب يسود، ثم ظهر الإجماع عند الإثني عشرية على يدي تلميذي المفيد (المرتضى 436هـ) والطوسي (460هـ) وهو ما يكون دليلاً على الحكم الشرعي، بمعنى أنه كاشف عن قول المعصوم (5) إلا أن الإماميين قد يختلفون أحياناً في ما يمكن أن يكون كاشفاً عن قول المعصوم فمثلاً يمنع الاصوليون من الإمامية تقليد المرجع الميت ابتداءً معتمدين على إجماع يعتبره السيد ياسر إبراهيم غير صالح لأن يكون كاشفاً عن قول المعصوم، وتطور مفهوم "العقل" في أصول الفقه بعد المفيد حتى نص عليه محمد بن أحمد بن إدريس (598هـ) كدليل شرعي والتي أصبحت بذلك أربعة هي الكتاب والسنة والإجماع والعقل وعرف دليل العقل بعد ذلك المحقق الحلي (676هـ) بأنه لحن الخطاب وفحوى الخطاب ودليل الخطاب، وما ينفرد العقل بالدلالة عليه ويحصره -حسب المظفر- في وجوه الحسن والقبح. لكن الشيخ المظفر احتار في ما أراده المتقدمون من الإمامية الاصولية بدليل العقل فابن إدريس لم يشرحه وبعض الذين أتوا بعده يضيفون إليه أموراً كالبراءة الأصلية والاستصحاب أو يطرحون منه، أما المظفر نفسه فيقسم دليل العقل إلى حكم العقل بالحسن والقبح وحكم العقل بالملازمة بين حكم الشرع وحكم آخر، ويعرفه بأنه "كل حكم عقلي يتوصل به إلى الحكم الشرعي"، وحسب الكاتب يحيى محمد السوداني فإن الإخباريين قد نجحوا في النهاية في جعل الإمامية تتخلى عن فكرة أن العقل كاشف عن الحكم الشرعي.

ويرى جواد علي أن القياس هو جزء من دليل العقل أو هو نفسه تحت مسمى آخر ورغم ذلك يرفض الإثني عشرية اللفظ الأول ويقبلون اللفظ الثاني فهل هذا صحيح؟

في رد على مثل هذا السؤال حول الفرق بين القياس ودليل العقل يرد أحد رجال الدين الإثني عشرية بالقول أن "القياس قسمان، منطقي صحيح وشرعي ظني لا يجوز كما عند أهل السنة باستثناء منصوص العلة".

وأقول إن القياس المنطقي إما أن تدخل في مقدمته علة منصوص عليها شرعا وهذا قليل جدا لا يكفي للوقائع المستجدة، أو تكون غير منصوص عليها فيكون حكما بالعقل ابتداءً أي استقلال العقل بالحكم وجعله حجة على الحكم الشرعي وهي تهمة الإخباريين (الذين يرفضون دليل العقل) والتي ينأى الأصوليون المتأخرون بأنفسهم عنها كما نقلنا عن السوداني وكما هو عند الشيخ المظفر الذي يرى أنه لا يمكن أن يستقل العقل بإدراك الأحكام الشرعية ابتداء بل هو حجة يتوصل به إلى الحكم الشرعي، وموقفهم هذا ليس غريبا لأن الحكم بالعقل ابتداءً هو حكم لاديني يوضح عدم الحاجة إلى الشرع والدين أصلا، أو بتعبير بعض الإخباريين من الإمامية "بطلان إرسال الرسل وإنزال الكتب" أما الأصولية من الإمامية اليوم فكيف يزعم بعضهم الحكم فيما يستجد من الامور باستعمال دليل العقل دون الحكم بالعقل ابتداءً مع زعمهم التوصل إلى الحكم الشرعي دون استعمال القياس، وليس هنالك سواهما؟!

يقول المظفر "إننا نقصد من الدليل العقلي حكم العقل النظري بالملزمة بين الحكم الثابت شرعا أو عقلا وبين حكم شرعي آخر" وأقول هذا لا يكون إلا بإثبات حكم الأصل للفرع لاشتراكهما في العلة والذي هو القياس عند أهل السنة، وبالفعل لم يستطع الشيخ المظفر أن ينتهي من شرحه لدليل العقل إلا باستخدام كلمة القياس بقوله "فإن هذه الملازمات وأمثالها أمور حقيقية واقعية يدركها العقل النظري بالبدهة أو بالكسب، لكونها من الأوليات والفطريات التي قياساتها معها".

يتضح من ذلك أن قول د . جواد علي أن القياس عند أهل السنة هو جزء من دليل العقل عند الإثني عشرية صحيح وأنه مجرد تلاعب بالألفاظ هروبا من الاعتراف بالعمل بالقياس والرأي المذمومين في كتب الحديث عند الشيعة .

ونقول الفرقة الاصولية من الإمامية بإباحة ما لم يرد فيه نص بناء على البراءة الأصلية والاستصحاب، وترفض ذلك الإخبارية وتطالب بالاحتياط والتوقف في الأحكام الشرعية وبالاحتياط أيضا أو البراءة في غير الأحكام الشرعية ، .

أما عن الحديث فمن أهم كتبه عند الشيعة الامامية الإثني عشرية الكتب الأربعة وهي الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني و"من لا يحضره الفقيه" لأبي جعفر محمد بن بابويه القمي و"تهذيب الأحكام" و"الإستبصار فيما اختلف من الأخبار" لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي وتنقل أغلبها عن أئمتهم لا سيما جعفر الصادق ومحمد الباقر وبعضها عن النبي الكريم ، حيث تعتقد الإمامية أن أئمتهم مُلهمون من الله ومنصوبون من عنده على لسان النبي عليه الصلاة والسلام لتبليغ الأحكام وقولهم سنة لا حكاية عنها لذا يجب اتباع أقوالهم كما يجب اتباع أقوال النبي الكوسم، وكتب الحديث الأربعة هذه لا تعتبر صحيحة بالكامل إلا عند فرقة "الإخباريين" أو المتأخرين منهم باصطلاح المظفر .

كذلك تم لاحقا تأليف (الجموع المتأخرة) والتي تضمنت تعليقات مؤلفيها على الكتب الأربعة، وهي: كتاب (الوافي) للفيض الكاشاني، وكتاب (وسائل الشيعة) للحر العاملي، وكتاب (بجار الأنوار) للمجلسي، وكتاب (مستدرك الوسائل) ومستنبط الدلائل لميرزا النوري .

وكانت الكتب الأربعة وعلى رأسها الكافي بنظر المتقدمين من الفقهاء والمحدثين الامامية من أوثق المصادر في الحديث عند الإمامية إلى أواخر القرن السابع الهجري زمن العلامة الحلي (ت 726 هـ) واستاذه أحمد بن موسى بن جعفر (ابن طاوس) وتقسيمهم للمرويات عن نبي الاسلام والأئمة إلى الأصناف الأربعة (الصحيح ، والحسن ، والموثق ،

والضعيف) وانتقدتهم بسبب ذلك فرقة الإخباريين حيث يرفض الإخباريون هذا التقسيم ويقطعون بصحة جميع ما رواه رواه الحمدون الثلاثة مؤلفوا الكتب الأربعة السابق ذكرها في المقال (I)(I2)، كما يرفضون كافة الإختراعات التي أتى بها الاصوليون كالعقل والإجماع، وهم يمثلون اليوم الأقلية بين الإمامية فطريقة الاصوليين هي التي سادت تأريخ مذهب الإمامية حتى يومنا هذا، ولم تظهر فرقة "الإخباريين" بقوة سوى حوالي قرنين من الزمان ابتداءً من أوائل القرن الحادي عشر الهجري على يد محمد أمين الاسترابادي (ت 1033 هـ) الذي ثار ضد عمل الاصوليين بالاجتهاد من خلال تطبيق أصول الفقه المستمدة من العقل.

وبعد تقسيم الحديث أصبح الصحيح حجة عند القائلين بحجية خبر الواحد كما اشتهر أن الموثق والحسن حجة أيضا ، وقام بعض الاصوليين من الامامية بدراسة الحديث والحكم بضعف أغلب ما في الكافي مثل الطريحي (ت 1085 هـ) الذي حكم بالضعف على 9485 حديثا من مجموعها البالغ 16199 حديثا لكن وصف الحديث بالضعف عند الإمامية لا يقتضي عدم اعتبارها مطلقا وعدم جواز الاعتماد عليها، بل يمكن ذلك في حالة وجود قرائن تؤيد صحتها عندهم كوجودها في احد الأصول الأربعمئة، أو في بعض الكتب المعبرة عندهم، أو موافقتها للكتاب والسنة ، أو لعمل فقهاء الإمامية بها حيث إنه قد اشتهر عند المتأخرين أن ما اشتهر العمل به والإعتماد عليه من الروايات الضعيفة، تصبح كغيرها من الروايات الصحيحة ، لكن المتقدمين من الإمامية كان لهم رأيا آخر حيث رأى كثير منهم عدم حجية خبر الأحاد مطلقا كالمترضى وابن إدريس وابن البراج ، والطبرسي ، وابن زهرة وادعوا في ذلك الإجماع، لكن لم يُعرف حسب الشيخ محمد رضا المظفر من رأى ذلك بعد ابن إدريس، بل قد صرحت جماعة ثانية بالإجماع على قبول خبر الواحد إذا كان ثقة مأمونا في نقله منهم الطوسي وابن طاوس والعلامة الحلبي والمجلسي، ويعترف الشيخ المظفر بالحيرة العظيمة التي واجهت الباحثين بسبب هذا التناقض في نقل الإجماع بين المترضى وتلميذه

الطوسي، لكنه ينتهي إلى الإعتراف بإجماع الطوسي وبين لنا سبب ادعاء المتأخرين من فقهاء الإمامية الإجماع على حجبية خبر الواحد الشيخُ الغريفي حيث يقول أنه لولا ذلك الإجماع لانسد باب العلم "لندرة الخبر المتواتر لدينا ، وعدم حصول القطع بصدور جميع اخبارنا عن المعصوم (ع) وعدم وفاء مصادر التشريع الاخرى ببيان جميع الاحكام"، بل قد اعترف الطوسي أن أكثر الأخبار تفقد إلى قرينة تدل على صحتها مما جعل الشيخ عباس الموسى لا يستغرب أن جذور " دليل الانسداد" عند الإمامية ترجع إلى زمان الطوسي، وبالتالي تعمل الشيعة اليوم كما هو حال أكثر الطوائف الاسلامية بأخبار الآحاد والظن مع محاولة الترجيح بين الأحاديث المتناقضة حتى أن المجلسي يعتمد أساسا على "الأدلة العقلية والآيات والأخبار السالفة" في دعوته لتأويل أو رد الأحاديث التي "توهم" بالغلو في النبي عليه الصلاة والسلام والأئمة).

وقد ذهب بعض رجال الدين الإثني عشرية إلى التفريق بين الفروع والاصول بتخصيص النصوص القرآنية التي تنهى عن العمل بالظن بالعقائد، والسماح بذلك في الأحكام الفرعية، ومن الذين قالوا بذلك التفريق السيد الطبطبائي والقمي والميرزا النائيني والأشثياني والبروجردى والمحقق العراقي والشيخ حسن صاحب المعالم وهو ما نراه عند المعترلة ثم الأشاعرة، حيث يعمل جمهور فقهاء المسلمين من كل المذاهب بالظن في مسائل الأحكام الشرعية التي تتعلق بحياة الناس مما يبين استهانة المذاهب الاسلامية التقليدية بالنفس البشرية التي يمكن أن تُزهق حسب الشريعة الإسلامية بحكم فقهي مبني على خبر لم يثبت قطعا بالتواتر.

وهكذا يظهر أن الحاصل عند الشيعة الإثني عشرية هو أن علم الكلام في العقائد والاجتهاد في الفروع المبني على اصول الفقه المخترعة بأحكامها الظنية وتقسيم الحديث والحكم عليه تصحيحا وتضعيفا والأخذ بنجر الواحد قد حل عمليا عندهم محل الإمام الغائب مما يخالف ما يزعمونه من أدلة على ضرورة وجود إمام.

الآحاديث والوقائع

التي يتخذها الشيعة أساساً لمذهبهم

يدعون أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - سلك طريق «التنصيب» في مسألة القيادة، والخلافة، مراراً، دون طريق «الانتخاب الشعبي» ويستلون على ذلك بالآحاديث التالية:

I. حديث يوم الدار

بعد أن مضت ثلاث سنوات على اليوم الذي بعث فيه رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، كلفه الله تعالى بأن يبلغ رسالته لبناء قبيلته ، وذلك عندما نزل قوله عز وجلّ : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) .

فجمع النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - رؤوس بني هاشم وقال : « يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومَه بأفضل مما قد جئتكم به إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فإنيكم يؤازرنني على هذا الأمر يكون أخي ووصيي ووزيرني وخليفتي فيكم » .

ولقد كرر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - العبارة الأخيرة ثلاث مرّات ، ولم يَقم في كلِّ تلك المرّات إلا الإمام علي - عليه السلام - ، الذي أعلن عن استعداده في كلِّ مرّة لمؤازرة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ونصرته ، وفي المرّة الثالثة قال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : « إِنَّ هَذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا » .

2. حديث المنزلة

لقد اعتبر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - منزلة « عليّ - عليه السلام - » منه على غرار منزلة هارون من موسى عليهما السلام ، ولم يستثن من منازل ومراتب هارون من موسى إلا النبوة حيث قال : « يا عليّ أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانيّ بعدي » ، وهذا النفي والسلب هو في الحقيقة من باب « السالبة بإتقاء الموضوع » . إذ لم تكن بعد رسول الله الخاتم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نبوة حتّى يكون علي نبياً من بعده إذ بنبوة رسول الإسلام ختمت النبوات ، وبشريعته خُتِمَت الشرائع .

ويدعون انه كان لهارون - بنص القرآن الكريم - مقام « النبوة » و « الخلافة » و « الوزارة » في زمان موسى ، وقد أثبت حديث « المنزلة » جميع هذه المناصب الثابتة لهارون للإمام عليّ - عليه السلام - ما عدا النبوة ، على أنه إذا لم يكن المقصود من هذا الحديث هو إثبات جميع المناصب والمقامات لعليّ إلا النبوة ، لم يكن أئنة حاجة إلى استثناء النبوة .

3. حديث السفينة

لقد شبه النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أهل بيته بسفينة نوح التي من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق في الطوفان كما قال : « أَلَا إِنَّ مَثَلِ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ فِي قَوْمِهِ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ » .

ونحن نعلم أن سفينة « نوح » كانت هي الملجأ الوحيد لنجاة الناس من الطوفان في ذلك الوقت .

وعلى هذا الأساس فإن أهل البيت النبويّ - وفقاً لحديث سفينة نوح - يُعتبرون الملجأ الوحيد للأمة للنجاة من الحوادث العصبية والوقائع الخطيرة التي طالما تؤدي إلى انحراف البشرية وضلالها .

4 . حديث « أمان الأمة »

لقد وصف النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - أهل بيته بكونهم سبباً لوحدة المسلمين ، ومما يوجب ابتعادهم عن الإختلاف والتشتت وأماناً من الغرق في بحر الفتنة ، إذ قال : « النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان من الإختلاف ، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس » .

وهذا شبه النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - أهل بيته الكرام بالنجوم التي يقول عنها الله سبحانه : (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) .

5 . حديث الثقلين

إنّ حديث الثقلين من الأحاديث الإسلامية المتواترة ، التي نقلها ورواها علماء الفريقين في كتبهم الحديثية .

فقد خاطب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الأمة الإسلامية قائلاً : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض » .

ويرون إن هذا الحديث ، ثبت - بوضوح - المرجعية العلمية لأهل البيت النبويّ جنباً إلى جنب مع القرآن الكريم ، ويلزم المسلمين بأن يتمسكوا - في الأمور الدينية - بأهل البيت إلى جانب القرآن الكريم ، ويلتمسوا رأيهم .

ولكن المؤسف جداً أن يلتبس فريق من الناس رأي كل أحد إلا رأي أهل البيت ، ويطرقوا باب بيت كل أحد إلا باب بيت أهل البيت .:

إن « حديث الثقلين » الذي يتفق على روايته الشيعة والسنة يمكنه أن يجمع جميع مسلمي العالم حول محور واحد ، لأنه إذا ما اختلف الفريقان في مسألة تعيين الخليفة والقائد ، والزعيم السياسي للأمة بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكان لكل فريق نظريته وآل الاستنباط التاريخي في هذا الصعيد إلى انقسام المسلمين إلى فريقين ، فإنه لا يوجد هناك أي دليل للإختلاف في مرجعية أهل البيت العلمية ، ويجب أن يكونوا - طبقاً لحديث الثقلين المتفق عليه - متفقين على كلمة واحدة .

وأساساً كانت مرجعية أهل البيت العلمية في عصر الخلفاء لعلي - عليه السلام - أيضاً ، فقد كانوا يرجعون إليه عند الإختلاف في المسائل الدينية وكانت المشكلة تحل بواسطة .

وفي الحقيقة منذ أن عزل أهل بيت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن ساحة المرجعية العلمية ظهر التفرق والتشردم ، وبرزت الفرق الكلامية المتعددة الواحدة تلو الأخرى .

حديث الغدير

لا عجب في زماننا هذا أن تجد من يتكلم على أدلة ونصوص لا تخدم منهجه ومراده؛ وذلك بلبي أعناقها وحشد الروايات المنكرة لتتفق مع هواه، تماماً كما فعل الشيعة في حديث غدير خم، فقد اختلفوا روايات وكذبوا على الله ورسوله، وزادوا في ذلك حتى عظموا يوم الغدير، وصيروه عيداً يُحتفل به، وفضلوه على يوم عرفة، وبنوا عليه عقائدهم، وشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، بل بعضهم خرج من جحر القبية علناً فطعن في جناب رسول الله صلى

الله عليه وسلم وافترى عليه ونسب إليه ما لم يقله، وكفّر أصحابه رضي الله عنهم، وبعضهم اكفى بإعلان ما يريد من ذلك حسب الظروف المتاحة له.

أولاً : روايات غدير خمّ

جاء هذا الحديث عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم، منهم: زيد بن أرقم، وبريدة بن الحصيب، وعلي بن أبي طالب، وأبو أيوب الأنصاري رضي الله عنهم، وسنورد أصح هذه الروايات مع الإعراض عن الروايات المكذوبة والباطلة والمنكرة التي يستند عليها الشيعة.

عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فينا خطيباً، بماء يدعى خُماً بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به». فحَثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي». وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع ونزل غدير خمّ، أمر بدوحات فقممّن، فقال: «كأنني قد دُعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله تعالى، وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض». ثم قال: «إن الله عز وجل مولاي، وأنا مولى كل مؤمن». ثم أخذ بيد عليّ رضي الله عنه فقال: «من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه».

ورواه الترمذي من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أيضًا، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وعن بريدة رضي الله عنهم، قال: «غزوت مع عليّ اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت عليًا فتنقّصته، فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتغيّر، فقال: «يا بريدة ألسنتُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه».

وعن سعيد بن وهب وزيد بن شبيب قالوا: نشد عليّ الناس في الرحبة: من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدیر حُمّ إلا قام. قال: فقام من قبل سعيد ستة ومن قبل زيد ستة فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي رضي الله عنه يوم غدیر حُمّ: أليس الله أولى بالمؤمنين؟ قالوا: بلى. قال: «اللهم من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

وعن رياح بن الحارث -وهو من كبار التابعين- قال: «جاء رهط إلى عليّ بالرحبة، فقالوا: السلام عليك يا مولانا. قال: كيف أكون مولاكم وأنتم قوم عرب؟! قالوا: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من كنت مولاه فإن هذا مولاه». قال رياح: فلما مضوا تبعتهم، فسألت: من هؤلاء؟ قالوا: نفر من الأنصار فيهم أبو أيوب الأنصاري».

ثانيًا: نقض شبهة التنصيص على إمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

من شبه الشيعة حول هذا الحديث زعمهم أن فيه تنصيصًا على إمامة علي رضي الله عنه؛ وزعموا أن معنى المولى في الحديث: الحاكم والخليفة.

والرد على ذلك من وجوه

الوجه الأول لفهم أي حديث لا بد من معرفة سبب وروده إن وُجد له سبب؛ لأنه مُعين على فهمه، كما أن سبب نزول الآية معين على فهمها . وسبب حديث غدير خُم هو أن النبي صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوداع أرسل خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمن في قتال انتصر خالد في جهاده، وغنم غنائم، فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بذلك، ويطلب إرسال من يُخمس تلك الغنائم، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه لتلك المهمة، ثم أمره أن يدركه في الحج، وقسم رضي الله عنه تلك الغنائم كما أمر الله: أربعة أخماس للمجاهدين، وخُمسًا لله والرسول وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . فأخذ عليّ خمس ذوي القربى -وهو سيد ذوي القربى- للنبي صلى الله عليه وسلم، فغضب بعض الصحابة كبريدة بن الحصيب رضي الله عنه، فاشتكى بريدة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقصّ عليه ما فعل عليّ، فلم يردّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وكرّر بريدة الشكوى وما حصل من عليّ، فلما كانت الثالثة قال: يا رسول الله، عليّ فعل كذا وكذا، فقال النبي: «يا بريدة أتبغض عليًّا؟ قال: نعم يا رسول الله، فقال: «لا تفعل فإن له في الخمس أكثر من ذلك» . يقول بريدة رضي الله عنه: فأحببتّه بعد ذلك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تبغضه .

قال ابن حجر الهيثمي: “وسبب ذلك كما نقله الحافظ شمس الدين الجزري عن ابن إسحاق أن عليًّا تكلم فيه بعض من كان معه في اليمن، فلما قضى صلى الله عليه وسلم حجّه خطبها تنبيهاً على قدره، وردّاً على من تكلم فيه: كبريدة؛ لما في البخاري أنه كان يبغضه .

وقال البيهقي: “وأما حديث الموالة فليس فيه -إن صح إسناده- نص على ولاية عليّ بعده، فقد ذكرنا من طرقه في كتاب الفضائل ما دل على مقصود النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك، وهو أنه لما بعثه إلى اليمن كثرت الشكاة عنه

وأظهروا بغضه، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر اختصاصه به ومحبة إياه، ويحثهم بذلك على محبته وموالاته وترك معاداته”.

وقال الحافظ ابن كثير: “فصل في إيراد الحديث الدال على أنه عليه السلام خطب بمكان بين مكة والمدينة مرجعه من حجة الوداع قريب من الجحفة -يقال له: غدِير حُتْمَ-، فَبَيَّنَ فيها فضل علي بن أبي طالب وبراءة عرضة مما كان تكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن، بسبب ما كان صدر منه إليهم من المعدلة التي ظننها بعضهم جوراً وتضييقاً ومجلاً، والصواب كان معه في ذلك، ولهذا لما تفرغ عليه السلام من بيان المناسك ورجع إلى المدينة بَيَّنَ ذلك في أثناء الطريق، فخطب خطبة عظيمة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة عامئذ، وكان يوم الأحد بغدير حُتْمَ تحت شجرة هناك، فبين فيها أشياء . وذكر من فضل عليٍّ وأمانته وعدله وقربه إليه ما أزاح به ما كان في نفوس كثير من الناس منه”.

الوجه الثاني دعواهم أن معنى المولى في الحديث: الحاكم والخليفة لا يصح؛ لأن المولى له معانٍ كثيرة منها: الرب والمالك والسيد والمنعم والمعق والناصر والمحِب والتابع والجار وابن العم والحليف والعقيد والصهر والعبد والمعق والمنعم عليه. والمقصود بالموالاتة في الحديث: المودة والمحبة والمؤازرة، وهي ضد المعاداتة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: “وليس في الكلام ما يدل دلالة بينة على أن المراد به الخلافة، وذلك أن المولى كالولي، والله تعالى قال: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [سورة المائدة: 55]، وقال: ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [سورة التحريم: 4]، فَبَيَّنَ أن الرسول ولي المؤمنين، وأنهم مواليه أيضاً، كما بَيَّنَ أن الله ولي المؤمنين وأنهم أولياؤهم، وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض .

فالموالاة ضد المعاداة، وهي تثبت من الطرفين، وإن كان أحد المتوالمين أعظم قدرًا وولايته إحسان وتفضل، وولاية الآخر طاعة وعبادة، كما أن الله يحب المؤمنين، والمؤمنون يحبونه، فإن الموالاة ضد المعاداة والحاربة والمخادعة، والكفار لا يحبون الله ورسوله، ويحادون الله ورسوله ويعادونه.

وقد قال تعالى: ﴿ لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ [سورة الممتحنة: I]، وهو يجازيهم على ذلك كما قال تعالى: ﴿ فإن لم تفعلوا فآذونا نجرب من الله ورسوله ﴾ [سورة البقرة: 279].

وهو ولي المؤمنين وهو مولاهم يخرجهم من الظلمات إلى النور، وإذا كان كذلك فمعنى كون الله ولي المؤمنين ومولاهم، وكون الرسول وليهم ومولاهم، وكون علي مولاهم، هي الموالاة التي هي ضد المعاداة.

الوجه الثالث بعد النظر في روايات حديث الغدير السالفة وهي أصح ما في الباب، يتبين جليًا أنه ليس في شيء منها ما يدل على خلافة علي رضي الله عنه من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف يوصي رسول الله صلى الله عليه وسلم لغيره ويخالف أمره صلى الله عليه وسلم، وقد أوصى أبو بكر لعمر رضي الله عنهما وامثل الناس أمره رضي الله عنه؟! فهل وصية أبي بكر رضي الله عنه أجل من وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المسلمين؟!!

الوجه الرابع أن حديث الغدير كان في الثامن عشر من ذي الحجة، أي بعد نزول قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: 3]، وثبت في الصحيحين أنها نزلت يوم الجمعة بعرفة، فكيف تكون إمامة علي رضي الله عنه من أصول الدين ولم يبلغها النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد إكمال الدين وإتمام النعمة بتسعة أيام؟! قال شيخ الإسلام ابن تيمية: “وهذا مما يبين أن الذي جرى يوم الغدير لم يكن مما أمر بتبليغه،

كالذي بلغه في حجة الوداع، فإن كثيراً من الذين حجّوا معه -أو أكثرهم- لم يرجعوا معه إلى المدينة، بل رجع أهل مكة إلى مكة، وأهل الطائف إلى الطائف، وأهل اليمن إلى اليمن، وأهل البوادي القريبة من ذلك إلى بواديهم، وإنما رجع معه أهل المدينة ومن كان قريباً منها .

فلو كان ما ذكره يوم الغدير مما أمر بتبليغه كالذي بلغه في الحج، لبلغه في حجة الوداع كما بلغ غيره، فلما لم يذكر في حجة الوداع إمامة ولا ما يتعلق بالإمامة أصلاً، ولم ينقل أحد بإسناد صحيح ولا ضعيف أنه في حجة الوداع ذكر إمامة عليّ، بل ولا ذكر عليّ في شيء من خطبته، وهو الجمع العام الذي أمر فيه بالتبليغ العام = عُلم أن إمامة عليّ لم تكن من الدين الذي أمر بتبليغه”.

الوجه الخامس يتضح من كلام شيخ الإسلام حول الحديث الأول الذي أخرجه مسلم في صحيحه حيث قال رحمه الله: “فليس فيه إلا الوصية باتباع كتاب الله، وهذا أمر قد تقدمت الوصية به في حجة الوداع قبل ذلك، وهو لم يأمر باتباع العترة، ولكن قال: «أذكركم الله في أهل بيتي»، وتذكير الأمة بهم يقتضي أن يذكروا ما تقدم الأمر به قبل ذلك من إعطائهم حقوقهم، والامتناع من ظلمهم، وهذا أمر قد تقدم بيانه قبل غدير حُتم، فُعلم أنه لم يكن في غدير حُتم أمر يُشرع نزل إذ ذلك، لا في حق عليّ ولا غيره، لا إمامته ولا غيرها”.

فهذه هي حادثة الغدير، وذلك خبره، وبذلك نعلم أنه لا حظّ للشبيعة فيه، ولا مُتمسك لهم ولا دليل”.

الغدير: القطعة من الماء يُعادِرُها السيل؛ وحُتم: مكان بين مكة والمدينة قريب من الجحفة نزل به النبي صلى الله عليه وسلم في رجوعه من حجة الوداع، وهو أقرب إلى المدينة منه إلى مكة . ينظر المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج

I5/I79، ولسان العرب 5/8.

أول من أحدث بدعة غدِير خم هو معز الدولة ابن بويه سنة (352هـ)، حيث أمر أن يُحتفل بهذا اليوم. ينظر: البداية والنهاية II/276، والمواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي 2/254.

حديث الغدير وفق الرواية الشيعية

واقعة الغدير تعدّ من أهم الوقائع التاريخية في حياة الأمة الإسلامية، حيث قام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم - خلالها وبُعِيد عودته من حجة الوداع والتوقف في منطقة غدِير خم - بإبلاغ المسلمين بالأمر الإلهي الصادر بتصيب علي بن أبي طالب عليه السلام إماماً للمسلمين وخليفة له صلى الله عليه وآله وسلم عليهم، والتي انتهت بمبايعته عليه السلام من قبل كبار الصحابة وجميع الحجاج الحاضرين هناك.

اليكم قصة عيد الغدير كاملة :

يوم الغدير من أشهر الأيام في حياة رسول الإسلام (ص) ولقد وثقته كل الكتب التاريخية على اختلاف مذاهبها وذكرت العديد من تفاصيل هذا اليوم العظيم . فما هي قصته ؟

جبرائيل يبلغ الرسول (ص)

لما انصرف رسول الله (صلى الله عليه وآله) من حجة الوداع والمسلمون معه وهم على بعض الروايات زهاء مائتي ألف نسمة، سار (صلى الله عليه وآله) نحو المدينة، حتى إذا كان اليوم الثامن عشر من ذي الحجة وصل . رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن معه من المسلمون . إلى غدِير خم من الجحفة التي تشعب فيها طرق المدنيين عن غيرهم، ولم يكن هذا المكان بموضع إذ ذاك يصلح للنزول، لعدم وجود الماء فيه والمرعى، فنزل عليه الأمين جبرئيل (عليه

(السلام) عن الله بقوله تعالى: ((يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)) [2].

وكان نزوله هذا بهذا الشأن هو للمرة الثالثة، فقد نزل (عليه السلام) عليه (صلى الله عليه وآله) قبلها مرتين - وذلك للتأكيد -: مرة عند وقوفه بالموقف، وأخرى عند كونه في مسجد الخيف، وفي كل منهما يأمره بأن يستخلف علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وأن يسلم إليه ما عنده من العلم وميراث علوم الأنبياء (عليهم السلام) وجميع ما لديه من آياتهم، وأن يقيمه علماً للناس، ويبلغهم ما نزل فيه من الولاية، وفرض الطاعة على كل أحد، ويأخذ منهم البيعة له على ذلك، والسلام عليه بإمرة المؤمنين، ورسول الله (صلى الله عليه وآله) يسأل جبرئيل أن يأتيه من الله تعالى بالعصمة، وفي هذه المرة نزل عليه بهذه الآية الكريمة التي فيها: ((وَاللَّهُ يُعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)).

الرسول يقوم بالمهمة

فأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالتوقف عن المسير وأن يردّ من تقدّم من القوم ويجلس من تأخّر منهم في ذلك المكان، فنزل (صلى الله عليه وآله) ونزل المسلمون حوله، وكان يوماً قايظاً شديد الحرّ، فأمر بدوحات هناك فقم ما تحتها وأمر بجمع الرحال فيه، ووضع بعضها فوق بعض.

ثم أمر (صلى الله عليه وآله) مناديه فنادى في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمعوا إليه وإن الرجل منهم ليضع بعض رداءه على رأسه وبعضه تحت قدميه من شدة الحرّ، فلما اجتمعوا صعد (صلى الله عليه وآله) على تلك الرحال حتى صار في ذروتها، ودعا علياً (عليه السلام) فرقى معه حتى قام عن يمينه ثم خطب (صلى الله عليه وآله) الناس خطبة بليغة لم يسمع الناس بمثلا فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ فأبلغ الموعظة، ونعى إلى الأمة نفسه، وأشار إلى أمر

الإستخلاف فنصب علياً (عليه السلام) بأمر من الله تعالى خليفة عليهم بعده (صلى الله عليه وآله)، ومما قال (صلى الله عليه وآله) فيها ما يلي:

«معاشر الناس، ان الله أوحى إليّ يقول: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)» [3]. وأنا مبين لكم سبب نزول هذه الآية: إن جبرئيل هبط عليّ مراراً ثلاثاً يأمرني عن ربي جلّ جلاله أن أقوم في هذا المشهد، فأعلم كل أبيض وأسود، أن علي بن أبي طالب أخي ووصيّي وخليفتي على أمتي، والإمام من بعدي، وقد ضمن لي تبارك وتعالى العصمة من الناس وهو الله الكافي الكريم.

فاعلموا معاشر الناس، أن الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً مفترضاً طاعته على المهاجرين والأنصار، وعلى التابعين لهم بإحسان، وعلى البادي والحاضر وعلى الأعجمي والعربي، والحر والمملوك، وعلى كل موحد.

معاشر الناس، إنه آخر مقام أقومه في هذا المشهد، فاسمعوا وأطيعوا، وانقادوا لأمر ربكم، فإن الله هو مولاكم وإلحكم، ثم من بعده رسوله محمد وليكم القائم المخاطب لكم، ثم من بعدي علي وليكم وإمامكم بأمر ربكم، ثم الإمامة في ذريتي من ولده إلى يوم تلقون الله ورسوله، لا حلال إلا ما أحله الله، ولا حرام إلا ما حرّمه الله، عزفني الله الحلال والحرام وأنا أفضيت لما علمني ربي من كتابه وحلاله وحرّامه إليه. إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)

..

وظل رسول الله يقول معاشر الناس، حتى وصل إلى قوله:

معاشر الناس، فما تقولون؟ قولوا الذي قلت، وسلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين، وقولوا: سمعنا وأطعنا، وقولوا: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . . معاشر الناس، إنّ فضائل عليّ عند الله عزّ وجل الذي قد أنزلها في القرآن أكثر من أن أحصيتها في مكان واحد، فمن أنبأكم بها فصدّقوه.

معاشر الناس، من يطع الله ورسوله وعلياً أمير المؤمنين والأئمة من ولده فقد فاز فوزاً عظيماً».

فناداه القوم: سمعنا وأطعنا أمر الله وأمر رسوله بقلوبنا وألسنتنا وأيدينا .

ثم إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) نادى بأعلى صوته ويده في يد علي (عليه السلام) وقال: «يا أيها الناس، أأست أولى بكم من أنفسكم؟» .

قالوا بأجمعهم: بلى يا رسول الله .

فرفع رسول الله (صلى الله عليه وآله) بضبع علي (عليه السلام) حتى رأى الناس بياض ابطنيهما، وقال على النسق من غير فصل: «فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، والعن من خلفه، وأدر الحقّ معه حيثما دار، ألا فليبلغ ذلك منكم الشاهد الغائب، والوالد الولد» .

الصحابة يبايعون علياً (عليه السلام):

ثم نزل رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكان وقت الظهيرة فصلّى ركعتين ثم زالت الشمس، فأذن مؤذنه لصلاة الظهر، فلما صلّى بهم جلس في خيمته وأمر علياً (عليه السلام) أن يجلس في خيمة له بازائه، ثم أمر (صلى الله عليه وآله) المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً فيهنّؤوه (عليه السلام) بالولاية، ويسلموا عليه بإمرة المؤمنين، ويبايعوه على ذلك .

ف فعل الناس ذلك كلهم يقولون له: بَخَّ بَخَّ لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة [6]. ثم أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أزواجه وسائر نساء المؤمنين معه أن يدخلن على علي (عليه السلام) ويسلمن عليه بإمرة المؤمنين، ويباعنه على ذلك، ففعلن وسلمن عليه (عليه السلام) وباعنه بإدخال أيديهن في طشت فيه ماء كان قد أدخل علي (عليه السلام) يده فيه قبل ذلك.

القرآن يبارك خلافة علي (عليه السلام):

وعن ابن عباس، وحذيفة، وأبي ذر وغيرهم، انهم قالوا: والله ما برحنا من مكاننا ذلك حتى نزل جبرئيل بهذه الآية عن الله تعالى: ((الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)).

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الرب سبحانه وتعالى برسالتي إليكم، والولاية لعلي بن أبي طالب بعدي.

الغدِير برواية الشعر

كان شاعر الرسول (ص) حسان بن ثابت موجودا فقال: يا رسول الله أتأذن لي أن أقول في هذا المقام ما يرضاه الله؟

فقال له (صلى الله عليه وآله): قل يا حسان على اسم الله.

فوقف على نشز من الأرض وتناول الناس لسماع كلامه، فأنشأ يقول:

يناديهم يوم الغدير نبيهم
بحم واسمع بالرسول منادياً

فقال: فمن مولاكم وتبيكم؟
فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا

إلهك مولانا وأنت نبينا ولم تلق منا في الولاية عاصيا

فقال له: قم يا علي فإنني رضيتك من بعدي إماماً وهادياً

فمن كنت مولاه فهذا وليه فكونوا له أتباع صدق موالياً

هناك دعا اللهم وال وليه وكن للذي عادى علياً معادياً

فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك . ثم قام من بعده جماعة من الشعراء وألقوا على مسامع القوم أبياتاً في مدح علي (عليه السلام) وتبجيل هذه المناسبة العظيمة كقيس بن سعد بن عبادة الخزرجي وغيره .

[1] أخذنا هذه الخاتمة من كتاب (ولأول مرة في تاريخ العالم) ج2 الفصل الأخير وما قبله .

[2] سورة المائدة: 67 .

[3] سورة المائدة: 67 . [4] سورة الإنسان: 1 . [5] سورة الفتح: 10 . [6] أنظر مجاز الأنوار: ج2 ص 388 ب 36 ح 10 .

[7] سورة المائدة: 3 .

بين التأكيد الشيعي والتأويل السنّي... روايات الغدير في المصادر الإسلامية

واقعة غدِير خم حظيت بأهمية بالغة في المذهب الشيعي الإمامي، سواء في فرعه الاثني عشري أو في فرعه الإسماعيلي، وذلك لما فيها من دلالة على التنصيب الإلهي لعلي بن أبي طالب إماماً يجب الاقتداء به بعد رسول الله، بحسب الشيعة.

وفي حين يعتقد الشيعة أن الدين الإسلامي أكتمل يوم غدِير خم بعد إعلان ولاية علي، عمل أهل السنة والجماعة على تهميش تلك الواقعة، والتقليل من قدرها، ولجأوا إلى تأويلات ساقوها في معرض مناظراتهم ومجادلاتهم مع علماء الإمامية.

واقعة الغدير عند الشيعة الإمامية

بحسب المعتد الشيعي الإمامي التقليدي، توقّف الرسول في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة، في العام العاشر من الهجرة، أثناء رجوعه من الحج، في مكان قريب من المدينة المنورة يُعرف بغدير خم، ليعلن بوضوح عن إمامة ابن عمه، وليشهد آلاف المسلمين على وقائع التنصيب الإلهي لعلي.

رغم أن الشيعة ساقوا عشرات الأدلة على إمامة علي بن أبي طالب وأحقّيته بوراثته النفوذ الروحي للنبي، إلا أن واقعة الغدير على وجه التحديد، نُظر إليها على كونها الدليل الأقوى، والحجة الدامغة التي لا يمكن التشكيك فيها بأي حال من الأحوال.

ومن هنا، لم يكن من الغريب أن نجد أن الروايات التي تحدّثت عما جرى يوم الغدير انتشرت في مئات المصادر الشيعية الإمامية المعتبرة، إلى الحد الذي دعا رجل الدين الإيراني عبد الحسين الأميني التبريزي، لتدوين موسوعته المشهورة،

والتي سماها "الغدير في الكتاب والستة والأدب"، في II مجلداً، ضمّنها كل ما قيل عن تلك الواقعة من أحاديث وروايات وتفسيرات وأشعار عبر ما يقرب من 13 قرناً .

هنالك اختلافات كثيرة بين الروايات الشيعية في ما يخص تفاصيل يوم الغدير، لكن معظم المصادر الإمامية تتفق مع ما ذكره المحدث الشيعي أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه الملقب بالصدوق (ت. 381هـ)، في كتابه "الخصال"، منسوباً للصحابي حذيفة بن أسيد الغفاري: "لما رجع رسول الله من حجة الوداع - ونحن معه - أقبل حتى انتهى إلى الجحفة، أمر أصحابه بالنزول، فنزل القوم منازلهم، ثم نودي بالصلاة، فصلى بأصحابه ركعتين، ثم أقبل بوجهه إليهم فقال لهم: إنه قد تبأني اللطيف الخبير أني ميت وأنكم ميتون، وكأني قد دعيت فأجبت، وإني مسؤول عما أرسلت به إليكم وعما خلفت فيكم من كتاب الله وحجته، وإنكم مسؤولون . . . ألا وإني أشهدكم أني أشهد أن الله مولاي وأنا مولى كل مسلم، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم . فهل تقرّون بذلك وتشهدون لي به؟ فقالوا: نعم نشهد لك بذلك . فقال: ألا من كنت مولاه فإن علياً مولاه، وهو هذا . ثم أخذ بيد علي عليه السلام فرفعهما مع يده حتى بدت آباطهما . ثم قال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه" .

في سعيه إلى نفي صحة حديث الغدير، احتجّ ابن تيمية بالتاريخ، وقال إن دعاء الأنبياء مستجاب ولكن الله لم ينصر من ينصر علياً، "فالعسكر الذين قاتلوا مع معاوية ما خذلوا قط، بل ولا في قتال علي"

بعض الروايات الشيعية مهّدت لواقعة الغدير، من خلال ربطها ببعض الآيات القرآنية، ومن ذلك ما أورده محمد بن يعقوب الكليني (ت. 329هـ) في كتابه "الكافي"، عندما نقل عن الإمام الخامس محمد الباقر قوله إن الله أمر النبي أن يفسر للناس الولاية، باعتبارها أحد أركان الإسلام بحسب المعتقد الشيعي الإمامي، كما فسر لهم الصلاة والزكاة والصوم والحج، "فلما أتاه ذلك من الله تعالى ضاق بذلك صدره وراجع ربه، فأوحى الله عز وجل إليه يا أيها الرسول

بَلَّغَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، فَصَدَعَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَامَ بِوَلَايَةِ عَلِيِّ يَوْمَ غَدِيرِ خَمٍّ، فَنَادَى: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَبْلُغَ الشَّاهِدَ الْغَائِبَ". وَبِحَسَبِ الرَّوَايَةِ، أُنزِلَتِ الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، بَعْدَ إِعْلَانِ وِلَايَةِ عَلِيِّ فِي الْغَدِيرِ.

واقعة الغدير في كتب أهل السنة والجماعة

إذا كانت واقعة غدير خم قد وردت في بطون مئات الكتب الشيعة الإمامية، فإنها وردت أيضاً في طيات العشرات من مصادر أهل السنة والجماعة، سواء الكتب التاريخية منها أو كتب المتون الحديثية.

عيد الغدير: قصة العيد الأهم عند الشيعة الإمامية

بحسب ما هو معروف، فإن المؤرخ السني ابن جرير الطبري (ت. 310هـ) جمع الطرق المختلفة لحديث الغدير، وصححه، وكتب في ذلك كتاباً كاملاً من مجلدين، وعرضه هذا لغضب ونقمة الحنابلة الذين حكموا بتضعيف هذا الحديث في القرن الرابع الهجري، حسبما يذكر شمس الدين الذهبي (ت. 748هـ) في كتابه "طبقات الحفاظ".

في ما يخص المدونات الحديثية المهمة والمعتبرة عند أهل السنة، نجد تبايناً عظيماً في تعامل أصحابها مع واقعة الغدير. على سبيل المثال، تغافل المحدث الكبير محمد بن إسماعيل البخاري (ت. 256هـ) عن ذكر تلك الواقعة بشكل كامل في صحيحه المشهور، في حين تعرض لذكرها على نحو مقتضب في كتابه الأقل شهرة، والذي لم يشترط فيه الصحة، "التاريخ الكبير".

أما في ما يخص المحدث مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت. 261هـ)، فقد ذكر شرطاً من واقعة الغدير، دون أن يذكر الشرط الآخر، وذلك عندما نقل عن الصحابي زيد بن أرقم قوله "قام رسول الله يوماً فينا خطيباً، بماء يدعى خمأً بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي".

لما كانت روايات الغدير قد انتشرت بشكل كبير في المصادر السنّية، احتاج العقل السنّي الجمعي لإيجاد تأويلات مختلفة لشرح وتفسير تلك الحادثة، بحيث يتخلص من الإلزام الذي يفهم منه حتمية الاعتقاد بإمامة علي بن أبي طالب

وذكر الإمام أحمد بن حنبل (ت. 241هـ) واقعة الغدير بشكل مختصر، بعد أن ضمنها في سياق مختلف عن السياق الذي وردت فيه الروايات الشيعية، إذ نجده ينقل عن الصحابي بريدة بن الحصيب الأسلمي قوله "غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة فلما قدمت على رسول الله، ذكرت علياً فتنقصته فرأيت وجه النبي يتغير، فقال يا بريدة: ألسنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه". وهكذا يظهر الخطاب النبوي في الحديث على كونه خطاباً موجهاً إلى شخص بعينه، وليس خطاباً جماعياً موجهاً لعموم المسلمين.

مع ذلك، وردت روايات الغدير بشكل أكثر اقتراباً من الروايات الشيعية في عدد من المتون الحديثية السنّية الأقل أهمية، ومنها على سبيل المثال كل من سنن ابن ماجة (ت. 273هـ)، وسنن الترمذي (ت. 279هـ)، السنن الكبرى للنسائي (ت. 303هـ)، والمعجم الكبير للطبراني (ت. 360هـ)، والمستدرک علی الصحیحین للحاکم النیسابوری (ت.

405هـ). كل تلك الطرق والشواهد دفعت بالمحدث السلفي المعاصر ناصر الدين الألباني، لتأكيد القول بصحة هذا الحديث، في كتابه "سلسلة الأحاديث الصحيحة".

الباقلائي وابن حزم وابن تيمية... التأويل السنّي للواقعة

لما كانت روايات الغدير قد انتشرت بشكل كبير في المصادر السنّية، احتاج العقل السنّي الجمعي لإيجاد تأويلات مختلفة لشرح وتفسير تلك الحادثة، بحيث يتخلص من الإلزام الذي انبنى على ظاهر تلك الروايات، والذي يفهم منه حتمية الاعتقاد بإمامة علي بن أبي طالب، وكونه الخليفة الشرعي للنبي.

بعض المصادر السنّية أشارت إلى الحرج الكبير الذي لازم بعض علماء أهل السنّة عند تطرقهم لفهم واقعة الغدير، ومن ذلك ما ورد في كتاب السنّة لأبي بكر الخلال (ت. 311هـ)، من أن الإمام أحمد بن حنبل لما سُئل عن قول النبي لعلي بن أبي طالب: "مَنْ كَتَمَ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ"، ما وجهه؟ فإن ابن حنبل قال: "لا تَكَلِّمْ فِي هَذَا، دَعِ الْحَدِيثَ كَمَا جَاءَ".

وخصّ رجل الدين الشيعي المعاصر هاشم الميلاني في دراسته المعنونة "حديث الغدير بين أدلة المثبتين وأوهام المبطلين"، التأويلات السنّية المختلفة لمعنى الموالة الذي تكرر في روايات غدير خم، بأنه إما ولاء الإسلام والدين، أو الموالة ظاهراً وباطناً، أو إعلان النصر والحبّة.

هذه المعاني ظهرت في سياق شرح العديد من علماء أهل السنّة والجماعة لروايات الغدير. فعلى سبيل المثال، كان الإمام محمد بن إدريس الشافعي من أوائل علماء السنّة الذين عملوا على تأويل حديث الغدير، بعيداً عن ظاهره، وذلك عندما فسر "مَنْ كَتَمَ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ" بأن الموالة هنا تعني ولاء الإسلام، حسبما يذكر الترمذي في سننه.

في السياق نفسه، قدم أبو جعفر الطحاوي (ت. 321هـ) تأويله المبني على بعض الآيات القرآنية، في كتابه "مشكل الآثار"، عندما قال "فإن قال قائل: فما معنى من كنت مولاه فعلي مولاه؟ فقيل له: المولى ها هنا هو الولي، كما قال الله عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ . وقد بين ذلك في ما روينا، فمن كان لرسول الله ولياً كان لعلي كذلك، وكذلك أصحابه بعضهم أولياء بعض".

كما اتجه المتكلم المعتزلي عمرو بن بحر الجاحظ (ت. 255هـ)، في كتابه العثمانية، النهج ذاته، عندما فسر الموالاته الواردة في الحديث بأنها موالاته النعمة، ثم عقب "وليس في هذا إخبارٌ عن فضل علي في الدين".

في نهايات القرن الرابع الهجري، ومع اشتداد التنافس الجدلي بين السنة والشيعة حول مسألة الإمامة، اهتم المتكلم الأشعري أبو بكر الباقلاني (ت. 402هـ)، بتأويل حديث الغدير، وصرفه عن معناه الظاهري بشتى الطرق، خصوصاً أثناء مناظراته الشهيرة مع المتكلم الشيعي الإمامي الشيخ المفيد (ت. 413هـ).

رد الباقلاني على الإمامية في كتابه تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، مفرقاً بين الولاية والموالاته. قال: "لا يجب ما قلتم لأن ما أثبتته لنفسه من كونه أولى بهم ليس هو من معنى ما أوجبه لعلي بسبيل لأنه قال من كنت مولاه فعلي مولاه فأوجب الموالاته لنفسه ولعلي وأوجب لنفسه كونه أولى بهم منهم بأنفسهم وليس معنى أولى من معنى مولى في شيء لأن قوله مولى يحتمل في اللغة وجوهاً ليس فيها معنى أولى فلا يجب إذا عقب كلام بكلام ليس من معناه أن يكون معناهما واحداً".

كما سيعمل في موضع آخر من كتابه، على فهم الموالاته الواردة في الحديث على كونها المحبة، فيقول "ويحتمل أيضاً أن يكون المراد بقوله: 'من كنت مولاه فعلي مولاه' أي من كنت محبوباً عنده وولياً له على ظاهري وباطني، فعلي مولاه أي

إن ولاءه ومحبة من ظاهره وباطنه واجب كما أن ولائيه ومحبتيه على هذا السبيل واجب، فيكون قد أوجب موالاته على ظاهره وباطنه".

أما في الأندلس، فسيعمل الفقيه الظاهري أبو محمد علي ابن حزم (ت. 456هـ)، على نفس الروايات الواردة في حادثة الغدير، وعلى إسقاطها، جملة واحدة، عن الاعتبار، فنراه يقول في كتابه الشهير الفصل في الأهواء والملل والنحل، في سياق تفنيده لعقائد الشيعة الإمامية "وأما من كت مولاه فعلي مولاه فلا يصح من طريق الثقات أصلاً وأما سائر الأحاديث التي تتعلق بها الرافضة فموضوعة يعرف ذلك من له أدنى علم بالأخبار ونقلتها".

وشهد القرن السابع الهجري ظهور أقوى الردود السنّية على حديث الغدير، وذلك من جانب شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (ت. 728هـ) في كتابه "منهاج السنّة النبوية في الرد على الشيعة القدرية"، والذي صنفه رداً على كتاب العالم الشيعي المعاصر له ابن المطهر الحلي (ت. 726هـ) والمعروف باسم "منهاج الكرامة في إثبات الإمامة".

ابن تيمية عمل على الرد على الشيعة الذين استدلوا بهذا الحديث من خلال ثلاث طرق مهمة. أولى هذه الطرق كانت مسابرة ابن حزم في التشكيك في صحة الحديث، الأمر الذي يظهر في قول شيخ الإسلام "إن هذا الحديث من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالموضوعات. وهذا يعرفه أهل العلم بالحديث، والمرجع إليهم في ذلك. ولذلك لا يوجد هذا في شيء من كتب الحديث التي يرجع إليها أهل العلم بالحديث"، وقوله في موضع آخر من كتابه "أن هذا اللفظ، وهو قوله: 'اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله' كذب باتفاق أهل المعرفة بالحديث".

أما الطريقة الثانية، فهي التأكيد على ابتعاد لفظ الموالاتة عن الخلافة والإمامة، إذ يقول "ليس في هذا الحديث ما يدل على أنه نص على خلافة علي، إذ لم يرد به الخلافة أصلاً، وليس في اللفظ ما يدل عليه، ولو كان المراد به الخلافة لوجب أن يبلغ مثل هذا الأمر العظيم بلاغاً بيناً".

أما الطريقة الثالثة التي لجأ إليها ابن تيمية في محاولته لرد حديث الغدير، فهو احتجاجه بالتاريخ. يذكر أن الحديث لو كان صحيحاً، لوجب أن يتحقق دعاء رسول الله عندما دعا في آخر الرواية بأن ينصر الله من ينصر علياً، وأن يخذل من خذله، لأن دعاء الأنبياء مستجاب كما هو معروف وشائع، ولكن هذا لم يقع "فالعسكر الذين قاتلوا مع معاوية (أعداء علي بن أبي طالب) ما خذلوا قط، بل ولا في قتال علي. فكيف يكون النبي قال: 'اللهم اخذل من خذله وانصر من نصره' والذين قاتلوا معه لم ينصروا على هؤلاء، بل الشيعة الذين تزعمون أنهم محتصون بعلي ما زالوا مخذولين مقهورين لا ينصرون إلا مع غيرهم: إما مسلمين وإما كفار، وهم يدعون أنهم أنصاره، فأين نصر الله لمن نصره؟! وهذا وغيره مما يبين كذب هذا الحديث".

قصة الوصية لعلي بن أبي طالب (ر)

لفظ الحديث الذي وردت فيه القصة التي يذكرها الشيعة هو :

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا حُضِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : وَفِي الْبَيْتِ رِجَالٌ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ : (هَلُمَّ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ) قَالَ عُمَرُ : إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَلَبَهُ الْوَجَعُ وَعِنْدَكُمْ الْقُرْآنُ فَحَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ ، وَاحْتَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ ، وَاحْتَصَمُوا ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ قَرُبُوا يَكْتُبْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا قَالَ عُمَرُ ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغَطَ وَالْإِخْتِافَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (قَوْمُوا عَنِّي) .

قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ : فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ : إِنَّ الرِّزِيَّةَ كُلَّ الرِّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ مِنْ اِخْتِلَافِهِمْ وَلَعَطِهِمْ .

رواه البخاري (6932) ومسلم (1637) .

I . أمر النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه الذين حضروه في مرضه بإحضار ورقة وقلم ليملي عليهم شيئاً لم يكن يتعلق بوحى جديد ، لم يبلغه للناس ، ولا بأمر شرعي يحتاجه الناس في دينهم ، ثم ترك إعلامهم به لأجل ما حصل .
والدليل على ذلك أمور :

أ . أن هذه الحادثة كانت يوم الخميس ، وقد توفي النبي صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين ، أي : بعده بأربعة أيام ، وكان بإمكانه الطلب من آخرين كتابة ذلك الكتاب ، فلما لم يفعل صلى الله عليه وسلم : علمنا أنه لم يكن وحياً فيكتمه .

ب . أن الله تعالى قد أثنى على نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه قد بلغ ما أوحى إليه ، وقد امتنَّ الله تعالى على هذه الأمة بإكمال الدين ، وإتمام النعمة ، والقول بأن ما لم يكتبه النبي صلى الله عليه وسلم هو من الدين الذي تحتاجه الأمة عامة ، فيه اتهام للنبي صلى الله عليه وسلم بعدم تبليغ الرسالة ، وفيه تكذيب للرب تعالى في خبره بإكمال الدين وإتمام النعمة على العباد .

قال ابن تيمية :

ولم تكن كتابة الكتاب مما أوجبه الله عليه أن يكتبه ، أو يبلغه في ذلك الوقت ؛ إذ لو كان كذلك : لما ترك صلى الله عليه وسلم ما أمره الله به .

" منهاج السنة النبوية " (6 / 315 ، 316) .

وقال :

ولا يجوز له ترك الكتاب لشك من شك ، فلو كان ما يكتبه في الكتاب مما يجب بيانه وكتابته : لكان النبي صلى الله عليه وسلم بينه ، ويكتبه ، ولا يلتفت إلى قول أحدٍ ؛ فإنه أطوع الخلق له ، فعلم أنه لما ترك الكتاب : لم يكن الكتاب واجباً ، ولا كان فيه من الدين ما تجب كتابته حينئذ ، إذ لو وجب : لفعله .

" منهاج السنة النبوية " (6 / 12) .

ج. ويؤيد ما ذكرناه : اختلاف الصحابة الذين كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في فهم أمره ، والوقوف على حقيقة معناه ؛ وإلا لسارع الجميع إلى تنفيذه ، وقد ثبت عنهم أنهم خلعوا نعالهم في الصلاة لمجرد رؤيته صلى الله عليه وسلم يخلع نعله فيها ، ودون أن يأمرهم بذلك ، فهل مثل هؤلاء يخالفون أمراً يعتقدونه من الوحي ؟! حاشاهم ، ولذلك قام بعضهم بإحضار ورقة وقلم ، كما طلب منهم نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وامتنع آخرون ، ظانين أنه صلى الله عليه وسلم قد يكون غلبه الوجع ، أو يكون أمره إرشاد .

قال أبو العباس القرطبي :

وقوله : (اتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده) : لا شك في أن (اتوني) أمرٌ ، وطلبٌ ، توجهٌ لكل من حضر ، فكان حق كل من حضر المبادرة للامتنال ، ولا سيما وقد قرنه بقوله : (لا تضلون بعده) ، لكن ظهر لعمر رضي الله عنه ، ولطائفة معه : أن هذا الأمر ليس على الوجوب ، وأنه من باب الإرشاد إلى الأصلاح ، مع أن ما في كتاب الله يرشد إلى كل شيء ، كما قال تعالى : (بَيِّنَاتٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ) ، مع ما كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوجع ، فكره أن يتكلف من ذلك ما يشق ويثقل عليه ، فظهر لهم : أن الأولى ألا يكتب ، وأرادت الطائفة الأخرى :

أن يكتب ؛ متمسكة بظاهر الأمر ، واعتنائاً لزيادة الإيضاح ، ورفع الإشكال فيما لبت ذلك لو وقع ، وحصل ! ولكن قدر الله ، وما شاء فعل ، ومع ذلك : فلا عتب ، ولا لوم على الطائفة الأولى ؛ إذ لم يعنفهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا ذمهم ، بل قال للجميع : (دعوني فالذي أنا فيه خير) .

" المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم " (15 / 18) .

وقال الحافظ ابن حجر :

قال المازري : إنما جاز للصحابة الاختلاف في هذا الكتاب مع صريح أمره لهم بذلك : لأن الأوامر قد يقارنها ما ينقلها من الوجوب ، فكأنه ظهرت منه قرينة دلت على أن الأمر ليس على التحتم ، بل على الاختيار ، فاختلف اجتهادهم ، وصمم عمر على الامتناع لما قام عنده من القرائن بأنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك عن غير قصد . جازم .

" فتح الباري " (8 / 133 ، 134) .

2 . عزمه صلى الله عليه وسلم على الكتابة : إما أن يكون بوحى نسخ ، أو باجتهاد تبين أن المصلحة في تركه .

قال النووي :

وكان النبي صلى الله عليه وسلم همّ بالكتاب حين ظهر له أنه مصلحة ، أو أوحى إليه بذلك ، ثم ظهر أن المصلحة تركه ، أو أوحى إليه بذلك ، ونسخ ذلك الأمر الأول .

" شرح مسلم " (11 / 90) ، ونقل نحوه الحافظ ابن حجر عن المازري . ينظر : " فتح الباري " (8 / 134) .

3. الشيعة يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالخلافة بعده لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فما لهم ول هذه الحادثة ، وما حاجتهم للتلاعب بها ، وادعاء أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب وصية لعلي رضي الله عنه بعده ؟! ولماذا لا تكون الوصية التي كانت ستكتب في هذا الكتاب : هي وصيته لأبي بكر رضي الله عنه بالخلافة من بعده ؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

وَمَنْ تُوهِمُ أَنْ هَذَا الْكِتَابُ كَانَ بِمُخَالَفةِ عَلِيٍّ : فَهُوَ ضَالٌّ ، بِاتِّفَاقِ عَامَةِ النَّاسِ ، مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ ، وَالشَّيعةِ ، أَمَا أَهْلُ السُّنَّةِ : فَمُتَّفِقُونَ عَلَى تَفْضِيلِ أَبِي بَكْرٍ وَتَقْدِيمِهِ ، وَأَمَا الشَّيعةُ الْقَائِلُونَ بِأَنْ عَلِيًّا كَانَ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْإِمَامَةِ : فَيَقُولُونَ : إِنَّهُ قَدْ نَصَّ عَلَى إِمَامَتِهِ قَبْلَ ذَلِكَ نَصًّا جَلِيًّا ظَاهِرًا مَعْرُوفًا ، وَحِينَئِذٍ فَلَمْ يَكُنْ يَحْتَاجُ إِلَى كِتَابٍ .

" منهاج السنة النبوية " (6 / II) .

4. قد ثبت بأصح إسناد أن النبي صلى الله عليه وآله أراد أن يوصي لأبي بكر الصديق بالخلافة بعده ، ثم ترك الأمر ، وقال بأن المؤمنين لن يرضوا بغيره خليفة ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ (لَقَدْ هَمَمْتُ - أَوْ أَرَدْتُ - أَنْ أُرْسِلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ وَأَعْمَهَدَ ؛ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُونَ ، أَوْ يَمْتَنِي الْمُتَمَنُونَ ، ثُمَّ قُلْتُ : يَا أَبَى اللَّهِ وَيَدْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ - أَوْ : يَدْفَعُ اللَّهُ وَيَأْبَى الْمُؤْمِنُونَ -) رواه البخاري (5342) - واللفظ له - ومسلم (2387) بلفظ : (وَيَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ) .

ولسنا بالذي يهتم لهذا ، لأنه قد أبى الله والمؤمنون أن يكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أبا بكر .

5. وما يحصل من مراجعة بعض الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم في بعض المسائل لا يعكس على صفة الاستجابة ، والمتابعة للشرع ؛ لأنهم يراجعونه صلى الله عليه وسلم حتى يأتي الوحي بالجزم بما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم ، فيسارعون بعدها لتنفيذ الأمر .

قال النووي :

قال الخطّابي : وقد كان أصحابه صلى الله عليه وسلم يراجعونه في بعض الأمور قبل أن يجزم فيها بتحتميم ، كما راجعوه يوم الحديبية في الخلاف ، وفي كتاب الصلح بينه وبين قريش ، فأما إذا أمر بالشيء أمر عزيمة : فلا يراجع فيه أحد منهم .

" شرح مسلم " (91 / II) .

وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - :

وقد كان الصحابة يراجعونه في بعض الأمور ، ما لم يجزم بالأمر ، فإذا عزم : امتثلوا .

" فتح الباري " (209 / I) .

6. قول عمر رضي الله عنه " حسبنا كتاب الله " : لم يكن خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هو أجلُّ من أن يفعل ذلك ، وإنما كان مخاطباً من اعترض عليه بالامتناع عن إحضار كتاب .

قال النووي : وقول عمر رضي الله عنه " حسبنا كتاب الله " : ردُّ على من نازعه ، لا على أمر النبي صلى الله عليه وسلم . " شرح مسلم " (93 / II) .

7. وقد وَجَّه العلماء رحمهم الله امتناع عمر رضي الله عنه عن إحضار كتاب ليكتبه النبي صلى الله عليه وسلم بتوجيهات عديدة ، منها :

أ. إشفاقه على النبي صلى الله عليه وسلم من تكليفه في تلك الحال إملاء الكتاب ، وأن تدخل عليه مشقة من ذلك كما قال : " إن النبي صلى الله عليه وسلم اشتد به الوجع " .

ب. خشيته من طعن المنافقين ومن في قلبه مرض ، في ذلك الكتاب ، والتشكيك بناقليه ، والظعن فيهم ، وفي عدالتهم .

ج. خشيته " أن يكتب أموراً يعجزون عنها ، فيقعوا في الحرج بالمخالفة ، ورأى أن الأرفق بالأمة في تلك الأمور سعة الاجتهاد ، وحكم النظر ، وطلب الصواب ، فيكون المصيب والمخطئ مأجوراً " .

انظر : " دلائل النبوة " (7 / 184) ، " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " للقاضي عياض (2 / 194) ، " شرح مسلم " للنووي (11 / 91) ، " فتح الباري " (1 / 209) .

8. وأما كلام ابن عباس رضي الله عنهما : فليس فيه طعن بالصحابة رضي الله عنهم ، وهو ممن بايع الصديق ، والفاروق بعده ، وإنما أراد أن الحائل نفسه كان مصيبة ؛ لظهور الفتنة بعد ذلك ، والظعن في أولئك الأعلام .

قال ابن تيمية : وقول ابن عباس " إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب الكتاب " : يقتضي أن هذا الحائل كان رزية ، وهو رزية في حق من شك في خلافة الصديق ، أو اشتبه عليه الأمر ؛ فإنه لو كان هناك كتاب : لزال هذا الشك ، فأما من علم أن خلافته حق : فلا رزية في حقه ، والله الحمد . " منهاج السنة النبوية " (6 / 11) .

IO . وقول ابن عباس رضي الله عنه هذا إنما هو اجتهاد منه ، ولا شك أن عمر أعلم وأجل من ابن عباس ، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن ترك الكتابة ، وعدم إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على عمر ، هو ترجيح لرأيه ، وتصويب لفعله .

قال النووي : فكان عمر أفقه من ابن عباس ، وموافقه . " شرح مسلم " (II / 90) .

وقال الحافظ ابن حجر :

وفي تركه صلى الله عليه وسلم الإنكار على عمر : إشارة إلى تصويبه رأيه ، وأشار بقوله " حسبنا كتاب الله " إلى قوله تعالى (مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) ، ويحتمل أن يكون قصد التخفيف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى ما هو فيه من شدة الكرب ، وقامت عنده قرينة بأن الذي أراد كتابته ليس مما لا يستغنون عنه ؛ إذ لو كان من هذا القبيل : لم يتركه صلى الله عليه وسلم لأجل اختلافهم .

ولا يعارض ذلك قول بن عباس " إِنَّ الرِّزْيَةَ " الخ ؛ لأن عمر كان أفقه منه قطعاً " فتح الباري " (8 / 134) .

وبه يتبين لك بطلان ادعاء الرافضة ، في طعنهم في الصحابة رضي الله عنهم ، وخصوصاً عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويتبين صدق السلف في أنهم أكذب الطوائف المنتسبة للإسلام ، فاحذرهم على دينك أخي السائل ، ونسأل الله لك الثبات على الإسلام والسنة .

دراسة موضوعية لأسباب الخلاف والنزاعات

حب السلطة المال و النفوذ

حب السلطة ومغرياتها

قبيل وفاة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام كانت هناك عدة قوى تتربص بالسلطة وتعد نفسها لأستلامها فمرض الرسول الكريم كان باديا لهم انه مرض الموت ولو لم يدم أياما ولا بد أن يتوفاه الله بين ساعة وأخرى وهذه القوى هي :

أولا : جمهور المهاجرين الذي يتزعمهم كبار الصحابة ومنهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وعثمان وغيرهم .

ثانيا : جمهور الأنصار والذين يتزعمهم زعماء الأوس والخزرج منهم الحباب بن المنذر بن الجموح وقيس بن ساعدة وغيرهم .

ثالثا : ال بيت النبي الكريم وأهله وعلى رأسها علي بن أبي طالب وبنو هاشم .

ثالثا : فئة تنتمي للفريقين أعلاه لم يتابع أبو بكر الصديق وهم : وانفق الكثير على أنه قد تخلف عن بيعة أبي بكر جماعة أبرزهم: والعباس، والفضل بن العباس، وبنو هاشم بأجمعهم، وعتبة بن أبي لهب، وسعد بن عباد، وسلمان، وعمار، والمقداد، وأبوذر، وأبي بن كعب، وسعد بن أبي وقاص، والزبير، وطلحة، والبراء بن عازب، وخزيمة بن ثابت، وفروة بن عمرو الأنصاري، وخالد بن سعيد بن العاص . . . وكانت تؤيد ضمنا أن يؤول الأمر لعلي بن أبي طالب .

لذلك ومن سمع الأنصار بنجر وفاة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام حتى تسارعوا الى سقيفة بني ساعدة كما رأينا لأختيار زعيما لمدينتهم لاعتقادهم من ان السلطة الزمنية للرسول انتهت بوفاة وعليهم استعادة الأمر لمدينتهم وإعلان نهاية العهد القرشي فيها .

وهكذا سمع زعماء المهاجرين باجتماعهم ولحقوا بهم كما بينا ذلك .

يقول محمد عابد الجابري نقد العقل السياسي في تفسير هذا الوضع :

(أن تلك المواقف تعكس تماماً ما كان يمكن أن يحدث، بالنظر إلى طبيعة الوضعية القائمة آنذاك وضعية التنافس بين الأنصار والمهاجرين، أمكن القول إن تلك الروايات صحيحة في مضمونها العام. أما اللفظ فلا بد أن يختلف، وهو يختلف فعلا رواية إلى أخرى ولكن من غير أن يؤثر ذلك في المضمون. وعلى الجملة فالروايات التي تحكي ما جرى في سقيفة بني ساعدة يشهد بعضها البعض على اختلافها. فهي تكامل ولا تتناقض، وبالتالي فليس هناك ما يمنع من الأخذ بها .

ويضيف : الالفت للانتباه هو أنه لا واحد من المهاجرين، لا أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة ولا غيرهم احتج بالحديث الذي ينسب إلى الرسول (ص) بلفظ «الأئمة من قريش، والذي يحتج به أهل السنة والجماعة والأشاعرة من بعدهم، وهم الذين جعلوا القرشية من شروط الأهلية للخلافة استناداً على الحديث المذكور وأنه لما يثير الاستغراب حقاً أن يعتمد أبو بكر وعمر، كلاهما إلى التأكيد على مكانة قريش والاحتجاج لأحقية المهاجرين في خلافة النبي بكون العرب لا تقبل أن يود عليها غير قرشي، ثم لا يذكر أي هذا الحديث، مع أنه أقوى الحجج ضد الأنصار، إذ الأنصار ليسوا من قريش وبالتالي فلا حق لهم في الخلافة بنص ديني لو كان ذلك الحديث مما احتج به في تلك الجلسة .

أما علي فقال : الله الله يا معشر المهاجرين لا تخرجوا سلطان عمد في العرب عن داره وقمر بينه إلى دوركم وقعود بيوتكم ولا تدفعوا أهله من مقامه في الناس ، وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين التحن أحق الناس به لأننا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ؟ .

وكل ذلك محكوم بمنطق «القبيلة في المجتمع القبلي عموماً، ولهذا كان المقول المفصل للعبارة التي فاه بها أبو بكر: ولا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، وهذا حكم موضوعي يقرر أمراً واقعاً وقد سلم الأنصار بذلك عندما تحرك فيهم مفعول القبيلة الضيق التنافس بين الأوس والخزرج) وأيضاً عندما رأوا أن منطق المهاجرين هو الأرجح في ميزان اعتبار المصلحة العامة المشتركة.

وتذكر المصادر أن العباس عم النبي (ص) أثار مسألة الخلافة مع علي بن أبي طالب عندما كان النبي مريضاً مرضه الأخير، فقال له أدخل على النبي واسأله وإن كان الأمر لنا بينه وإن كان لغيرنا أوصي بنا خيراً، فامتنع علي . وتضيف بعض الروايات أن علياً خاف إن هو . النبي (ص) أن تكون النتيجة سلبية فيحرم الهاشميون من الخلافة إلى الأبد . وعندما توفي النبي (ص) أثار العباس المسألة من جديد مع علي وقال له : أبسط يدك أبا برك فيقال : عم رسول الله يابح ابن عم رسول الله (ص) وبإيعك أهل بيتك، فإن هذا الأمر إذا كان لم يقل»، فأجابه علي : ومن يطلب هذا الأمر غيرنا وتضيف الرواية أن العباس كان قد سأل أبا بكر وعمر إن كان الرسول قد أوصى بشيء فأجابا بالنفي ؟

وتختلف الروايات حول موقف علي بن أبي طالب منبيعة أبي بكر . من ذلك أن واحدة منها تذكر أن علياً كان في بيته إذ جاءه الخير بأن وقد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج في قميص ما عليه ازار ولا رداء ، عجلًا، كراهية أن يبطيء عنها، حتى يبایعه . غير أن المشهور هو تأخر علي مدة من الزمن عنبيعة أبي بكر، احتجاجاً، لأنه كان يرى نفه أحق الناس بخلافة النبي . وتذهب رواية إلى أن علياً وأتي به إلى أبي بكر وهو يقول: أنا عبد الله وأخو رسول الله .

وقيل له : بايع أيا بكر . فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي . أخذتم هذا الأمر من واحتجتم عليهم بالقراءة من النبي (ص) وتأخذونه منا أهمل البيت غضباً، الستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة وسلموا اليكم الإمارة، وأنا احتج عليكم مثلما احتجتم به على الأنصار: نحن أولى برسول الله، حياً وميتاً، فانصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلا قبوؤوا بالظلم وأنتم تعلمون . فقال له عمر إنك لست متروكاً حتى تباع . وقال له أبو بكر فإن لم تباع فلا أكرهك . فقال أبو عبيدة يا ابن عم أنت حديث السنن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمر .

ويضيف الجابري : (وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار طبيعة الوضعية التي كانت عليها دولة الدعوة عند وفاة الرسول (ص) سهل علينا أن نقرر بأن ما حدث هو ما كان يمكن أن يحدث، وهذا ليس انطلاقاً من أن وليس في الامكان أبدع مما كان، بل انطلاقاً من أن الحل السياسي لقضية من القضايا هو في الغالب محصلة لمختلف العوامل الفاعلة فيها . ومن هنا يأتي الحل السياسي دوماً في صورة حل وسط .

فالوضعية الداخلية التي كانت عليها دولة الدعوة الفتية التي لم يكن قد مر عليها ما يكفي من الوقت ليحصل الاندماج بين عناصر المجتمع الذي قامت عليه : إضافة إلى السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كان هناك والمنافقون والأعراب وأعداد كبيرة من المسلمين الجدد، مسلمي الفتح، ومنهم المؤلفة قلوبهم . وكان من القبائل من ارتد وكان منها من ينتظر، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى . ولم يكن هذا النوع من القلق في بنيات الدولة والراجع إلى ضعف الإيمان، وهو يوازي ما تغير نحن عنه اليوم بضعف الشعور بالمواطنة، هو وحده الذي كان يهدد كيان الدولة الفتية .

من خلال كل هذه القراءات وما بين من وقائع ومعطيات تاريخية نستطيع القول بأن المسلمين جميعاً بعد وفاة الرسول الكريم كانوا على قناعة مطلقة بأن ما تركه الرسول الكريم ليس كتاب الله وسنته وشريعته وشرعه بل ترك دولة منيعة

قوية أصبحت هي الأقوى في تلك الربوع فهذا حرك عندهم غريزة التحكم والسيطرة فارادت كل فئة منهم أن تستأثر بالأمر دون سواها وهكذا غلب الحلم السياسي وحب السلطة فيهم على عقيدتهم واسلامهم .

المال والغنيمة

هناك أمر يكاد يكون أكثر أهمية من الأول يقف وراء اختلافهم على السلطة وهو المال والغنيمة فلقد أفاء الله عليهم من الخيرات والمال وصار يأتهم رغدا من كل مكان لذلك فإن الحصول على الخمس منه وهو حصة الحاكم كما تصوروا يعني الثراء والغنى ويقول الجابري موضحا دور عامل الغنيمة :

(ان التراتب الذي أحدثه دخول «الغنيمة كعنصر في ذلك الكيان : إن صنف المستضعفين بقي موجوداً، والذين اغتوا بـ «الغنيمة» أو بالتجارة أو بهما معاً، لم يكونوا قليلين منهم مؤمنون صادقون ومنهم آخرون . غيرهم . وقبل ذلك وبعده كان الاختلاف والتنوع الراجعين إلى القبيلة حياً قائماً: فالتنافس بين الأوس والخزرج داخل صنف الأنصار يعبر عن نفسه عند أدنى مناسبة، وشعور الأنصار ككل بـ شيء في نفوسهم إزاء المهاجرين شعور كشف عن نفسه مراراً زمن النبي نفسه، كما أشرنا إلى ذلك في الفصل السابق . أما في صفوف المهاجرين فلم يكن مفعول القبيلة قد صفى بصورة كاملة بل كان في حال كمن وبالتالي كان لا بد أن يعبر عن نفسه عند أقل تنبيه أو استتارة . وقد صار هذا واقعاً ملموساً بعد فتح مكة ودخول قريش في الإسلام مرة واحدة، وبكيفية جماعية، تحمل معها بقايا من رحمة الجاهلية» .

المبحث الرابع

السلطة والسياسة

أولاً

سقوط الدولة العربية الأموية

مرّت الدولة الأموية في الفترات الأخيرة من حياتها بفتن، وقلاقل، وثورات، واضطرابات، ولم تكن هذه المرة من أعدادها والخارجين عليها، وإنما أشعلها أهل البيت نفسه دون مراعاة لوحدة الأسرة الحاكمة أو المحافظة على سلامة الدولة، وانشغل كل نائر بنفسه لا يرى سواها ولا يرى الحق إلا فيها، وكانت هذه الفتنة هي أخطر ما واجهته الدولة الأموية، فاجأتها وهي منهكة القوى من طعنات الثائرين عليها، مفككة البنيان بعد أن فعلت العصبية القبلية أفاعيلها في جسد الدولة. يضاف إلى ذلك أن خلفاء الدولة المتأخرين لم يكونوا على قدر المسؤولية، وتعجز ملكاتهم عن قيادة إمارة صغيرة فكيف يفعلون بدولة عملاقة كالدولة الأموية؟ تجمع ذلك كله وسار في اتجاه سقوط الدولة وحاول مروان بن محمد أن يعيق تصاريق القدر أو يؤجل وقوع المصيبة، فما استطاع على قدرته وكفاءته، فكانت الأقدار أكبر منه والأحداث سريعة متلاحقة أعجزته عن تدبير أمره، فوقع ما ليس منه بد، وانهار البناء الشامخ، وكان يُظن أنه راسخ كالجبال. اقرأ أيضاً: ابن الخطيب وقصر الحمراء على الجزيرة الوثائقية تاريخ التأريخ : اتجاهات و مناهج أحوال الدولة الأموية تتابع خلال ثلاثة أعوام ثلاثة من خلفاء الدولة الأموية، قتولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخليفة سنة (125هـ = 742م)، ولم يمكث طويلاً في الخلافة، وثار عليه أبناء عمومته من أبناء الوليد بن عبد الملك وأخيه هشام، وانتهى الأمر بقتله سنة (126هـ = 743م)، وتولى يزيد بن الوليد بن عبد الملك الخلافة، لكنه عجز عن ضبط أمور الدولة التي اضطربت، وانشغل أبناء البيت الأموي بالصراعات وتدمير المؤامرات، وزاد الأمر سوءاً اشتعال العصبية القبلية، وانتقل الخلل من عاصمة الدولة إلى الأقاليم، وفي وسط هذه الأحداث الهائجة والأحوال الثائرة توفي يزيد بن الوليد، ولم يتجاوز حكمه ستة أشهر تاركاً دولته تموج بها الفتنة، وتشيع فيها الفوضى، وبعد وفاته تولى أخوه إبراهيم بن الوليد الخلافة، ولكن الأمر لم يتم له، ولم يستطع أن يمسك بزمام الأمور، حيث نازعه مروان بن محمد الحكم، ونجح في إزاحته

عن منصبه، وتولى الأمر بدلاً منه. ولاية مروان بن محمد كان مروان بن محمد قبل أن يتولى الخلافة الأموية حاكماً على ولاية أرمينية وأذربيجان تولاهما سنة (414هـ = 732م) من قبل هشام بن عبد الملك، فأظهر كفاءة وقدرة في إدارة شؤون ولايته وبذل جهداً كبيراً في ضبط أمورها، ورد غارات الترك والحزر على حدود ولايته، وظل مروان على ولايته حتى نجح في الجلوس على كرسي الخلافة الأموية بعد أن لعبت به الأهواء. ولم تكن الظروف التي تولى فيها مروان بن محمد تساعده على الخروج بدولة الخلافة من أزمتها، بل كانت مضطربة تغلي كالمرجل فتحمل هو عبء أوزارها، وحاول بكل ما يملك من قوة إصلاح اعوجاجها، ولكنه كلما خلص من أزمة ظهرت له أخرى، كأنها تنتظره فأنهكت قواه، واستغرقت جهده ووقته، ولم تدع له فرصة للتفسير الهادئ والتأمل الرزين. وكانت دمشق معقل الأمويين ومركز أنصارهم منقسمة على نفسها شيعاً وأحزاباً، وامتد هذا إلى الشام كله، وأصبح الأمر كله منذراً بالخطر، فحاول مروان أن يهدئ النفوس، ويسكن القلوب الثائرة بأن عرض على أهل الشام أن يختاروا من يرصونه والياً عليهم دون نظر إلى عصبية وقبيلته، ففعلوا ذلك، وبهذه الخطوة الطيبة نجح مروان في أن يرتب أوضاع الشام وأن يعيد الهدوء والنظام إليها. اشتعال الثورات ضد الخليفة ولم يكده يطمئن الخليفة مروان بن محمد في حران التي اتخذها مقراً لحكمه حتى تبدد الحلم، وانهار صرح السلام بعد أن جاءت الأخبار بثورة أهل حمص عليه بزعامة ثابت بن نعيم الجزامي، وكان مروان قد أبدى معه تسامحاً وليناً، على الرغم من غدره به من قبل وإثارته الناس عليه، فعينه والياً على فلسطين بناء على رغبة أهلها، ولكن "ثابت" لم يحفظ عهداً أو يراعٍ وذاً، وغلبت عليه نفسه الأمانة بالسوء فكاتب الناس، ودعاهم إلى الثورة، وحضهم على الخروج على الخليفة، ولم يصبر مروان على هذا الأمر فخرج على رأس جيشه، ونجح في قمع الفتنه واقتلاع جذورها. وفي الوقت الذي كان مروان بن محمد مشغولاً بقمع ثورة حمص شبّت ثورة هائجة في غوطة دمشق، وولى أهلها عليهم زعيماً يمينياً هو يزيد بن خالد القسري، وساروا إلى دمشق، فحاصروه غير أن مروان أرسل إليهم وهو في حمص جيشاً تمكن من القضاء على الفتنه وقتل مزعمها. محاولة الصلح

بين أبناء البيت الأموي حاول مروان بن محمد أن يقيم صلحاً بين أبناء البيت الأموي، وأن يحل الوثام بينهم، وأن يكونوا عوناً للدولة لا حرباً عليها، فزوج ابنيه عبید الله وعبد الله من ابنتي هشام بن عبد الملك أملاً من أن تكون هذه المصاهرة سبباً في رأب الصدع، ولمّ الشمل، والتفرغ لقتال الخوارج الذين ثاروا بالعراق تحت قيادة الضحاک بن قيس الشيباني، منتهزين فرصة انشغال الدولة بثورات أهل الشام، وفي الوقت الذي كان فيه مروان يشرف على تجهيز جيش لقتال الخوارج فاجأته ثورة عارمة قادها صهره سليمان بن هشام بن عبد الملك في الرصافة، وانضم إليه IO آلاف من أهل الشام الذين استنفروهم مروان بن محمد لقتال الخوارج. وشجّع هؤلاء المنضمون سليمان على الخروج على الخليفة الشرعي، وخلع بيعته، فاستجاب لهم لهوى في نفسه دون أن يعباً ببيعته التي في عنقه، ودون مراعاة لمصالح الدولة، وأمنها الذي تهدده ثورات الخوارج، واستفحلت ثورة سليمان واجتمع حوله سبعون ألفاً من الجند. ولم يكن أمام هذه الأبناء المفجعة إلا أن يخرج الخليفة بنفسه للقضاء على هذا الخطر المتصاعد الذي يكاد يعصف بالدولة، والتقى بخصمه عند قرية تسمى خسّاف من أعمال قنسرين، ودارت بينهما معركة حامية سنة (127هـ = 744م) هُزم فيها سليمان، وقتل نحو ثلاثين ألفاً من أتباعه، وهرب بمن بقي معه إلى حمص، فتابعه مروان وحاصر حمص حتى استسلمت. ثورات الخوارج ولم تكد الأحوال تستقر قليلاً ويعود إليها شيء من السكينة والهدوء ويفرغ الخليفة مروان لإدارة دولته التي تأثرت كثيراً بانقسام البيت الأموي، واحتماد الصراع بين أبنائه، حتى فاجأه اندلاع ثورات في أماكن مختلفة من أنحاء دولته، فشبت ثورة عارمة قادها عبد الله بن معاوية من أحفاد جعفر بن أبي طالب في العراق فيما بين سنتي (127-129هـ = 744-746م)، كما اشتعلت في الوقت نفسه فتنة هائلة للخوارج بقيادة الضحاک بن قيس الشيباني في العراق وقويت هذه الفتنة بانضمام بعض أبناء البيت الأموي، وهدّدت سلطة الخلافة بكثرة أتباعها، ولولا يقظة مروان بن محمد لعصفت بالدولة فتعامل معها بكل حزم وقوة حتى نجح في القضاء عليها سنة (129هـ -

746م). وقبل أن ينتهي مروان من القضاء على ثورة الضحاک بن قيس وخلفائه من الخوارج في العراق والجزيرة حتى

شبت ثورة الخوارج في جنوبي الجزيرة العربية بقيادة أبي حمزة الخارجي سنة (128هـ = 745م) وبدأت من حضرموت وزحفت إلى مكة والمدينة، واستولت عليها، واتجهت إلى الشام مهددة أمن الخلافة الأموية، فاضطر مروان على الرغم من الأخطار المحدقة به أن يرسل جيشًا للقاء الخوارج، فتقابل الفريقان في "وادي القرى"، وانهت المعركة بهزيمة الخوارج وقتل قائدهم. ظهور العباسيين وفي الوقت الذي كان فيه مروان يقضي على الفتن والثورات ويعيد إلى الدولة هيبتها كان العباسيون يضعون الخطط الأخيرة للقيام بحركتهم للانقضاض على الدولة، منتهزين انشغال الدولة بالثورات التي انبعثت في معظم أنحاءها وكلفتها ثمنًا غاليًا من الأموال والأرواح للقضاء عليها. وكان العباسيون قد انتقلوا بعد مرحلة الدعوة السرية، وجذب الأعوان والأنصار إلى مرحلة العمل المسلح للقضاء على الأمويين، ولم تكن هناك فرصة مواتية أسنح مما كانت عليه الدولة الأموية في هذه الفترة، ولم يكن هناك مكان أصلح لبدء حركتهم من خراسان ملتمعي أنصارهم وأعوانهم، وكانت هناك فتنة بين العرب اليمنية والمضربية ساعدت على إنجاح مهمة العباسيين، وفوق ذلك قاد ثورة العباسيين أبو مسلم الخراساني وهو رجل من أكفأ القادة وأمهرهم في ميادين القتال والحروب. وفي غمرة انشغال مروان بن محمد بأحوال الدولة المضطربة فاجأته ثورة العباسيين في خراسان سنة (129هـ = 746م) وانتقلت كالسيل المنهمر براياتها نحو العراق مكتسحة كل قوة للأمويين أمامها ولم تنجح محاولة واحدة في إيقافها حتى دخلت الكوفة، وأعلنت قيام الدولة العباسية سنة (132هـ = 750م) ومبايعة أبي العباس السفاح بالخلافة. النهاية الحزينة وفي أثناء ذلك كان مروان بن محمد يستعد للقاء الحاسم لاستعادة دولته ورد العباسيين، فتحرك بقواته من حران إلى الموصل، والتقى بالعباسيين عند نهر الزاب الكبير -أحد روافد دجلة-، ودارت بينهما معركة هائلة لم يستطع جيش الأمويين على ضخامته أن يحسمها لصالحه، فحلت بهم الهزيمة في (جمادى الآخرة 132هـ = يناير/ فبراير 750م)، وفرَّ مروان بن محمد من أرض المعركة، وظل ينتقل من بلد إلى آخر يستعين بالناس فلا يجد معينًا فقد أدبرت عنه الدنيا، وانصرف عنه الأنصار، وانتهت به الحال إلى مصر، فدخلها طلبًا للنجاة والعباسيون من ورائه يتعقبونه، حتى لحقوا به

وقتلوه في قرية تسمى "زاوية المصلوب" التابعة لبوصير الواقعة جنوبي الجزيرة في (I3 من ذي الحجة 132هـ = 23 من يوليو 750م)، وبوفاته انتهت الدولة الأموية في المشرق، وقامت الدولة العباسية.

الثورة العباسية على الأمويين

والتي تدعى أحياناً بـ ثورة السواد، هي ثورة هاشمية كبرى خرجت من ولاية خراسان في شرق دولة الخلافة وزحفت باتجاه بقية الولايات في الغرب حتى وصلت إلى العراق ثم الشام وباقي أنحاء دولة الخلافة، وكان هدفها الرئيسي هو إنهاء الحكم الأموي للدولة الإسلامية والتي حكم فيها الأمويين بين 661 إلى 750 م (حيث دامت 89 عاماً) وقد سَنُوا سنتة الوراثة في الحكم، وقد كانت قيادة الثورة أساساً من بني العباس وهم سلالة عربية هاشمية تعد السلالة الثانية العربية في الخلافة الوراثة بعد بني أمية فاستولت على معظم أنحاء البلاد وأمنوها ودامت فعلياً لـ 508 أعوام إلا أنها مرت بمراحل من القوة ثم الضعف وتراجع النفوذ والانحسار بعد حوالي 100 عام.

وأما أسباب الثورة فقد كانت واضحة وجلية آنذاك، فقد استقرد بني أمية بالخلافة بعد ثلاثة عقود من وفاة النبي مُحَمَّد وتحديداً بعد انتهاء الخلافة الراشدة مباشرة بعد تنازل الخليفة الحسن بن علي عن الخلافة لـ معاوية بن أبي سفيان الأموي كي تجتمع الأمة بعد تفرقها على إثر مقتل الخليفة عثمان وعُرفت آنذاك بـ عام الجماعة، وقد توسع الأمويون بشكل كبير تدريجياً على مرور السنين فحكموا إمبراطورية مترامية الأطراف تحكم سكاناً غالبيتهم من غير العرب وقد تمت معاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية بغض النظر عما إذا كانوا قد اعتنقوا الإسلام أم لا وهو ما يتعارض مع مبدأ الأخوة الإسلامية شرعاً وأنه لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، فقد أدى هذا السخط إلى تأليب الرأي العام ومع مرور الوقت استغل الأئمة العباسيون الأوائل هذا الغضب وحولوا أنظار اهتمامهم نحو خراسان لإنماء أنصارهم (وهي منطقة كبيرة تمتد من شرق إيران إلى غرب أفغانستان اليوم) وليجدوا الناس آنذاك في ثورة

العباسيين الخلاص لإعادة اعتبارهم مع اختلاف قومياتهم وعقائدهم وبالتالي يتمكن العباسيون من أن يتربعوا على عرش الخلافة والقيادة.

ومما زاد من قوة الحجاج كان قتل الحسين بن علي وسي أهل بيته فيما يعرف بـ معركة كربلاء وبعد أجيال تم قتل حفيده زيد والقضاء على ثورتيهما بشكل دموي ما أثار حفيظة العالم الإسلامي فهم أيضاً أبناء عمّ العباسيين فضلاً عن أسباب أخرى مثل تفضيل القيسيين على اليمانيين في بعض الأحيان إضافة إلى فساد بعض الخلفاء الأمويين خاصة في الفترة الأخيرة واقتتالهم بين بعض كما أن ثورة البربر قد حققت الاستقلالية عن الحكم الأموي بالقوة في ما يعرف اليوم بمنطقتي الجزائر والمغرب فكانت هذه الأسباب كافية إلى أن تهيء الأسباب للقضاء على حكم الأمويين.

ومما يعزز من شرعية الثورة العباسية بحسب داعميتها هو أنهم من نسل العباس بن عبدالمطلب عمّ النبي محمد وقد رفعوا شعار "الرضا من آل محمد" ولبسوا السواد وتبنوه لعدة أسباب، وقد شكلت هذه الثورة نهاية إمبراطورية ذو نزع عربية وبداية دولة أكثر انفتاحية متعددة الأعراق في الشرق الأوسط كما أنها فتحت المجال للعلوم والترجمات وكانت حقيبتها تمثل العصر الذهبي للإسلام وتشتهر باعتبارها واحدة من أكثر الثورات المنظمة في التاريخ، كما تعد نظرياً أطول خلافة إسلامية على مرور التاريخ حيث استأنف الحكم العباسي (صورياً) في القاهرة بعد عدة سنوات من الغزو المغولي للعاصمة العباسية بغداد عام 1258، وقد قامت من جديد في القاهرة بدعوة من المماليك منذ 1261 حتى 1517 بإجمالي 767 عاماً من وجود منصب الخليفة العباسي.

الخلفية

لجول عقد الـ 740، وجدت الدولة الأموية نفسها في حالة حرجة. فقد أدت أزمة الخلافة في 744 إلى الفتنة الثالثة، والتي اندلعت في جميع أنحاء الشرق الأوسط لمدة ثلاث سنوات. في العام التالي قاد الضحاك بن قيس الشيباني ثورة للخوارج استمر حتى عام 746. بالتزامن مع ذلك اندلع تمرد كرد فعل على قرار مروان بن محمد بنقل العاصمة من دمشق إلى حران، ما أدى إلى تدمير مدينة حمص أيضاً في 746. لم يكن مروان بن محمد قادراً حتى عام 747 على تهدئة الولايات؛ وبدأت الثورة العباسية خلال أشهر.

عين نصر بن سيار حاكماً لخراسان من قبل هشام بن عبد الملك عام 738. وتولى منصبه طوال حرب الخلافة، وعينه مروان بن محمد حاكماً في أعقاب ذلك.

كان حجم خراسان الواسع والكثافة السكانية المنخفضة يعنيان أن السكان العرب - العسكريين والمدنيين - عاشوا إلى حد كبير خارج الحاميات التي بنيت خلال انتشار الإسلام. وكان هذا على عكس بقية الولايات الأموية، حيث كان العرب يميلون إلى عزل أنفسهم في الحصون وتجنب التفاعل مع السكان المحليين. ترك المستوطنون العرب في خراسان أسلوب حياتهم التقليدي واستقروا بين الشعوب الإيرانية الأصلية. بينما كان الزواج المختلط مع غير العرب في أماكن أخرى من الإمبراطورية غير مستحب أو حتى محظوراً، أصبح شيئاً فشيئاً عادة في شرق خراسان. وبدأ العرب بتبني الزي الفارسي، ومع تأثر اللغتين ببعضهما تراجعت الحواجز العرقية.

الأسباب

جاء دعم الثورة العباسية من أشخاص من مختلف العرقيات والمذاهب الفكرية، حيث دعم معظم المجتمع تقريباً المعارضة المسلحة للحكم الأموي بهدف التخلص منه. وإن كان واضحاً بشكل خاص بين المسلمين المنحدرين من أصول غير عربية، وعلى الرغم من استياء المسلمين العرب من الحكم الأموي والسلطة المركبة على أنماط حياتهم

البدوية. فقد دعم كل من السنة والشيعة الجهود المبذولة للإطاحة بالأمويين، كما فعل الرعايا غير المسلمين في الخلافة الأموية الذين استاءوا من التمييز الديني.

الاستياء بين المسلمين الشيعة

بعد معركة كربلاء التي أدت إلى مذبح الحسين بن علي حفيد محمد، وأقاربه ورفاقه على يد الجيش الأموي عام 680 م، استخدم الشيعة هذا الحدث كشعار حشد للمعارضة ضد الأمويين. كما استخدم العباسيون ذكرى كربلاء على نطاق واسع لكسب التأييد الشعبي ضد الأمويين.

كانت الحركة الهاشمية (طائفة فرعية من الكيسانيين الشيعة) مسؤولة إلى حد كبير عن بدء الجهود النهائية ضد الدولة الأموية، في البداية بهدف استبدال الأمويين بعائلة حاكمة من أسرة علي. إلى حد ما حمل التمرد ضد الأمويين ارتباطاً مبكراً بالأفكار الشيعية. وقد حدث بالفعل عدد من الثورات الشيعية ضد الحكم الأموي، على الرغم من أنهم كانوا صريحين بشأن رغبتهم في أن يصبح الحاكم من أسرة علي. حارب زيد بن علي الأمويين في العراق، بينما أسس عبد الله بن معاوية حكماً مؤقتاً على بلاد فارس. ولم يؤد قتلها إلى زيادة المشاعر المعادية للأموية بين الشيعة فحسب، بل أعطى أيضاً الشيعة والسنة في العراق وبلاد فارس شعار حشد مشترك. في الوقت نفسه أدى القبض على شخصيات المعارضة الشيعية الرئيسية وقتلهم إلى جعل العباسيين المنافسين الواقعيين الوحيدين على الفراغ الذي تركه الأمويون.

الترم العباسيون الصمت بشأن هويتهم، قائلين ببساطة أنهم يريدون حاكماً من سلالة محمد الذي يوافق المجتمع المسلم على اختياره خليفة. افترض العديد من الشيعة بطبيعة الحال أن هذا يعني وجود حاكم من أسرة علي، وهو اعتقاد شجعه العباسيون ضمناً لكسب دعم الشيعة. على الرغم من أن العباسيين كانوا ينتمون إلى قبيلة بني هاشم، خصوم الأمويين، يبدو أن كلمة «الهاشمية» تشير تحديداً إلى عبد الله بن محمد بن الحنفية، حفيد علي وابن محمد بن الحنفية.

وفقاً للروايات التاريخية فقد توفي عبدالله بن محمد بن الحنفية عام 717 في الحيمة في منزل الإمام محمد بن علي العباسي، رب الأسرة العباسية، وقبل أن يموت عين محمد بن علي خلفاً له. وعلى الرغم من اعتبار الحكاية ملفقة، فقد سمحت للعباسيين في ذلك الوقت مجشد مؤيدي ثورة المختر الثقفي الفاشلة، الذين قدموا أنفسهم على أنهم من أنصار محمد بن الحنفية. وبحلول الوقت الذي كانت فيه الثورة تتقدم، كان معظم الشيعة الكيسانيين قد نقلوا ولائهم للسلاطة العباسية (في حالة الهاشمية)، أو تحولوا إلى فروع أخرى من الشيعة والكيسانية التي لم يعد لها وجود.

الاستياء بين المسلمين السنة غير العرب

تذكر الدولة الأموية على أنها دولة عربية تتمحور حول العرب، يديرها ولمنفعة أولئك الذين كانوا عرباً من الناحية الإثنية على الرغم من أنهم مسلمون في العقيدة. استاء المسلمون غير العرب من وضعهم الاجتماعي الهامشي وسرعان ما انجروا إلى جانب معارضة العباسيين للحكم الأموي. وقد سيطر العرب على البيروقراطية والجيش، وسكنوا في حصون منفصلة عن السكان المحليين خارج شبه الجزيرة العربية. وحتى بعد اعتناقهم الإسلام، لم يتمكن غير العرب أو الموالي من العيش في هذه المدن. ولم يُسمح لغير العرب بالعمل لدى الحكومة ولا يمكن أن يشغلوا مناصب الضباط في الجيش الأموي ولا يزال يتعين عليهم دفع ضريبة الجزية لغير المسلمين. وتعرض غير المسلمين في ظل الحكم الأموي لنفس الأوامر. كان التزاوج العرقي بين العرب وغير العرب نادراً. وعندما كان ذلك يحدث اقتصر فقط على زواج رجل عربي بامرأة غير عربية، في حين أن الرجال غير العرب عموماً لا يتمتعون بحرية الزواج بامرأة عربية. بدأ اعتناق الإسلام بشكل تدريجي. وإذا رغب غير العرب باعتماد الإسلام، فلا يتعين عليهم فقط التنازل عن أسمائهم، بل يجب عليهم أيضاً أن يظلوا مواطنين من الدرجة الثانية. ويجري «تبني» غير العرب من قبل القبائل العربية، على الرغم من أنهم لم يتبنوا اسم القبيلة في الواقع لأن ذلك قد يؤدي إلى تلوث النقاء العرقي العربي المتصور. بدلاً من

ذلك أخذ غير العرب الاسم الأخير «مُحرّر (الاسم القبيلة)»، حتى لو لم يكونوا عبيدًا قبل اعتناق الإسلام. وهذا يعني أنهم كانوا خاضعين للقبيلة التي رعت اعتناقهم له.

على الرغم من أن معتقّي الإسلام شكّلوا ما يقرب من 10% من السكان الأصليين - معظم الناس الذين يعيشون تحت الحكم الأموي لم يكونوا مسلمين - إلا أن هذه النسبة كانت كبيرة بسبب العدد القليل جدًا من العرب. وبالتدرّج فاق عدد المسلمين غير العرب عدد المسلمين العرب، ما تسبب في قلق النبلاء العرب. اجتماعيًا طرح هذا مشكلة حيث اعتبر الأمويون الإسلام ملكًا للعائلات العربية الأرستقراطية. وكانت هناك مشكلة مالية كبيرة إلى حد ما جرى طرحها على النظام الأموي أيضًا. إذا توقف معتقو الإسلام الجدد من الشعوب غير العربية عن دفع ضريبة الجزية التي نص عليها القرآن لغير المسلمين، فإن الإمبراطورية ستفلس. وأدى هذا النقص في الحقوق المدنية والسياسية في نهاية المطاف إلى دعم المسلمين غير العرب للعباسيين، على الرغم من كونهم من العرب أيضًا.

حتى مع تبني الحكام العرب للأساليب الإيرانية الأكثر تطورًا في الإدارة الحكومية، كان غير العرب ممنوعين من تولي مثل هذه المناصب. ولم يُسمح حتى لغير العرب بارتداء الملابس ذات الطراز العربي، وكانت مشاعر التفوق العرقي العربي قوية جدًا والتي غرسها الأمويون. أدى الكثير من السخط الناجم عن هذا إلى ظهور حركة الشعوبية، وهي تأكيد على المساواة العرقية والثقافية لغير العرب مع العرب. اكتسبت الحركة دعمًا بين المصريين والآراميين والبربر، على الرغم من أن هذه الحركة كانت أكثر قوة بين الشعب الإيراني.

ثانيا

سقوط الدولة الإسلامية العباسية

نكبة بغداد

وفي سنة 640 هـ الموافقة لسنة 1242م تولى أبو عبد المجيد عبد الله المستعصم بالله أمر الخلافة، ويبدو أنه لم يكن خيراً من أسلافه، إذ انصف بالطيش واللامبالاة والتهور ومال إلى الشهوات الدنيوية، وفق ما ورد في المصادر الإسلامية القديمة، فقد وصفه ابن كثير قائلاً: «كَانَ فِيهِ لِينٌ وَعَدَمٌ تَبْقِظٌ وَمَحَبَّةٌ لِلْمَالِ وَجَمْعُهُ». ووصفه المؤرخ ابن أبيك الدواداري قائلاً: «كَانَ فِيهِ هَوَجٌ، وَطَيْشٌ، وَظُلْمٌ، مَعَ بَلَهٍ، وَضِعْفٍ، وَانْقِيَادٍ إِلَى أَصْحَابِ السُّخْفِ. يَلْعَبُ بِطُيُورِ الْحَمَامِ، وَيَرْكَبُ الْجَمِيرَ الْمُضْرِبَةَ الْفَرَّءَ». أما عن الأحوال الداخلية في بغداد والعراق حينذاك، فالواقع أنها كانت سيئة جداً نظراً لعدم جدية المستعصم في إدارة الشؤون العامة، فقد أصاب بغداد في أواخر صيف سنة 654 هـ الموافقة لسنة 1256م سيلاً ضخماً أغرقها وأزال بيوتاً ومتاجر كثيرة برمتها، وفشا السلب والنهب، وخربت نصف أرض العراق، وأطلق على هذا السيل تسمية «الغرق المستعصي». كذلك، تعددت مراكز القوى آنذاك في عاصمة الخلافة، واختلفت فيما بينها بفعل عوامل سياسية ومذهبية. فأرباب السلطة، ومن بيدهم إدارة الشؤون العامة متنازعون متباغضون، كل منهم يحيك المؤامرات ضد الآخر، ويسفه رأيه أمام الخليفة الذي وقف عاجزاً عن وضع حد لهذه المشاكل. فترتب على ذلك أن اشتدت الخلافات بين وزير المستعصم مجاهد الدين الدوادار السني ومؤيد الدين بن العلقمي الشيعي، مما كان لها أثرها السيء في اضطراب الأمور وتقويض سلطة الخلافة. وكان سكان بغداد من المسلمين والنصارى واليهود، في تناحر مستمر وخلاف مذهبي مستحکم، خاصة بين المسلمين أنفسهم، أي بين أكبر طائفتين: أهل السنة والجماعة والشيعية الاثنا عشرية، كما كانوا يختلفون في المسائل السياسية. وبعد الغرق المستعصي هاج مجاهد الدين وابن العلقمي على بعض، فانتشرت الاضطرابات بين السنة والشيعية نتيجة هذا الخلاف بين أقوى رجلين في المدينة، وامتدت الفتنة حتى شملت أرض الجزيرة الفراتية، وتحوّل الأمر إلى ما يشبه حرباً أهلية.

هولاكو يقضي على دولة العباسيين

اجتياح المغولي لبغداد هو الاصطلاح الذي يُشير إلى دخول المغول بقيادة هولاكو خان حاكم الخانية فارس مدينة بغداد حاضرة الدولة العباسية وعاصمة الخلافة الإسلامية يوم 9 صفر 656 هـ الموافق فيه 10 شباط (فبراير) 1258م، بتكليف من الخاقان الأكبر منكو خان الذي طلب من أخيه هولاكو استكمال فتوحات المغول في جنوب غرب آسيا التي كان قد بدأها جدهما جنكيز خان، وهو ما قام به هولاكو حيث تمكن جيشه من اقتحام بغداد بعد أن حاصرها 12 يوماً، فدمرها وأباد معظم سكانها.

كان المغول قبل اكتساحهم بغداد قد أسقطوا الدولة الخوارزمية التي شكّلت خط الدفاع الإسلامي الأول ضدّ الهجمات المغولية، وتمكنوا من إبادة بعض الجماعات التي عجز عنها المسلمون وشكّلت مصدر إزعاج لهم طيلة سنوات، مثل الحشاشين الذين هدموا معقلهم في الموت بإقليم جيلان شمال فارس. وبسقوط الدولة الخوارزمية زال من أمام المغول الحاجز الذي يحول دون تقدّمهم غرباً عبر فارس ووصولاً إلى العراق. وأرسل هولاكو إلى الخليفة العباسي أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله يطلب إليه أن يهدم حصون بغداد ويطمّر الخنادق المحفورة حولها كونه لم يُرسل إليه عسكرياً ليساعده في حصار الموت زُعم أنّه أظهر الطاعة والخضوع لسلطة المغول، وحاول الخليفة استرضاء هولاكو وبعث إليه برسالة يستلطفه وأرفقها بالهدايا، لكنّ جواب هولاكو كان عبارة عن التهديد والوعيد باجتياح الممالك العباسية وإفنائها عن بُكرة أبيها.

شكّل اجتياح المغول لبغداد ودكهم معالم الحضارة والعمران فيها وقتلهم أهلها كارثة كبرى للمسلمين، بل كارثة الكوارث في زمانها. إذ احترقت الكثير من المؤلفات القيمة والنفيسة في مختلف المجالات العلمية والفلسفية والأدبية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، بعد أن أضرم المغول النار في بيت الحكمة، وهي إحدى أعظم مكاتب العالم القديم آنذاك، وألقوا بالكتب في نهري دجلة والفُرات، كما فتكوا بالكثير من أهل العلم والثقافة، وقتلوا آخرين معهم إلى الخانية فارس،

ودَمَرُوا الكثير من المعالم العُمَرائية من مساجد وقصور وحدائق ومدارس ومُستشفيات. ومن نجا من الأهالي من المذبحة أُصيب بالأمراض والأدواء التي انتشرت في الجو نتيجة كثرة القتلى، وبعض هؤلاء مات أيضًا. نتيجة لذلك، عدَّ الكثير من المؤرخين المسلمين والغربيين سُقوط بغداد نهاية العصر الذهبي للإسلام، فيما يراه المؤرخون المعاصرون بداية انحدار الحضارة الإسلامية وتراجعها، ذلك لأنَّ بعض المنجزات الحضارية استمرَّت بالظهور (ولو على نحو أقل) حتَّى ذروة العصر العثماني وتحديدًا زمن السلطان سليمان القانوني.

ظهر مع سُقوط وتدمير بغداد العديد من التكهّنات والتفسيرات والنظريات التي ما زال الكثير منها غير مُؤكد أو موضع جدالٍ كبيرٍ بين المؤرخين والمُطالعين، نظرًا لما ينطوي عليه من اتهاماتٍ تاريخيةٍ خطيرة. فقد قيل أنَّ دُخول المغول إلى بغداد كان بِخيانة الوزير ابن العلقمي شيعي المذهب، وأنَّ شيعة بغداد تعاونوا مع المغول اتفقًا من الخليفة الذي كان يُعاملهم بِعُنصرية، فيما أنكر مؤرخون آخرون هذا الكلام مُؤكدين أنَّ ابن العلقمي كان ناصحًا للخليفة، لكنَّ الأخير لم يُصغ إليه. كذلك، قيل بأنَّ الصليبيين في الشَّام كانوا على اتصالٍ مع المغول ويُشجعونهم على غزو ديار الإسلام، كما قيل أنَّ البابا نفسه بعث رُسلًا إلى هولاكو يُحثُّه على ذلك.

من أسباب نهاية الدولة العباسية

دخول عناصر جديدة غير عربية

تعدد ولايات العهد

اتساع رقعة الدولة

النزاعات بين الخلفاء الإسلامية

انفصال بعض الولايات

ضعف الخلفاء

إنهاك خزينة الدولة

دخول عناصر جديدة غير عربية : لقد قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس مما أدى إلى تقلد الفرس أهم المناصب داخل الدولة، الأمر الذي كان من أهم أسباب سقوط الدولة العباسية حيث كانوا يحاولون نقل الخلافة لمركز خراسان ولكن تصدى لهم الخلفاء في هذا التوقيت ومنعواهم عن القيام بذلك، إلى أن تمكن الأتراك من التدخل في كل ما يتعلق بالسلطة وأمور الخلافة وأصبحت لهم صلاحية التحكم في التنصيب أو العزل.

تعدد ولايات العهد : حيث قام هارون الرشيد بتولية العهد لجميع أبناءه الأمر الذي كان عامل من عوامل ضعف الدولة العباسية ونهايتها ومدة حكمها بسبب كثرة الحروب التي نشبت بينهم من أجل الصراع على تولي الحكم.

اتساع رقعة الدولة : اتسعت حدود الدولة العباسية لتمدد إلى حدود الصين وحتى المحيط الأطلسي، وقد تسبب حالة الترف والبدخ التي عاشها الخلفاء في تلك الفترة إلى ضعف قبضتهم على البلاد وسيطرتهم على أطراف الدولة المتسعة.

النزاعات بين الخلافات الإسلامية : كان من أسباب ضعف وسقوط الدولة العباسية الحروب والصراعات التي دارت بين الخلافة العباسية والخلافة الأموية في الأندلس والخلافة العبودية في شمال إفريقيا كذلك.

انفصال بعض الولايات : تسبب اتساع رقعة الدولة العباسية إلى ضعف سيطرة الخلفاء عليها وتبع ذلك العديد من الصراعات التي تسببت في انفصال الولايات ومن بينها:

الدولة الطولونية والإخشيدية في مصر والشام والدولة الزيدية، والصفارية، والسامانية، والبويهية في فارس .

دولة السلاجقة في العراق وفارس .

الدولة الأموية في الأندلس .

الدولة الأغالبة، والأدارسة، والفاطميين .

دولة الموحدين في شمال أفريقيا .

دولة الحمدانيين في الأندلس .

ضعف الخلفاء : لقد اتجه الخلفاء وأبنائهم إلى الشهوات وغرقوا في الملذات، وفك أحكامهم على الدولة وحدودها، وظهر ما يُعرف بالزنادقة والعديد من الطوائف الأخرى مثل: المعتزلة، و الرواندية، والخزمية وانتشرت الصراعات فيما بينهم مما أدى إلى انقسام الدولة وتشتتها .

إنهاك خزينة الدولة : تبج عن كثرة الصراعات والخلافات والحروب التي خاضتها الدولة العباسية مع الدول المجاورة من أجل اتساع مساحتها إلى إنهاك خزينة الدولة وسوء الأحوال الاقتصادية .

قامت الدولة العباسية عام هجري عام 132 هجري ويوافق 750 ميلادي ، واستمرت الدولة العباسية أطول فترة في نظام الخلافة الإسلامي ، وانتهت على يد المغول في عام 656 هـ/ 1258 م .

استمرت الدولة العباسية نحو 5 قرون حوالى 524 عاماً .

وذلك من عام 132 حتى 656 هجرياً ، ومر 37 خليفة في هذه الفترة وكان المستعصم بالله هو آخر من تولى خلافة الدولة .

انتهت الخلافة العباسية عام 656م بغزو المغول بغداد بقيادة هولاكو وقتل الخليفة المستعصم بالله .

تُعد الخلافة العباسية (Abbasid Caliphate)، الخلافة الثالثة التي جاءت بعد الخلافة الراشدة والخلافة الأموية، حيث نشأة الدولة العباسية في عام 750 ميلاديّاً بعد أن أطاحت بالخلافة الأموية وحتى بعد الغزو المغولي عام 1519 ميلادي .

قد أطلق اسم الدولة العباسية عليها هذا الاسم نسبة إلى اسم عم النبي محمد صل الله عليه وسلم وهو العباس رضي الله عنه، حيث بدأت مع الخلافة العباسية عهد جديد للخلافة الإسلامية التي ركزت على منطقة شرق إفريقيا وليس كما فعلت الخلافة الأموية التي كان تركيزها على دول البحر المتوسط وشمال إفريقيا وجنوب أوروبا .

وقد تمّ نقل عاصمة الدولة العباسية إلى مدينة بغداد الجديدة، حيث ساعد الفرس العباسيين على قيام دولتهم بعد أن عزّلمهم الأمويين من مناصبهم الكبرى، وانعكس ذلك على مدينة بغداد لتصبح أكثر ازدهاراً وأجمل مدن العالم حيث انتشرت فيها كافة أشكال العلوم والفنون المختلفة .

واستمرت بغداد عاصمة الدولة إلى أن تمّ نقلها إلى سامراء في عهد الخليفة المعتصم حيث أُطلق عليها لقب سر من رأى، إلى أن أعيدت بغداد العاصمة مرة أخرى ولكن بعد مرور أربعين عام، وازدهرت العلوم والفنون والحياة الثقافية حيث تمّ ترجمة عدد كبير من الكتب العلمية من الإغريقية والهندية إلى اللغة العربية، ووصلت الدولة العباسية إلى

أبهى عصورها عندما تولى حكمها الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون، إلى أن بدأت في الضعف وانهارت على يد المغول.

العصر العباسي الأول : لقد قسم المؤرخون مدة حكم الدول العباسية إلى فترتين مرت بها الخلافة العباسية بالعديد من مراحل القوة وانتهت تدريجياً بالضعف، حيثُ بدأ العصر العثماني الأول عام 750م وحتى 847م، ويمثل عصر القوة والازدهار للدولة العثمانية وقوة إحكام الخلفاء السيطرة على مساحة الدولة العباسية حيثُ استطاع حكام العصر العباسي الأول من إخماد أي محاولة للثورة على البلاد وعملوا على تقوية وحدة البلاد وجيشها .

العصر العباسي الثاني : بدأ بتولي الخليفة المتوكل الحكم في عام 847م وانتهى في عام 946م مع حكم الخليفة المستكفي، وتميز هذا العصر بضعف سيطرة الخلفاء على أمور البلاد وعدم قدرتهم على أحكام مساحة الدولة الشاسعة، بالإضافة إلى دخول الأتراك البلاد وتقاليدهم العديد من المناصب المهمة في البلاد واستطاعوا إحكام سيطرتهم على البلاد واستولوا على الحكم وأعلن البويهيين في كلٍّ من خراسان وأصفهان استقلالهم عن الدولة العباسية وأيضاً الحمدانيون في الموصل، والإخشيدي ببلاد الشام ومصر، وديار بكر وربيعة ومصر كذلك .

عوامل ضعف الدولة العباسية ونهايتها ومدة حكمها

لم يقتصر سقوط الدولة العباسية على غزو المغول لها ولكن وجود مجموعة من العوامل ساعدت على ذلك ومن أهمها ما يلي:

ضعف خلفاء الدولة العباسية .

فقد الخلفاء إحكام سيطرتهم على المساحة الكبيرة للدولة .

انفصال ولايات الدولة العباسية وأصبحت مقسمة لدويلات مستقلة بسبب سيطرة مجموعة من القادة الكبار عليهم وحصول على موافقة الخليفة بدويلاتهم.

تبع عن ظهور الدويلات انكماش وصغر مساحة الدولة العباسية.

الغزوات الصليبية لبلاد المسلمين.

هجوم التتار على مدينة بغداد وغزوهم لبلاد المسلمين.

الصراعات التي نشبت بين الدولة العباسية والدول المجاورة.

خلفاء الدولة العباسية

تولي حكم الدولة العباسية منذ نشأتها مرورًا بفترة حكمها حتى ضعفها وسقوطها التي استمرت ما يقاربًا لثمانية قرون عدد كبير من الخلفاء، حيث وصل عدد الخلفاء الذين حكموا الدولة العباسية نحو ما يقارب 38 خليفة، ومن أهم الخلفاء الذين حكموا الدولة العباسية ما يلي:

الخليفة أبو العباس السفاح.

الخليفة أبو جعفر المنصور.

الخليفة محمد المهدي .

الخليفة هارون الرشيد .

الخليفة محمد الأمين.

الخليفة عبد الله المأمون.

الخليفة محمد المعتصم.

الخليفة المتوكل بن المعتصم.

الخليفة المقتدر بالله.

الخليفة محمد بن هارون

كم قرن استمرت الدولة العباسية

استمرت مدّة حكم الدولة العباسية منذ أنّ سيطرة الخلافة العباسية على الدولة الأموية في عام 750 ميلادياً وحتى الغزو المغولي في عام 1519 ميلادي ما يقارب الثمانية قرون، بالإضافة إلى الأسباب السابق ذكرها التي أدت إلى انهيار الدولة العباسية بعد غزو المغول، تمّ إعادة بناء الدولة من الجديد ولكن أصبح الخليفة العباسي مجرد رمزاً للوحدة الإسلامية

وتولى سلاطين المماليك حكم البلاد، إلى أنّ دخلت الجيوش العثمانية مصر وبلاد الشام وقامت بفتح مدنها ومحاصرة قلاعها وقتها تنازل آخر الخلفاء عن لقبه لسلطان آل عثمان سليم الأول، وتمّ نقل عاصمة الخلافة العثمانية الجديدة من القاهرة إلى القسطنطينية وتولى العثمانيين خلافة المسلمين.

الخليفة العباسي الأشهر

مع أنّ تولي قيادة الدولة العباسية عدد كبير من الخلفاء إلا أنّ الدولة شهدت أكبر فترة في تاريخها من التقدم والازدهار في عصر الخليفة هارون الرشيد، وهو أبو جعفر هارون بن المهدي بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي، وكان يُعرف بأبي جعفر وهو خامس الخلفاء العباسيين للدولة حيث تمّ توليه الخلافة بعد موت أخيه الخليفة الهادي عندما بلغ سن الخامسة والعشرين، وكان هارون الرشيد يحافظ على نشر تعاليم الدين الإسلامي وعُرف عنه حبه للشعر والأدب.

تداول السلطة في العهد الإسلامي منذ العهد الراشدي وحتى نهاية العهد العثماني

العهد الراشدي (II-40هـ/632-661م)

العهد الأموي (41-132هـ/661-750م)

العهد العباسي (132-656هـ/750-1258م)

I- العصر العباسي الأول (750-861م)

2- العصر العباسي الثاني (861-1258م)

الأدارة

الطولونيون

الحمدايون

الفاطيون

الإخشيدون

المزيدون

العقيليون

المرداسيون

المرابطون

الموحدون

الأيوبيون

المرينيون والوطاسيون

الحفصيون

العهد المملوكي (1250-1517)

العهد العثماني (1517-1924)

كان الإسلام نقطة تحول كبرى في الوطن العربي غيرت كل شيء تقريباً بما في ذلك نظام الحكم والمملك، وكان الوطن العربي قبل الإسلام موزعاً بين دولتي الروم والفرس، وكان للعرب قبلهما دول وممالك ممتدة في الشام والعراق واليمن .

بدأت دولة الإسلام في المدينة في عهد الرسول ثم امتدت لتشمل الجزيرة العربية، وبعد وفاة الرسول اختار المسلمون أبا بكر خليفة وتبعه عمر ثم عثمان ثم علي في عملية اختيار وتشاور، ولكن هذا المنهج المتقدم في اختيار الحاكم لم يستمر فقد حول معاوية الحكم إلى عائلي وبدأت الدول الإسلامية تقودها عائلات يتم انتقال السلطة فيها وراثياً .

وشهد التاريخ الإسلامي صراعاً وحروباً بين الدول والعائلات على السلطة بدأت بالصراع بين علي وأنصاره من جهة ومعاوية وأنصاره من جهة أخرى والذي تحول إلى صراع تاريخي امتد آثاره وتداعياته في التاريخ الإسلامي حتى اليوم، ثم انتهى حكم الأمويين بعد تسعين سنة من الحكم على يد أبناء عمومتهم العباسيين، وبرغم أن الدولة العباسية استمرت خمسمائة سنة فقد تفككت ولم يتجاوز نفوذها العراق بعد مائتي سنة من قيامها وحتى في العراق وبغداد فقد نازعها السلطة والنفوذ دول داخل الدولة مثل البويهيين، أو كانت السلطة الفعلية للجيش المكون من مقاتلين أتراك، وبقيت للعباسيين نوع من المكانة الروحية يستغلها قادة الجيش ووزراء القصر .

وبدأت الدول المستقلة في مصر على يد الولاة الذين كان الخلفاء العباسيون يعينونهم من القادة العسكريين مثل الطولونيين والإخشيديين، ونشأت دول أخرى في الأطراف والأقاليم مثل آل زنكي الذين ورثهم الأيوبيون، والأمويون في الأندلس، والمرابطون والموحدون والأدارسة والأغالبة والحفصيون والوطاسيون في شمال أفريقيا .

ثم أقام المماليك وهم من الجيش الذي كونه الأيوبيون دولة في مصر والشام والعراق، وخلفت العباسيين وإن أبتت على الخلافة الاسمية لهم، حتى جاءت الدولة العثمانية في أوائل القرن السادس عشر وبسطت نفوذها على الوطن العربي كله، ولكنها ضعفت أيضا وبدأت تقوم دول داخلها تعطيها سلطة رمزية او وجودا وحضورا جزئيا، مثل مملكة محمد على في مصر والبايات في الجزائر والدايات في تونس والأئمة الزيديين في اليمن والقبائل العربية في الخليج ونجد .

شهد التاريخ الإسلامي نوعين من الحكم: دول كبرى قائمة على أسر وعائلات وتتيح حكما لامركزيا في الولايات والأقاليم، كالعباسيين والأيوبيون والمماليك والعثمانيين، وحكم عائلات محلي مستقل في بلد أو إقليم .

وشهدت العائلات الحاكمة نفسها خلافات ونزاعات داخلية على الحكم مثل القتال بين الأمين والمأمون ابني هارون الرشيد لكنها حالات قليلة بالنسبة للصراع بين الدول والعائلات الذي كان سمة بارزة في التاريخ الإسلامي وتكاد كل دولة قامت وبسطت نفوذه قد حققت ذلك مجروب وصراعات ثم تأتي دولة أخرى تهزمها وهكذا .

ولكن أغرب ما شهده تاريخ السلطة هو ما كان متبعاً في الدولة العثمانية فهذه الأسرة التي حكمت لمدة تزيد على الستمائة سنة كان يرث العرش فيها أحد أبناء السلطان فيقتل إخوانه وفق قانون متبع هو "قتل الإخوة" وحبس المرشحين للخلافة في سجن داخل القصر السلطاني "أقفاص" وتوصل الخلفاء إلى هذا القانون بعد حروب أهلية طاحنة بين الأخوة كادت تعصف بالدولة العثمانية، وحدث أن السلطان محمد الثالث قتل عام 1595 تسعة عشر أخا

له واثنين من أبنائه، وصارت الأسرة الحاكمة مهددة بالفناء، وضعفت البنية الجسدية والنفسية لأبناء الأسرة حتى إن العديد منهم تولى السلطة وهو مصاب بالجنون او بالعلل والأمراض الجسدية، وكان الإعدام يشمل أحيانا الأعمام وأولاد الأخوة، وبرغم هذا كله فإن نصف سلاطين الدولة العثمانية قد جاءوا إلى الحكم بعزل أسلافهم.

العهد الراشدي (40IIهـ/632م-66Iهـ)

IIهـ/632م أبو بكر الصديق .

IIIهـ/634م عمر بن الخطاب .

23هـ/644م عثمان بن عفان .

35 - 40هـ /656-66Iم علي بن أبي طالب .

بعد وفاة الرسول اختار المسلمون أبا بكر خليفة لهم بعد سلسلة من المشاورات والخلافات بين المهاجرين والأنصار، واستقر الرأي على أن تكون الخلافة في قريش لأن العرب لا تدين إلا لهذا الحي، ولكن الخلاف التقليدي داخل قريش منذ الجاهلية فرض نفسه مرة أخرى، وبدأ بالظهور والتفاعل منذ مجيء الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

كان انتقال السلطة من خليفة إلى آخر يتم بالتشاور، فقد اختير أبو بكر أولاً في عملية تشاور طويلة ومعقدة انتهت بمبايعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة، وأوصى أبو بكر بالتشاور مع كبار الصحابة بالخلافة من بعده إلى عمر، وترك عمر الأمر من بعده في ستة من كبار الصحابة، هم عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير بن العوام، وسعيد بن زيد، وكان عبد الله بن عمر منسقا للمجلس ويرجح برأيه إذا تساوت الأصوات، واختار الستة من بينهم عثمان بن عفان .

كانت نهاية كل من عمر وعثمان وعلي بالقتل، قتل عمر علي يد عبد مجوسي (أبو لؤلؤة) وقتل عثمان في ثورة داخلية كانت بداية لحرب أهلية طويلة، وقتل علي يد أحد الخوارج (عبد الرحمن بن ملجم).

انتهى الصراع المسلح على السلطة بمبادرة من الحسن بن علي الذي تولى الخلافة بعد والده، ثم تنازل معاوية، وتولى الأمويون الحكم.

العهد الأموي (41-132هـ/661-750م)

استقر الحكم لمعاوية بن أبي سفيان بتنازل الحسن بن علي عن الخلافة الذي تولى الخلافة بعد والده، وتوقفت الحرب الأهلية التي استمرت خمس سنوات، ورتب معاوية الحكم من بعده لابنه يزيد، ومضى الحكم وراثيا من بعده.

استمرت الدولة الأموية تسعين عاما، وانتقل الحكم إلى أبناء عمهم العباسيين الذين ينتسبون إلى العباس عم الرسول، وكان ذلك بعد معركة وقعت بين الأمويين والعباسيين انتهت بهزيمة الأمويين، وجرت بعدها ملاحقات دموية لقادة الأمويين، قتل فيها آخر خليفة أموي وهو مروان الثاني، ومعظم أبناء البيت الأموي وكثير من قادة الأمويين وأنصارهم.

سلسلة الخلفاء الأمويين

معاوية بن أبي سفيان 41-60هـ/661-680م

يزيد الأول بن معاوية 60-64هـ/680-683م

معاوية الثاني بن يزيد 64-68هـ/683-684م

مروان بن الحكم 64-65هـ/684-685م

عبد الملك بن مروان 65-86هـ/685-705م

الوليد الأول بن عبد الملك

96-86هـ/705-715م

سليمان بن عبد الملك

99-96هـ/715-717م

عمر بن عبد العزيز

101-99هـ/717-720

يزيد الثاني بن عبد الملك

105-101هـ/720-724

هشام بن عبد الملك

125-105هـ/724-743م

الوليد الثاني بن يزيد الثاني (قتل)

126-125هـ/743-744م

يزيد الثالث بن الوليد الأول

إبراهيم بن الوليد الأول (قتل)

127-126هـ/744م

مروان الثاني بن محمد (الحمار) (قتل)

132-127هـ/744-750م

العهد العباسي (132-656هـ/750-1258م)

بدأت الخلافة العباسية بأبي العباس السفاح، ثم انتقلت إلى أخيه أبو جعفر المنصور، ومضت الخلافة في ذريته، وقد استمرت دولة العباسيين خمسمائة سنة، ولكن الدولة الإسلامية لم تستمر موحدة في ظلهم، فقد أنشأ الأمويون دولة جديدة في الأندلس، عندما تمكن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك من الفرار إلى الأندلس وأقام دولة أموية هناك مستقلة عن العباسيين، ونشأت دول أخرى كثيرة بعيدا عن العراق في شمال أفريقيا ثم في مصر وفي منتصف القرن الرابع زحف البويهيون إلى بغداد وفرضوا سلطتهم على الخلفاء العباسيين.

كان الخلفاء العباسيون سبعة وثلاثين خليفة من أشهرهم بعد المنصور المهدي، وهارون الرشيد، والمأمون، والمعتصم، وكان آخرهم المستعصم الذي قتله المغول عندما دخلوا بغداد عام 656 هـ، 1258 م .

واستدعى الظاهر بيبرس عام 1261م أحد أعمام آخر خليفة عباسي ونصبه خليفة على دولة المماليك ولكنها كانت خلافة اسمية، وقد استمرت هذه الخلافة حتى سقوط دولة المماليك على يد العثمانيين عام 1517. وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم العهد العباسي إلى عصيرين هما:

I- العصر العباسي الأول (750-861م)

ويبدأ هذا العصر من تأسيس الدولة العباسية على يد أبي العباس السفاح في سنة 749م وينتهي بقتل المتوكل على يد ابنه سنة 847م. وعلى الرغم من قوة الدولة وعدم ظهور منصب الوزارة بشكل رسمي فيها إلا أن مجموعة من خلفاء هذا العصر ماتوا قتلا كما هو الحال مع المتوكل.

سلسلة الخلفاء العباسيين في العصر الأول

أبو العباس السفاح

749-754

أبو جعفر المنصور

754-775

المهدي

775-785

الهادي

785-786

هارون الرشيد

786-809

الأمين (قتله أخوه المأمون)

809-8137

المأمون (دخل بغداد في 819)

813-819

إبراهيم المبارك (ابن المهدي)

817-819

المعتصم بالله

819-843

الواثق بالله

843-847

المتوكل بالله (قتله ابنه)

847-861

2- العصر العباسي الثاني (847-1258م)

ويبدأ هذا العصر مع بداية الفوضى العسكرية التي استطاع القادة العسكريون أن يمدوا من نفوذهم دخل مؤسسة الحكم. وبرزت في هذا العصر دول عديدة في بغداد مثل البويهيين، والسلاجقة، وفي خارجها مثل دول المغرب العربي العديدة. ويلاحظ أن عدد كبير من خلفاء العصر الثاني خرجوا من السلطة إما قتلاً أو خلعا.

سلسلة الخلفاء العباسيين في العصر الثا

المنتصر بالله (ابن المتوكل) 861-862م

توفي

المستعين بالله (ابن المعتصم)

866-862م

قتل

المعتز بالله

866-869م

قتل

المهتدي بالله (ابن الواثق)

869-870م

قتل

المعتمد على الله (ابن الواثق)

870-892م

توفي

المعتضد بالله (حفيد المتوكل)

892-902م

توفي

المكتفي بالله (ابن المعتضد)

902-908م

توفي

عبد الله المرتضى (ابن المعتز)

تولى يوما واحدا

قتل

المقتدر بالله (أخو المكتفي)

908-929

خلع

محمد القاهر (ابن المعتضد)

تولى يومين

خلع

المقتدر بالله (ابن المكتفي)

929-932

خلع وقتل

محمد القاهر (ابن المعتضد)

932-934م

خلع

الراضي بالله (ابن المقدر)

934-940م

توفي

المتقي لله

940-946

خلع

المطيع لله (ابن المتدي)

946-975م

توفي

الطائع لله (ابن المطيع)

975-991م

توفي

القادر بالله (حفيد المقدر)

١٠٣١-١٠٩١م

توفي

القائم بأمر الله (ابن القادر)

١٠٧٥-١٠٣١م

توفي

المقتدي بأمر الله

١٠٩٤-١٠٧٥م

خرج من بغداد على يد

السلجقة سنة ١٠٥٥م

المستظهر بالله (ابن المقتدي)

١١١٨-١٠٩٤م

قتل

المسترشد بالله (ابن المستظهر)

١١٣٥-١١١٨م

قتل

الراشد (ابن المسترشد)

1135-1136م

توفي

المقتفي لأمر الله (ابن المستظهر)

1136-1160م

المستجد بالله (ابن المقتفي)

1160-1170م

توفي

المستضيء بأمر الله (ابن المستجد)

1170-1180م

توفي

الناصر لدين الله (ابن المستضيء)

1180-1225م

توفي

الظاهر بأمر الله (ابن الناصر)

1225-1226م

المستنصر بالله (ابن الظاهر)

1226-1242م

توفي

المستعصم بالله (ابن المستنصر)

1242-1258م

قتله المغول

الأدارسة: المغرب: (172-314هـ / 789-926م)

تنتمي أسرة الأدارسة إلى إدريس من أحفاد الحسن بن علي الذي هرب من الحجاز بعد فشل ثورة العلويين على العباسيين عام 169 هـ / 786 م فاختره الزناتيون قائدا لهم، وأسس إدريس مدينة فاس وأقام دولة الأدارسة حتى قضى عليها أمويو الأندلس، ومن الأدارسة آل حمودة الذين حكموا فيما بعد في الأندلس في فترة حكم الطوائف.

سلسلة ملوك الأدارسة

إدريس الأول

793-789م

إدريس الثاني (ابن الأول)

828-793م

محمد المنتصر

836-828م

علي الأول

849-836

يحيى الأول

894م

يحيى الثاني

علي الثاني

يحيى الثالث (المقدم)

يحيى الرابع

922-905م

الحسن الحجام

926-922م

الطولونيون: مصر وسوريا(254-292هـ / 868-905م)

تمثل تجربة الطولونيين أول حكم محلي تحكم فيه أسرة أو دولة حكما مستقلا عن حكومة الخلافة المركزية، وقد كان مؤسس هذه الأسرة أحمد بن طولون جنديا تركيا (طولون تحريف لكلمة دولون ، وتعني بدر التمام) ووالده كان أحد الموالى الذين أهداهم ملك بخارى للخليفة العباسي المأمون، وقد جاء إلى مصر نائبا للحاكم العباسي فيها، لكنه استأثر بالحكم، ثم بسط سلطانه على الشام، وكان العباسيون مشغولين بمقاومة ثورة الزنج، وحكم بعد أحمد بن طولون ابنه خمارويه الذي عقد معه الخليفة العباسي المعتضد اتفاقا يقضي بمنحه هو وورثته الحكم في مصر والشام لمدة ثلاثين عاما على أن يؤدي للخليفة جعلا سنويا مقداره ثلاثمائة ألف دينار.

وبعد خمارويه بدأت الدولة الطولونية بالأفول، وأعاد الخليفة العباسي بسط نفوذ الدولة المركزية .

كانت الهيمنة في الدولة الطولونية للأتراك واليونان والنوبيين، وقد حكمها بعد خمارويه كل من جيش وهارون وشيبان حتى احتل جيش العباسيين مصر والشام بقيادة محمد بن سليمان .

الحمدانيون: سوريا والجزيرة (293-394هـ/905-1004م)

ينتسب الحمدانيون إلى قبيلة تغلب العربية التي استقرت منذ زمن بعيد في أرض الجزيرة (المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات ومركزها الموصل) ومؤسس هذه الأسرة هو حمدان بن حمدون، وقد اعتنق الحمدانيون المذهب الشيعي،

وكان الحسين بن حمدان قائدا عسكريا لدى العباسيين، واشتهر بعدائه للقرامطة، وكان أخوه عبد الله بن حمدان واليا للعباسيين على الموصل، وأصبح حاكما مستقلا واتخذ لقب "ناصر الدولة" ثم أخذ يوسع حدود سلطانه غربا، وتولى بعده ابنه أبو تغلب الملقب بالغضنفر، الذي دخل في معركة خاسرة مع البويهيين بقيادة عضد الدولة، وبعد موته أعاد البويهيون أخويه عبد الله وطاهر ليحكموا الموصل حكما مشتركا، ثم خسر الحمدانيون الموصل لصالح العقيليين، واستمر حكمهم تحت زعامة القائد الشهير سيف الدولة الحمداني في حلب، والذي دخل في معارك طويلة مع البيزنطيين، وتولى بعده ابنه سعد الدولة الذي ولي بعده ابنه سعيد الدولة فسيطر عليه خادم أبيه "لؤلؤ" الذي استقل عن الحمدانيين وحكم كوزير لدى الفاطميين ثم أوصى لؤلؤ لابنه من بعده.

السلسلة الحمدانية في الموصل وحلب

I- الحمدانيون في الموصل

عبد الله بن حمدان .

293هـ/905م

ناصر الدولة الحسن .

317هـ/929م

عدة الدولة أبو تغلب .

358هـ/969م

حكم البويهيين

369هـ/979م

إبراهيم والحسين (نصبهما البويهيون في الحكم بالاشتراك)

389-379هـ/981-991م

2- الحمدانيون في حلب

سيف الدولة علي الأول.

333هـ/945م

سعد الدولة شريف الأول.

356هـ/967م

علي الثاني.

381هـ/991م

شريف الثاني.

394هـ/1003م

الفاطميون: (297-567هـ / 909-1171م)

يزعم الفاطميون أنهم ينتسبون إلى الإمام علي، ويعتقد مؤرخون أنهم ينتسبون إلى عبید الله المهدي ويسمونهم "العبيديون" وهم من متطرفي الشيعة ويمثلون الحركة الإسماعيلية. وقد بدأ حكمهم في شمال أفريقيا على يد مؤسس الدولة الفاطمية عبید الله المهدي الذي جمع حوله عددا من قبائل البربر وأطاح بحكم الأغالبة ثم الأدارسة، وفي عام 358 هـ / 969 م استطاع القائد الفاطمي جوهر الصقلي أن يحتل مصر وأطاح بآخر حاكم إخشيدى، وبني مدينة القاهرة، ثم زحفوا إلى الشام وجعلوا أنفسهم أوصياء على الأماكن المقدسة في الحجاز. وتعاون الفاطميون مع البيزنطيين لمواجهة السلاجقة، وآل النفوذ الفعلي في أواخر الدولة الفاطمية إلى الوزراء، وقد انقسم الفاطميون إلى طائفتين، هما الحشاشون النزاريون (نسبة إلى نزار بن الحاكم بأمر الله، أحد أهم القادة الفاطميين) ومنهم القرامطة والإسماعيليون اتباع المستعلي بن الحاكم بأمر الله.

انتهت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي، الذي قاد جيش محمود نور الدين زنكي لاحتلال مصر.

سلسلة الحكام الفاطميين

عبید الله المهدي

297هـ/909م

القائم

322هـ/934م

المنصور

334هـ/934م

المعز

341هـ/953م

العزیز

365هـ/975م

الحاكم

386هـ/996م

الظاهر

411هـ/1021م

المستنصر

427هـ/1036م

المستعلي

487هـ/1094م

الأمير

495هـ/1101م

الحافظ

524هـ/1130م

الظافر

544هـ/1149م

الفائز

549هـ/1154م

العاقد

567-555هـ/1160-1172م

الإخشيديون (323-358هـ / 935-969م)

مؤسس هذه الدولة هو محمد بن طغج، وينحدر من أسرة عسكرية تركية عملت في خدمة العباسيين، وقد عينه الخليفة العباسي الرازي حاكماً على مصر، ولقبة "إخشيد" ويعني هذا اللقب الأمير أو الحاكم وكان يحمله الحاكم الإيرانيون المحليون، واستقل محمد بن طغج بالحكم وبسط سلطانه على أجزاء كثيرة من الشام، وولي الأمر بعده ابنه علي، وكان العوبة بيد الوصي عليه كافور الذي كان عبداً لدى الإخشيد، وبعد وفاة علي صار كافور هو الحاكم

الرسمي، ثم أعيد الحكم بعد كافور إلى أحد أحفاد محمد بن طغج، لكنه كان حاكما ضعيفا وكان آخر حاكم إخشيدية، فقد احتل الفاطميون مصر وأنشؤا الدولة الإخشيدية.

المزيدون: وسط العراق (350-545هـ/961-1150م)

ينتمي المزيدون إلى قبيلة بني أسد العربية، وكانوا من أقوى الشيعة اعتزازا بمذهبهم، وعلى الرغم من انتمائهم البدوي فقد كانوا على درجة عالية من التنظيم والبراعة السياسية، واستطاعوا البقاء في ظروف بالغة التعقيد، ودخلوا في سلسلة من التحالفات والصراعات مع العقيليين والفاطميين السلاجقة والعباسيين حتى قضى عليهم العباسيون.

سلسلة الحكام المزيبيين

سنة الدولة علي الأول بن مزيد .

350هـ/961م

نور الدولة دبس الأول .

408هـ/1018م

بهاء الدولة منصور .

474هـ/1081م

سيف الدولة صدقة الأول .

479هـ/1086م

نور الدولة ديبس الثاني .

١١٠٨هـ / ١٥٠١م

سيف الدولة صدقة الثاني .

١١٣٥هـ / ١٥٢٩م

محمد .

١١٣٨هـ / ١٥٣٢م

علي الثاني .

١١٤٥-١١٥٠م / ٤٥٤-٤٥٩هـ

العقيليون:العراق والجزيرة وشمال سوريا (380-489هـ / 990-1096م)

ينتمي العقيليون إلى تجمع عشائر "عامر بن صعصعة" وقد ورثوا الحمدانيين، وكانوا حلفاء للبويعيين، ثم حدثت خلافات كبيرة بينهم وتقسمت مناطق نفوذهم، وتحالفوا مع السلاجقة فترة من الوقت برغم أنهم شيعة، كما تحالفوا مع الفاطميين، وباتهاء دولتهم فقد انتهت الإمارات العربية لتحل محلها دول أخرى، مثل الفاطميين، والسلاجقة، والبويعيين، والأيوبيين، والمماليك، والعثمانيين الأتراك.

المرداسيون: حلب وشمال سوريا (414-472هـ / 1032-1079م)

ينتمي المرادسيون إلى قبيلة كلاب العربية، وقد هاجروا من الحلة في العراق، وكانوا يدينون بالمذهب الشيعي، واستطاعوا احتلال حلب بقيادة زعيمهم صالح بن مرداس، ولكنهم دخلوا في صراع مع الفاطميين، وقد انتهت دولتهم بحرب أهلية انقسموا فيها بين الأخوة المتصارعين على السلطة، ثم قضى عليهم العقيليون.

سلسلة الحكام المرادسيين

أسد الدولة صالح بن مرداس .

414هـ/1023م

شبل الدولة نصر الأول .

420هـ/1029م

معز الدولة ثمال .

433هـ/1041م

رشيد الدولة محمود .

452هـ/1060م

ثمال (للمرة الثانية) .

453هـ/1061م

عطية .

454هـ/1062م

محمود (للمرة الثانية) .

457هـ/1065م

جلال الدولة نصر الثاني .

466هـ/1074م

المرابطون: شمال أفريقيا (448-541هـ / 1056-1147م)

تنتمي دولة المرابطين إلى قبيلة صنهاجية وأسسها يحيى بن إبراهيم الذي أقام أربطة وحصونا للغزو والجهاد فسمي المجاهدون بالمرابطين، وكانت السلطة الروحية لعبد الله بن ياسين أحد كبارالفقهاء في المغرب وقد بنى المرابطون مدينة مراكش وتوسعت دولتهم في شمال أفريقيا والأندلس .

سلسلة حكام المرابطين

يحيى بن إبراهيم

يحيى بن عمر

إلى 1056م

أبو بكر الممتوني

توفي ١٠٨٨م

يوسف بن تاشفين

١٠٦١-١١٠٧م

علي بن يوسف بن تاشفين

١١٠٧-١١٤٢م

تاشفين بن علي

١١٤٢-١١٤٥م

إبراهيم بن تاشفين

خلال ١١٤٥م

إسحق بن إبراهيم

١١٤٥-١١٤٦م

الموحدون: شمال أفريقيا (٥٢٤-٦٦٧هـ / ١١٣٠-١٢٦٩م)

مؤسس هذه الدولة هو محمد بن تومرت الذي تلقى تعليمه في الشرق وتأثر بدعاة الإصلاح والزهد والتكشف وقد حظي بثقة زعماء قبيلة مصمودة المغربية وأعلن نفسه زعيما لإحدى الحركات الجماهيرية وأسس دولة الموحدين التي ورثت دولة المرابطين، ثم قام نائبه عبد المؤمن باحتلال أجزاء من الأندلس وأقام دولة قوية في إشبيلية وتوسعت دولة الموحدين في تونس وليبيا، وازدهرت في عهدهم العلوم والفلسفة، ومن علماء الدولة ابن طفيل وابن رشد وكلاهما كان طبيبا لسلطين الموحدين .

غلب على انتقال الحكم من أسرة إلى أخرى الصراع الدموي الذي كان ينهي حكم أسرة ويقدم أسرة أخرى

الأيوبيون (564هـ - القرن 9هـ/1169م-1260م)

ينتسب الأيوبيون إلى قبيلة هذباني الكردية، وأسرة الأيوبيين خدمت مع الأتابكة، وكان أيوب والد صلاح الدين وعمه شيركوه من أهم القادة لدى نور الدين زنكي، وكان شيركوه قائد جيش آل زنكي الذي استولى على مصر من الفاطميين، وبعد وفاته حل محله ابن أخيه صلاح الدين، المؤسس الحقيقي للأسرة الأيوبية الحاكمة، حيث قضى على الفاطميين، ثم ورث دولة الأتابكة، واستعاد الحكم السني على الشام ومصر، ووحد المسلمين في حروبه مع الصليبيين، وانتصر عليهم في معركة حطين، وكانت هذه المعركة بداية النهاية للصليبيين، وبعد وفاة صلاح الدين توزعت مملكته بين أفراد أسرته، ودبت الخلافات بين الأمراء الأيوبيين، وتوافقت هذه الخلافات مع حملة صليبية بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع، وكان الملك الصالح آخر ملك أيوبي يحضر، ومات في أثناء المعركة، فأخذ القادة المماليك زمام المبادرة بالتنسيق مع زوجة الملك الصالح شجرة الدر، وورثوا دولة الأيوبيين، وبدأت دولة المماليك.

1- سلاطين الأيوبيين في مصر

الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي .

564 هـ / 1169 م

الملك العزيز عماد الدين .

589 هـ / 1193 م

الملك المنصور ناصر الدين .

595 هـ / 1198 م

الملك العادل الأول سيف الدين .

596 هـ / 1200 م

الملك الكامل الأول ناصر الدين .

615 هـ / 1218 م

الملك العادل الثاني سيف الدين

635 هـ / 1238 م

الملك الصالح نجم الدين أيوب

637 هـ / 1240 م

الملك المعظم توران شاه

647 هـ / 1249 م

الملك الأشرف الثاني مظفر الدين .

648-650 هـ / 1250-1252 م

2 - سلاطين الأيوبيين في دمشق

الملك العادل الأول سيف الدين .

592 هـ / 1196 م

الملك الأفضل نور الدين علي .

582 هـ / 1186 م

الملك المعظم شرف الدين .

615 هـ / 1218 م

الملك الناصر صلاح الدين داود .

624 هـ / 1227 م

الملك الأشرف الأول مظفر الدين .

626 هـ / 1229م

الملك الصالح عماد الدين ، للمرة الأولى .

634 هـ / 1237م

الملك الكامل الأول ناصر الدين .

635 هـ / 1238م

الملك العادل الثاني سيف الدين .

635 هـ / 1238م

الملك الصالح نجم الدين أيوب ، للمرة الأولى .

636 هـ / 1239م

الملك الصالح عماد الدين ، للمرة الثانية .

637 هـ / 1239م

الملك الصالح نجم الدين أيوب، للمرة الثانية .

643 هـ / 1245م

الملك المعظم توران شاه (بالإضافة إلى مصر) .

647 هـ / 1249 م

الملك الناصر الثاني صلاح الدين .

658-648 هـ / 1250-1260 م

3- سلاطين الأيوبيين في حلب

الملك العادل الأول سيف الدين .

579 هـ / 1183 م

الملك الظاهر غياث الدين .

582 هـ / 1186 م

الملك العزيز غياث الدين .

613 هـ / 1216 م

الملك الناصر الثاني صلاح الدين .

658-634 هـ / 1237-1260 م

3- سلاطين الأيوبيين في اليمن

الملك المعظم شمس الدين توران شاه .

569 هـ / 1174 م

الملك العزيز ظهير الدين تغتكين.

577 هـ / 1181 م

معز الدين إسماعيل.

593 هـ / 1197 م

الملك الناصر أيوب.

598 هـ / 1202 م

الملك المظفر سليمان.

611 هـ / 1214 م

الملك المسعود صلاح الدين.

612-626 هـ / 1215-1229 م

غلب على شمال أفريقيا والأندلس الاستقلال عن الدولة المركية في الشرق وقامت هناك أيضا خصوصية حضارية

وثقافية

المرينيون والوطاسيون: المغرب (592-956هـ / 1196-1549م)

ورث بنو مرين الموحدين في المغرب، وورثها الحفصيون في تونس. وينتمي بنومرين إلى قبائل الزناتي (زناتة)، وقد انتهت دولتهم على يد الإسبان والبرتغال الذين بدأوا يشكلون قوة عالمية مهيمنة، وحاول بنو وطاس وهم فرع من بني مرين محاربة البرتغاليين وإعادة ترميم الدولة المرينية المتداعية، ولكن قوة جديدة نامية "الأشراف السعديون" تمكنت من إقامة دولة في المغرب مازالت قائمة حتى اليوم.

الحفصيون: تونس (625-982هـ / 1228-1574م)

يرجع نسب أسرة بني حفص إلى الشيخ أبو حفص عمر أحد مردي ابن تومرت مؤسس الحركة الموحدية، وكان بنو حفص يحكمون باسم الموحدين حتى عام 634/1237 عندما استقل أبو زكريا يحيى الأول بالحكم، واتخذ لنفسه لقب الخليفة وأمير المؤمنين، وبقيت أسرة الحفصيين تحكم تونس حتى احتلال العثمانيين الأتراك لتونس عام 1574 م.

العهد المملوكي (648-922هـ / 1250-1517)

تعد دولة المماليك سابقة في استيلاء الجيش والعسكر على الحكم والسلطة وكان للعسكر الأتراك نفوذ قوي في الدولة العباسية وصل إلى تبديل الخلفاء وقتلهم ثم تكررت الظاهرة في الدولة العثمانية على يد الانكشاريين . ورثت دولة المماليك الدولة الأيوبية، والمماليك في الأصل هم جنود محترفون من الرقيق، كان الأيوبيون يشترطونهم من أواسط آسيا، ويميز المؤرخون بين سلالتين من المماليك، هما المماليك البحرية، وهم الذين كانوا يقيمون في ثكنات أعدت لهم في جزيرة الروضة في نهر النيل، والمماليك البرجية نسبة إلى القلعة التي كانوا يقيمون فيها، وكان المماليك البحرية يجلبون من بلاد القبجاق جنوب روسيا، مع خليط من المغول والأكراد، أما المماليك البرجية فكانوا من الشركس.

وقد كان نظام الحكم الوراثي هو السائد لدى المماليك البحرية، أما المماليك البرجية، فقد كان نظام الحكم السائد قائما على أساس اختيار السلطان وفقا لمبدأ الأقدمية. وكان لديهم نسق إداري هرمي معقد كان الرق فيه أساسا للترقية، فلم يكن للعناصر الحرة منهم بمن فيهم أبناء المماليك السابقين مكان في الجيش المملوكي. وقد أحيا المماليك الخلافة العباسية اسميا، وامتد حكمهم إلى ليبيا والسودان، وبعد أن قضى العثمانيون على دولة المماليك ظلت الطبقة العسكرية المملوكية تحكم مصر حكما فعليا، حتى قضى عليهم محمد علي عام 1811 م.

سلسلة سلاطين المماليك

I- سلاطين الممالك البحرية

شجرة الدر .

648هـ/1250م

عز الدين أيبك .

648هـ/1250م

المنصور نور الدين علي .

655هـ/1257م

المظفر سيف الدين قطز

657هـ/1259م

الظاهر ركن الدين ببيرس الأول البيرقداري .

658هـ/1260م

السعيد ناصر الدين بركة خان

676هـ/1277م

العادل بدر الدين سلامش

678هـ/1280م

الأشرف صلاح الدين خليل .

689هـ/1290م

الناصر ناصر الدين محمد ، للمرة الأولى .

693هـ/1294م

العادل زين الدين كنبغا .

694هـ/1259م

المنصور حسام الدين لاجين .

696هـ/1297م

الناصر ناصر الدين محمد، للمرة الثانية .

١٢٩٩م / ٦٩٨هـ

المظفر ركن الدين بيبرس الثاني الجاشنكير .

١٣٠٩م / ٧٠٨هـ

الناصر ناصر الدين محمد، للمرة الثالثة .

١٣٠٩م / ٧٠٩هـ

المنصور سيف الدين أبو بكر .

١٣٤٠م / ٧٤١هـ

الأشرف علاء الدين كوجوك .

١٣٤١م / ٧٤٢هـ

الناصر شهاب الدين أحمد .

١٣٤٢م / ٧٤٣هـ

الصالح عماد الدين إسماعيل .

١٣٤٢هـ / ١٣٤٢م

الكامل سيف الدين شعبان الأول.

١٣٤٥هـ / ١٣٤٥م

المظفر سيف الدين حاجي الأول

١٣٤٦هـ / ١٣٤٦م

الصالح صلاح الدين صالح.

١٣٥١هـ / ١٣٥١م

الناصر ناصر الدين حسن، للمرة الثانية.

١٣٥٤هـ / ١٣٥٤م

المنصور صلاح الدين محمد .

١٣٦١هـ / ١٣٦١م

الأشرف ناصر الدين شعبان الثاني.

١٣٦٣هـ / ١٣٦٣م

المنصور علاء الدين علي

778هـ/1376م

الظاهر سيف الدين برقوق (برجي).

783هـ/1382م

حاجي الثاني، للمرة الأولى.

791هـ/1389م

2- سلاطين الممالك البرجية

الظاهر سيف الدين برقوق، للمرة الأولى.

784هـ/1382م

حاجي الثاني ، للمرة الثانية (بحري).

791هـ/1389م

الظاهر سيف الدين برقوق، للمرة الثانية

792هـ/1390م

الناصر ناصر الدين فرج، للمرة الأولى.

١٣٩٩م / ٨٠١هـ

المنصور عز الدين عبد العزيز

١٤٠٥م / ٨٠٨هـ

الناصر ناصر الدين فرج ، للمرة الثانية

١٤٠٥م / ٨٠٨هـ

العاقل المسعول (الخليفة العباسي ، الذي نصب سلطانا

١٤١٢م / ٨١٥هـ

المؤيد سيف الدين شيخ .

١٤١٢م / ٨١٥هـ

المظفر أحمد .

١٤٢١م / ٨٢٤هـ

الظاهر سيف الدين ططار .

١٤٢١م / ٨٢٤هـ

الصالح ناصر الدين محمد .

٤٨٢٤هـ/٤٢١م

الأشرف سيف الدين برسباي.

٤٨٢٥هـ/٤٢٢م

العزیز جمال الدین یوسف.

٤٨٤١هـ/٤٣٧م

الظاهر سيف الدين جتمق.

٤٨٤٢هـ/٤٣٨م

المنصور فخر الدين عثمان .

٤٨٥٧هـ/٤٥٣م

الأشرف سيف الدين إيتال.

٤٨٥٧هـ/٤٥٣م

المؤید شهاب الدین أحمد

٤٨٦٥هـ/٤٦١م

الظاهر سيف الدين خوش قدم.

١٤٦١هـ / ١٨٦٥م

الظاهر سيف الدين بلباي .

١٤٦٧هـ / ١٨٧٢م

الظاهر تيموربوغا .

١٤٦٨هـ / ١٨٧٢م

الأشرف سيف الدين قايتباي .

١٤٦٨هـ / ١٨٧٢م

الناصر محمد .

١٤٩٦هـ / ١٩٠١م

الظاهر قانصوه .

١٤٩٨هـ / ١٩٠٣م

الأشرف جانبلات .

١٥٠٠هـ / ١٩٠٥م

العادل سيف الدين تومان باي .

1501م/906هـ

الأشرف قنصوه الغوري .

1501م/906هـ

الأشرف طومان باي

1516م/922هـ

العهد العثماني (680-1342هـ / 1281-1924م)

طبق في الدولة العثمانية نظام قاس وغريب في تنظيم انتقال السلطة إذ كان يقتل جميع إخوان السلطان أو يسجنون في أقفاص في القصر حتى يموتوا أو يخرج أحدهم من القفص ليصبح سلطانا إذا دعت الحاجة لذلك .

قامت الدولة العثمانية في آسيا الصغرى ثم توسعت باتجاه الغرب واحتلت أجزاء واسعة من أوروبا، وفي بداية القرن السادس عشر ضمت البلاد العربية إليها وأنهت دولة المماليك حتى انتهت بعد الحرب العالمية الأولى .

كانت الخلافة في الدولة العثمانية وراثية في خط الأبناء، وكان يطبق فيها حالة غريبة إذ كان يقتل جميع إخوان السلطان أو يسجنون في أقفاص في القصر حتى يموتوا أو يخرج أحدهم من القفص ليصبح سلطانا إذا دعت الحاجة لذلك . واستمرت الخلافة العثمانية إلى سنة 1924م وفيها ألغيت الخلافة وأقيم بدلا عنها النظام الجمهوري العلماني . وكان آخر السلاطين العثمانيين هو السلطان عبد المجيد الثاني .

سلسلة سلاطين العثمانيين

عثمان الأول بن إرطغرل.

680هـ/1281م

أورخان

724هـ/1324م

مراد الأول.

761هـ/1360م

بايزيد الأول.

791هـ/1389م

محمد الأول.

805هـ/1403م

سليمان الأول

806هـ/1403م

مراد الثاني، للمرة الأولى.

824هـ/1421م

محمد الثاني الفاتح، للمرة الأولى

١٤٤٤هـ/١٤٤٤م

مراد الثاني، للمرة الثانية.

١٤٤٦هـ/١٤٤٦م

محمد الثاني، للمرة الثانية.

١٤٥١هـ/١٤٥١م

بايزيد الثاني.

١٤٨٦هـ/١٤٨٦م

سليم الأول.

١٥١٢هـ/١٥١٢م

سليمان الثاني القانوني.

١٥٢٠هـ/١٥٢٠م

سليم الثاني.

١٥٦٦هـ / ١٩٧٤م

مراد الثالث .

١٥٧٤هـ / ١٩٨٢م

محمد الثالث .

١٥٩٥هـ / ١٩٠٣م

أحمد الأول .

١٦٠٣هـ / ١٩١٢م

مصطفى الأول، للمرة الأولى .

١٦١٧هـ / ١٩٢٦م

عثمان الثاني .

١٦١٨هـ / ١٩٢٧م

مصطفى الأول، للمرة الثانية .

١٦٢٢هـ / ١٩٣١م

مراد الرابع .

1032هـ/1623م

إبراهيم .

1049هـ/1640م

محمد الرابع .

1058هـ/1648م

سليمان الثالث .

1099هـ/1687م

أحمد الثاني .

1102هـ/1691م

مصطفى الثاني

1106هـ/1695م

أحمد الثالث .

1115هـ/1703م

محمود الأول .

1143هـ / 1730م

عثمان الثالث .

1168هـ / 1754م

مصطفى الثالث .

1171هـ / 1757م

سليم الثالث .

1203هـ / 1789م

مصطفى الرابع .

1222هـ / 1807م

محمود الثاني .

1223هـ / 1808م

عبد المجيد الأول .

1255هـ / 1839م

عبد العزيز .

1277هـ/1861م

عبد الحميد الثاني .

1293هـ/1876م

محمد الخامس رشاد .

1327هـ/1909م

محمد السادس وحيد الدين .

1336هـ/1918م

عبد المجيد الثاني

1341-1342هـ/1922-1924م

الغزو الخارجي للدولة الإسلامية

الغزو المغولي

قبل معركة عين جالوت، لم تتعرض دولة الإسلام لأوقات عصيبة وعواصف منذرة ورياح مرعبة مثلما تعرضت في القرن السابع الهجري، حين دمرت جيوش المغول بقيادة جنكيز خان حواضر الإسلام الكبرى في المشرق الإسلامي، وسفكت دماء المسلمين، وأتت على معالم الحضارة والمدنية، ولم تستطع قوة إسلامية أن توقف هذا الزحف الكاسح، وانهارت الجيوش الإسلامية وتوالت هزائمها، وتتابع سقوط الدول والمدن الإسلامية كأوراق الشجر في موسم الخريف. وأطمع ضعف المسلمين وخور عزائمهم المغول في أن يتطلعوا إلى مواصلة الزحف تجاه الغرب، وإسقاط الخلافة العباسية وتقويض دعائمها، ولم تكن الخلافة في وقت من الأوقات أضعف مما كانت عليه وقت الغزو المغولي، فخرج هولاء سنة 651 هجرية (1253 ميلادية) على رأس حملة جرارة، تضم 120 ألف جندي من خيرة جنود المغول، المدربين تدريباً عالياً على فنون القتال والنزال، والمزودين بأسلحة الحرب وأدوات الحصار، تسبقهم شهرتهم المرعبة في القتل وسفك الدماء، ومهارتهم الفائقة في الحرب، وشجاعتهم وقوة بأسهم في ميادين القتال (ماذا تعرف عن معركة عين جالوت، إسلام أونلاين).

وقعت معركة عين جالوت يوم 25 رمضان سنة 658، الموافق الثالث من سبتمبر/أيلول 1260 ميلادية، حيث استطاع فيها الجيش المسلم إنهاء الخطر المغولي الذي هدد العالم عشرات السنين. إذ تعرضت دولة الإسلام لأوقات عصيبة في القرن السابع الهجري حين دمرت جيوش التتار بقيادة جنكيز خان حواضر الإسلام الكبرى في المشرق الإسلامي، وسفكت دماء المسلمين وهدموا المساجد ومزقوا المصاحف وذبحوا الشيوخ وقتلوا الأطفال وعبثوا بالأعراض، حيث سقطت الدولة الخوارزمية بيد التتار ثم تبعها سقوط بغداد بعد حصار دام أياما فاستبيحت المدينة وقتل الخليفة المستعصم بالله فسقطت معه الخلافة العباسية، ثم تبع ذلك سقوط جميع مدن الشام وفلسطين وخضعت لهولاكو.

كان السلطان المملوكي سيف الدين قطز (محمود بن ممدود الخوارزمي) قد استلم حكم مصر بعد عدة صراعات دموية بين نهاية الأيوبيين وبداية المماليك، انتهت باتزاع الحكم من نور الدين وريث السلطان المعز عز الدين أيبك، إذ كان حينها الوريث الجديد لا يزال يلعب مع الصبية في حين كانت الأخطار محيطة بالدولة من كل اتجاه.

وكانت الدولة قد ضاقت بضعفها بعد سلسلة الخيانات والنزاعات وبعد حكم الصبي الذي دمر ولم يصلح، ومع كل خبر جديد عن وحشية التتار كانت الأحوال تزداد اضطرابا وقلقا، خاصة بعد وصول أخبار سقوط بغداد والدولة الخوارزمية وماحل بهما وبسلطتهما، وحاول الأيوبيون وعلى رأسهم الناصر حاكم دمشق الاتفاق مع هولاكو ضد قطز من أجل السيطرة على مصر والدخول تحت راية هولاكو وفشل في ذلك، وسُلمت الشام بذل وخوف للمغول، وهرب الناصر إلى ظل قطز، لكنه لم يدخل مصر بل عاد إلى سيناء، ثم إلى الكرك، ثم تم أسره واقتياده إلى التتار.

جمع قطز الأمراء واتفقوا على قتل رسل التتار، فقبض عليهم، وأمر بقتلهم وتعليقهم على أبواب القاهرة، وأُشيع الخبر بين الناس من أجل رفع روحهم المعنوية، وردّ على هولاكو بخطاب أقوى وأشدّ بلاغة

رسالة هولاءكو للسلطان قطز والرد عليها

بدأ قطز بتجهيز الجيش والتمهيد للأهالي بالحرب فقد لاقى كثيرا من الرفض والخوف من الحرب مع التار بعد ما وصل إلى مسامعهم، وهنا كان قد وصل مكتوب هولاءكو إلى قطز يهدده ويطلب منه الاستسلام وتسليم مصر، وقال فيه: "من ملك الملوك شرقا وغربا القان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك المظفر قطز، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته، بالديار المصرية وما حوطها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه. فلکم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعضوا بغيركم وأسلموا لنا أمرکم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتدموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأی أرض تأویکم، وأی طریق تنجیکم، وأی بلاد تحمیکم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتلنا لا تنفع... الخ فلا تظيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاها ولا عزا، ولا كافيا ولا حرزا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفنا إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم، والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى"، وختم تهديده بشعر:

ألا قل لمصرها هولاءكو قد أتى . . مجد سيوف تنتضى وبواتر

يصير أعز القوم منا أذلة . . ويلحق أطفالا لهم بالأكابر

جمع قطز الأمراء واتفقوا على قتل رسل التتار، فقبض عليهم، وأمر بقتلهم وتعليقهم على أبواب القاهرة، وأُشيع الخبر بين الناس من أجل رفع روحهم المعنوية، وردّ على هولاءكو بخطاب أقوى وأشد بلاغة يخبره فيه: "إننا لا نستسلم أبداً وسنخوض الحرب معكم، وإن عشنا فسعيدا، وإن متنا فشهيديا، ألا إن حزب الله هم الغالبون".

تم اللقاء على أرض المعركة صباح يوم 26 رمضان 658هـ، امتلأ الوادي بالجنود والناس الذين كانوا قد توافدوا متطوعين من أجل الشهادة من كل بلاد الشام

بداية المعركة

خرج السلطان المظفر قطز بجيشه يوم 25 رمضان 658هـ (الثالث من سبتمبر/أيلول 1260م)، وبصحبه الملك المنصور ملك حماة، وكان قد أمر الأمير ركن الدين بيبرس أن يقود عساكره ليكونوا في مقدمه الجيش إلى غزة كي يعرف أخبار العدو، بالإضافة لإيهاام العدو بالعدد القليل للجيش، ثم حدثت معركة في غزة وتم القضاء على التتار الموجودين بها ولحق به قطز مع القسم الأكبر من الجيش وأخذ بيبرس يناوش ويراوغ قوات التتار ليخفي وجود الجيش الكبير، ثم انضمت قوات الجيش الاستطلاعية إلى القوات الكبيرة في الشام في منطقة عين جالوت، وهي قرية صغيرة تقع بين بيسان و نابلس في فلسطين .

كان كتبغا نويان نائب هولاءكو موجودا في الشام، وجمع جيشه ليوواجه المسلمين، واستشار صاحب حمص بالدخول أو انتظار الإمداد من هولاءكو وجيشه، ولكنه قرر الدخول في الحرب وكان جيش المسلمين قد أكمل وتجمع عدد كبير من الشام والعراق وباقي الدولة الخوارزمية والترك وغيرهم الذين خرجوا من أجل الجهاد في سبيل الله .

وتم اللقاء على أرض المعركة صباح يوم 26 رمضان 658هـ، امتلاً الوادي بالجنود والناس الذين كانوا قد توافدوا متطوعين من أجل الشهادة من كل بلاد الشام.

ألقى السلطان بجذوته على الأرض تعبيراً عن اشتياقه للشهادة وعدم خوفه من الموت وأطلق صيحته الشهيرة التي تتردد حتى الآن (وإسلاماه وإسلاماه)

مشهد بطولة السلطان قطز في المعركة

حينما أحاطت قوات المسلمين بالتار إحاطة السوار بالمعصم في عين جالوت، وتم حصار قوات التار داخل السهل، أظهرت ميمنة التار قوة وتفوقاً وبدأت تضغط على الجناح الأيسر للقوات الإسلامية، وبدأت قوات المسلمين تتراجع تحت الضغط الرهيب للتار، وبدأ التار يخترقون الميسرة الإسلامية والشهداء يتساقطون في أرض الموقعة، ولو أكمل التار اختراقهم للميسرة لاستطاعوا الالتفاف حول الجيش الإسلامي وبذلك تعادل الكهتان.

وكان قطز يرى المعاناة التي تعيشها ميسرة المسلمين فدفع إليها بقوات احتياطية، ولكن الضغط التتري استمر وشهداء المسلمين يتساقطون، وبدأ بعضهم يشك بالنصر، لم لا؟ فالكل يعرف أن التار جيش لا يهزم، فلم يجد السلطان قطز في هذه اللحظة إلا حلاً واحداً لا بديل عنه، ألا وهو أن ينزل إلى المعركة بنفسه في هذا الوقت، إذ لا بد له أن يثبت أقدام جنوده بالطريقة التي اعتادها معهم، وهي طريقة القدوة، وبها يوضح لجنوده الجهاد في سبيل الله والموت من أجل رفع راية الإسلام "نحن نريد الآخرة وهم يريدون الدنيا، وشتان بين الفريقين".

ألقى السلطان بجذوته على الأرض تعبيراً عن اشتياقه للشهادة وعدم خوفه من الموت وأطلق صيحته الشهيرة التي تتردد حتى الآن "وإسلاماه وإسلاماه"، والتي قلبت موازين المعركة، حيث ألقى قطز بنفسه وسط الأمواج المتلاطمة من

البشر وفوجئ الجنود بوجود السلطان المظفر وسطهم يعاني ما يعانون ويشعر بما يشعرون ويقاثل كما يقاثلون، هنا التهب حماس الجنود وهانت عليهم جيوش التتار وحملوا عليهم وانطلقوا في جسارة نادرة يصدون الهجمة التتارية البشعة، واشتعل القتال في سهل عين جالوت وعلت الأصوات بالتكبير، ولجأ المسلمون إلى ربهم في هذا اليوم الذي لن ينسى في تاريخ البشر إلى قيام الساعة.

وقاثل قطز قتالا عجيبا، ثم صوب أحد التتار سهمه نحو قطز فأخطأه، ولكنه أصاب الفرس فمات، فترجل السلطان وظل يقاثل على الأرض، وقاثل ماشيا لا خيل له، وما تردد لحظة، وما نكص على عقبيه، وما حرص على حياته، ورآه أحد الأمراء وهو يقاثل ماشيا فجاء إليه مسرعا، وتنازل له عنه فرسه إلا أن قطز رفض ذلك، وقال: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك! وظل رحمه الله يقاثل ماشيا إلى أن أتوه بفرس من الخيول الاحتياطية، وقد لامه بعض الأمراء على ذلك، وقالوا له: لم تركب فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك. قال السلطان رحمه الله: "أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان، حتى عد خلقا من الملوك، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم، ولم يضيع الإسلام".

وكانت هذه المعركة من أبرز المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي هي الأولى التي خسر فيها التتار، وبهذه الخسارة الفادحة تم ضم وتوحيد العالم الإسلامي تحت حكم المماليك لأكثر من 270 عاما، فقد كان لمعركة عين جالوت أثر عظيم في تغيير موازين القوة بين القوى العظمى المتصارعة في منطقة الشام، فقد تسببت خسارة التتار في المعركة من تحجيم قوتهم، فلم يستطع القائد التتاري هولوكو الذي كان مستقرا في تبرزين من التفكير في إعادة احتلال الشام مرة أخرى، وكان أقصى ما فعله ردا على هزيمة قائده كنبغا هو إرسال حملة انتقامية أغارت على حلب.

وقف زحف التمدد المغولي في غرب العالم سواء في شمال أفريقيا والمغرب أو في أوروبا، وهذا ما أقرته بعض المصادر

الغربية

ماذا بعد الانتصار؟

عودة ديار الشام إلى السيادة الإسلامية وكسر أسطورة المغول في نفوس المسلمين، بعد أن يُست بعض القلوب من النصر على التار لاستيلائهم على معظم بلاد المسلمين، ولأنهم ما قصدوا إقليمًا إلا فتحوه ولا عسكرا إلا هزموه.

إقرار شرعية المماليك في الشام فامتد سلطانهم من نهر الفرات شرقا إلى برقة غربا، ومن حلب شمالا إلى تخوم بلاد النوبة جنوبا، وتحولت الشام إلى ولايات أو نيابات كبرى كلها خاضعة لسلطانهم.

انتهاء الدولة الأيوبية وخضوع من تبقى منهم للسيادة المملوكية مثل الملك المنصور في حماة وأبنائه من بعده حتى النصف الأول من القرن الثامن الهجري، والأشرف موسى الذي رجع عن تحالفه مع المغول وأقره المماليك على ولاية حمص.

وقف زحف التمدد المغولي في غرب العالم سواء في شمال أفريقيا والمغرب أو في أوروبا، وهذا ما أقرته بعض المصادر الغربية.

توطد العلاقات بين المماليك ومغول القفجاق المسلمين في شمال بحر قزوين، وتحالف الفريقين ضد عدوهم المشترك المتمثل في أسرة هولأكو بإيران والعراق.

أدت هزيمة المغول في عين جالوت إلى فشل سياسة الصليبيين في الشرق الأدنى القاضية بالتحالف مع المغول ضد المسلمين، وإلى تعجيل زوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام في ما بعد . (أيوب، عين جالوت معركة حطمت أسطورة المغول، مدونات الجزيرة، 2017).

الغزو الصليبي

الحملة الصليبية أو الحروب الصليبية بصفة عامة مصطلح يطلق حاليًا على مجموعة من الحملات والحروب التي قام بها الأوروبيون من أواخر القرن الحادي عشر حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر (1096 - 1291)، كانت بشكل رئيسي حروب فرسان، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى الذين اشتركوا فيه وكانت حملات دينية وتحت شعار الصليب من أجل الدفاع عنه وذلك لتحقيق هدفهم الرئيسي وهو السيطرة على الأراض المقدسة كبيت المقدس، ولذلك كانوا يخيطنون على ألبستهم على الصدر والكف علامة الصليب من قماش أحمر.

كان السبب الرئيس وراء سقوط البيزنطيين وهو الدمار الذي كانت تخلفه الحملات الأولى المارة من بيزنطة (مدينة القسطنطينية) عاصمة الإمبراطورية البيزنطية وتحول حملات لاحقة نحوها.

كانت الحروب الصليبية سلسلة من الصراعات العسكرية ذات طابع ديني والذي خاضته معظم دول أوروبا المسيحية ضد ما اعتبرته تهديدات خارجية وداخلية. فقد كانت الحروب الصليبية موجهة ضد عدد من المجموعات العرقية

والدينية التي اشتملت على المسلمين، والوثنيين السلاف، والمسيحيين الروس والأرثوذكسية اليونانية، والمغول، والأعداء السياسيين للباباوات. كان الصليبيون يأخذون الوعود ويمنحون التساهل. وتضع التقديرات عدد ضحايا الذين قتلوا في الحروب الصليبية بين مليون إلى حوالي 3 مليون شخص. هدف الحروب الصليبية في الأصل كان الإستيلاء على القدس والأراضي المقدسة التي كانت تحت سيطرة المسلمين، وكانت تلك القاعدة التي أطلقت في الأصل استجابة لدعوة من الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية الشرقية لمساعدتهم ضد توسع المسلمين والمتمثلين بالسلجوقية الأناضول.

كما يستخدم مصطلح الحروب الصليبية لوصف حروب معاصرة ولاحقة من خلال القيام بمجمات إلى القرن السادس عشر في الأقاليم والتي لم تقتصر على بلاد الشام وحسب بل استهدفت الوثنيين في شمال أوروبا، وما اعتبرهم المعتقد المسيحي بال«المراهقة»، والشعوب الخاضعة لحظر الطرد لمزيج من الاسباب الدينية، والاقتصادية، وأسباب سياسية. كما أدت التناحرات التي نشبت بين المسيحيين والمسلمين على حد سواء لنيل الصلاحيات إلى نشوء التحالفات بين الفصائل الدينية ضد خصومهم، مثل التحالف المسيحي مع سلطنة رومية أثناء الحملة الصليبية الخامسة.

كانت تأثير الحروب الصليبية بعيد المدى سياسياً، واقتصادياً، إضافة إلى التأثيرات الاجتماعية، والتي استمر بعضها في الأوقات المعاصرة. بسبب الصراعات الداخلية بين الممالك المسيحية والقوى السياسية، وبعض البعثات الصليبية قد تم تحويلها من الهدف الأصلي، مثل الحملة الصليبية الرابعة، والتي أسفرت عن اجتياح القسطنطينية المسيحية وتقسيم الإمبراطورية البيزنطية بين البندقية والصليبيين. وكانت الحملة الصليبية السادسة أول حملة صليبية دون مباركة البابا، وارساء سابقة ان الحكام السياسيين استهلوا حملة صليبية دون الرجوع إلى رأس الكنيسة الكاثوليكية.

يمتلك المؤرخون الحديثون آراءً متباينة على نطاق واسع حول الصليبيين. بالنسبة للبعض، كان سلوكهم غير متوافق مع الأهداف المعلنة والسلطة الأخلاقية الضمنية للبابوية، كما يتضح من حقيقة أن البابا حرم الصليبيين كسبيًا في بعض الأحيان. غالبًا ما نهب الصليبيون أثناء سفرهم، واحتفظ قادتهم بشكل عام بالسيطرة على الأراضي التي تم الاستيلاء عليها بدلاً من إعادتها إلى البيزنطيين. خلال الحملة الصليبية الشعبية، تم قتل العديد من اليهود في ما يسمى الآن بمذابح راينلاند. وتم احتلال القسطنطينية خلال الحملة الصليبية الرابعة. إلا أن الحروب الصليبية كان لها تأثير عميق على الحضارة الغربية: فقد حصلت دول المدن الإيطالية على تنازلات كبيرة في مقابل مساعدة الصليبيين والمستعمرات القائمة التي سمحت بالتجارة مع الأسواق الشرقية حتى في الفترة العثمانية، مما سمح لازدهار جنوى والبندقية. وعزز الصليبيين الهوية الجماعية للكنيسة اللاتينية تحت قيادة البابوية. وشكلوا منبعًا لروايات البطولة والفروسية والتقوى التي عززت الرومانسية والفلسفة والأدب في القرون الوسطى. كما كان من نتائج الحملات الصليبية الباقية هو أنها زادت من تباعد وانشقاق المسيحية الغربية عن نظيرتها الشرقية، بالرغم من أن هدف إرسال الكنيسة الكاثوليكية للحملة الأولى كان نظريًا بالأصل لتلبية الدعوة التي أطلقها إمبراطور بيزنطة ألكسيوس الأول كومنينوس للمساعدة في صد غزوات السلاجقة على بيزنطة.

التسمية

سمي الصليبيون بهذا الاسم لأنهم نقشوا على صدورهم علامة الصليب. وفي النصوص العربية المعاصرة لتلك الأحداث كابن الأثير الجزري في كتابه الكامل في التاريخ، وأبي الفداء في كتابه المختصر في أخبار البشر سمو بالفرنجية أو الإفرنج أو الروم وسميت الحملات الصليبية بحروب الفرنجة. أما في الغرب فقد سمي الصليبيون بتسميات متعددة كمؤمني القديس بطرس (fideles Sancti Petri) أو جنود المسيح (milites Christi)، ورأى من كان

مندفعًا بدافع الدين من الصليبيين أنفسهم على أنهم حجاج، واستخدم اسم «الحجاج المسلحين» لوصفهم في إشارة إلى أن الحجيج لا يحمل السلاح في العادة. وكان الصليبيون يندرون أو يقسمون أن يصلوا إلى القدس ويحصلوا على صليب من قماش يخاط إلى ملابسهم، وأصبح أخذ هذا الصليب إشارة إلى مجمل الرحلة التي يقوم بها كل صليبي.

ومن ضمن الأسباب كذلك أن طيلة فترة الحرب كانت الزوارق الشراعية والأسلحة والحواجر كلها تحمل علامة الصليب، الحملات الصليبية على الوطن العربي كانت تقول أنها تحلص المسيحية.

السياق التاريخي

الوضع في منطقة الشرق

بدأ الوجود الإسلامي في الأرض المقدسة الأولى مع الفتح الإسلامي لفلسطين في القرن السابع. ولم يلاحظ أي تدخل من هذا بكثير مع الحج إلى الأماكن المقدسة المسيحية أو من الأديرة والطوائف المسيحية في الأراضي المقدسة، وكانت دول أوروبا الغربية أقل اهتمامًا بفقدان القدس، في العقود والقرون التي تلت ذلك، عن طريق غزوات المسلمين وعدائية أخرى من غير المسيحيين، مثل الفايكنغ، والسلاف، ومع ذلك، فإن نجاحات جيوش المسلمين وضع ضغطًا متزايدة على الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية الشرقية.

من العوامل الأخرى التي ساهمت في هذا التغيير في المواقف الغربية ازاء الشرق حدثت في سنة 1009، عندما أمر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بدمير كنيسة القيامة هناك اضطهادات أخرى تعرض لها المسيحيون المشرقون في مصر، وبلاد الشام والعراق منذ عهد الخليفة العباسي التاسع المتوكل على الله الذي اضطهد عمومًا إلى جانب المسيحيين واليهود جميع من يخالفه في المذهب الشافعي. وفي عام 1039 سمح خلفه للإمبراطورية البيزنطية بإعادة بناء كنيسة القيامة. وسمح بالحج إلى الأراضي المقدسة قبل وبعد إعادة بناء كنيسة القيامة.

حالة دول أوروبا الغربية

أصل الحروب الصليبية تكمن في التطورات في أوروبا الغربية في وقت سابق من العصور الوسطى، فضلاً عن تدهور حالة الإمبراطورية البيزنطية في الشرق الناجمة عن موجة جديدة من الهجمات التركية المسلمة.

انهيار الإمبراطورية الكارولانجية في أواخر القرن التاسع، جنباً إلى جنب مع الاستقرار النسبي للحدود المحلية الأوروبية بعد تنصير الفايكنج، والسلاف، والمجر، قد أنتجت الكثير من الطبقة المسلحة وبرز الطاقات التي كانت في غير محلها قتال بعضهم بعضاً، وإرهاب السكان المحليين. حاولت الكنيسة كبح هذا العنف مع حركات السلام والهدنة مع الله، والتي كانت ناجحة إلى حد ما، لكن طبقة المحاربين كانوا يسعون دائماً لإيجاد منفذ لمهاراتهم، وأصبح فرض التوسع الإقليمي، أقل جاذبية بالنسبة لقطاعات كبيرة من النبلاء. وكان هناك استثناء واحد هو حروب الاسترداد في إسبانيا والبرتغال، فرسان إسبانيا والبرتغال وبعض المرتزقة من أماكن أخرى في أوروبا في مكافحة الوجود الإسلامي. أعطى البابا إسكندر الثاني بركته لمسيحيي إيبيريا في حروبهم ضد المسلمين.

جردت الحملات الصليبية أيضاً غير محاربة الإسلام والمسلمين إذ كان هدفها في البداية أيضاً محاربة البابا المخالف، فقد جاء الصليبيون من شمال فرنسا إلى جنوبها لكي يقاتلوا الهرطقة الألبيجنسيين. فمنذ نهاية القرن الحادي عشر بدأت بوادر المقاومة ضد الكنيسة البابوية في روما وسيطرتها على شؤون الحياة الأوروبية، وعند نهاية القرن الثاني عشر ذاعت الأفكار التي أخذ يواقيم الفلورى (Jochim Flora) يدعو لها، وقد لاقت أفكاره الدينية الذبوع بسرعة ملحوظة. وسار يواقيم على نهج سان برنار الذي زعم أن العالم قد دخل عصر المسيح الدجال الذي سبق قيام القيامة. وعلى حين أكنفى سان برنار بإدانة كبار الأساقفة على اعتبار أنهم أسرى الشيطان، فإن يواقيم جعل البابوية نفسها هي المسيح الدجال. وقلب بذلك حق وراثته بابا روما للمسيح رأساً على عقب. وحاز شعبية واسعة لدى

جميع الفرق المخالفة، وتبع عن أفكاره هذه أن ظهرت عصبة جمعت حولها عدداً ضخماً من الأتباع في جنوب فرنسا تدعى الكارتاريون (Czthari) أي الأطهار أو الألبيجنسيون نسبة إلى بلدة Albi في مقاطعة تولوز والتي كانت معقلاً لهم. وعند نهاية القرن الثاني عشر كان سكان المدن الأثرياء ونبلاء تولوز وبروفانس إما أعضاء في الكنيسة الألبيجانسية وإما من المتعاطفين مع قاداتها. وكانت البابوية في روما سنة 1200م ترى في السيطرة الألبيجانسية على جنوب فرنسا سرطان ينهش في جسد العالم المسيحي يجب استئصاله بأي ثمن، لأنها رأت فيها ديانة مختلفة. وتطورت الأحداث بالشكل الذي أدى إلى إعلان بابا روما قرار حرمان على ريموند السادس أمير تولوز، وإباحة أراضيه وأملاك الألبيجنسيين، فتحمس لذلك أمراء شمال فرنسا واندفعوا في حملة صليبية سنة 1209 قضت على الأمراء الأقطاعيين في جنوب فرنسا، واقتسموا إقطاعاتهم. كذلك يمكن أن نصور الغزو الجزئي الذي قام به الأنجلو - نورمان لأيرلندا على أنه نمط من أنماط الحروب الصليبية رغم أن ضحاياه كانوا من الكاثوليك.

جاءت بداية الحروب الصليبية في فترة كانت فيها أوروبا قد تنصرت بالكامل تقريباً بعد اعتناق الفايكينج والسلاف والجر للمسيحية. فكانت طبقة المحاربين الأوروبيين قد أصبحوا بلا عدو لقتاله، فأصبحوا ينشرون الرعب بين السكان، وتحولوا إلى السرقة وقطع الطرق والقتال في ما بينهم، فكان من الكنيسة أن حاولت التخفيف بمنع ذلك ضد جماعات معينة في فترات معينة من أجل السيطرة على حالة الفوضى القائمة. وفي ذات الوقت أفسح المجال للأوروبيين للاهتمام بموضوع الأرض المقدسة التي فتحها المسلمون منذ عدة قرون ولم يتسن للأوروبيين الالتفات لها لانشغالهم بالحروب ضد غير المسيحيين من الفايكينج والجرين الذين كانوا يشكلون المشكلة الأقرب جغرافياً سابقاً، وكذلك بدأت الكنيسة تلعب دوراً في الحرب الاستردادية في إسبانيا، حيث قام البابا إسكندر الثاني عام 1063 بمباركة المحاربين الذاهبين إلى الأندلس، الأمر الذي لعب دوراً كبيراً في تكوين فكرة الحرب المقدسة.

دوافعها

الدافع الأساسي

بعد انتصار السلاجقة على البيزنطيين استنجد البيزنطيون بمسيحيي بلاد الغال (فرنسا) على أساس أنهما من نفس الديانة (المسيحية) وكانت الدوافع الاقتصادية والاجتماعية عوامل أساسية للدفاع عن الروم البيزنطيين.

الدوافع الدينية

رسم يعود للقرن الخامس عشر يمثل البابا أوربان الثاني وهو يخاطب بالحشد المجتمع في كليرمونت كانت دعوة البابا للحروب الصليبية التي بدأها البابا أوربان الثاني في نوفمبر 1095 بعقده مجمعا لرجال الدين في مدينة كليرمونت فران الفرنسية، وكان الكثير من الحملات قد بررت بتطبيق «إرادة الرب» عن طريق الحج إلى الأرض المقدسة للتكفير عن الخطايا، وكانت الدعوات تروي عن اضطهاد الحكم الإسلامي للمسيحيين في الأرض المقدسة وتدعو إلى تحريرهم، خصوصا بعد تدمير وحرق كنيسة القيامة، وهي أقدس موقع مسيحي على الإطلاق في 18 أكتوبر عام 1009 بأمر من الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي. وتراجعت هذه الدوافع الدينية مع مرور الوقت لتصل إلى حد تدمير مدينة القسطنطينية المسيحية الشرقية في الحملة الصليبية الأولى والرابعة على أيدي الصليبيين أنفسهم.

الدوافع الاجتماعية

كان قانون الإرث المطبق في أوروبا ينص على أن يرث الابن الأكبر عقارات والده وعبيده بعد موته، وتوزع المنقولات بين أبنائه، وبسبب هذا القانون نشأت طبقة من النبلاء أو الأسياد الذين لم يكونوا يملكون إقطاعيات، فشاعت بينهم ألقاب

مثل «بلا أرض» و«المعدم» دلالة على عدم ملكيتهم لقطعة أرض، ورأى الكثير من هؤلاء فرصتهم في الحملات الصليبية للحصول على أراضٍ في الشرق، ورأى آخرون فيها فرصة لتوسيع أملاكهم بضم أملاك جديدة، كما كان الفقراء يجدون فيها فرصة لحياة جديدة أفضل ووسيلة تخرجهم من حياة العبودية التي كانوا يعيشونها في ظل نظام الإقطاع السائد في ذلك الوقت. ولا ننسى أيضًا رغبة المدن الساحلية الأوروبية تحقيق مكاسب تجارية نظيرًا لنقل الحاربين على سفنها ورغبة بعض فرسان أوروبا في التخلص من النظام الإقطاعي الفاسد عن طريق العيش في الشرق.

العلاقة مع الإسلام

كانت العلاقات الخارجية لأوروبا مع المد الإسلامي لا تبعث على الطمأنينة، فالمسلمون الذين كانوا قد قاتلوا البيزنطيين منذ القرن السابع الميلادي قد وصلوا إلى جبال البيرينية (البرانس) في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا بعد أن سيطروا على شمال أفريقيا، فكانت المناطق الأوروبية المتاخمة لحدود دولة الأندلس الإسلامية بشبه جزيرة إيبيريا وجزيرة صقلية تشعر بتهديد السيطرة الإسلامية عليها مما ساهم في تجنيد الأوروبيين بدافع الحماية والدفاع عن مناطقهم.

التوترات بين روما والقسطنطينية

رأت البابوية في السيطرة على الأرض المقدسة دعمًا كبيرًا لنفوذها، كما رأت أيضًا، في السيطرة على الكنيسة الشرقية بالقسطنطينية وسيلة لإعادة توحيد الكنيسة تحت ظلال البابوية، ولعبت العوامل الاقتصادية والتنافسية دورًا بدا واضحًا في الحملة الصليبية الرابعة. مما أدى إلى التضاؤل المستمر في دفاع الصليبيين عن الإمبراطورية البيزنطية.

الحملة المشرقية الرئيسية

يصعب الفصل بين الأحداث التي وقعت في فترة الحروب الصليبية. لكن المؤرخين يقسمون الحملات الصليبية المشرقية إلى الحملات التالية:

حملة الفقراء أو حملة الشعب

حملة قام بها الفقراء والأقنان وجمهور قليل من الفرسان، حيث كان الوعد الكنسي بالخلاص والفوز بالغنائم سبباً مقنعاً لمغادرة حياتهم البائسة والتوجه إلى تحرير القدس. وهذه الحملة قادها بطرس الناسك حتى وصولها إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية. وكانت الجموع تندفع دون توقف ودون انتظار أوامر القيادة، خلفت وراءها خراباً ونهباً في المجر والصرب واليونان وآسيا الصغرى، حتى سحقتهن قوات السلاجقة الأتراك في 21 أكتوبر عام 1096م. وكان عدد الصليبيين 25 ألف رجل.

الحملة الصليبية الأولى

تحركت في أغسطس عام 1096م من عدة مناطق من فرنسا وإيطاليا فمن إقليم اللورين قاد جودفري دي بوبون الرابع أتباعه وانضم إليها (أخوه الأكبر الكونت يوستاس من بولون واخوه الأصغر بلدوين من بولون أيضاً، كما انضم بودوان له بورغ ابن عم جودفري، والكونت بودوان من اينو والكونت رينو من تول) على إثر الدعوة التي أطلقت لها حملة الفقراء، مشت هذه الفصائل على طريق الراين-الدانوب التي سارت عليها قبلهم فصائل الفلاحين الفقراء. حتى وصلت القسطنطينية نهاية عام 1096م.

وفي عام 491هـ/ 1097م؛ تجمعت قوات الصليبيين في القسطنطينية، وبعد أن تم إعدادها عبرت البسفور إلى الشام، ودارت بينهم وبين السلاجقة معركة عام 1097م، عند «صوريوم»، ولكن هزم فيها السلاجقة، ثم استولى الصليبيون

على أنطاكية في شمالي الشام، وأسسوا بها أول إمارة لهم، ثم استولوا على الرها في إقليم الجزيرة الشمالي، وأسسوا إمارتهم الثانية واتجهوا إلى مدينة القدس وبها بيت المقدس. وأمام أربعين ألف مقاتل، لم يستطع جيش الفاطميين فك حصارهم للمدينة الذي استمر شهرًا كاملًا، ودخلوها في النهاية في 15 يوليو سنة 1099م، وأقاموا فيها مذبحًا قضا على سكانها جميعًا رجالًا ونساءً وأطفالًا وكهولًا، واستباحوا مدينة القدس أسبوعًا يقتلون ويدمرون حتى قتلوا في ساحة الأقصى فقط سبعين ألفًا من المسلمين. ويذكر أن ريموند القائد الصليبي احتل «مَعْرَةَ النعمان»، وقتل بها مائة ألف، وأشعل النار فيها، ثم أقاموا دولتهم الكبرى المعروفة باسم مملكة القدس. وفي هذه الحملة، ظلت بعض مدن الشام الهامة مثل حلب ودمشق في أيدي المسلمين. لقد تم الاستيلاء على القدس، وشعر الصليبيون أنهم حققوا واجبهم الديني باستعادة المدينة المقدسة. وقد قسم الصليبيون هذا الإقليم إلى أربع إمارات: إمارة الرها 492هـ/ 1098م، وتشمل أعالي نهري دجلة والفرات، وتقرب حدودها الجنوبية الغربية من حلب، وكانت عاصمتها الرها التي توجد في بعض الخرائط باسم إدريسّا. أما الثانية فهي إمارة أنطاكية، وتقع في الإقليم الشمالي جنوب غرب إمارة الرها. ثم تليها جنوبًا إمارة طرابلس وهي تقع في شريط ضيق على الساحل وهي أصغر هذه الإمارات. أما الرابعة فهي مملكة القدس، وتمتد حدودها الشرقية من قرب بيروت الحالية، ثم تتبع نهر الأردن حيث تتسع قليلًا، وتتجه جنوبًا إلى خليج العقبة، وكانت عاصمتها القدس نفسها. وكان لكل إمارة من هذه الإمارات أمير أو حاكم يحكمها، لقد استولوا على القدس، وها هو ذا نصرهم قد تم، وها هي ذي أوروبا كلها في فرح متزايد، ولكن الخلافات بينهم قد عادت كأشد ما تكون بعد أن تم لهم النصر.

وأُسفرت الحملة الأولى عن احتلال القدس عام 1099م وقيام مملكة القدس اللاتينية بالإضافة إلى عدّة مناطق حكم صليبية أخرى، كالرها (إديسا) وإمارة أنطاكية وطرابلس بالشام.

ولعبت الخلافتان بين حكام المسلمين المحليين دورًا كبيرًا في الهزيمة التي تعرضوا لها، كخلافتان بن الفاطميين بالقاهرة، والسلاجقة الأتراك بانيقية بالأناضول وقتها. وباءت المحاولات لطرد الصليبيين بالفشل.

الحملة الصليبية الثانية

بدأت الحملة الثانية عام 1147 وانتهت عام 1192. وكانت قد أعقبت فترة من الهدوء، دعا إليها برنارد دي كليرفو، وكان قائدها لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث هوهنشتاوفن وإمبراطور الجرمان (ألمانيا)، وهي أول حملة يشترك فيها الملوك، تعرضت فيها الجحافل الألمانية لضربة قوية تمثلت في الجوع والمرض بعد هزيمة لحقت بها أمام فصائل الخيالة التابعة لسلطان قونية السلجوقي جوار ضورليوم، كما منيت القوات الفرنسية بهزيمة خطيرة بجوار خونة. أنهك السلاجقة الصليبيين بغاراتهم المتواصلة. وفي 24 يونيو 1147 تلاقى لويس السابع وكونراد الثالث ووصية العرش ميليساندا مع أعيان القدس. ومضوا لحصار دمشق الحصينة، لأن فتحها كان يبشر بغنائم وفيرة. دام الحصار خمسة أيام (من 23 إلى 27 يوليو). لكنه فشل. وتخلي ملك القدس بودوان وبارون طبرية عن مطلبهما بعد تدهور موقعهم العسكري بسبب مناورة عسكرية أو لعله برشوة قدمها لهما الوزير الدمشقي معين الدين أنر.

معركة حطين

في 4 يوليو 1187 وقعت معركة حطين التاريخية والحورية. حيث انتصر فيها السلطان صلاح الدين الأيوبي سلطان مصر والشام. فحرر القدس في 2 أكتوبر 1187، الأمر الذي دفع بالبابا غريغوري الثامن إلى دعوة الحملة الصليبية الجديدة.

الحملة الصليبية الثالثة

دعا إليها البابا غريغوريوس الثامن، عام 1187 رداً على استرداد صلاح الدين للقدس وعودتها للمسلمين. وقاد الجيوش الصليبية ملك فرنسا فيليب الثاني أغسطس، وريتشارد "قلب الأسد" ملك إنجلترا، وملك الجرمان (ألمانيا) فريديريك برابروسا. لكن برابروسا غرق في 1190 في نهر اللامس. قشردت صفوف قواته. أما الفرنسيون والإنجليز، فلم ينتهوا من الاستعداد للحملة حتى 1190، وفي الطريق عمل ريتشارد الأول على توسيع نفوذه في صقلية مما وتر العلاقات مع الملك الفرنسي وأضعف التحالف بينهما.

قام الصليبيون بحصار عكا التي استسلمت في 12 يونيو 1191. وغادر فيليب عائداً إلى فرنسا، وجرت مذبحه بأمر ريتشارد وتحت قيادته في عكا. بعدها تمت محاولاته لاحتلال مدن أخرى. لكنها باءت كلها بالفشل، وفي عام 1192. عقد الصلح مع صلاح الدين، واحتفظ الصليبيون بشريط ساحلي يمتد من صور إلى يافا، وسمح صلاح الدين للحجاج والتجار بزيارة مدينة القدس والأماكن المقدسة.

الحملة الصليبية الرابعة

دعا إليها البابا اينوقنتيوس الثالث في 1202. وكانت خطة الصليبيين الأولية تلخص في دفع القوات إلى مصر، لضرب القوة الإسلامية الكبرى في المنطقة. ثم شن الحرب منها باتجاه القدس. لكن البندقيين الذين تولوا أمر توجيه وتوفير وسائل النقل والغذاء للحملة مقابل 85 ألف مارك ذهبي، أثروا في مسار الحملة ووجهوها إلى القسطنطينية عمداً. لأن الصليبيين لم يوفروا المبلغ المتفق عليه. وأسفرت الحملة عن تحريب وتدمير القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ومركز الثقافة الإغريقية العريقة، ولم تتخذ البابوية اجراءات فعلية تجاه هذا الحدث. وكانت تلك الحملة تمثل انحطاط الحملات الصليبية التي أصبحت فيما بعد مجاعة إلى تبرير مقنع، بعدما كانت أمراً إلهياً باسم الكنيسة.

حملة الأطفال الصليبية

حدثت في حدود عام 1212 وكانت هذه الحركة شبيهة بحملة الفقراء الأولى قبل 1096م، يختلف حولها المؤرخون لقلة ما كتب عنها .

يرى بعض المؤرخين أن هاتين الحملتين لم تكونا سوى جموع من الأقتان والفقراء الذين استاءوا من الفشل الذي لاقته الحملات السابقة بقيادة الأسياد، وأن تسميتهم بالحملة الطفولية أو حملة الأطفال جاءت كاستعارة صورية لهذه الجموع. ولم تكن ترتبط حقيقة بكون المشاركين فيها من الأطفال. لكنها تصوير لفظي أصبح فيما بعد وهماً تاريخياً. ويرى البعض من المؤرخين انها كانت حملتين اشترك فيها اعداد كبيرة من الأطفال، وإن لم تقتصر عليهم. مات العديد من المشاركين بسبب الجوع والظروف القاسية، وتفرقت الجموع وركب بعضهم السفن فوقعوا في أيدي القراصنة وبيعوا كعبيد في أسواق النخاسة. ولم يصل المشاركون في أي من الحملتين إلى الأرض المقدسة.

الحملة الصليبية الخامسة

سعى البابا اينوسنت الثالث إلى بدء حملة صليبية جديدة عام 1213. فبدأ بحملة وعظ دامت حتى انعقاد الجمع اللاتيني الرابع عام 1215 الذي اتخذ سلسلة من الإجراءات التي تتعلق بتنظيم الحملات الصليبية. تحركت قوات مجرية وجنوب ألمانية بقيادة اندارش الثاني وقوات نمساوية، ووصلت إلى عكا. وتوقفت هناك حتى انضمت إليها قوات ألمانية وهولندية. فتوجهوا إلى مدينة دمياط في شمال شرق الدلتا بمصر علي النيل. واستولوا عليها عام 1219. وتحت إلهام نائب البابا هونوريوس الثالث والقاصد الرسولي بيلاجيوس استكمل الهجوم نحو المنصورة. وفي ذلك الوقت بالذات بدأ فيضان النيل. وفتح المصريون السد علي النهر. وقطع المسلمون طريق التراجع على الصليبيين. وحاصرت قوات المسلمين الصليبيين بأعداد كبيرة. وغرق المئات بمياه الفيضان. ووقع الصلح في 30 اغسطس 1221 لمدة 8

سنوات، وكان على الصليبيين مغادرة دمياط، وفقدوا ذلك في أوائل سبتمبر من نفس العام ومنيت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل الذريع.

الحملة الصليبية السادسة

قادها الإمبراطور فريدريك الثاني هوهنشتاوفن الألماني الذي أراد أن يحقق مقاصده دون أن يسحب سيفه من غمده في صيف 1228، ولم تحظ هذه الحملة بمباركة البابوية بل حرم الإمبراطور من الكنيسة لتأخره في تنفيذ نذره بأخذ الصليب. تفاوض فيها فريدريك مع السلطان الكامل مما أسفر في فبراير 1229 عن صلح لمدة 10 سنوات تنازل بمقابله السلطان عن القدس باستثناء منطقة الحرم، وبيت لحم والناصرية وقسم من دائرة صيدا وطورون (تبنين حاليًا) وكانت الحملة الأولى التي لا تبارك انطلاقها البابوية.

الحملة الصليبية السابعة

أدت الهزيمة التي لحقت بفصائل الصليبيين عام 1244 وخسارتهم التامة للقدس إلى ترتيب الحملة الصليبية السابعة، فقادها الملك الفرنسي لويس التاسع وتوجه بها إلى مصر واستمرت الحملة بين عامي 1248 و1254، فسيطروا في البدء على دمياط ثم المنصورة، ولكن المسلمين بقيادة السلطان الصالح نجم الدين أيوب (وزوجته شجر الدر فيما بعد) نجحوا في تدمير قواتهم وفي حصر بقاياها في المنصورة حتى استسلموا، ووقع لويس في الأسر حتى تم فديه عام 1250 فعاد إلى عكا وبقي فيها 4 سنوات قبل العودة إلى فرنسا مجنبي حنين.

الحملة الصليبية الثامنة

انطلق في هذه الحملة لويس التاسع ملك فرنسا في عام 1270 بعد حوالي 3 سنوات من التأخير، وقد قام بها عدد قليل من البارونات والفرسان الفرنسيون، إذ أن فشل الحملات الجلي وانحطاط سمعتها صدهم عنها، حتى أن مؤرخ سيرة

حياة لويس التاسع الذي رافقه في حملته السابقة رفض الانضمام إليه هذه المرة، ويروي هذا المؤرخ أن نبأ الحملة الجديدة كان مفاجئاً للغاية بالنسبة له شخصياً وبالنسبة للأشخاص الآخرين المقربين من الملك، وانه اذهل البارونات، وكانت المعارضة تجمع عليها تقريباً واضطر الملك إلى شراء حماسة الأسياد بالمال، ونذر مع الملك النذر الصليبي أبناءه الثلاثة وبعض تابعي الملك الآخرين، واتفق على أن توجه الحملة نحو تونس .

بدأت المفاوضات مع المستنصر أمير تونس ولما نزل الصليبيون في تونس وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود، وعندها انضم شارل الأول كونت انجو، الأخ الأصغر للويس وملك مملكة نابولي . واستولوا على قلعة قرطاجا القديمة، ولكن وباء دب في صفوف الفرسان، وتوفي على إثره الملك وأفراد العائلة المالكة المرافقة باستثناء فيليب الابن البكر للملك الذي شفي، وفي نفس يوم وفاة الملك وهو 25 أغسطس 1270 وصل أخاه شارل الأول، وخاضت قواته برفقة قوات لويس بقيادة خلفه فيليب بضع معارك ناجحة ضد قوات أمير تونس، وفي أول نوفمبر 1270 وقعت معاهدة صلح مع المستنصر الزمته بدفع جزية مضاعفة إلى ملك الصقليتين، كما شملت حقوقاً تجارية متبادلة، وبعد 17 يوماً من التوقيع، ركب الصليبيون السفن وغادروا .

الحملة الصليبية التاسعة

وقد حدثت حملات صليبية أخرى غير رئيسية منها:

الحملة على المراهقة الألبيجيين في جنوب فرنسا بين عام 1209 و1229،

الحملة الصليبية على الإسكندرية بين عامي 1365 و1369 بقيادة الملك بطرس الأول ملك قبرص،

حملة نيقيا عام 1396،

وفي القرن الرابع عشر الميلادي حدثت أكثر من 50 حملة ضد البروسيين الهادينيشيين ومدينة ليتاور نظمها الحاكمون في مناطق ألمانيا، وفي القرن الخامس عشر الميلادي حدثت 4 حملات صليبية ضد الهوسيين التشيكيين.

وبين 1443 إلى 1444 حدثت آخر حملة صليبية بتمويل من بابا روما هي «حملة قارنا الصليبية» ضد الامبراطورية العثمانية، وتم فيها سحق التحالف الصليبي الأوروبي وقتل الملك قلاديسلاف الثالث والمبعوث البابوي المحرض على الحملة.

الحملة الصليبية الشمالية

نطاق سيطرة الفرسان التوتون بعد الحملات الصليبية في أوروبا عام 1300

قام باباوات كاثوليك من أمثال سلسين الثالث وإينوسنت الثالث وهونوريوس الثالث وغريغوري التاسع بإطلاق دعوات لشن حملات عسكرية جديدة خلال القرن الثاني عشر بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى. كان الهدف من هذه الحملات الصليبية نشر الدين المسيحي في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من أوروبا. وتُعرف هذه الحملات باسم الحملات الصليبية الشمالية أو الحملات البلطيقية. سعى الساكسون والدنماركيون والبولنديون في الحملة الوندية عام 1147 إلى نشر الدين باستخدام القوة العسكرية بين القبائل الوندية من السلاف البولابيين الذين عاشوا في مكلنبورغ ولوساتيا. أطلق البابا سلسين الثالث دعوة لحملة صليبية جديدة عام 1193، استجاب لهذه الدعوة الأسقف بيرتهولد من هانوفر عام 1198 فقاد جيشاً كبيراً ألحق به الهزيمة وقُتل على أثرها. أصدر إينوسنت الثالث رداً على هذا مرسوماً بابوياً معلناً حملة صليبية جديدة استطاع فيها أسقف برمين هارتفيغ من أولتيد مع أخوة السيف الليفونيين إخضاع كامل أراضي شمال شرقي منطقة البلطيق تحت سيطرة الكاثوليك. وهب ملك بولندا كوزاد الأول من

ماسوفيا مدينة خيمنو إلى الفرسان التوتون عام 1226، لاتخاذها قاعدة لشن حملة صليبية على الأمراء البولنديين المحليين. مُني أخوة السيف الليفونيين بالهزيمة على يد الليتوانيين ولهذا قام البابا غريغوري التاسع بضم بقايا التنظيم إلى الفرسان التوتون عام 1237 ليصبح تحت اسم التنظيم الليفوني. أكمل الفرسان التوتون غزواتهم على البروسيين بحلول منتصف القرن الثالث عشر قبل غزوهم وتحويلهم أراضي الليتوانيين إلى المسيحية خلال العقود اللاحقة. كما اصطدم تنظيم الفرسان عسكرياً مع الكنيسة الأرثوذكسية شرقية في جمهوريتي نوفغورود وبسكوف. انتصر جيش نوفغورود الأرثوذكسي على السويديين الكاثوليك في معركة النيفا عام 1240، كما انتصر النوفغوروديون على التنظيم الليفوني في معركة الثلج عام 1242.

الحملة الكثارية

الحملة الصليبية على الكثار

منمنمة ثنائية يظهر فيها البابا إينوسنت الثالث على اليسار وهو يحرم الكثار ويتردهم كنسياً، ويظهر على اليمين ذبح الصليبيين لأبناء من طائفة الكثارين (مخطوطة موجودة في المكتبة البريطانية تعود للقرن الرابع عشر)

حملة كاثار الصليبية (1209-1229) هي حملة عسكرية دامت 20 عاماً أطلقتها البابا إينوسنت الثالث للقضاء على أتباع الطائفة الكثارية التي انتشرت بين الكثير من سكان جنوب فرنسا، والتي عدتهم الكنيسة الكاثوليكية هراطقة وزنادقة. تعرض الكثار لقمع وحشي حيث يُقدر أن ما بين 200,000 إلى مليون شخص قتلوا في هذه الحملة الصليبية. وضع التاج الفرنسي يده رسمياً على مقاطعة تولوز المتمتع بالحكم الذاتي. وانخضت وارثة المقاطعة الوحيدة الكونتيسة جوان إلى الشقيق الأصغر للملك لويس التاسع أوفونس كونت بواتيه. لم ينجب الزوجان أي أطفال

مما أدى إلى سقوط المقاطعة في أيدي الفرنسيين مباشرةً بعد وفاة جوان، وهو ما كان أحد دوافع الصليبيين من هذه الحملة.

الحملة البوسنية

الحملة الصليبية البوسنية (1235-1241) هي حملة عسكرية تم شنتها على الكنيسة البوسنية التي كانت متمتعة بالاستقلال إذ اتهمت بتبعيةها للطائفة الكاثارية (البوغوميلية) ما جعلها تُعدّ من الهراطقة. ولكن من المحتمل أن الدافع وراء هذه الحملة أيضاً كان يكمن في الطموحات الجرية للسيطرة على مزيد من الأراضي. أُرسِلت بعثة لإدخال البوسنة في كنف روما عام 1216، إلا أنها باءت الفشل. شجّع البابا هونوريوس الثالث المجر على شنّ حملة صليبية على البوسنة عام 1225. أخفقت هذه الحملة بعد هزيمة المجر على يد الغزاة المغول في معركة موهي إبان اجتياحهم لأوروبا. شجّع البابا غريغوري التاسع شنّ مزيد من الهجمات بدءاً من عام 1234، استطاع فيها البوشناق صدّ المجرين عن بلادهم من جديد.

تأثيرات الحملات الصليبية

كان للحملات الصليبية تأثيراً كبيراً على أوروبا في العصور الوسطى، في وقت كان السواد الأعظم من القارة موحداً تحت راية البابوية القوية، ولكن مجلول القرن الرابع عشر الميلادي، تقنّت المبدأ القديم للمسيحية، وبدأ تطور البيروقراطيات المركزية التي شكّلت فيما بعد شكل الدولة القومية الحديثة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها. كان تأثر الأوروبيين بالحضارة العربية والإسلامية كبيراً في فترة الحروب الصليبية، ولكن يرى العديد من المؤرخين أن التأثير الأعظم وانتقال المعارف الطبية والمعمارية والعلمية الأخرى كان قد حدث في مناطق التبادل الثقافي والتجاري

التي كانت في حالة سلام مع الولايات الإسلامية، مثل الدولة النورمانية في جنوب إيطاليا ومناطق التداخل العربي-الإسلامي مع أوروبا في الأندلس ومدن الازدهار التجاري في حوض المتوسط كالبنديقية وجنوه والإسكندرية، ولكن ما من شك بتأثر الأوروبيين بالعرب خلال الحملات الصليبية أيضاً، فكان تطور بناء القلاع الأوروبية لتصبح أبنية حجرية ضخمة كما هي القلاع في الشرق بدلا من الأبنية الخشبية البسيطة التي كانت في السابق، كما ساهمت الحملات الصليبية في إنشاء المدن-الدول في إيطاليا التي استفادت منذ البدء من العلاقات التجارية والمبادلات الثقافية مع الممالك الصليبية والمدن الإسلامية.

الحروب الصليبية في الذاكرة الإنسانية

يرى المسلمون في الحروب الصليبية أنها كانت حروباً استعمارية، وتتلخص بأنها دموية، إقصائية بالإضافة لكونهم يرونها حروباً استغلالية انتهازية سعى قادتها من الفرنجية إلى تطويع إيمان البسطاء للسيطرة على ثروات ومقدرات الشرق ويرى المسلمون في شخصيات صلاح الدين والظاهر بيبرس أبطالاً محررين، وكذلك يرى الأوروبيون الشخصيات المشاركة في الحروب الصليبية أبطالاً مغامرين محاطين بهالة من القداسة، فيعتبر لويس التاسع قديساً ويمثل صورة المؤمن الخالص في فرنسا، ويعتبر ريتشارد قلب الأسد ملك صليبي نموذجي، وكذلك فريدريك بربروسا في الثقافة الألمانية. كما ينظر إلى مسمى حملة صليبية في عديد من الثقافات الغربية نظرة إيجابية على أنه حملة لأجل الخير أو لهدف سامي ويعمم المصطلح أحياناً ليتخطى الإطار الديني، فقد ترد عبارات ك«بدأ فلان حملة صليبية لإطعام الجياع»، كما

استخدم المصطلح من قبل الرئيس الأمريكي جورج بوش لوصف ما أسماه الحرب على الإرهاب في II سبتمبر 2001

في عبارة مثيرة للجدل «هذه الحملة الصليبية، هذه الحرب على الإرهاب سيستلزمها وقت.»

أما في الشرق فيستغل المصطلح اليوم لوصم جماعات أو تحركات بأنها ذات دوافع عقائدية وأهداف استغلالية، أو للحصول على شرعية دينية لمواجهتها؛ وذلك بربطها بالذكرى المشتركة القائمة لدى الشرق لحروب الفرنجة، فقد استخدم المصطلح من قبل معمر القذافي لوصف تدخل حلف الناتو في ليبيا بعد اندلاع ثورة 17 فبراير على نظام القذافي عام 2011 متهماً الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي بشن ما سماه القذافي «حرب صليبية جديدة» في أفريقيا وقائلاً «نحن بوابة أفريقيا ترس أفريقيا درع أفريقيا . أفريقيا كلها وراءنا ومعنا وتدافع عن الأمة الإسلامية وتدافع عن الإسلام أمام حملة صليبية أعلنها رئيس فرنسا بنفسه».

السلطة والسياسة

أسباب السقوط الدولة والسلطة

ضعف الوازع الديني والابتعاد عن تطبيق الشريعة الإسلامية

ومن أسباب سقوط الدولة والسلطة في الإسلام أيضا

تأثرت الدول الإسلامية على مرّ العصور بعدة عوامل أدّت إلى التفكك شيئاً فشيئاً، إلى أن انفردت الدول الإسلامية بحكمها

الذاتي، مما أدّى لزوال وحدة المسلمين التي هي نقطة قوتهم، ومن هذه العوامل ما يلي:

. I . اتجاه عدد من الولاة والحكام والأمراء لحياة البذخ والترف وتجاهل أحوال المسلمين.

- 2 . اتساع رقعة الدولة الإسلامية، فبضعف الحكام والأمراء صُعِبَت السيطرة على جميع المناطق الإسلامية وحمياتها من الأعداء والفتن .
- 3 . النزاع السياسي الذي خَلَفَ الأقسامات بين المسلمين في تعيين الخلفاء والأمراء، مما زاد الشحنة والبغضاء، وِبِثَّ الفتن فيما بينهم .
- 4 . موالة الأعداء وإحسان الظن بهم واتخاذهم حلفاء لهم .
- 5 . غياب دور الدعاة والمُصلحين .
- 6 . عوامل اقتصادية واجتماعية .

خاتمة

لقد كان الأساس التي قامت عليها دولة النبوية هو: (الحكم بما أنزل الله) والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بصفته ولي أمر المسلمين وإدارة شؤونهم وحياتهم أوجد خير مثال لدولة مثالية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى دولة تقوم على العدل والإحسان والأخوة وفوق كل ذلك وأساس كل ذلك تقوم على الدعوة الى الله والى الخير والمحبة والخلص للناس أجمعين .

لقد كان الرسول الكريم الأسوة الحسنة للمسلمين لذلك فكانوا يكلون بنياننا واحدا أو جسدا واحدا لياهابون ولا يخشون أحدا

لأنه وبعد وفاته صلى الله عليه والسلام بدأ يتراجع هذا الوازع الديني عند الحكام ومن الطبيعي أن يتراجع بعدها عند المحكومين

ولقد حذر الرسول الكريم أمته من أن تقع في الفتن والمهلك وتركض وراء منافع الدنيا الرائلة لكن لقد كان للعقلية الجاهلية دورها الكبير في إعادة فلسفتها من جديد بعد أن قضت عليها ثورة الرسول الكريم المعرفية والروحية .

رأينا كيف بدأ الصراع على السلطة منذ اللحظة التي انتقل فيها الرسول الكريم الى ربه الأعلى وحتى زمن دخول هولاء الى بغداد عاصمة الإسلام والمسلمين وتدميرها وقتل الخليفة العباسي كما كان يسمى نفسه .

تاريخ حافل بمشاهد وصور الجاهلية من حب المال والأنانية والعصبية القبلية وحب السلطة والتسلط وكانت نتائج ذلك وخيمة على الإسلام والمسلمين .

ثلاثة من الخلفاء الراشدين قتلوا غيلة وغدرا

أربعة من ملوك بني أمية قتلوا على يد أخوتهم

عشرة من أمراء العباسيين قتلوا على يد أخوانهم أو ذوي القربى

الكثيرون منهم أتهموا بالمجون والفساد وعمل الموبقات واللهو والعبث وهم قد سموا أنفسهم بمسميات إسلامية والقاب دينية .

وأذا انتقلنا الى خلفاء بني عثمان فسنرى عجب العجاب من قتل وتصفية للأمرء والسلطين وهم أخوة لهم .

من كل ذلك يتبين لنا أن هناك خلل عظيم في مفهوم الحكم والسلطة في العقل العربي والإسلامي لازلنا نرى نتائجه حتى يومنا هذا .

تم بعونه تعالى